السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استروا سيئات المسىء ؛ لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يمحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأتَ تاريخ الناس ، أصحاب الأنفس القوية فى الأخلاق والقيم ؛ قد تجد لهم من الضعف هنات وسَقَطات ؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كى تُذهب عنهم السيئات ؛ لأن بالَ الواحد منهم مشغولٌ بضعفه الذى يُلهبه ؛ فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفتْ امرأة العزيز بما فعلت ؛ قالت :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف]

أى : أنها أقرَّتْ بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفِذ كيد الخائنين ، ولا يُوصِّله إلى غايته .

وتواصل امرأة العزيز فتقول :

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥٣) ﴾

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز ؛ وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهى لم تحضر لتبرىء نفسها :

﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣) ﴾ [يوسف]

ومجىء قول الحق سبحانه المؤكِّد أن النفس على إطلاقها أمَّارة بالسوء ؛ يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء[1] : إن هذا القول من كلام يوسف ، كردٍّ عليها حين قالت :

﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾ [يوسف]

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي.. (٥٣)﴾ [يوسف]

ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف كلَوْنٍ من الحرص على ألاَّ يلمسه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذى صرف كيدهُنَّ عنه .

وهذا لَوْن من رحمة الله به ؛ فهو كبشر مُجرّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية ؛ لكن الحق سبحانه عصمه من الزَّلَل .

ومن لُطْف الله أن قال عن النفس : إنها أمَّارة بالسوء ؛ وفى هذا توضيح كاف لطبيعة عمل النفس ؛ فهى ليستْ آمرةً بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهى الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهى دائماً أمَّارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكليفات الإلهية كلها إمَّا أوامر أو نَوَاهٍ ،

(١) قاله ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم . والقول الأشهر والأليق بسياق القصة ومعانى الكلام أنه من قول امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام كله من كلامها بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك . [انظر : تفسير ابن كثير ٢/٤٨١ بتصرف] .

وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن النواهى تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها فى ظاهرها ممتعة ، وتلبى نداء غرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ :

« حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات »[١] .

أى : أن المعاصى قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية ؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التى تُوصِّله إليها تلك اللذة ؛ لأن شيئاً قد تستلِذُّ به لحظة قد تَشْقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذى يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبى ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[٢] .

إذن : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه ؛ ولا يضع فى باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يُكفِّر عنها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ويخطىء الإنسان فى حساب عمره ؛ لأن أحداً لا يعلم ميعاد أجله؛ أو الوقت الذى يفصل بينه وبين حساب المولَى ـ عَزَّ وجَلَّ ـ له على المعاصى .

وكل مِنَّا مُطَالب بأن يضع فى حُسْبانه حديث الرسول ﷺ :

« الموت القيامة ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته »(١) .

ولنا أسوة طيبة فى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وهو الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، الذى كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتلَّ لحيته ، فسُئِل عن ذلك ؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفتَ على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن القبر أول منازل الآخرة ، فإنْ نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم يَنْجُ منه ، فما بعده أشد »(٢) .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن هناك ما يشفى من الداء ، وهناك ما يُحصِّن الإنسان ، ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه يغفر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع فى زلة أخرى .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غِنًى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم » الحديث .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٦٣) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٦٧) ، والترمذى فى سننه (٢٣٠٨) وقال : « حديث حسن غريب » من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

فساعةَ تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذى تعانى منه نفسياً ويُقوِّى قدرتك على مقاومة الداء ؛ ويُفجِّر طاقات الشفاء الكامنة فى أعماقك.

وهو رحمة لك حين تتخذه منهجاً ، وتُطبِّقه فى حياتك ؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض ، فهو طِبٌّ علاجىٌّ وطِبٌّ وقائىٌّ فى آنٍ واحد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ[1] أَمِينٌ (٥٤) ﴾

ونلحظ أن الملك قد قال : ﴿ ائْتُونِي بِهِ (٥٤) ﴾ [يوسف]

مرتين[2] ، مرة : بعد أن سمع تأويل الرؤيا ؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ؛ أو : أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهنّ امرأة العزيز .

ورأى الملك فى يوسف أخلاقاً رفيعة ؛ وسِعَةَ عِلْم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويُفكر فى صفات هذا الرجل ؛

---

(١) مكُنَ مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت مستقر . قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف] أى : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [القاموس القويم ٢/٢٣٢] .

(٢) المرة الأولى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف] والمرة الثانية فى قوله تعالى هنا : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف].

والراحة النفسية التى ملأتْ نفس الملك ؛ وكيف دخل هذا الرجل قلبه .

والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله مستشاراً له .

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله :

﴿ ائتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد أن استشفَّ خفَّة يوسف على نفسه ؛ وتيقَّن الملك من بعد الحوار مع يوسف أنه رجَل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز ؛ غريزة الجنس .

وتيقن من أن يوسف تقبّل السجن ، وعاش فيه لفترة طالتْ ؛ وهو صاحب علْم ، وقد ثبت ذلك بتأويل الرُّؤيا ؛ وقد فعل ذلك وهو سجين، ولَم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات البراءة .

ولكلٍّ ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ، الذى أعلن الأمر بقوله :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف]

وذلك ليسُدَّ باب الوشَاية به ، أو التآمر عليه . ومكانة « المكين » هى المكانة التى لا ينالَ منها أىُّ أحد .

ولذلك نجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما تكلَّم عن الوحى من جبريل عليه السلام قال :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التكوير]

فالمعنى : أن يوسف عليه السلام أَهْلٌ للثقة عند الحاكم ؛ وهو الذى سينُفذ الأمور ، وله صلَة بالمحكومين ، وإذا كان هو المُمكَّن من عند الحاكم ؛ فهو أيضاً أمين مع المحكومين .

والمشكلة فى مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرجِّح الحاكمُ مَنْ يراهم أهلَ الثقة على أهل الخبرة والأمانة ، فتختل موازين العدل .

وعلى الحاكم الذكىّ أن يختار الذين يتمتعون بالأمرين معاً : أمانة على المحكوم ؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا تعتدل الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف عليه السلام هذا الكلام من الحاكم :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف]

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرُؤْياه ، التى سبق أن أوَّلها يوسف :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[1] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف]

وهذه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحُسْن تدبير وحزم وعِلْم .

لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتى وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات :

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ[2] ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

---

(١) دأب فى عمله دأبا ودأبا : جَدّ فيه ولازمه من غير فتور . أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب. [القاموس القويم ١/٢١٩] بتصرف .

(٢) الخزائن : جمع خزانة ، وهى المكان الذى تحفظ فيه الأشياء النافعة . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٨٢) : « هى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد » .

وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم فى هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتى فى سنين الخصب ؛ لتضمن الاطمئنان فى سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .

وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلَّى بهما يوسف عليه السلام.

وقد يقول قائل : أليس فى قول يوسف شبهة طلب الولاية ؟ والقاعدة[1] تقول : إن طالب الولاية لا يولَّى .

فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته ، حيث أنه كان آمراً فيستجاب ، ولم يكن مأموراً للإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق .

وقد تأتى ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس ، فمَنْ يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه .

ومثال ذلك : لنفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة ؛ ثم هاجتْ الرياح وهبَّتْ العاصفة ؛ وتعقَّدت الأمور ؛ وارتبك القبطان ، وجاءه مَنْ يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويُحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك .

هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة ؛ وبعد أن ينتهى الموقف الصعب ؛ على القبطان أن يُوجِّه الشكر لهذا الخبير ؛ ويعود لقيادة سفينته .

إذن : فمن حقِّ الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعيَّن عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير ذى خبرة يُفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وَجْه الصلاح فيه . وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .

---

(١) دليل هذه القاعدة ما أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٣٣) عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سأله . ولا أحداً حرص عليه » .

وفى مثل هذه الحالة نجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين :

الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه ؛ لثقته فى إنجاح المهمة.

والشجاعة الثانية : أنه حجب من ليس له خبرة أن يتولى منصباً لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً .

وبذلك يُظهر وَجْه الحق ؛ ويُزيل سيطرة الباطل .

ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف]

والخزائن يوجد فيها ما يُمكّن المسيطر عليها من قيادة الاقتصاد.

وقالوا : إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجَدْب ، وتلك مسألة تتطلب حكمة وحفْظاً وعلْماً .

وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغب فى المَيْرة الأثمان من ذهب وفضة ، ومَنْ لا يملك ذهباً وفضة كان يُحضر الجواهر من الأحجار الكريمة ؛ أو يأتى بالدواب ليأخذ مقابلها طعاماً .

ومَنْ لا يملك كان يُحضر بعضاً من أبنائه للاسترقاق ، أى : يقول رَبُّ الأسرة الفقير : خُذْ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية أفراد الأسرة .

وكان يوسف عليه السلام يُحسن إدارة الأمر فى سنوات الجَدْب ليشُد كل إنسان الحزام على البطن ، فلا يأكل الواحد فى سبعة أمعاء بل يأكل فى معًى واحد ، كما يقول رسولنا ﷺ فى الحديث الشريف : « المؤمن يأكلَ فى معًى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأشربة ، من حديث جابر وابن عمر رضى الله عنهما .

وكـان التـمـوين فى سنوات الـجَدْب يـقـتـضى دقَّـة التـخطيط ، ولا يحتمل أىَّ إسراف .

وما دام لكل شىء ثمن يجـب أن يُدفع ، فكل إنسان سيـأخذ على قَدْر ما معه ، وبعد أن انتهت سنوات الجَدْب ، وجاءت سنوات الرخاء ؛ أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه .

وحين سُئِل : ولماذا أخـذتَ منهم ما دُمْتَ قـد قررت أن تردَّ لهم ما أخذته ؟

أجـاب : كى يأخـذ كل إنسـان فى أقلِّ الـحـدود التى تكفـيـه فى سنوات الجدب .

ومثل هذا يـحدث عندنا حين نجـد البعض ، وهو يشـترى الخـبز المُدعّم لِيُطعِم به الماشيـة ، وحين يرتفع ثمن الخـبز نجـد كل إنسان يشـترى فى حـدود ما مـعه من نقـود ، ويحـرص على ألاَّ يُلقِى ممـا اشترى شيئاً .

وكانت قـدرة الدولة أيام الجفـاف محـدودة ؛ لذلك وجب على كل فرد أن يعمل لنفسه .

ونحن نرى ذلك الأمر ، وهو يتكرر فى حياتنا ؛ فحين لا يجد أحد ثمن اللحم فقد لا تهفو نفـسه إلى اللحم ، وقد يعلن فى كبرياء : « إن معدتى لم تَعُدْ تتحمل اللحم ».

وقد يعلن الفـقير حُبَّه للسمك الصـغير ؛ لأن لحـمه طيّب ، عكس السمك الكبـير الذى يكون لحـمه « متفِّـلاً » ، أو يعلن إعجـابه بالفجل الطازج ، لأنه لذيذ الطعم .

وقديماً فى بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل ، ونحن نعيش بعيداً عن بيوت الأهل فى سنوات الدراسـة ، ولا نجد إلا قرصاً واحداً من « الطعمية » ، كنا نقسم هذا القرص ليكفى آخر لقمة فى الرغيف ،

أما إذا دخلنا ووجـدنا خمسة أقـراص من الطعميـة ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة .

وهكذا يتحمل كل واحد على قَدْر حركته وقدرته .

والشاعر يقول :

والنفسُ راغبةٌ إذَا رغَّبتَـها ... وإذَا تُرَدُّ إلـى قليـلٍ تَقْنَـعُ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا[1] حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وهكذا كـان تمكين الله ليوسف عليـه السلام فى الأرض ، بحـيث أدار شئون مصر بصورة حازمة ؛ عادلة ؛ فلما جاء الجدب ؛ لم يَأتِهَا وحدها ؛ بل عَمَّ البلاد التى حولها .

بدليل أن هناك أُنَاساً من بلاد أخرى لجئـوا يطلبون رزقهم منها ؛ والمثل : إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولمن ينتظرهم فى بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقْعة الشدة كانت شاسعة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) يتبوأ منها حيث يشاء : أى ينزل فى أى مكان يريده من أرض مصر ، وهذا كناية عن اتساع جاهه . [القاموس القويم ١/٨٨] .

نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً فى أكثر من مكان ؛ ولا يَظُنَنَّ ظَانٌّ أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرَف .

لكن : لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة فى بعض البلاد ؛ فما أنْ يعلموا بوجود بيت للحاكم فى منطقة ما ؛ وقد يزوره ؛ فهم يعتنون بكل المنطقة التى يقع فيها هذا البيت .

وهذا ما نراه فى حياتنا المعاصرة ، فحين يزور الحاكم منطقة ما فَهُمْ يُعيدون رَصْف الشوارع ؛ ويصلحون المرافق ؛ وقد يُحضِرون أُصَص الزرع ليُجمِّلوا المكان .

فما بَالُك إنْ علموا بوجود بيت للحاكم فى مكان ما ؟ لا بُدَّ أنهم سيُوالون العناية بكلِ التفاصيل المتعلقة بالمرافق فى هذا الموقع .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام :

﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف]

يعنى : شُيوع العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون فى هذا البلد ؛ فلا تأخذ الأمر على أنه تَرَف وشَرَف ، بل خُذْ هذا القول على أنه تكليف سينتفع به المُحيطون ، سواء كانوا مقصودين به أو غير مقصودين .

وتلك لقطة توضح أن التبُّوء حيث يشاء ليس رحمةً به فقط ؛ ولكنه رحمةٌ بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف]

فَمَنْ كان يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية ؛ ومَنْ كان يشقى من أجل أن يعيش فى مكان مُريح ستتحول المنطقة التى

يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذى يحيا فيه .

فيوسف المُمكّن فى الأرض له مسكن مجاور له ؛ وسيجد العناية من قبَل الجهاز الإدارى حيثما ذهب ، وتغمر العناية الجميع ، رحمة من الله له ، وللناس من حوله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [يوسف]

والمُحْسِن هو الذى يصنع شيئاً فوق ما طُلب منه .

وهنا سنجد الإحسان يُنسب ليوسف ؛ لأنه حين أقام لنفسه بيتاً فى أكثر من مكان ؛ فقد أحسن إلى أهل الأمكنة التى له فيها بيوت ؛ بارتفاع مستوى الخدمة فى المرافق وغيرها .

وسبحانه يجازى المحسنين بكمال وتمام الأجر ، وقد كافأ يوسف عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولّى أمرهم .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾

ويوضح ـ هنا ـ سبحانه أنه لا يجزى المحسنين فى الدنيا فقط ؛ ولكن يجازيهم بخير أبقى فى الآخرة . وكلمة « خير » تستعمل استعمالين :

الأول : هو أن شيئاً خير من شىء آخر ؛ أى : أنهما شركاء فى الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول ﷺ :

« المؤمن القــوىُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضــعيف ، وفى كُلٍّ خــير . احــرص على ما ينفــعك ، واستــعنْ بالله ولا تعجــز ، وإنْ أصابك شــىء فــلا تَقُلْ : لو أنِّى فعلتُ كذا وكَـذا ، ولكن قُلْ : قدَّر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان »[1] .

والاستــعمــال **الثانى** لكلمــة « خيــر » : هو خيــر مقابلــه شرّ ، والمثال : هو قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ[2] ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

والحق سبــحانه يريد أن يعتــدل ميزان حركــة الحياة ، لن يعــتدل ميزان حركة الحياة بأن نقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب فى الآخرة ؛ لأن المؤمن وحده هو الذى سيصدق ذلك .

أما الكافــر فقد يظلم ويسفك الدمــاء ، ويسرق ويستشــرى الفساد فى الأرض .

ولذلك شــاء الحق سبــحانه أن يــجعل الجــزاءَ نوعين : جــزاء فى الدنيا لــمَنْ يُحسن ، سواء أكــان مؤمناً أو كــافراً ؛ وجــزاءً فى الآخرة يختصُّ به الحقُّ سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾ [يوسف]

أى : أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا ؛ لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً ،

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢ / ٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) المثقال : وزن مــعلوم قَدْره . ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. (٤٠) ﴾ [النساء] . أى : مقدار وزن ذرة لا يظلم شيئاً صغر أو كبر . [القاموس القويم ١/ ١٠٩] .

على عكس خير الدنيا الذى قد تفوته أو يفوتُك ، بحُكْم أن الدنيا موقوتة بالنسبة لك بعمرك فيها ؛ ولكن الآخرة لها الدَّيْمومة التى شاءها الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف :

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

وقد عرفهم يوسف ؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد ألقَوْهُ فى الجُبِّ صغيراً؛ ومرَّتْ رحلته فى الحياة بعد أن عثر عليه بعض السَّيارة ؛ وباعوه لعزيز مصر ، لتمر به الأحداث المتتابعة بما فيها من نُضْج جسدى وحُسْن فائق ، ومُراودة من امرأة العزيز ، ثم سنوات السجن السبع .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على ملامح الإنسان ؛ فضلاً عن أنهم جاءوه وهو فى منصبه العالى ، بما يفرضه عليه من وجاهة فى الهيئة والملبس .

أما هو فقد عرفهم ؛ لأنه قد تركهم وهم كبار ، قد تحددت ملامحهم ، ونعلم أن الإنسان حين يمرُّ عليه عقْد من الزمان ؛ فهذا الزمن قد يزيد من تحديد ملامحه ، إذا ما كانَ كبيراً ناضجاً ، لكنه لا يغيرها مثلما يُغيِّر الزمنُ ملامحَ الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج .

والذى دفعهم إلى المجىء هو القحط الذى لم يُؤثِّر على مصر وحدها ؛ بل أثَّر أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عليه السلام الذى اختزن الأقوات تحسُّباً لذلك القحط ؛ وقد أرسلهم أبوهم ليطلبوا منه المَيْرة[1] والطعام ، ولم يتخيَّلوا

(١) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان أى يجلبه . مار أهله : جلب إليهم الطعام . قال تعالى : ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا.. ۝٦٥﴾ [يوسف] . [القاموس القويم : ٢/٢٤٦] .

بأىٍّ حال أن يكون مَنْ أمامهم هو أخوهم الذى ألقوْه فى الجُبِّ .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ[1] قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولا بُدَّ أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وتركهم يَحْكُونَ له عن أبيهم وأخيهم ، وأنهم قد طلبوا المَيْرة ؛ وأمر بتجهيزها لهم[2] .

وكلمة « الجهاز » تُطلق هنا على ما تسبَّب فى انتقالهم من موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للميرة .

وطلب منهم ـ من بعد ذلك ـ أن يأتوا بأخيهم « بنيامين » معهم ، وقال لهم :

﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ[3] ﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) جهاز العروس والمسافر والجيش : هو ما يحتاجون إليه وما يلزمهم فى قصدهم. والمعنى هنا أنه أوفى لهم الكيل وأعطاهم الطعام الذى جاءوا من أجله . [راجع تفسير ابن كثير ٢//٤٨٣ ، والقاموس القويم ١/١٣٤] .

(٢) «ذكر السدى وغيره أن يوسف عليه السلام شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا : أيها العزيز إنَّا قدمنا للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله. قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبى الله . قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا هلك فى البرية ، وكان أحبنا إلى أبينا، وبقى شقيقه ، فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم » [تفسير ابن كثير ٤٨٣/٢] .

(٣) النزول : الحلول بالمكان. والنُّزُل والنُّزْل : ما هُيئ للضيف إذا نزل عليه . [لسان العرب ـ مادة : نزل] .

وفى هذا تذكير لهم بأنه يُوفى الكيل تماماً ، وفيما يبدو أنهم طلبوا منه زيادة فى المَيْرة ؛ بدعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يُحضروا أخاهم كى يزيد لهم كيلاً إضافياً ؛ لأنه لا يحب أن يعطى أحداً دون دليل واضح ؛ التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كأثمان لمَا يأخذونه ، وحين يحضرون ومعهم أخوهم سيأخذون كَيْل بعير فَوق ما أخذوه هذه المرَّة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيهم معهم لمصاحبتهم فى الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام ؛ لذلك تقول الآية :

﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه يرحب بالضيوف ؛ وقد لمسوا ذلك بحُسْن المكان الذى نزلوا فيه . بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف فى إقامته .

وكلمة « مُنْزِل » فى ظاهر الأمر أنها ضدّ مُعْلى ، وحقيقة المعنى هو : مُنزِل مِنَ الذى ينزل بالمكان الموجود به كل مطلوبات حياته .

والحق سبحانه يقول عن الجنة :

﴿ نُزُلاً[1] مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت]

---

(١) النزل : المنزل ، وما يُعدُّ لينزل فيه الضيف . قال تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ .. (١٩٨) ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم ٢/ ٢٦٠] .

أى : أنه سبحانه قد أعدَّ الجنة بما يفوق خيال البشر ؛ وبمُطْلق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان المَوْلى عَزَّ وجَلَّ هو الذى يعدّ ؛ فلا بُدَّ أن يكون ما أعدَّه فوق خيال البشر .

وقلت لإخوانى الذين بُهروا بفندق رَاق فى سان فرانسيسكو : إن الإنسان حين يرى أمراً طيباً ، أو شيئاً رَاقياً ، أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقبالين ؛ تظهر نَفسه فيه ؛ فإن كان حَقُوداً فسينظر للأشياء بكراهية وبحقد ، وإنْ كان مؤمناً يفرح ويقول :

هذه النعمة التى أراها تزيد من عشْقى فى الجنة ؛ لأن تلك النعمة التى أراها قد صنعها بشر لبشر ؛ فماذا عن صُنْع الله للجنة ؟ وهو مَنْ خلق الكون كله بما فيه من بشر ؟

ودائماً أقول : ما رأيتُ نعيماً عند أحد إلا ازداد إيمانى ، بأن الذى أراه من نعمة قد أعدَّه البشر للبشر ؛ فما بالنا بما أعدَّه خالق البشر للمؤمنين من البشر ؟

أما مَنْ ينظر نظرةَ حقْد إلى النعمة عند الغير ؛ فهو يحرم نفسه من صَبابة[1] النعمة عند الغير ؛ لأن النعمة لها صَبابة عند صاحبها ، وتتعلق به ، وإن فرحتَ بالنعمة عند إنسان ؛ فثقْ أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرهتها عند غيرك ؛ كرهتْ النعمة أن تأتى إليك .

فإنْ أردتَ الخير الذى عند غيرك ؛ عليك أن تحب النعمة التى عند هذا الغير ؛ لتسعى النعمة إليك ؛ دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها ؛ لأنها ستأتى إليك بقدرة الحق سبحانه .

وقَوْل يوسف عليه السلام فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) الصبابة : الشوق . صببتُ إلى الشىء صبابة ، فأنا صَبٌّ ، أى : عاشق مشتاق . [لسان العرب ـ مادة : صبب] .

﴿ وأنا خيرُ المنزِلين ﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف]

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحُسْن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يُحضِرون أخاهم سيجدون نفس الاستقبال .

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾

ويوسف يعلم مُقدَّماً صعوبة أن يأمنهم أبوهم على أخيهم ؛ لذلك وجَّه إليهم هذا الإنذار :

﴿ فإن لَّمْ تأْتونى بِهِ فلا كَيْلَ لَكُمْ عِندى .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [يوسف]

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المَعَاد مَعَادُ[1] قَحْط وجَدْب ومجاعة .

وأضاف يوسف :

﴿ ولا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لا تأتوا ناحية هذا البلد الذى أحكمه ؛ ولذلك سنجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك :

﴿ يَـٰأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يوسف]

وتلقَّوْا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا :

---

(١) المعاد : المرجع والمصير. أى : أن مرجعهم إلى بلاد ذات جدب وقحط وهى الموطن الذى جاءوا منه . والمعاد والمعادة : المأتم يُعاد إليه . [لسان العرب ـ مادة : عود] .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

وقولهم : ﴿ سَنُرَاوِدُ[1] عَنْهُ أَبَاهُ.. ﴿٦١﴾ ﴾ [يوسف]

يعنى : أن الأمر ليس سهلاً ؛ وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، والمُراودة تعنى أَخْذ وردّ ، وتحتاج إلى احتيال ؛ وسبق المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف]

وأكّدوا قولهم :

﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يوسف]

أى : أنهم سيبذلون كُلَّ جهودهم ؛ كى يقبل والدهم إرسالَ أخيهم معهم ، وهم يعلمون أن هذا مطلبٌ صَعْب المَنال ، عسير التحقيق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ[2] لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا[3] إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

---

(١) أى : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلنا . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٨٣] .

(٢) الرحال : جمع رَحْل . وهو ما يُوضع على البعير للركوب عليه ، ويطلق على ما يحمله المسافر من أمتعة . [القاموس القويم ١/٢٥٩] .

(٣) انقلب : رجع وتحوَّل إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأعراف] . أى : راجعون إليه . [القاموس القويم ٢/١٢٩] . بتصرف .

أى : أن يوسف عليه السلام أمر مساعديه أنْ يُعيدوا البضائع التى أحضرها هؤلاء معهم ليقايضوا[١] بها ما أخذوه من قمح وطعام ، وكان على مساعدى يوسف عليه السلام أن يُنفِّذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مُسْتتر فى الرِّحال التى أَتَوْا عليها ، وفى هذا تشجيع لهم كى يعودوا مرة أخرى[٢] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لأبيهم ، فور عودتهم ومعهم المَيْرة ، وكأنهم أرادوا أن يُوضِّحوا للأب أنهم مُنِعوا مستقبلاً من أنْ يذهبوا إلى مصر ، ما لم يكن معهم أخوهم .

وحكَوْا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الأب على إرسال أخيهم « بنيامين » معهم ؛ فلسوف يكتالون ، ولسوف يحفظون أخاهم الصغير .

---

(١) قايضه مقايضة : إذا أعطاه سلعة وأخذ عوضها سلعة . والقَيْض : العِوَض . [لسان العرب ـ مادة : قيض] .

(٢)ذكر ابن كثير فى هذا أقوالاً منها : أن يوسف خشى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل : تذمَّم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام. [راجع تفسير ابن كثير ٢/٤٨٣] .

وهم فى قولهم هذا يحاولون أن يُبعِدوا رِيبةَ الأب عَمَّا حدث ليوسف من قبل .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام :

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

وهنا يُذكِّرهم أبوهم بأنهم لم يُقدِّموا من قبل ما يُطمئِنه على ذلك ؛ فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله .

وأضاف : ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف]

وهو قَوْل نتنسَّم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معِهم ، وأنه يدعو الحق ليحفظ ابنه .

وبدأ أبناء يعقوب فى فتح متاعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي[1] هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

(١) بغى : كذب وظلم . وبغى الشىء : طلبه . قال القرطبى فى تفسيره (٣٥٥٩/٥) : «المعنى : أى شىء نطلب وراء هذا ؟ وُفِّى لنا الكيل ، ورُدّ علينا الثمن ، أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم ».

وهكذا اكتشفوا أن بضائعهم التى حملوها معهم فى رحلتهم إلى مصر ليقايضوا بها ويدفعوها ثمناً لِمَا أرادوا الحصول عليه من طعام ومَيْرة قد رُدَّتْ إليهم ؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك ؛ فهم قد حصلوا على المَيْرة التى يتغذَّوْنَ بها هم وأهاليهم .

ولا بد أن يصحبوا أخاهم فى المرة القادمة ، ولسوف يحفظونه ، ولسوف يعودون ومعهم كيْل زائد فوق بعير ، وهذا أمر هَيِّن على عزيز مصر .

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه هنا :

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا[(١)] مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ[(٢)] فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

ونلحظ هنا رِقَّة قلب يعقوب وقُرْب موافقته على إرسال ابنه « بنيامين » معهم إلى مصر ، هذه الرِّقَّة التى بَدَتْ من قبل فى قوله :

﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف]

وطلب منهم أن يحلفوا بيمين مُوثقة أن يعودوا من رحلتهم إلى

---

(١) الميثاق والموثق : العهد المؤكّد . قال تعالى : ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. ﴿٧﴾﴾ [المائدة] . أى : عهده الذى عاهدكم عليه ، وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

(٢) الإحاطة بالشىء : الإحداق به من جميع جوانبه . وقوله : ﴿إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ .. ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف] . أى : إلا أن تُحصروا أو تمنعوا سبيل النجاة . [القاموس القويم ١/١٧٨] .

مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » إذا ما ذهب معهم ؛ ما لم يُحطْ بهم أمر خارج عن الإرادة البشرية ، كأن يحاصرهم أعداء يُضيِّعونهم ويُضيِّعون بنيامين معهم ؛ وهذا من احتياط النبوة ؛ لذلك قال :

﴿ إلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ .. (٦٦) ﴾ [يوسف]

وأقسم أبناء يعقوب على ذلك ، وأعطَوْا أباهم اليمين والعهد على رَدِّ بنيامين ، وليكون الله شهيداً عليهم .

قال يعقوب :

﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه مُطلع ورقيب ، فإن خُنْتم فسبحانه المنتقم .

ويُوصِى يعقوب أولاده الأسباط :

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك الكلام فى المرة الثانية لذهابهم إلى مصر ، بعد أن علِم بحُسْن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حَظْوة عند عزيز مصر .

وساعـةَ ترى إنسانًا له شـأن ؛ فترقب أن يُعـادى ، لذلك توجَّس يعقوب خِيفة أن يُدبِّر لهم أحد مكيدة ؛ لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، وكانت المدن قديمـاً لها أبواب ؛ تُفتح وتـقفل فى مواعـيد محـددة ، وحين يدخلون فُرادى فلن ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقـد خـاف يعقـوب على أبنائه مـن الحسـد ، ونعلم أن الحسـد موجود .

وقد علَّـمنا سبحـانه أن نستـعيـذ به سبحـانه من الحـسد ؛ لأنه سبحـانه قد علِم أزلاً أن الحسـد أمر فوق طاقة دَفْع البـشر له ، وهو القائل :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾ [الفلق]

وفى أمر الحـسد أنت لا تستطيع أن تستـعيذ بواحد مُساوٍ لك ؛ لأن الحسد يأتى من مجـهول غير مُدْرَك ، فالشـعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحـقد على كل ذى نعمة ، وإذا كان عصـرنا ، وهو عصر الارتقـاءات المـادية قـد توصَّل إلى اسـتخدام الإشـعـاع فى تفـتـيت الأشياء .

إذن : فمن الممكـن أن يكون الحسدُ مثل تلك الإشـعاعات ؛ والتى

قد يجعلها الله فى عيون بعض خلقه ، وتكون النظرة مثل السهم النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ..(٣١) ﴾ [المدثر]

وإنْ قال قائل : ولماذا يُعطى الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك الخواص ؟

أقول : إنه سبحانه يعطى من الإمكانات لبعض من خلقه ، فيستخدمونها فى غير موضعها ، وكلٌّ إنسان بشكل ما عنده إمكانية النظرة ، ولكن الحقد هو الذى يولد الشرارة المُؤْذية ، ويمكنك أن تنظر دون حسد إنْ قُلْتَ : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بارك[1] .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأجُّج الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تستعيذ بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾ [الفلق]

وأن تقول كلمات رسول الله ﷺ حين كان يُعوِّذ الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ويقول :

(١) يقول تعالى :﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الكهف]

« أعيـذكما بكلمـات الله التامة من كل شـيطان وهامَّة[١] ، ومن كل عين لامَّة[٢] »[٣] .

وقال ﷺ : « كان أبوكما ـ إبراهيم ـ يُعـوِّذ بها إسماعيل وإسحق عليهم السلام » .

كمـا أنه ﷺ : « كان إذا حَـزَبَهُ أمر قـام وصلى »[٤] ، لأن معنى حَزْب أمر للرسول ﷺ ، أو لواحد من أتباع الرسول ﷺ أن هذا الأمر يخرج عن قدرة البشر .

وهنا على الإنسـان أن يأوى إلى المُسـبِّب ، فهو الركـن الشديد ، بعد أن أخـذتَ أنت بالأسبـاب الممـدودة لك من يد الله ، وبذلك يكون ذهابك إلى الحـق هو ذهاب المُـضطر ؛ لا ذهاب الكسـول عن الأخـذ بالأسباب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢) ﴾ [النمل]

والمضطـر هو من استنفـد كل أسبابه ، ولم يَـدْعُ ربه إلا بعد أن

---

(١) الهامّة : مفـرد هوام . وهى الحيات والعقارب ، وكل ذى سم يقتل سمُّـه ، وأمّا ما لا يقتل ويسُمُّ فهو السَّوام . [لسان العرب ـ مادة : هوم] .

(٢) اللامة : ما تخافه من مسٍّ أو فزع . واللامـة : العين التى تصيب الإنسان . [لسان العرب ـ مادة لمم] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٧٠)، والترمذى فى سننه (٢٠٦٠)، وأبو داود فى سننه (٤٧٣٧) عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال الترمذى « حديث حسن صحيح » .

(٤) أخرجـه أحمد فى مـسنده (٥/ ٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حـذيفة ابن اليمان .

أخـذ بكل الأسبـاب الممـدودة ، فـلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخـذ ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نـجد يعقوب عليه السـلام وقد أوصى أبـناءه ألاَّ يدخلوا مصـر من باب واحـد ؛ بل من أبواب متفرقة خـشية الحسد ، وتنبهت قضية الإيمان بمـا يقتضيه من تسليم لمشيئة الله ، فقال :

﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٦٧) ﴾ [يوسف]

أى : لست أُغْنى عنـكم بحـذرى هذا من قـدر الله ، فهـو مـجـرد حرص ، أما النفع من ذلك الحرص والتـدبير فهو من أمر الله ، ولذلك قال :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾ [يوسف]

فكل الخَلْق أمـرهم راجع إلى الله ، وعليه يعـتمـد يعقوب ، وعـليه يعتمد كل مؤمن .

ونفَّذَ أبناءُ يعقوب ما أمرهم به أبوهم ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾

أى : ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يردُّ عنهم أمراً أراده سبحانه ، فلا شىء يردُّ قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أنْ يردَّ عنهم حسد الحاسدين ، أو : أن يُدسَّ لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أى شىء لن يمنع قضاء الله .

ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا[1] .. (٦٨) ﴾ [يوسف]

ويعقوب يعلم أن أىَّ شيء لن يردَّ قدر الله ، وسبحانه لم يُعْطِ الاحتياطات الولائية ليمنع الناس بها قدرَ الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ .. (٦٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنه يعرف موقع المُسبِّب وموقع الأسباب ، ويعلم أن الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل على الله ؛ لأنه سبحانه قد خلق الأسباب رحمةً بعباده :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يوسف]

أى : يعزلون الأسباب عن المُسبِّب ، وهذا ما يُتعِب الدنيا .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

---

(١) قضى حاجته : أدركها ونالها . قال تعالى : ﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا .. (٦٨) ﴾ [يوسف] . أى : أدركها وحصَّلها . [القاموس القويم : ٢/١٢٢] .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ[1] إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ[2] بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى : أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم ؛ وأكرم وفادتهم[3] ؛ بعد أن وَفَّوْا بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشْتاقاً لشقيقه بنيامين .

وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف ؛ فهما من أم واحدة ؛ أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات .

وقول الحق سبحانه عن يوسف :

﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أن يوسف كان مُتشوِّقاً لرؤية شقيقه .

وقوله :

﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف]

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استفردوا[4] لفترة ببنيامين ، ولم

---

(١) آواه : ضمه إليه وأسكنه عنده أو أنزله فى بيت . والمأوى : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات] . هى : المنزل والملجأ . [القاموس القويم ١/٤٥] .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . [القاموس القويم ١/٥٣] .

(٣) الوفد : الرُّكبان المكرَّمون . قال الأصمعى : وفد فلان يفد وفادة إذا خرج إلى ملك أو أمير . [لسان العرب ـ مادة وفد] .

(٤) استفرد فلاناً : انفرد به . واستفرد الشىء : أخرجه من بين أصحابه . وأفرده : جعله فرداً . [لسان العرب ـ مادة : فرد] .

يُحْسِنوا معاملته ، وحاول يوسف أن يُسرِّى عن أخيه ، وأن يُزيل عنه الكَدَر بسبب ما كان إخوته يفعلونه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ [1] فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ ﴾

أى : أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المَيْرة لهم ، كما سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جَهَّزهم فى المرَّة السابقة ؛ وأراد أن يُبقِى أخاه معه فى مصر ؛ ولكن كيف يأخذه من إخوته لِيُبقِيه معه ؛ وقد أخذ أبوهم ميثاقاً عليهم ألاَّ يضيعوه ، وألا يُفرِّطوا فيه ، كما فعلوا مع أخيه من قبل ؟

إذن : لا بُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقى بها أخاه معه ، وقد جَنَّد الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعَادونه ، وكانوا يحقدون عليه وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية صُوَاع الملك ، التى يشرب فيها الملك ، وتُستخدم كمكيال ، وجعلها فى رَحْل أخيه .

---

(١) تطلق السقاية على الوعاء الذى يُستقى به . وقد كان إناء من الفضة كانوا يكيلون به الطعام. [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

وكلمة « السقاية » تُطلق إطلاقات متعددة من مادة « سقى » أى : « السين » و « القاف » و « الياء » ، فتُطلق على إسقاء الناس والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [التوبة]

فكأن معنى السقاية أيضاً هو المكان الذى يُوضَع فيه الماء ليشرب منه الناس .

أو : تُطلق « السقاية » على الآلة التى يُخرج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة « السقاية » على الإناء الذى كان يشرب به الملك ، ويُستخدم كمكيال ، وهذا دليلٌ على نَفَاسة المكيل .

وتُطلق أيضاً كلمة « صواع » على مثل هذه الأداة التى يُشرب منها ، أو يُرفع بها الماء من المكان إلى فَمِ الشارب ؛ وأيضاً يُكَال بها ؛ ومفردها « صاع » .

ويقول الحق سبحانه هنا عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه :

﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أمر بعضاً من أعوانه أن يَضَعوا « السقاية » فى رَحْل

أخيه ، و « الرَّحْل » : هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافر كله .

وبعد أن ركب إخوة يوسف جِمالهم استعداداً للعودة إلى الشام ؛ وقعت المفاجأة لهم ؛ والتي يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ[1] أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ۝٧٠ ﴾ [يوسف]

أى : يا أصحاب تلك العير أنتم سارقون . والسرقة فعل قبيح حينما يترتَّبُ عليها جزاء يُوقَّع على السارق ، والمسروق هو شىء ثمين .

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمَّتْ بموافقة من « بنيامين » ليمكث مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه[2] إلى مصر .

ولسائل أن يقول : وكيف رَضِى بنيامين بذلك ، وهو أمر يُزِيد من حُزْن يعقوب ؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها ؟

أقول : انظروا إلى دقَّة القرآن ، ولنُحْسِنَ الفهم عنه ؛ لنرى أن حزن يعقوب على فَقْد يوسف قد غلبه ؛ فلَن يُؤثِّر فيه كثيراً فَقْد بنيامين .

ودليل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه

---

(١) أذن تأذيناً وأذاناً : أعلم بالشىء. والتضعيف يدل على الكثرة والتكرار . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ۝٧٠ ﴾ [يوسف] . أى : نادى وأعلم وأكثر النداء والإعلام . [القاموس القويم ١/١٦] .

(٢) المقصود بأبويه : أبوه يعقوب ، وخالته زوجة أبيه . لأن « راحيل » أم يوسف وبنيامين ماتت فى نفاس بنيامين . [انظر : تفسير القرطبى ٥/٣٥٩٨] .

بحكاية السرقة ؛ واستبقاء بنيامين فى مصر قال :

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [يوسف]

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهامهم بالسرقة ؛ فالآية هنا لا تُحدِّد ماذا سرقوا بالضبط ، وهم فى نظر يوسف قد سَرَقوه من أبيه ، وألقوْه فى الجُبِّ .

وهنا يأتى الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) ﴾

أى : أن إخوة يوسف أقبلوا على مَنْ يتهمونهم بالسرقة مُتسائلين : ماذا فقدتم ؟ ولماذا تتهموننا ؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهموهم :

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ[1] (٧٢) ﴾

أى : أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم : لقد ضاعت سقاية

---

(١) الزعيم : الكفيل والضمين والرئيس . زعم بالأمر : تكفل به فهو زعيم أى كفيل . [القاموس القويم ١/٢٨٦] .

الملك ؛ ويُقَال لها « صواع » ، ومَنْ سيُخرجها من المكان المختفية به سوف ينال مكافأة قدرها وَزْن حمْل بعير ؛ فلعل صُواع الملك قد خُبئت فى حِمْل أحدكم دون قصد .

وأكد رئيس المنادين أنه الضامن لمن يُخرج صواع الملك ، ويحضرها دون تفتيش أن ينال جائزته ، وهى حِمْل بعير من المَيْرة والغذاء .

وهنا قال إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

وقولهم ﴿ تالله ﴾ هو قَسَم ، وعادةً تدخل « التاء » على لفظ الجلالة عند القَسَم المقصود به التعجُّب ، أى : أن إخوة يوسف أقسموا مُندهشين لاتهامهم بأنهم لم يسرقوا ؛ وأن الكُلَّ قد علم عنهم أنهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك ، لم يسبق أن اتهمهم أحد بمثل هذا الاتهام .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنة مَنْ أعلنوا عن وجود سرقة ، وأن المسروق هو صُوَاع الملك .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وهذا سؤال من مُسَاعدى يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة فى شريعتهم لمن يسرق ؟ وماذا نفعل بمن نجد فى رَحْله صُواع الملك ؛ وثبت كذبكم بأنكم لم تسرقوه ؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضبط بسرقة فى شريعة آل يعقوب أن يُسترقَّ أو يظل فى خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عمة يوسف التى أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه ؛ وحين أراد والده أن يسترده أخفَتْ فى ثياب يوسف شيئاً[1] عزيزاً ورثته عن أبيها إسحاق ، وبذلك استبقتْ يوسف معها ، ولم يأخذه أبوه إلا بعد أن ماتت عمَّته .

وكان هدف يوسف عليه السلام إذن أن يستبقى أخاه معه ؛ وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام يحكمون بأنفسهم الحكم الذى يَصْبُو إليه ، وهو بقاء أخيه معه .

ويُورِد الحق سبحانه قولهم :

﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وهكذا نطقوا بالحُكْم هم أنفسهم ، وأكّدُوه بقولهم :

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) هو مِنْطقة إسحاق كان ينتطق بها ، أى : يشدها على وسطه . وكانت عمته هى أكبر ولد إسحاق ، فعمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، لتستبقيه عندها ولا تسلمه لأبيه يعقوب ، وقد كان هذا حتى ماتت . [راجع : تفسير ابن كثير ٤٨٦/٢] .

وهكذا أعانوا هم يوسف لتحقيق مأْربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسفُ بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

وكان الهدف من البَدْء بتفتيش أوعيتهم ؛ وهم عشرة ؛ قبل وعاء شقيقه ، كي ينفي احتمال ظنِّهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك ؛ ليستخرج منه صُوَاع الملك ؛ وليُطبِّق عليه قانون شريعة آل يعقوب ؛ فيستبقي شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكماً لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

أي : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

أى : ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك الذى يحكم مصر ؛ لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكَادَ له ، وحقَّق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك ؛ ورفعه سبحانه درجاتٍ عالية من العلم والحكمة .

ولم يكُنْ الكيد بسبب أن يُنزل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولأخيه الرِّفْعة ، فكأن كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يَدْرون ما فى المحنة من المِنَح .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أىَّ أمر صعب يقع عليه من غير رأى منه ؛ لا بُدَّ وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أنْ كَادوا له ، فماذا كانت نتيجة كَيْدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذَا علم ، فقال :

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

و (ذى علم) أى : صاحب علم . وكلاهما مُنْفصل ، أى : هناك « صاحب » ، وهناك « علم » ، والصاحب يوجد أولاً ؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم ؛ فيصير صاحبَ عِلْم ، ولكن فوقه :

﴿ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : أن العلم ذاتىّ فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف إخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لا بد أنهم قد بُهتوا ، أول تصرف منهم كان لا بد أن ينصرف إلى الأخ الذى وُجدت السقاية فى رَحْله ؛ وأخذوا يُوبِّخونه ؛ لأنه أحرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عندهم للحفيظة عليه ؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسْبق منه معروف فى قولهم :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[1] .. ⑧ ﴾ [يوسف]

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هى « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لَتلطَّفوا به[2] . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالى هو مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالكم .

وهنا قال أحد الإخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم . فَرَدَّ بنيامين : بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم .

ويُورد الحق سبحانه هنا قولهم :

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة . والعصبة والعصابة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين [لسان العرب : مادة : عصب] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٦٩/٥) أن إخوته « لما رأوا ذلك نكسوا رءوسهم، وأقبلوا عليه قائلين : ويلك يا بنيامين . ما رأينا كاليوم قط ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لصين . قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى » .

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة فى بنيامين قد سبقه إليه شقيق له من قبل ، وقالوا ذلك فى مجال تبرئة أنفسهم ، وهكذا وَضُحَتْ ملامح العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

﴿ إن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

يُسمَّى فى اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية ؛ أن حدثاً يقع بسبب حَدَث وقع قبله ، فهناك حَدَث يحدث وحده ، وهناك حَدَث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إنْ تذاكر دروسك تنجحْ ، وهنا حَدَثان ، المذاكرة والنجاح ، فكأن حدوثَ النجاح الشرط فيه حدوث المذاكرة ، ولا بُدَّ أن يحدث الشرط أولاً ؛ ثم يحدث الحدث الثانى ، وهو هنا قولهم :

﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ .. (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

فكأن الله يوضح للرسول ﷺ : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ؛ فلا تحزن ولا تبتئس ؛ فهذا التكذيب ظاهرة عانَى منها كل الرسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشيء عن سببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذى حدث فيه الشرط .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

أى : لا تعجب يا عزيز مصر ؛ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل !!

وكل حدث يحدث للمَلَكات المستقيمة ؛ لا بُدَّ أن يُخرج تلك الملَكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوَّه واحد بكلمة تُخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتُنغِّصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه ؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للردِّ .

ولذلك يوصينا ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب ؛ وإلا فليضطجع »(١) .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٢) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٨٢) ، وابن حبان (١٩٧٣ ـ موارد الظمآن) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٨/٧١) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

كى يساعد نفسه على كَظْم ضيقه وغضبه ، وليُسرِّب جزءً من الطاقة التى تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عمَّته التى اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحتفظ به فى حضانتها من فَرْط حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثَّر فيه ، ولكنه قال رأيه فيهم لنفسه :

﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

لأنكم أنتم مَنْ أخذتمونى طفلاً لألعب ؛ ثم ألقيتمونى فى الجُبِّ ؛ وتركتم أبى بلا موانسة .. وأنا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سرقتم ابناً من أبيه .

وهو إنْ قال هذا فى نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصلَ إليهم المعنى ، والقول ليس إلا ألفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتمع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه أعلم بما تنعتون ، وتظهرون العلامات والسِّمات ، وغلبت كلمة « تصفون » على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ .. (١١٦) ﴾ [النحل]

أى : أن ما تقولونه يُوحِى من تلقاء نفسه أنه كَذِب ، وهكذا نعرف أن كلمة « تَصف » وكلمة « تصفون » غلب فى استعمالهما للكلام الذى يحمل معه دليلَ كَذِبه .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾

وهكذا دخلوا مع يوسف فى نقاش ، وبدأوا فى الاستعطاف ؛ بقولهم :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. (٧٨) ﴾ [يوسف]

ونلحظ أن كلمة « كبير » تُطلق إطلاقات متعددة ، إنْ أردتَ الكِبَر فى السنِّ تكون من «كَبِرَ يكْبَر » ، وإنْ أردتَ الكِبَرَ فى المقام تقول : « كَبُرَ يكبُر ».

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ۝٥ ﴾ [الكهف]

والكِبَر واحد من معانى العظمة ، أما الكِبَرُ فى السِّنِّ فهو مختلف ؛ وهنا قالوا :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. ۝٧٨ ﴾ [يوسف]

قد تكون ترقيقاً بالعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أى : إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً فى قومه ؛ وحين يُبلغه أن ابنه قد احتُجِز من أجل سرقة ، فهذا أمر مؤلم ؛ ولك أن تُقدِّر ذلك وأنت عزيز مصر ؛ ونرجو أن تحفظ للأب شرفه ومَجْده وعظمته ، واسْتُرْ ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهدَّم ، لا يحتمل الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد فُقِد .

ثم يعرضون عَرْضاً آخر ، فيقولون :

﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٧٨ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم سألوه أن يُتمِّمَ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ؛ وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المَيْرة ، ولم يأخذ بضائعهم ثمناً لها .

ومَنْ يفعل ذلك ؛ لا يضِنُّ عليهم بأن يستجيب لرجائهم ، بأن يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيهم الصغير .

كل هذه ترقيقات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هى ألاَّ يُؤاخذ بالذنب إلا صاحبه ؛ ولذلك لم يَفُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق سبحانه بما يوضح ذلك :

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ويستعيذ يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً ممَّنْ وُجِد فى متاعه صُوَاع الملك ، فما ذنبه فى هذا الأمر ؟ ولا أحد يمكن أن ينال عقاباً على ذنبٍ ارتكبه غيره .

وساعةَ تقرأ « إذاً » مُنوَّنة ؛ فاعرف أن هناك جملةً محذوفةً ، أى : أن يوسف قال : إنْ أخذنا غير مَنْ وجدنا متاعنا عنده نكون من الظالمين .

وجاء « التنوين » بدلاً من الجملة المحذوفة التى ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه :

﴿ وأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الواقعة]

ويحدث ذلك حين تبلغ الرُّوح الحلقوم ، وجاء « التنوين » عِوَضاً عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذكِّرهم أنه لا يحقُّ له أن يأخذ أخاً منهم بدلاً من بنيامين ؛ لأنه هو مَنْ وُجِد فى متاعه صُوَاع الملك ؛

ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة[١] أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يُبَتُّ فيها بسهولة ؛ لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويصور الحق سبحانه حالتهم هذه فيقول :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ[٢] خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا[٣] مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ[٤] الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ويقال : « يئس » أى : قطع الأمل من الشيء ، وهم لم يقطعوا الأمل فقط ، بل استيأسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

فهم قد أخذوا يُرقِّقون كل ألوان المُرقِّقات ؛ ولا فائدة ؛ وكلما أوردوا مُرقِّقاً ؛ يجدون الباب أمامهم مُوصَداً .

وكأنهم بذلك يُلحُّون على اليأس أن يأتيهم ؛ لأن الظروف المحيطة والجو المحيط لا يحمل أى بارقة أملٍ ، وكلما تبدو بارقةُ أملٍ

---

(١) الجريرة : الجناية والذنب يجنيه الرجل . [لسان العرب ـ مادة : جرر] .

(٢) استيأس : يئس منه بعد جهد ومشقة . [القاموس القويم ٢/٣٦٦] .

(٣) الميثاق والموثق : العهد المؤكَّد . قال تعالى : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة]. أى : عهده الذى عاهدكم عليه ، وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

(٤) برح الأرض : زال عنها وفارقها . وقول كبير إخوة يوسف هنا ، أى : لن أفارق أرض مصر . [القاموس القويم ١/٦١] بتصرف .

ويطلبونها يجدون الطريق مُوصَداً ؛ فكأنهم يطلبون اليأس من أن يأذن يوسف بسفر أخيهم بنيامين معهم فى رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا[1] ..(٨٠) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ؛ العزيز يوسف ، ومَنْ حوله من المُعَاوِنين له ، وأخيهم موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ؛ والمناجاة مَسرَّة ؛ والمَسرَّة لا تكون إلا فى أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلحظ أن ﴿ خَلَصُوا ..(٨٠) ﴾ [يوسف] هى جمع ، و ﴿ نَجِيًّا ..(٨٠) ﴾ [يوسف] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التى يتساءل فيها مَنْ لا يملكون ملَكةً عربية : كيف يأتى القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كملَكة لَعرفوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ[2] (٤) ﴾ [التحريم]

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن :

---

(١) نجاه ينجوه نَجْواً : كلَّمه سراً وخصَّه بالحديث. فخلصوا نجياً أى : متناجين . تناجى الرجلان : أفضى كل منهما إلى الآخر بحديثه سراً . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] بتصرف.

(٢) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] بتصرف .

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

أى : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التى يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » ، وكذلك كلمة « عَدْل » فحين ينظر القضاء فى أمر قضية ما ؛ فالقاضى لا يُصدر الحكم وحده ؛ بل يُصدره بعد التشاور مع المُستشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقَال : « حكم القضاة عَدْلاً » . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : ﴿ نَجِيًّا .. (٨٠) ﴾ [يوسف]

فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فهم حين استيأسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأى الأول للأخ الأكبر ، الذى عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يُبدِى الرأى الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ﴾ [يوسف]

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين رآهم قد قَبِلوا فكرة العودة دون أخيهم الذى احتجزه عزيز مصر ؛ قال لهم رأيه الذى حذرهم فيه أنْ يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم موثقاً من الله إلا أنْ يُحَاط بهم ؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقةً حين أخذوا يوسف وضيَّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألاّ يبرحَ المكان ، ولن يعود إلى أبيه إلا إنْ أذِنَ له بذلك ؛ أو أن يحكمَ الله له بأن يُسلِّمه عزيزُ مصر أخاه ، أو أن يموت هنا فى نفس البلد .

وهذا القول فى ظاهره دفاع عن النفس ؛ وخجل من أن يعود إلى أبيه بدون بنيامين ؛ ولذلك ترك إخوته يتحمَّلون تلك المواجهة مع الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ؛ لأنه فقد فى الرحلة الأولى يوسف ، وفى الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن الكبير الذى يرأس الرحلة .

وفى هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور مُدَاولة بين الإخوة فى تلك المُنَاجاة ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس الرحلة حسم الأمر .

وحين سألوه : ماذا نفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذى أوردته الآية التالية :

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتُّهم ابنه بالسرقة ، ونحن لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فتيان العزيز صُوَاع الملك فى رَحْلِه ، ولا نعلم هل دَسَّها أحد له ؟ وهل هى حيلة[1] ومكيدة ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد أخذه العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه بالسرقة ، إلا أن ثبوتَ وجود صُواع الملك فى رَحْله هو السبب فى كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده ؛ لأن هناك سوابقَ لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن يقولوا لأبيهم - إنْ كذَّبهم - ما جاء به الحق على ألسنتهم :

[2]

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

---

(١) الحيلة : الحذق فى تدبير الأمور وهو تقليب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود وأصلها الواو واحتال : طلب الحيلة (المصباح المنير ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٥٨٠/٥) : « يريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها » ، وهنا مجاز بالحذف وتقديره : واسأل أهل القرية .

أى : أنك يا أبانا إنْ كنتَ تشك فى أقوالنا ؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذى كنا فيه ؛ لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجَّة ، وحدث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التى كانت معنا شهدتْ الواقعة ؛ فقد أذَّن مُؤذِّن بالحادث ، وتَمَّ تفتيش العِير علناً .

فإذا أردتَ أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل العِير التى كانت تسير معنا فى الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التى جئنا منها .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام إخوة يوسف لأبيهم يعقوب :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف]

ونحن نعلم أن كل حَدَث من الأحداث لا بُدَّ له من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكانٍ يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه ؛ ومن سبب يُوجِبه ، ومن قوة تنهض به .

وفى بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوى فى الحدث ، فننسبه إليه ، فيُقال :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف]

والمراد بطبيعة الحال أن يَسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها ، أو : أنك نبىٌّ ويوحى لك الله فَسَلْهُ أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن العِير هى المَطايا ؛ سواء أكانت نِياقاً أو كانت من الجمال أو الحمير أو البِغَال التى تحمل البضائع .

وحين يُقَال :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : أن العير كان لها فى الأمر شىء فوق المُلاَبسات كلها .

ومثال هذا ما كان فى موقعة بدر ؛ فقد خرج رسول الله ﷺ ليلقَى العير القادمة من الشام وهى مُحمَّلة بالبضائع ؛ ليصادرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أموال المهاجرين التى كانت بمكة ، ولم يكن مع هذه العِير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حين تكلم عن المقاتلين الذين قَدِموا من مكة ؛ وصفهم بالنفير ، أى : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .

إذن : فكل حَدَث يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يورد الحق سبحانه ما جاء على ألسنة إخوة يوسف حينما عادوا ليلقَوْا أباهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين ؛ وكذلك تَخلَّف أخيهم الكبير أو رئيس الرحلة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

ويجوز أن تفتيشهم قد تَمَّ فى مكان بعيد قليلاً عن العُمْران ؛

وفحص جنود أو مساعدو يوسف أمتعتهم التى عثروا فيها على صواع الملك .

وسُمى المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك ؛ نفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فقولهم :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل أهل الموقع الذى حدث فيه التفتيش . وكذلك قولهم :

﴿ وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجِئْنا بصحبتهم من أصحاب القوافل الأخرى .

وكرروا قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك ؛ لذلك أرادوا هنا أن يُثبِتوا صدقهم ؛ وحين يسأل أبوهم يعقوب ؛ سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الإسمية :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم قد فهموا أن والدهم قد شَكَّ فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذبٍ ، وادَّعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[1] عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾

الأمور التى تخالف الضمير ؛ ويُستحى منها ؛ ويُخشى مَغبَّتها[2] ؛ هى أمور تستعصى على النفس ؛ وتحتاج النفس إلى علاج حتى تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسّر لها ، ما أن تُقدِم على فعل الأمر المستهجن ، وهذا ما يُقال له : « سوَّل » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]

أى : يسَّرتْ لكم أنفسكم أمراً يصعب أن تقبله النفوس المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظةَ أنْ جاءوا له بقميص يوسف وعليه الدم الكاذب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

---

(١) الجمال : البهاء والحُسْن يوصف به الحسىّ والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (١٨) ﴾ [يوسف] ، وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . [القاموس القويم ١/١٢٨] . والمراد هنا بالصبر الجميل هو الصبر المؤمن الذى يعطى أملاً .

(٢) المغبة : العاقبة . غب الأمر ومغبته : عاقبته وآخره . [لسان العرب ـ مادة : غبب] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحَدّ ، بل ستأتى من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر فى النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهام الصبر من الله ، فَهِبَات الفرج قد اقتربتْ ، فقال :

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف]

فى هذه الآية طلب الأمل الذى يوحى بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف]

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول : ولماذا تنسوْنَ كبير الإخوة الذى رفض أن يبرحَ مصر ، إلا بعد أن يأذن له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامين وشمعون ؛ لذلك قال :

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : يأتينى بهما .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف]

فالله سبحانه يعلم أين هم ؛ لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجريه علينا من تصرّفات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ[1] ﴿٨٤﴾ ﴾

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم ؛ فما جاءوا به هو خبر أحزنه ، وخَلاَ بنفسه ؛ لأنه ببشريته تحسَّر على يوسف ، فقد كانت قاعدة المصائب هي افتقاده يوسفَ .

وساعةَ تسمع نداءً لشيء محزن ، مثل : « وا حُزْناه » أو « وا أسفاه » أو « وا مُصيبتاه » ؛ فهذا يعني أن النفس تضيق بالأحداث وتقول « يا همّ ، هذا أوانك ، فاحضر » . أو أنه قال :

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف]

لأن أخاه بنيامين كان أشبهَ الناس به ؛ فكان حُزْنه على يوسف

---

(١) كظيم : أي سكت وصبر على ما في نفسه من الغيظ ، ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظمه الغيظ أي : كربه وأحزنه وأسكته وشقَّ عليه . [القاموس القويم ١٦٣/٢] .

طاقة من الهَمِّ نزلتْ به ، وتبعتها طاقة هَمٍّ أخرى ، هى افتقاد بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن دموع يعقوب كثُرتْ حتى بَدا الجزء الأسود فى العين وكأنه أبيض . أو : ابيضتْ عيناه من فَرْط حُزنه ، الذى لا يبثُّه لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد بقادر على أن يتحكم فيها .

ونجد رسولنا ﷺ يبكى ؛ وتذرف[1] عيناه حُزْناً على موت ابنه إبراهيم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ : أتبكى ؟ أو لم تكن نهيْتَ عن البكاء ؟ قال : « لا ، ولكن نهيتُ عن صوتين أحْمقيْن فاجرين : صوت عند مصيبة ، خمش[2] وجوه ، وشق جيوب[3] ، ورنة[4] شيطان»[5] .

وقد قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الذرف : صَبُّ الدمع. ذرفت العين الدمع : أسالته . [لسان العرب ـ مادة : ذرف] .
(٢) الخموش : الخدوش . وقد خمش وجهه : خدشه . [مختار الصحاح].
(٣) الجيوب : جمع جيب . والجيب : إنما يكون فى الثوب موضع الصدر . [تفسير القرطبى : ٤٧٦٧/٦] .
(٤) الرنة : الصيحة الحزينة . والرنين : الصياح عند البكاء . قال ابن سيده : هى الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء . [لسان العرب ـ مادة : رنن] بتصرف .
(٥) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٠٥) عن جابر بن عبدالله ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن » . هكذا ورد الحديث فى الترمذى ، ولكن فى فتح البارى (١٧٤/١٠) زيادة : « صوت عند نغمة ، لهو ولعب ، ومزامير الشيطان » .

« إن العين تدمع ، والقلب يحـزن ، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا ، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[١] .

وهكذا نعلم أن الحق سبحـانه لا يريد من الإنسان أن يكون جلمـوداً[٢] أو يكون صخراً لا ينفعل للأحداث ، بل يريده مُنفعلاً للأحداث ؛ لأن هذا لَوْنٌ يجب أن يكون فى إنسانيته ، وهذه عاطفة يريد الله أن يُبقيها ، وعلى المؤمن أن يُعليها .

فسبحانه هو الذى خلق العاطفة ، والغريزة فى الإنسان ، ولو أراد الله الإنسانَ بلا عاطفة أو غريزة لَفعلَ ما شاء ، لكنه أراد العاطفة والغريزة فى الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مُهمتها ، يقول لك المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يُهذِّب لك الانفعال .

والمثل الذى أضربه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام ، يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تَكُنْ شَرِهاً[٣] .

والمثل الآخر : غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف ما يفيدك ؛ ولا تستخدم هذه الغريزة فى التجسُّس على الناس .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الجلمد والجلمود : الصخر ، وهى الصخرة التى تكون فى الماء القليل . [لسان العرب ـ مادة : جلمد] .

(٣) الشَّره : أسوأ الحرص . وهو غلبة الحرص . والشَّرِه : السريع الطعام الشديد الحرص عليه . [لسان العرب ـ مادة : شره] .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتى بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كانطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهجُ الغرائزَ والعواطفَ لتبقى فى إطار مهمتها .

والعاطفة - على سبيل المثال - هى التى تجعل الأب يَحنُو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يُعْلِى غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنه أخذ النزوع على قَدْره . وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القربة » أى : أحكمنا غَلْق فوهة القِرْبة ، بما يمنع تسرُّب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟[1] تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا[2] أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولقائل أنْ يسأل : ومَنِ الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولَّى عنهم ؟

---

(١) فتأ وفَتِىء : زال وتحول . والمضارع تفتؤا . أى : مازلت . وإنما قالوا له ذلك ، لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك. [تفسير القرطبى ٥/٣٥٨٤] .

(٢) الحرض : الذى أذابه الحزن أو العشق ، الذى لا يقدر على النهوض . والحرض أيضاً : الذى أشرف على الهلاك . [لسان العرب - مادة : حرض] بتصرف كثير . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٨٥) : « أصل الحرض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم » .

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقَال فى الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله انهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سِنَّ أبيك إسحاق » .

والمعنى : أنك صِرْت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشَّمنى يوسف . فعتب عليه الله فى هذه القَوْلة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لى . قال : غفرتُها لك[1] .

وقد نبَّهه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الحَرَض » كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه :

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤ /٥٧١) من قول طلحة بن مصرف الأيامى وعزاه لابن جرير الطبرى . قال طلحة : أنبئت أن يعقوب دخل عليه جار له فقال : يا يعقوب ، ما لى أراك قد انهشمت وفنيت ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من هَمِّ يوسف ، وذكره ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكونى إلى خلقى ؟ فقال : يا رب ، خطيئة أخطأتها فاغفرها لى . قال : فإنى قد غفرت لك. فكان بعد ذلك إذا سُئِل قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي[1] وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبَثُّ : هى المصيبة التى لا قُدرة لأحد على كتمانها ؛ فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوعٍ يتودد إلى الأقوى ، و يتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المُبْتلَى . ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد ».

والحق تبارك وتعالى يقول فى كتابه :

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

فساعةَ يأتى البأسُ ونتضرع إلى الله ؛ يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذِّكْر ؛ وأعادنا إلى الله الذى لن يزيل البأس إلا هو .

أما الذى يتمرد ويستعلى على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد . والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلطف بمَنْ يدعوه.

وتساءَل بعضهم : ولماذا لم يَقُلْ يعقوب ما علَّمنا إياه رسولنا ﷺ:

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[البقرة]

---

(١) حقيقة البث فى اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها. قال الحسن : بثى : حاجتى . وقيل : أشد الحزن . [راجع : تفسير القرطبى ٥/٣٥٨٦] .

ونقـول : إن هذا من النعم التى اخـتصَّ بهـا الحق سـبحـانه أمـةَ محـمد ﷺ ؛ وحـين دخل بعـضـهم على علىّ بن أبى طالـب ـ كَرَّم الله وجهـه وأرضاه ـ وكـان يعانى من وَعْكة ، وكـان يتأوَّه ، فـقالوا له : يا أبا الحسن أتتوجَّع ؟ قال : أنا لا أشجع على الله .

وهنا فى الآية ـ التى نحن بصـدد خواطرنا عنهـا ـ يعلن يعـقوب عليـه السلام أنه لا يشكو حُـزْنه وهَمَّه إلا إلى الله ، فـهو القـادر على كشف الضُّرِّ ؛ لأن يعقـوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجدانه ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الـذئب المكذوبة أن يوسف مـا زال حَـياً ، وأن الرُّؤيا التى حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول :

﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ(1) مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

ونلحظ أن الذيـن غـابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنـيـامـين ، والأخ

---

(1) تحسـس الشىء وتحسس منه : طلب مـعرفـته بالبحث الـدقيق عنه . قال تـعالى : ﴿يَـٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف] . أى : تتبعـوا أخبارهما وابحثـوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .

الأكبر الذى أصرَّ على ألاَّ يبرح مصر إلا بعد أن يأذنَ أبوه ، أو يأتى فرج من الله .

وهنا فى هذه الآية جاء ذكْر يوسف وأخيه ، ولم يَأْتِ ذكْر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذى عانى من مناهضة بقية الإخوة ، وهما قد فارقا الأب صغاراً ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وأن يعود فى الوقت الذى يريد .

وقول يعقوب :

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوسف]

نجد فيه كلمة ﴿ تحسسوا ﴾ ، وهى من الحسِّ ، والحسُّ يُجمع على « حواس » ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المُحسَّة ، وتدركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هى قنواتُ المعرفة ، وهى غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواسَّ أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر فى مرَّاتٍ كثيرة سابقة .

وقوله :

﴿ فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوسف]

يعنى أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كى تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أُطلقَتْ على مَنْ يتنصَّتْ ويرى ويشُمُّ رائحة الأخبار والتحرُّكات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له « عين » أيضاً .

وفى عُرْفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الأخبار « شَمْ شِمْ لنا على حكاية الأمر الفلانى » .

وتابع يعقوب القول :

﴿ لاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ[1] اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

أى : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا وتحايلنا ؛ ولم نجد حلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال لله رحمة .

والأثر يقول : « لا كَرْبَ وأنت رَبٌّ » .

وما يَعِزُّ عليك بقانونك الجأ فيه إلى الله .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ « أنه كلما حَزَبه أمر قام وصلى »[2] .

وبهذا لجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسبحانه فوق كل الأسباب ، وجَرِّبوا ذلك فى أىِّ أمر يُعضلكم ، ولن ينتهى الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد حَلاً لِمَا أعضَله .

---

(١) الرَّوْح : الرحمة. سماها روحاً لأن الرَّوح والراحة بها. وقوله : ﴿ لا تيأسوا من رَّوْحِ اللَّه .. (٨٧) ﴾ [يوسف] أى : لا تقنطوا من فرج الله . قاله ابن زيد . يريد أن المؤمن يرجو فرج الله . [راجع : القرطبى فى تفسيره ٣٥٨٧/٥] و [لسان العرب ـ مادة : روح] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٨/٥) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

وكلمة « رَوْح » نجدها تُنطَق على طريقتين « رَوْح » و « رُوح »، و « الرَّوْح » هى الرائحة التى تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلما يجلس إنسان فى يوم قَيْظ[1] ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة]

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسَّات حين يشتد القيظ ، ونجلس فى بستان ، وتهبُّ نسمة هواء ؛ فيتعطر الجو بما فى البستان من زهور .

والرُّوح[2] هى التى ينفخها الحقُّ سبحانه فى الجماد فيتحرك .

ويأتى هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذى يسير عليه كل مؤمن ، فيقول :

﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]

لأن الذى ليس له رَبٌّ هو مَنْ ييأس ، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن له رباً يساعد عباده .

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ؛ فسبحانه يَهبُه ممَّا فوق الأسباب .

---

(١) القيظ : صميم الصيف . واليوم القائظ : شديد الحر . [لسان العرب ـ مادة : قيظ] .

(٢) الروح بالضم : ما به حياة النفس ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴿٩﴾﴾ [السجدة] . أى : من سر الحياة التى لا يخلقها إلا الله ، أى : بروح من الله لا من غيره ، بروح لا يملك نفخها فى الإنسان إلا الله . [القاموس القويم ١/ ٢٨٠] .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله . أتحدى أن يوجد مؤمن ليس فى حياته مثل هذه الأمور ، ما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله ، وسوف يجد فى لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ؛ لأن الله هو الرصيد النهائى للمؤمن .

وهَبْ أنك سائر فى الطريق ، وفى جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ؛ هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إنْ كان فى بيتك عشرة جنيهات فحزنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه ، ولو كان رصيدك فى البنك ألف من الجنيهات ، فلن تحزن على الجنيه الذى ضاع .

ومَنْ له رَبٌّ ، يبذل الجَهْد فى الأخذ بالأسباب ؛ سيجد الحل والفرج من أىِّ كرب مِمَّا هو فوق الأسباب .

ولماذا ييأس الإنسان ؟

إن المُلحد هو الذى ييأس ؛ لأنه لا يؤمن بإله ، ولو كان يؤمن بإله ، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كَرْب ، أو هو إله يعلم ولا يساعد مَنْ يعبده ؛ إما عجزاً أو بُخْلاً ، فهو فى كل هذه الحالات ليس إلهاً ، ولا يستحق أن يُؤمَن به .

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطى بالأسباب ، وبما فوق الأسباب ؛ وهو حين يمنع ؛ فهذا المَنْـع هو عَيْنُ العطاء ؛ لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .

وينقلنا الحق سبحانه إلى نَقْلة أخرى ؛ وهى لحظة أنْ دخلوا على يوسف عليه السلام فى مقرِّه بمصر ؛ ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ[1] فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولم يذكر الحق سبحانه اسم مَنْ دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ، والضمير فى « عليه » لا بُدَّ أنْ يعود إلى معلوم ، ونادوه بالتفخيم قائلين :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن الجوع صَيَّرنا إلى هُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب مَنْ يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ؛ فهو الأعلى وهُم الأدنى .

ويستمر قولهم :

---

(١) أى : ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره وهو ثمن قليل . قاله مجاهد والحسن وغير واحد . [ابن كثير ٢/٤٨٨] . وقال القرطبى (٥/٣٥٨٨) : « الإزجاء : السَّوْق بدفع والمعنى : أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد » .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحسسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مَدْخل الترقيق والتفخيم كلَوْن من المكْر ، فالتفخيم بندائه بلقب العزيز ؛ أى : المالك المُتمكِّن ؛ ويعنى هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر فى متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هُزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضائع مُزجاة ، أى : بضاعة تُستخدم كأثمان لِمَا سوف يأخذونه من سلَع .

وكلمة : ﴿ مُّزْجَاةٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : مدفوعة من الذى يشترى أو يبيع .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[1] .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور]

وكلمة « يزجى » بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) الرَّكْم : جمعك شيئاً فوق شىء حتى تجعله رُكاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب ونحو ذلك من الشىء المرتكم على بعضه . وارتكم الشىء وتراكم إذا اجتمع . [لسان العرب - مادة : ركم] .

ولكى تعرف المعنى بإحساسك ؛ جَرِّب هذا الأمر فى نفسك ، وراقب كيف تدفع ثمن أىِّ شىء تشتريه ؛ فإنْ كان معك نقود قديمة ونقود جديدة ؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛ وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشترى منه : « خذ هذه الورقة النقدية القديمة التى تدفعها لى ، واستبدلها لى بورقة جديدة » .

فما دامت النقود سوف تُدفع ؛ فأنت تريد أن تتخلص من النقود القديمة ؛ وتفعل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكننا أن نفهم معنى :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

على أنها بضاعة رديئة .

فكأن الضُّرَّ الذى أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للمَيْرة التى سوف يأخذونها ، مثل الأثمان السابقة التى تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يرجونه أن يُوفِّى لهم الكيل ولا ينقصه ؛ إنْ كان ما جاءوا به من أثمان لا يُوفى ما تساويه المَيْرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك التَّوْفية فى الكَيْل صدقة .

وبذلك ردُّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة البشر على الدَّفْع ؛ لأن الصدقة إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى.

ولقائل أن يسأل : أليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟

نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختصَّ به الحق سبحانه آل محمد ﷺ ، وهو أمر خاص بأمة محمد ﷺ ، فقد قال ﷺ : « إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس »[1] .

وانظر إلى ما فعلته الترقيقات التى قالوها ؛ نظر إليهم يوسف عليه السلام وتبسم ، ولما تبسَّم ظهرت ثناياه[2] ، وهى ثنايا مميزة عن ثنايا جميع مَنْ رأوه .

وجاء الحق سبحانه بما قاله :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾

ومجىء هذا القول فى صيغة السؤال ؛ يدفعهم إلى التأمل والتدقيق ؛ لمعرفة شخصية المُتحدِّث .

ثم يأتى التلطُّف الجميل منه حين يضيف :

﴿ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾ [يوسف]

وفى هذا القول ما يلتمس لهم به العُذْر بالجهل ، ولم يتحدث

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٦٦) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٧٢) كتاب الزكاة من حديث عبدالمطلب بن ربيعة بلفظ : « ألا إن الصدقة لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » .

(٢) ثنايا الإنسان فى فمه هى : الأسنان الأربع التى فى مُقدَّم فمه : ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل . [لسان العرب ـ مادة : ثنى] .

إليـهم بعزَّة الكبـرياء ، وغـرور المكانة التى وصل إليـها ، وهدفـه أن يخفف عنهم صَدْمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم.

وهذا مثلمـا يكون أحدهم قـد أخطأ فى حقِّك قـديماً بسلوك غـير مقبول ، ولكن الأيام أزالتْ مرارتك من سلوكه ، فتُذكِّره بما فعله قديماً وأنت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طَيْشك ، لكنك الآن قد وصلتَ إلى درجة التعقُّل وفَهْم الأمور .

وقـول يوسف عليـه السـلام لهم هذا الأمـر بهـذه الصـيـغـة من التلطُّف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثُّره بشكواهم ، ثم تبسُّمه لهم ، وظهور ثناياه دفـعهم إلى تذكُّـره[1] ، ودار بينهم وبينه الحـوار الذى جاء فى الآية التالية :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ[2] ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ ﴾

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرَّفوا عليه ، وقالوا :

﴿ أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ .. ٩٠ ﴾ [يوسف]

---

(١) كـان يوسف عليه السـلام إذا تبسَّم كأن ثناياه اللؤلؤ المـنظوم ، قال ابن عـباس : تبسَّم يوسف ، فشـبَّهوه بيـوسف فقالوا له على جـهة الاستفـهام : ﴿ أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ .. ٩٠ ﴾ [يوسف] . وفى هذا روايات أخرى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٩١) .

(٢) مَنَّ عليه : أنعم عليـه وأحسن إليه . قـال القرطبى فى تفسيـره (٥/٣٥٩١) : « أى : قد مَنَّ الله علينا بالنجاة والملك » بتصرف .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريرىّ الذى أكّدوه بـ « إنْ » و « اللام » ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُمتلئة بالفرح والتعجُّب بنجاحهم فى التحسُّس الذى أوصاهم به أبوهم .

فَردَّ عليهم :

﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخَ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذكْر يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه فى النعمة ، وأن الحق سبحانه قد أعزَّ الاثنين .

ويجىء شُكْر يوسف لله على نعمته فى قوله :

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

وجاء يوسف بهذا القول الذى يعرض القضية العامة التى تنفعهم كإخوة له ، وتنفع أىَّ سامع لها وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف عليه السلام بعد بيِّنة من واقع أحداث مرَّتْ به بَدْءً من الرُّؤيا إلى هذا الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع مُعَاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف وأخيه مما ابْتُلِيا به واجتمعا من بعد الفُرْقة ، وعلَّل يوسف ذلك بالقول :

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

أى : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات

الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تفتُر همَّته عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصى مهما زُيِّنَتْ له .

فسبحانه وتعالى لا يُضيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا بتقواهم مُستحقِّين لرحمته ، وإحسانه فى الدنيا والآخرة .

ويأتى قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله إخوة يوسف فى هذا الموقف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

و « تالله » قَسَم بالله .

و ﴿ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف]

أى : خصَّك بشىء فوق ما خَصَّ به الآخرين ، وهو لم يُؤْثِرْك بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما آثرك به من المُلْك وعلو الشأن والمكانة .

وهكذا صدَّق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا مُقرَّبين مثله عند أبيهم ، ولكنك يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدَّماً عند ربِّ أبينا وربِّ العالمين.

والشأن والحال التى كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بُدَّ أن ننتبه إلى الفَرْق بين « خاطئين » و « مخطئين » .

والعزيز قد قال لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هى : «الخاء » و « الطاء » و «الهمزة » ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطئ هو مَنْ يعلم منطقة الصواب ويتعدَّاها ، أما المُخْطئ فهو مَنْ لم يذهب إلى الصواب ؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لإخوته بعد أن أقرُّوا بالخطأ :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢) ﴾

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من الثَّرْب ؛ فحين يذبحون ذبيحة ، ويُخرِجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْناً كثيفاً ؛ هذا الدُّهْن يُسمَّى ثَرْب .

أما إن كانت هزيلة ، ولم تتغذَّ جيداً ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب من عليه هذا الثَّرْب .

والتثريب يعنى : أن اللوم العنيف قد أذابَ الشحم من لحمه ، وجعل دمه ينزّ ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسلّه .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إذا زنت أَمَةُ أحدكم فتبيَّن[1] زناها فليجلدها الحدّ ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إن زنت فليجلدها الحد ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إنْ زنت الثالثة فتبيّن زِنَاها فَلْيبِعْها ، ولو بحبل من شعر »[2] .

أى : لا يقولن لها : يا مَنْ فعلتِ كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذى أنزله الله لمثل هذه الجريمة ؛ فإن لم ترتدع عن الفعل فَلْيبِعْها ، وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يُولِّد العِناد .

وقال يوسف عليه السلام :

﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك ؛ وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل ؟

ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت فى حدود معرفته، ولتصفية النفوس مما شابها بهذا اللقاء .

وقوله :

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

هو فَهْمٌ لحقيقة أن أىَّ رحمة فى العالم ، أو من أى أحد إنما هى مُستمدّة من رحمته سبحانه .

---

(١) قال النووى فى شرحه لمسلم (١١/٢٢٣) : « معنى تبيُّن زناها تحققه ، إما بالبينة ، وإما برؤية ، أو علم عند من يُجوِّز القضاء بالعلم فى الحدود » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفَا عنهم ؛ والله أَوْلَى منه بالعفو عنهم .

ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف لإخوته ، وهو الذى علِم ما حدث لأبيه بعد فراقه له :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وكان يوسف عليه السلام ، قد علم أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السِّير أن أخاه الأكبر الذى رفض أن يبرح مصر ، وقال :

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف]

قد قال ليوسف :

« يـٰأيها العزيز إننى أنا الذى حملتُ القميص بدم كذب إلى أبى ، فدعْنى أحمل هذا القميص لأبى ، كى تمحو هذه تلك »[1] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٥٩٣) : « حكى السدى أن الذى حمل قميصه يهوذا . قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذى أحمله الآن لأسرّه ، وليعود إليه بصره ، فحمله » .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

و نلحظ أنه لم يَقُلْ : « وجه أبيكم » .

وفى قوله :

﴿ وَجْهِ أَبِي .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

إشارة إلى الحنان الأبوى الذى فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده فى الحزن .

و .

﴿ يَأْتِ بَصِيراً .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

أى : يرتدّ إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾ [يوسف]

هذا تعبير قُرآنى دقيق ، أن يُحضروا معهم كل مَنْ يَمُتُّ بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم [1] ، ولم يَقُلْ يوسف « بآلكم » حتى لا يأتوا بالأعيان فقط .

ونلحظ أنه لم يذكر والده فى أمر يوسف لإخوته أن يأتوه بكل مَنْ يمُتُّ لهم بصلة قُرْبى ؛ لأن فى مثل هذا الأمر ـ من موقع عزيز مصر ـ إجباراً للأب على المجىء ، وهو يُجِلُّ أباه عن ذلك .

---

(١) قال مسروق : كانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . القرطبى فى تفسيره (٣٥٩٣/٥) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ[1] لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ[2] ﴿٩٤﴾ ﴾

و « فصلت » تدل على شيء كان مُلْتصقاً بشيء آخر وانفصل عنه ، وفَصلت العيرُ . أى : خرجتْ منْ المدينة وتجاوزتْها ؛ لتسير فى رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدةً مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف]

والمعروف أن القميص الذى أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فأضاف :

﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لولا اتهامكم لى بالخَرف ، لأن التفنيد هو الخرف[3] .

---

(١) ريح يوسف : أى ريحاً تحمل رائحته ، أو الريح بمعنى الرائحة أى رائحته . [القاموس القويم ١/٢٨٠] .

(٢) فَنَد : ضعف رأيه من الهرم ، أو كذب عامداً ، وأتى بالباطل . وفنَّد رأيه : أضعفه وأبطله ، أو بيَّن ما فيه من الخطأ . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٣) الخرف : فساد العقل من الكِبَر . [لسان العرب ـ مادة : خرف] .

ومن العجيب أننا فى أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صُورَ المرائى والأصوات ، توجد لها آثار فى الجو ، رغم ما يُخيَّل للإنسان أنها تلاشتْ .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أىٍّ جماعة كانت تجلس فى مكان ما ، ثم رحلتْ عنه منذ ساعة أو ساعتين ، مِمَّا يدلُّ على أن الصور لها نضح من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات ؛ فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا ؛ ويقولون : لا شيءَ يضيع فى الكون ، بل كل ما وُجِد فيه محفوظ بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشُمُّ الريح من على مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر الكلاب المدرَّبة فى المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أىَّ محاولة لتهريب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة من بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبحث الآن فى كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء المحيط بالإنسان ؛ فعلينا أن ندرك أن العيرَ عندما خرجتْ من أسوار المدينة ؛ وأخذتْ طريقها إلى الموقع الذى يعيش فيه يعقوب عليه السلام ؛ استطاع يعقوبُ بقدرة الله أن يَشُمَّ رائحة يوسف ؛ تلك التى يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسُّم يعقوب لرائحة يوسف بخروج العِير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

نقول : لأن العيرَ لحظة تواجدها فى المدينة تكون رائحة قميص يوسف مُخْتلطة بغيرها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى داخل أى مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح ؛ ويختلف الأمر فى الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشى هَبَّة الرائحة دون أن يعترضها شىء .

وبذلك نؤمن أن كل شىء فى الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

وكل ما يصدر منك مُسجَّل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لِتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويردُّ مَنْ بقى من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد رِيحَ يوسف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾

وكأنهم قد ملُّوا حديثه عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنُون الضلال[1] بمعنى الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنُونَ الضلال بمعنى الجزئيات التى لا علاقة لها بالتديُّن من محبة شديدة ليوسف ، وتعلُّق به ، والتمنِّى لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقُّع لقائه ، وهم الذين ظَنُّوا أن يوسف قد مات .

---

(١) الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحبوب وكثرة السؤال عنه والبحث المتلاحق مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى].

ويأتى البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وحين حضر البشير[1] ، وهو كما تقول الروايات كبير الإخوة ؛ ويُقال أيضاً : إنه يهوذا ؛ وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن يأذن له والده ، أو يأتى حَلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين فى مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقة ، طبقاً لما أراده يوسف ليستبقى شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف ؛ فألقاه على وجه الأب تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفَرِح يعقوب فرحاً شديداً ؛ لأنه فى أيام حزنه على يوسف ، وابيضاض عينيه من كثرة البكاء حدَّثه قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً ؛ وكان البكاء عليه من بعد ذلك هو بكاء من فَرْط الشوق لرؤية ابنه .

---

(١) البشير : الذي يُبشِّر القوم بالخبر السارّ . قيل : هو شمعون . وقيل : يهوذا . قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلَطَّخاً بالدم . قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة (الحزن) فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة . [تفسير القرطبى ٣٥٩٦/٥] .

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحى من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يردُّ إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرح له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلَّتْ انتصارات الحقِّ والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦)﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطى الثقة والتوثيق لأخبار كل نبى ، وأن الواقع قد أيَّد الكلام الذى قاله لهم :

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا[1] مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف]

فإذا جاءكم خبر من معصوم ؛ إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مُدْركات الأشياء على قَدْرها ، وهناك أشياء فوق مُدْركات العقول .

وحين يُحدِّثكم معصوم عن ما فوق مُدْركات عقولكم إياكم أن تُكذِّبوه ؛ سواء فهمتم ما حدَّثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عَمَّا فوق مُدْركات العقول .

---

(١) تحسس الشيء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ (٨٧)﴾ [يوسف] . أي : تتبعوا أخبارهما و ابحثوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .

راجعه على الأصل وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ محمد السنراوى المستشار بالأزهر والأستاذ عادل أبو المعاطى .

وهنا يُقِر إخوة يوسف بذنوبهم ، فيقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾

وهم هنا يُقِرُّون بالذنب ، ويُحدِّثون والدهم بنداء الأبوة كى يستغفر لهم ما ارتكبوه من ذنوب كثيرة ، فقد آذَوْا أباهم وجعلوه حزيناً ، ولا يسقط مثل هذا الذنب إلا بأن يُقِرَّ به مَنْ فعله ، ونلحظ أنهم قالوا :

﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف]

أى : أنهم كانوا يعلمون الصواب ، ولم يفعلوه .

ويأتى الحق سبحانه بما قاله يعقوب :

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

ونلحظ أن يوسف قد قال لهم من قبل :

﴿لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

[يوسف]

لكن والدهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول :

---

(١) ثربه : لامه وعتب عليه . وثرَّبه بالتضعيف : أكثر لومه وعيَّره بذنبه وأنَّبه على سوء فعله .
[القاموس القويم ١/١٠٦] .

﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى..(٩٨) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : « سأستغفر لكم ربى » ، وهذا يدل على أن الكبار يحتاجون لوقت أكبر من وقت الشباب ؛ لذلك أجَّل يعقوب الاستغفار لما بعد .

والشيخ الألوسى فى تفسيره يقول :

« إنما كان ذلك لأن مطلوبات البر من الأخ لإخوته غير مطلوبات البر من ابن لأبيه ؛ لأن الأخ ليس له نفس حق الأب ؛ لذلك يكون غضب الأب أشدَّ من غضب الأخ » .

ثم إن ذنوبهم هنا هى من الذنوب الكبيرة التى مرّ عليها وعلى تأثيرها على الأب زمن طويل . ويقال : إن يعقوب عليه السلام قد أخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحَر ، لأن الدعاء فيه مُستجَاب .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك إلى لحظة اللقاء بين يوسف عليه السلام وأهله كلهم ، بعد أن انتقلوا إلى حيث يعيش يوسف ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ[1] إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) ﴾

ونعلم أن الجَدَّ إسحق لم يكُنْ موجوداً ، وكانوا يُغلِّبون جهة الأُبوة على جهة الأمومة ، ودخلت معهم الخالة ؛ لأن الأم كانت غير موجودة[2] .

---

(١) آوى : ضمَّه إليه وأسكنه عنده أو أنزله فى بيت . [القاموس القويم ١/٤٥] .

(٢) أم يوسف وبنيامين هى « راحيل » ، وقد ماتت فى نفاس بنيامين . راجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٥٩٨ .

ويبدو أن يوسف قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء ، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم ؛ وهذا هو الدخول الأول الذى آوى فيه أبويْه .

ثم دخل بهم الدخول الثانى إلى البلد بدليل أنه قال :

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)﴾ [يوسف]

ففى الآية دخولان .

وقول الحق سبحانه :

﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ .. (٩٩)﴾ [يوسف]

يدل على حرارة اللقاء لمغتربين يجمعهم حنان ، فالأب كان يشتاق لرؤية ابنه ، ولا بُدَّ أنه قد سمع من إخوته عن مكانته ومنزلته ، والابن كان مُتشوِّقاً للقاء أبيه .

وانفعالات اللقاء عادة تُترك لعواطف البشر ، ولا تقنينَ لها ، فهى انفعالات خاصة تكون مزيجاً من الود ، ومن المحبة ، ومن الاحترام ، ومن غير ذلك .

فهناك مَنْ تلقاه وتكتفى بأن تُسلّم عليه مُصَافحة ، وآخر تلتقى به ويغلبُك شوقُك فتحتضنه ، وتقول ما شئتَ من ألفاظ الترحيب .

كل تلك الانفعالات بلا تقنين عبادىّ ، بدليل أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه ، وأخذهما فى حضنه .

والمثل من حياة رسولنا ﷺ فى سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين ، وكان فى يده ﷺ قدح يعدل به الصفوف ، فمرَّ بسواد بن غزية من بنى عدى بن النجار[١] ، وهو مستنصل[٢] عن الصف - أى خارج عنه ، مما جعل الصف على غير استواء - فطعن رسول الله ﷺ فى بطنه بالقدح وقال له : « استَوِ يا سواد » .

فقال سواد : أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْنى[٣] .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال ﷺ : « استقد » . فاعتنقه سَواد وقَبَّل بطنه .

فقال ﷺ : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ » .

قال : يا رسولَ الله ، قد حضر ما ترى - يقصد الحرب - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جِلْدى جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بالخير[٤] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) انظر ترجمة سواد بن غزية فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣/١٤٨) .

(٢) تنصَّلت الشيء واستنصلته إذا استخرجته . [لسان العرب - مادة : نصل] .

(٣) القَوَد : القصاص . وإذا أتى إنسان إلى آخر أمراً فانتقم منه بمثلها قيل : استقادها منه . [لسان العرب - مادة : قود] .

(٤) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٢٦) طبعة المكتبة العلمية - بيروت ، وكذا ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية ٣/٢٧١ » .

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ[1] عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا[2] ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

وقد رفع يوسف أبويه على العرش لأنه لم يحب التميُّز عنهم ؛ وهذا سلوك يدل على المحبة والتقدير والإكرام .

والعرش هو سرير الملك الذى يدير منه الحاكم أمور الحكم . وهم قد خَرُّوا سُجَّداً لله من أجل جمع شمل العائلة ، ولم يخروا سُجَّداً ليوسف ، بل خَرُّوا سُجَّداً لمن يُخَرّ سجوداً إليه ، وهو الله .

وللذين حاولوا نقاش أمر سجود آل يعقوب ليوسف أقول : هل أنتم أكثر غَيْرةً على الله منه سبحانه ؟

---

(١) أبويه : المقصود بهما هنا أبوه يعقوب عليه السلام ، وخالته زوجة أبيه ، لأن أمه راحيل كانت قد ماتت فى نفاس بنيامين . [راجع تفسير القرطبى ٥ / ٣٥٩٩] .

(٢) قال الحسن البصرى : لم يكن سجوداً ، ولكنه سنة كانت فيهم، يومئون برءوسهم إيماءً ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثورى والضحاك وغيرهما : كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم ، قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٠) : « أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة » .

إنه هو سبحانه الذى قال ذلك ، وهو سبحانه الذى أمر الملائكة من قَبْل بالسجود لآدم[١] فلماذا تأخذوا هذا القول على أنه سجود لآدم؟

والمؤمن الحق يأخذ مسألة سجود الملائكة لآدم ؛ على أنه تنفيذ لأمر الحق سبحانه للهَمِّ بالسجود لآدم ، فآدم خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ؛ وأمر الملائكة أن تسجد لآدم شكراً لله الذى خلق هذا الخَلْق .

وكذلك سجود آل يعقوب ليوسف هو شكر لله الذى جمع شملهم ، وهو سبحانه الذى قال هذا القول ، ولم يُجرِّم سبحانه هذا الفعل منهم[٢] ، بدليل أنهم قَدَّموا تحية ليوسف هو قادر أن يردَّها بمثلها .

ولم يكن سجودهم له بغرض العبادة ؛ لأن العبادة هى الأمور التى تُفعل من الأدنى تقرُّباً للأعلى ، ولا يقابلها المعبود بمثلها ؛ فإنْ كانت عبادة لغير الله فالله سبحانه يُعاقب عليها ؛ وتلك هى الأمور المُحرَّمة .

أما العبادة لله فهى اتباع أوامره وتجنُّب نواهيه ؛ إذن : فالسجود هنا استجابة لنداء الشكر من الكل أمام الإفراج بعد الهم والحزن وسبحانه يُثيب عليها . أما التحية يُقدِّمها العبد ، ويستطيع العبد الآخر أن يردَّ بمثلها أو خَيْرٍ منها ، فهذا أمر لا يحرمه الله ، ولا دَخْل للعبادة به[٣] .

---

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا .. ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة] .

(٢) نسخ الله ذلك كله فى شرعنا ، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء . قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة . [راجع : تفسير القرطبى ٥/٣٦٠٠] .

(٣) عن أنس رضى الله عنه قال : « قلنا يا رسول الله ، أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : لا . قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضاً ؟ قال : لا . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضاً ؟ قال : نعم » أورده القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٠) وعزاه لابن عبدالبر فى التمهيد .

لذلك يجب أن نفطن إلى أن هذه المسألة يجب أن تُحرَّر تحريراً منطقيّاً يتفق مع معطيات اللغة ومقتضى الحال ، ولو نظرنا إلى وضع يعقوب عليه السلام ، وما كان فيه من أحزان وموقف إخوته بين عذاب الضمير على ما فعلوا وما لاقوه من متاعب لأيقنا أن السجود المراد به شكر من بيده مقاليد الأمور بدلاً من خلق فجوات بلا مبرر وَهُمْ حين سجدوا ليوسف ؛ هل فعلوا ذلك بدون علم الله ؟ طبعاً لا .

ومن بعد ذلك نجد قول يوسف لأبيه :

﴿ وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ..(١٠٠) ﴾ [يوسف]

وقد كانت الرُّؤيا هى أول لَقْطة فى قصة يوسف عليه السلام حيث قال الحق ما جاء على لسان يوسف لأبيه :

﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ(٤) ﴾ [يوسف]

وقوله فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

أى : أمراً واقعاً ، وقد رآه والد يوسف وإخوته لحظة أنْ سجدوا ليوسف سجودَ الشكر والتحية لا سجود عبادة ، وقد سجد الإخوة الأحد عشر والأب والخالة التى تقوم مقام الأم ، ورؤيا الأنبياء كما نعلم لا بُدَّ أن تصير واقعاً .

ولقائل أن يقول : وماذا عن رُؤْيا إبراهيم عليه السلام التى أمره

فيها الحق سبحانه أن يذبح ابنه ؛ فقام إلى تنفيذها ؛ واستسلم إسماعيل لأمر الرُّؤْيا .

نقول : إن الأنبياء وحدهم هم الملتزمون شرعاً بتنفيذ رؤاهم ؛ لأن الشيطان لا يُخايلهم ؛ فهم معصومون من مخايلة الشيطان .

أما إنْ جاء إنسان وقال : لقد جاءتني رؤيا تقول لي نَفِّذ كذا . نقول له : أنت غير مُلْزم بتنفيذ ما تراه في منامك من رُؤَى ؛ فليس عليك حكم شرعي يلزمك بذلك ؛ فضلاً عن أن الشيطان يستطيع أن يُخايلك .

أما تنفيذ إبراهيم عليه السلام لما رآه في المنام بأن عليه أن يذبح ابنه ، وقيام إبراهيم بمحاولة تنفيذ ذلك ؛ فسببه أنه يعلم بالتزامه الشرعي بتنفيذ الرُّؤْيا .

وقد جاء لنا الحق سبحانه بهذا الذي حدث ليبين لنا عِظَم الابتلاءات التي مرَّتْ على إبراهيم ، وكيف حاول أن يتم كل ما توجهه له السماء من أوامر ، وأن ينفذ ذلك بدقّة .

وقال الحق سبحانه مُصوِّراً ذلك :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ[1] إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) ابتلاه : اختبره ليعرف أمره وحاله. وبلوت الشيء : امتحنته واختبرته . قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء] أي : نختبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والنعم ، لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . [القاموس القويم ١/ ٨٤] .

وكانت قمة الابتلاءات هى أن يُنفِّذ بيديه عملية ذبح الابن ؛ ولذلك أؤكد دائماً على أن الأنبياء وحدهم هم المُلْزمون بتنفيذ رُؤاهم ، أما أى إنسان آخر إنْ جاءته رُؤْيا تخالف المنهج ؛ فعليه أن يعتبرها من نزغ الشيطان .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ .. (١٠٠)﴾ [يوسف]

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا لم يذكر يوسف الأحداثَ الجِسَام التى مرَّتْ به فى تَسلسُلها ؛ مثل إلقاء إخوته له فى الجُبِّ ؟

نقول : لم يُرِدْ يوسف أن يذكر ما يُكدِّر صَفْو اللقاء بين العائلة من بعد طول فراق . ولكنه جاء بما مرّ به من بعد ذلك ، من أنه صار عبدًا ، وكيف دخل السجن ؛ لأنه لم يستسلم لِغُواية امرأة العزيز ، وكيف مَنَّ الله عليه بإخراجه من السجن ، وما أن خرج من السجن حتى ظهرت النعمة ، ويكفى أنه صار حاكماً .

وقد يقول قائل : إن القصة هنا غير مُنْسجمة مع بعضها ، لأن بعضاً من المواقف تُذكر ؛ وبعضها لا يُذْكر .

نقول : إن القصة مُنْسجمة تماماً ، وهناك فارق بين قصص التاريخ كتاريخ ؛ وبين قَصص يوضح المواقف الهامة فى التاريخ .

والمناسبة فى هذه الآية هى اجتماع الإخوة والأب والخالة ، ولا داعى لذكر ما يُنغِّص هذا اللقاء ؛ خصوصاً ؛ وأن يوسف قد قال من قبل :

﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ [يوسف]

وسبق أن قال لهم بلطف من يلتمس لهم العذر بالجهل :

﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾ [يوسف]

وهو هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يذكر إحسان الحق سبحانه له فيقول :

﴿ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ويُثنى على الله شاكراً إحسانه فيقول :

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وهو إحسان له فى ذاته ، ثم يذكر إحسان الله إلى بقية أهله :

﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وكلمة « أحسن » - كما نعلم - مرة تتعدى بـ إلى ، فتقول : « أحسن إليه » ، ومرة تتعدى بالباء ، فنقول : « أحسن به » ، وهو هنا فى مجال « أحسن بى » .

أى : أن الإحسان بسببه قد تعلَّق بكل ما اتصل به ؛ فجعله حاكماً ، وجاء بأهله من البدو[2] ؛ أما الإحسان إليه فيكون محصوراً فى ذاته لا يتعداه .

---

(١) ثرَّب عليه : لامه وعيَّره بذنبه ، وذكَّره به . والمثرِّب : المُعيِّر . قال ثعلب : معنى الآية : أى لا تُذْكَر ذنوبكم . [لسان العرب ـ مادة : ثرب] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٢) : «يُروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواشٍ وبرية . وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسكنها » .

وجعل الحق سبحانه الإحسان هنا قسمين : قسم لذاته ؛ وقسم للغير ، واعتبر مجيء الأهل من البدو إحساناً إليه ، لأن البَدْو قوم يعيشون على الفطرة والانعزالات الأسرية ، ولا تَوطُّن لهم فى مكان ، ولا يضمُّهم مجتمع ، وليس لهم بيوتٌ مبنية يستقرُّون فيها ، ولكنهم يتبعون أرزاقهم من منابت الكلأ ومساقط المياه ، ويحملون رِحَالهم إلى ظهر الجمال متنقلين من مكان لآخر .

وتخلو حياتهم من نِعَم الحضارة . ففى الحضر يحضر إليك كل ما تطلب ، ولكن الحياة فى البدو تُحتِّم أن يذهب الإنسان إلى حيث يجد الخير ؛ ولذلك تستقر الحياة فى الحضر عنها فى البادية .

ويعطينا الشاعر أحمد[1] شوقى ـ رحمة الله عليه ـ صورة تبين الفارق بين البدو والحضر ، حين صنع مناظرة بين واحدة تتعصب للبدو ، وأخرى تتعصب للحضر . فقال :

فَأنا منَ البِيدِ[2] يا ابن جُرَيج ... ومِنْ هذه العيشَة الجَافِيه
ومن حَالبِ الشاةِ فى موضعٍ ... ومن مُوقدِ النارِ فى نَاحِيه
مُغَنِّيكُمو معبدٌ والغَريق ... وقَيْنتنا الضبع العَاوِيه
هُمْ يأكلونَ فُنونَ الطهاةِ ... ونحن نأكل ما طَهَت المَاشِيه

فابن جريج يشكو السَّأم من حياة البادية ، حيث لا يرى إلا المناظر المُعَادة من حلْبٍ لشاة ، أو إشعال نار ، ولا يسمع كأهل

---

(١) أحمد شوقى من شعراء الإبداع ، وهو أمير الشعراء فى العصر الحديث ، وما زالت إمارة الشعر عنده .

(٢) البيد : جمع بيداء . وهى الصحراء المستوية ، قليلة الشجر جرداء ، سُميت بذلك لأنها تبيد سالكها . والإبادة : الإهلاك . [لسان العرب ـ مادة : بيد] .

الحضر صـوت المُغنِّين المشهورين فى ذلـك الزمن ؛ بل يسمع صوت الضِّبَاع العاوية ، ولا يأكل مثل أهل الحضر ما قام بِطَهْيِه الطُّهاة ؛ بل يأكل اللبن وهو ما تقدمه لهم الماشية .

وتردُّ ليلى المتعصِّبة للبادية :

قد اعتسفتْ هِنْدُ يا ابنَ جـرَيج وكانت عـلى مَهْـدها قَاسيه

فَمَـا البِيـد إلاّ دِيَارُ الكرَام ومـنزلةُ الـذِّمَـمِ الـوَاقِـيـه

لها قِبْـلةُ الشمسِ عنـد البُزُوغِ وللحضَـرِ الـقبـلةُ الثَّـانيـه

ونحنُ الرَّياحِـين مِلْء الفـضاء وهُــنَّ الرَّياحِــينُ فـى آنـيه

ويَقْتُلنا العِـشْـقُ والحَاضِـراتُ يَقُـمْنَ من العِشق فى غَامِـيه

وقولها « اعـتسفت » يعنى « ظلمت » ، أى : أن هنداً ظلمت الـبيد يا ابن جـريج ، ثم جاءت بمـيزات البدو ؛ فـأوضحت أن بنات الـبادية كالريـاحين المزروعـة فى الفضـاء الواسع ، عكس بنات الحَضَـر التى تشبه الواحدة منهن الريحـانة المزروعة فى أُصص الزرع ، أو أى آنية أخرى .

ثم تأتى إلى القـيم ؛ فـتـفـخر أن بنت البـادية يقـتلهـا العِـشْق ، ولا تنال مـمَّنْ تعشـق شيـئاً ؛ فـتنسلّ وتمـوت ، أمـا بنت الحَضـر ؛ فصحتها تأتى على الحب .

وهنا فى الآية ـ التى نحن بصـدد خواطرنا عنهـا ـ يشكر يوسف ما مَنَّ به الله عليـه ، وعلى أهله الذين جاء بهم سـبحـانه من البادية ، ليعـيشوا فى مـصر ذات الحضـارة الواسعة ؛ وبذلك يكون قـد ضخَّم

الفرق بين ما كانوا يعيشون فيه من شَظَف[1] العيش إلى حياة اللين والدَّعة[2] .

ثم يلمس ما كان من إخوته تجاهه فيقول :

﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ[3] الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ..(١٠٠)﴾ [يوسف]

وهذا مَسٌّ لطيف لما حدث ، وقد نسبه يوسف للشيطان ؛ وصَوَّره على أنه « نَزْغ » .

أي : أنه لم يكن أمراً مستقراً على درجة واحدة من السوء . أي : أن ما فعله الشيطان هو مجرد وَخْزة تُنبِّه إلى الشيء الضار فيندفع له الإنسان ، وهي مأخوذة من المِهْماز الذي يُروِّض به مدرب الخيل أيَّ حصان ، فهو ينغزه بالمِهْماز نزغة خفيفة ، فيستمع وينفذ ما أمره به ، فالنَّغْز تنبيه لمهمة ، ويختلف عن الطَّعْن .

والحق سبحانه ينبهنا إلى ما يفعله الشيطان ؛ فيقول لنا :

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ..(٢٠٠)﴾ [الأعراف]

وكُلٌّ منَّا يعلم أن الشيطان عدوٌّ له عداوة مُسبقة ، وحين تستعيذ بالله من الشيطان ، فأنت تكتسب حَصَانة من الشيطان .

وسبحانه القائل :

---

(١) الشظف : يُبْس العيش وشدته [لسان العرب ـ مادة : شظف] .

(٢) الدعة : الراحة والترف في العيش . [لسان العرب ـ مادة : ودع] بتصرف .

(٣) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ بين الرجلين : أفسد ما بينهما . قال تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠)﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم ـ مادة : نزغ] بتصرف .

﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ[1] مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾

[الأعراف]

أى : أن الإنسان حين يتذكر العداوة بينه وبين الشيطان ؛ فعليه أن يشحن نفسه بالمناعة الإيمانية ضد هذا النَّزْغ .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقول يوسف :

﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

فسبحانه هو المدبر الذى لا تَخْفى عليه خافية أبداً ، وكلمة « لُطْف » ضد كلمة « كثافة » فاللطيف هو الذى له جِرْم دقيق ، والشىء كلما لَطُف عَنُفَ ؛ لأنه لا توجد عوائق تمنعه .

ولا شىء يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شىء ، فهو يجمع بين اللُّطْف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه أىُّ شىء ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شىء ، وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعِلْمه سبحانه مُطْلق ، وهو حكيم يُجرى كل حَدَث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أىَّ شىء ، فهو صاحب الكمال المطلق .

ويذكر الحق سبحانه بعد ذلك مناجاة يوسف لله سبحانه :

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ[2] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ﴾

---

(١) الطائف من الشيطان : مسُّه للإنسان بالوسوسة فهو يأتيه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه إلا ذكر الله . [القاموس القويم ١ / ٤١٠] .

(٢) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم فهو فاطر . قال تعالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (١٠١) ﴾ [يوسف]خالقهما . وفى اللفظ معنى الشق فإنهما كانت رتقاً ففتقهما . وقوله : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. (٥١) ﴾ [الإسراء] أى : خلقكم أول مرة فى الدنيا . [القاموس القويم ٢/ ٨٥] .

ونعلم أن الربوبية تعنى الخَلْق من عدم ، والإمداد من عدم ؛ والإقاتة لاستبقاء الحياة ، والتزاوج لاستباق النسل ، وتسير كل هذه العمليات فى تناسق كبير .

فالحق سبحانه أوجد من عدم ، واستبقى الحياة الذاتية بالقوت ، واستبقى الحياة النوعية بما أباح من تزاوج وتكاثر .

وكل مخلوق له حَظٌّ فى عطاء الربوبية ، مؤمناً كان أم كافراً ، وكل مخلوقات الكون مُسخَّرة لكل الخلق ، فسبحانه هو الذى استدعى الخَلْق إلى الوجود ؛ ولذلك تكفل بما يحقق لهم الحياة .

ويختص الحق سبحانه عباده المؤمنين بعطاء آخر بالإضافة لعطاء الربوبية ؛ وهو عطاء الألوهية المتمثل فى المنهج .

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه هو الذى أعطاه تلك السيادة ، وهذا النفوذ والسلطان ؛ فلا أحد يملك قَهْراً عن الله ؛ وحتى الظالم لا يملك قهراً عن الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى من القرآن :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وإتيان المُلْك لا توجد فيه مقاومة ممَّنْ يملك ؛ ولكن نَزْع المُلْك هو الذى يقاومه المنزوع منه .

والحق سبحانه هو أيضاً الذى يُعِز مَنْ يشاء ، وهو الذى يُذِل مَنْ يشاء .

وحين تتغلغل هذه الآية فى نفس المؤمن ؛ فهو يُوقِن أنه لا مفرَّ من القدر ، وأن إيتاء المُلْك خير ، وأن نزع الملك خير ، وأن الإعزاز خير والإذلال خير ؛ كى لا يطغى الإنسان ، ولا يتكبر ، ولا يُعدِّل فى إيمان غيره .

وكان بعض الناس يقولون : لا بد أن تُقدر محذوفاً فى الآية .

وهم قد قالوا ذلك بدعوى الظن أن هناك خيرين فى الآية وشَرَّيْن محذوفين.

وأقول : لا ، إن ما تظنه أيها الإنسان أنه شر إنما هو خير يريده الله ؛ فكل ما يُجريه الله خير .

وقول يوسف عليه السلام هنا :

﴿آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ .. (١٠١)﴾ [يوسف]

يقتضى أن نفهم معنى « المُلْك » ؛ ومعنى « المِلْك » ، ولذا أن نعرف أن كل إنسان له شىء يملكه ؛ مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته ، ومثل ذلك من أشياء ، وهذا ما يُسمَّى : « المِلْك » . أما « المُلْك » فهو أن تملك مَنْ يملك .

وقد ملَّك الله بعضاً من خَلْقه لخلقه ، ملَّكهم أولاً ما فى حوزتهم ، وملَّكهم غيرهم ، وسبحانه ينزع المُلْك من واحد ويهبه لآخر ، كى لا تصبح المسألة رَتَابة ذات .

ومثال هذا : هو ما حدث لشاه إيران ، وكان له المُلْك ، وعنده كل أسباب الحضارة ، وفي طَوْعه جيش قوي ، ثم شاء الحق سبحانه أن ينزع منه المُلْك ، فقام غيره بتفكيك المسامير غير المرئية التي كان الشاه يُثبِّت بها عرشه ؛ فزال عنه المُلْك .

وأنت في هذه الدنيا تملك السيطرة على جوارحك ؛ تقول لليد « إضربي فلان » فتضرب يدُك فلاناً ، إلى أن يأتي اليوم الآخر فلا يملك الإنسان السيطرة على جوارحه ؛ لأن المُلْك يومها يكون لله وحده ، فسبحانه القائل :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ففي اليوم الآخر تنتفي كل الولايات ، وتكون الولاية لله وحده . وبجانب « المُلْك » و « المِلْك » ؛ هناك الملكوت ، وهو ما لا تراه بأجهزة الحواس .

وسبحانه يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام]

أي : أن الحق سبحانه قد كشف لإبراهيم أسرار العالم الخفية من المخلوقات ، وأنت ترى العلماء وهم يتتبعون أسرار ممالك النباتات والحيوانات ؛ فتتعجب من دقة خَلْق الله .

ومَنْ وهبه الله دقة العلم وبصيرة العلماء ، يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ، ويستخرج الأسرار ، ويستنبط الحقائق .

ويضيف يوسف عليه السلام في مناجاته لربه :

﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

وهو يعترف بفضل الله عليه حين اختصه بالقدرة على تأويل الأحاديث ؛ تلك التى أوَّل بها رُؤْيا الفتييْن اللذين كانا معه فى السجن ؛ وأوَّل رؤيا الملك ؛ هذا التأويل الذى قاده إلى الحكم ، وليس هذا غريباً أو عجيباً بالنسبة لقدرة الله سبحانه .

ويقول يوسف شاكراً لله :

﴿ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٠١) ﴾ [يوسف]

وما دام سبحانه هو خالق كل شىء ؛ فليس غريباً أن يُعلِّمه سبحانه ما شاء ، وكأن إيمان يوسف قد وصل به إلى أن يعلم ما قاله الحق سبحانه :

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ونحن فى حياتنا نجد الذى صنع جهازاً يستفيد منه غيره ؛ يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة ، حتى ولو كانت نورجاً[١] أو مِحْراثاً ؛ وذلك ليضمن للجهاز الحركة السَّوِيَّة التى يؤدى بها الجهاز عمله .

والواحد منا إن تعطلت منه السيارة يستدعى الميكانيكى الذى ينظر ما فيها ؛ فإن كان أميناً ، فهو يُشخِّص بدقَّة ما تحتاجه السيارة ، ويُصلحها ، وإن كان غير أمين ستجده يُفسد الصالح ، ويزيد من الأعمال التى لا تحتاجها السيارة .

(١) النورج : آلة لدراس الحبوب يجره الحيوان والمحراث آلة الحرث .

وهكذا نرى أن كل صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟

إنه خبير عليم بكل شىء .

ولماذا قال يوسف عن الحق سبحانه :

﴿ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٠١) ﴾ [يوسف]

لأنه يعلم أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان ؛ والإنسان له بداية ونهاية ، لا يعلمها أحد غير الله سبحانه ، فقد يموت الإنسان وعمره يوم ، أو يموت فى بطن أمه ، أو بعد مائة سنة ، وتمر على الإنسان الأغيار .

أما السماوات والأرض فهى مخلوقات ثابتة ، فالشمس لا تحتاج إلى قطعة غيار ، ولم تقع ، وتعطى الدفء للأرض ، وهى مرفوعة عن الأرض ؛ لا تقع عليها بمشيئة الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

واسمع قوله الحق :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

فالإنسان يتغير ويموت ؛ أما السماوات والأرض فثابتة إلى ما شاء الله .

ويقول يوسف عليه السلام مواصلاً المناجاة لله :

﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ..(١٠١)﴾ [يوسف]

وصحيح أن الحق سبحانه ولىّ ليوسف فى الدنيا ، وقد نصره وقرَّبه وأعانه ؛ بدليل كل ما مرَّ به من عقبات ، ويرجو يوسف ويدعو ألاّ يقتصر عطاء الله له فى الدنيا الفانية ، وأن يثيبه أيضاً فى الباقية ، الآخرة .

وما دام سبحانه وليَّه فى الدنيا والآخرة ؛ فيوسف يدعوه :

﴿توَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾ [يوسف]

وقوله : ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِماً (١٠١)﴾ [يوسف]

إنما بسبب أن يكون أهلاً لعطاء الله له فى الآخرة ؛ فقد أخذ يوسف عطاء الدنيا واستمتع به ، ومتّع به ، ومشى فيه بما يُرضِى الله .

وعند تمنِّى يوسف للوفاة وقف العلماء ، وقالوا : ما تمناها أحد إلا يوسف .

فالإنسان إن كان مُوفّقاً فى الدنيا ، تجده دائم الطموح ، وتوَّاقاً إلى المزيد من الخير .

وتحمل لنا ذاكرة التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[1] أنه قَبِل الإمارة ، حينما كانوا يجيئون له بثوب ناعم ؛ كان يطلب

---

(١) هو : أبو حفص الخليفة الصالح ، من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام ، ولد ٦١ هـ ونشأ بالمدينة ، وولى إمارتها للوليد. ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وولى الخلافة سنة ٩٩ هـ . ولم تطل مدته فقد مات عام ١٠١ هـ عن ٤١ عاماً . (الأعلام للزركلى ٥ / ٥٠) .

الأكثر منه نُعومة ، وإذا جِيءَ له بطعام ليِّن ؛ كان يطلب الأكثر لُيونة .

وحين صار خليفة ؛ كانوا يأتونه بالثوب ؛ فيطلب الأكثر خشونة ، وظن مَنْ حوله أنه لم يَعُدْ منطقياً مع نفسه ، ولم يفهموا أن له نفساً توّاقة إلى الأفضل ؛ تستشرف الأعلى دائماً ، فحينما تَاقَ إلى الإمارة جاءتْه ؛ وحين تاق إلى الخلافة جاءتْه ، ولم يَبْقَ بعدها إلا الجنة[1] .

ونجد ميمون بن مهران وكان ملازماً له ؛ رضى الله عنهما ؛ دخل عليه مرة فوجده يسأل ربَّه الموت . فقال : يا أمير المؤمنين ، أتسأل ربك الموت وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً ؛ فأحييْتَ سُنناً ، وأَمَتَّ بِدعاً ؛ وبقاؤك خير للمسلمين ؟

فقال عمر بن عبد العزيز : ألا أكون كالعبد الصالح حينما أتمَّ الله عليه نعمته قال :

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

مكونة من شِقَّين :

الشق الأول : طلب الموت .

والشق الثانى : أن يموت مسلماً .

وكلُّنا يُتوفَّى دون أن يطلب ، وعلى ذلك يكون الشق الأول غير

---

(١) قال عمر بن عبدالعزيز : إن نفسى هذه تواقة ، لم تعط من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ، فلما أعطيت الخلافة التى لا شىء أفضل منها تاقت إلى ما هو أفضل منها . قال سعيد بن عامر : الجنة أفضل من الخلافة . [حلية الأولياء ٥/٣٣١] .

مطلوب فى ذاته ؛ لأنه واقع لا محالة ، ويصبح المطلوب - إذن - هو الشق الثانى ، وهو أن يتوفاه الله مسلماً ؛ ولذلك حين نأتى إلى القبور نقول : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، وإنَّا إنْ شاء الله بكم لاحقون[1] .

وإنْ قال سائل : ولماذا نقول إن شاء الله بكم لاحقون ، رغم أننا سنموت حَتْماً ؟

نقول : إن قولنا « إن شاء الله » سببه هو رغبتنا أن نلحق بهم كمؤمنين .

وأيضاً قد يسأل سائل : لماذا يقول نبى لربه :

﴿ وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وهل هناك صالح يأتى إلى هذا العالم دون أن يهتدى بمنهج نبى مرسل ؟

نقول : إن كلمة « الصالحين » تضم الأنبياء وغيرهم من الذين آمنوا برسالة السماء .

وهكذا انتهت قصة يوسف عليه السلام[2] ؛ ولذلك يتجه الحق

---

(١) عن بريدة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ، فكان قائلهم يقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، إنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم فرطنا ونحن لكم تبع ، ونسأل الله لنا ولكم العافية » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٥٣ ، ٣٥٩) ، ومسلم فى صحيحه (٩٧٥) .

(٢) تُوفِّى يوسف عليه السلام بمصر ، وكان عمره ١٠٧ عاماً ، يذكر القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٠٥) أنه دفن فى النيل فى صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاحَّ الناس عليه ، كل يحب أن يُدفن فى محلتهم ، لما يرجون من بركته ، واجتمعوا على ذلك حتى هَمُّوا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه فى النيل من حيث مفرق الماء بمصر ، فيمر عليه الماء ، ثم يتفرق فى جميع مصر ، فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النيل ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه » .

سبحانه من بعد تلك النهاية إلى المُراد من القصة التى جاءتْ مكتملة فى سورة كاملة ، غير بقية قَصَص القرآن التى تتناثر أىٌّ منها فى لقطات متفرقة بمواقع مختلفة من القرآن الكريم .

وذلك باستثناء قصة نوح التى جاءت مكتملة أيضاً ، لدرجة أن بعض السطحيين قالوا « إن هذا تكرار للقصة فى لقطات مختلفة » ودائماً أقول رداً على ذلك : إنه تأسيس للقطات ؛ إن اجتمعت جاءت القصة كاملة .

وشاء الحق سبحانه أن تأتى اللقطات متفرقة ؛ لأن كل لَقْطة إنما جاءت لمناسبة ما ، وكل القَصَص القرآنى قد جاء لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ ؛ لأنه خلال عمره الرِّسالى الذى استمر ثلاثة وعشرين عاماً تعرَّض لأحداث جسَام . وكل لحظة كانت تحتاج لتثبيت ، فيُنزل الحق سبحانه ما يُثبِّت به فؤاد[1] رسوله ﷺ فيوضح له فى موقع ما : لا تحزن ؛ لأن مَنْ سبقك من الرسل حدث معهم كذا[2] .

بل قد تجد فى الواقعة الواحدة لقطتيْن ، مثلما جاء فى العداوة بين موسى وفرعون .

قال الحق سبحانه :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[3] .. ⦗٨⦘ ﴾ [القصص]

وهنا تكون العداوة من طرف موسى .

---

(١) يقول تعالى فى كتابه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ⦗١٢٠⦘ ﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ⦗٤⦘ ﴾ [فاطر] .

(٣) الحُزْن والحَزَن : الهَمّ والغَمّ . [القاموس القويم ١/١٥٢] .

ويقول فى نفس المسألة أيضاً :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

وهنا تكون العداوة من جهتين ؛ لأن العداوة تتفاعل حين تكون من جهتين ، فلا يمكن أن يستمر عداءٌ من طرف واحد ، وتقوم من أجل هذا العداء معركة ، لكن حين تكون العداوة من جهتين فهذا يُطيل أَمَد المعركة .

والمثل الثانى هو قول الحق سبحانه فى نفس قصة موسى ؛ وهى لقطة متقدمة حدثتْ فى الأيام الأولى من حياة موسى ، وقبل أن تُلقيه أمه فى اليَمِّ ؛ فقد مهَّد الله لها الأمر .

يقول الحق سبحانه عن ذلك :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص]

وهذا شَحْذٌ لهمَّتها قبل الحادث ، وتنبيه لها من قبل أن يقع ، ولحظةَ أن جاء الحادث نفسه أوحى لها الحق سبحانه :

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

والذين قالوا : إن قَصص القرآن جاء مُبعثراً ، قد نسوا أن قصة نوح جاءت فى موقع واحد ، وجاءت سورة يوسف مَحْبوكة من أول الرؤيا إلى تولِّى المُلْك ، وجمع شَمْل العائلة .

ونزلت القصة فى سورة واحدة بعد أن سألوا عنها ؛ وهم يعلمون

أن محمداً ﷺ لم يجلس إلى مُعلِّم ، ولم يقرأ فى كتاب ، وتاريخه معروف بالنسبة لهم ، وحين يأتى لهم مُوضِّحاً أن الحق سبحانه قد أنزل عليه ، فكذَّبوه ؛ وادَّعَوْا أنه يسمع لقطة من هنا ؛ ولقطة من هناك . حين سألوه أن يأتى بقصة يوسف جاء بها كاملة ؛ من أولها إلى آخرها .

ويقول الحق سبحانه فى نهاية القصة :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ[1] وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

و « ذلك » إشارة إلى هذه القصة ، والخطاب مُوجَّه إلى محمد ﷺ أى : أنك يا محمد لم تكُنْ معهم حين قالوا :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ..﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

فالحق سبحانه أخبرك بأنباء لم تكن حاضراً لأحداثها ، والغيب - كما علمنا من قبل - هو ما غاب عنك ، ولم يَغِبْ عن غيرك ، وهو غيب نسبىّ ؛ وهناك الغيب المُطْلق ، وهو الذى يغيب عنك وعن أمثالك من البشر .

والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز :

الأول : هو حاجز الزمن الماضى الذى لم تشهده ؛ أو حاجز الزمن المستقبل الذى لم يأْتِ بَعْد .

---

(١) أجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . وأجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه . قال تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه] . [القاموس القويم ١/١٢٧] .

والثانى : هو حاجز المكان .

والثالث : هو حاجز الحاضر ، بمعنى أن هناك أشياء تحدثُ فى مكان أنت لا توجد فيه ، فلا تعرف من أحداثه شيئاً .

و ﴿ **نُوحِيهِ إِلَيْكَ .. (١٠٢)** ﴾ [يوسف]

أى نُعلمك به بطَرْف خَفىّ ، حين اجتمعوا ليتفقوا ، إما أن يقتلوا يوسف ، أو يُلْقوه فى غَيابة[1] الجب .

وكشف لك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمر لم يُعلمه لرسول الله ؛ ولم يشهد ﷺ ما دار بين الإخوة مباشرة ، أو سماعاً من مُعلِّم ، ولم يقرأ عنه ؛ لأنه ﷺ أُمِىّ لم يتعلم القراءة أو الكتابة .

وسبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ[2] بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)** ﴾ [العنكبوت]

وهم بشهادتهم يعلمون كل حركة لرسول الله ﷺ قبل أن يُبعث ؛ إقامة وترْحالاً والتقاءً بأىِّ أحد .

فلو علموا أنه قرأ كتاباً لكانت لهم حُجَّة ، وحتى الأمر الذى غابتْ عنهم فطْنتهم فيه ؛ وقالوا :

---

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستر ما اختبأ فيه (القاموس القويم ٢/ ٦٤)
والجب : هى البئر التى لم تُبْن بالحجارة .

(٢) الخط : السطر والكتابة . خط الكتابة يخطه خطاً : كتبه . قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨) ﴾ [العنكبوت] أى : قبل القرآن ما كنت قارئاً ولا كاتباً . [القاموس القويم ١/ ١٩٨] .

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

فَرَدَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وأبطل الحق سبحانه هذه الحجة ، وقد قَصَّ الحق سبحانه على رسوله الكثير من أنباء الغيب ، وسبق أن قلنا الكثير عن : « ما كُنَّات القرآن » ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ[2] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

فكأن مصدر علم الرسول بكل ذلك هو من إخبار الله له .

وقد استقبل أهل الكفر ما طلبوا أن يعرفوه من قصة يوسف

---

(١) القلم : السهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه ، وكانوا يستعملونه فى القمار أو فى القرعة ومن استعماله فى القرعة ، قوله : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران] فالأقلام هنا سهام الاقتراع ، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا فكفل مريم . [القاموس القويم ٢/١٣٢] .

(٢) هو : الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى . [ابن كثير ٣/٣٩١] .

باللدد[1] والجحود ـ وهم قد طلبوا مطلبهم هذا بتأسيس من اليهود ـ وهو ﷺ جاء لهم بقصة يوسف فى مكان واحد ، ودفعة واحدة ، وفى سورة واحدة ، لا فى لقطات متعددة منثورة كأغلب قصص القرآن .

وقد جاء لهم بها كاملة ؛ لأنهم لم يطلبوا جزئية منها ؛ وإنما سألوه عن القصة بتمامها ، وتوقعوا أن يعزف عن ذلك ، لكنه لم يعزف ، بل جاء لهم بما طلبوه .

وكان يجب أن يلتفتوا إلى أن الله هو الذى أرسله ، وهو الذى علَّمه ؛ وهو الذى أنبأه ، لكنهم لم يؤمنوا ، وعَزَّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فأوضح له سبحانه : لا تبتئس ولا تيأس :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

ويقول له سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

فأنت يا رسول الله عليك البلاغ فقط ، ويذكر الحق ذلك ليُسلِّى رسوله ﷺ حين رأى لدد الكافرين ؛ بعد أن جاء لهم بما طلبوه ، ثم جحدوه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]

---

(١) لدَّ يلدُّ : اشتد فى الجدل والخصومة . والألدُّ : اسم تفضيل أى الأشد خصومة وجدلاً . قال تعالى : ﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة] [القاموس القويم ١٩١/٢] .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [لسان العرب ـ مادة : بخع] .

وهم قد جحدوا ما جاء به رسول الله ﷺ ؛ لأنهم حرصوا على السلطة الزمنية فقط ، وكان من الواجب أن يؤمنوا بما جاءهم به ، لكن العناد هو الذى وقف بينهم وبين حقيقة اليقين وحقيقة الإيمان .

وأنت لا تستطيع أن تواجه المُعَاند بحجة أو بمنطق ، فهم يريدون أن يظل الضعفاء عبيداً ، وأن يكونوا مسيطرين على الخَلْق بجبروتهم ، والدين سيُسوِّى بين الناس جميعاً ، وهم يكرهون تلك المسألة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقضية كونية ، فيقول :

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين ؛ ولو حرصت على ذلك ، وكان ﷺ شديد الحرص على أن يؤمن قومه ، فهو منهم .

ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ (١) حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

لكنهم جحدوا ما جاءهم به ؛ وقد أحزنه ذلك الأمر . وفى الحرص نجد آية خاصة باليهود ؛ هؤلاء الذين دفعوا أهل مكة أن يسألوا الرسول ﷺ عن قصة يوسف ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشق عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ .. ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : كلفكم الأمور الشاقة التى توقعكم فى العنت [القاموس القويم ٢/٣٩] .

وكان على أهل مكة أن يؤمنوا ما دام قد ثبت لهم بالبينات أنه رسول من الله .

وجاء قوله الحق :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يوسف]

جاء ذلك القولُ تسليةً من الحق سبحانه لرسوله ، وليؤكد له أن ذلك ليس حال أهل مكة فقط ، ولكن هذه هى طبيعة معظم الناس . لماذا ؟

لأن أغلبهم لا يُحسن قياس ما يعطيه له منهج الله فى الدنيا والآخرة ، والإنسان حين يُقبل على منهج الله ، يقيس الإقبال على هذا المنهج بما يُعطيه له فى الآخرة ؛ فلسوف يعلم أنه مهما أعطى لنفسه من مُتَع الدنيا فعُمْره فيها مَوْقُوت بالقَدْر الذى قدَّره له الله ، والحياة يمكن أن تنتهى عند أية لحظة .

والحق سبحانه حين خبأ عن الناس أعمارهم فى الدنيا ، لم يكُنْ هذا الإخفاء إبهاماً كما يظن البعض ، وهذا الإبهام هو فى حقيقته عَيْن البيان ، فإشاعة حدوث الموت فى أى زمن يجعل الإنسان فى حالة ترقُّب .

ولذلك فميتات الفُجَاءة لها حكمة أن يعرف كل إنسان أن الموت لا سببَ له ، بل هو سبب فى حَدِّ ذاته ؛ سواء كان الموت فى حادثة أو بسبب مرض أو فجأة ، فالإنسان يتمتع فى الدنيا على حسب عمره المحدد الموقوت عند الله سبحانه ، أما فى الآخرة فإنه يتمتع على قدر إمدادات الخالق سبحانه .

والإنسان المؤمن يقيس استمتاعه فى الآخرة بقدرة الله على العطاء ، وبإمكانات الحق لا إمكانات الخَلْق .

وهَبْ أن إنساناً معزولاً عن أمر الآخرة ، أى : أنه كافر بالآخرة وأخذها على أساس الدنيا فقط ، نقول له : انظر إلى ما يُطلب منك نهياً ؛ وما يُطلب منك أمراً ، ولا تجعله لذاتك فقط ، بل اجعله للمقابل لك من الملايين غيرك .

سوف تجد أن نواهى المنهج إن منعتْك عن شر تفعله بغيرك ؛ فقد منعتْ الغير أن يفعل بك الشر ، فى هذا مصلحة لك بالمقاييس المادية التى لا دَخْل للدين بها .

ويجب أن نأخذ هذه المسألة فى إطار قضية هى « دَرْء المفسدة مُقدّم على جَلْب المصلحة » .

وهَبْ أن إنساناً مُحباً لك أمسك بتفاحة وأراد أن يقذفها لك ، بينما يوجد آخر كاره لك ، ويحاول أن يقذفك فى نفس اللحظة بحجر ، وأطلق الاثنان ما فى أيديهما تجاهك ، هنا يجب أن تردَّ الحجر قبل أن تلتقط التفاحة ، وهكذا يكون دَرْء المفسدة مُقدّماً على جَلْب المصلحة .

وعلى الإنسان أن يقيس ذلك فى كل أمر من الأمور ؛ لأن كثيراً من أدوات الحضارات أو ابتكارات المدنية أو المخترعات العلمية قد تعطينا بعضاً من النفع ، ولكن يثبت أن لها ـ من بعد ذلك ـ الكثير من الضرر .

مثال هذا : هو اختراع مادة «د. د. ت» التى قتلت بعض الحشرات ، وقتلت معها الكثير من الطيور المفيدة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء]

وعليك أن تدرس أىَّ مُخْتَرع قبل استعماله ؛ لترى نفعه وضرره قبل أن تستعمله .

وقد رأينا مَنْ يُدخِلون الكهرباء إلى بيوتهم ، يحاولون أن يرفعوا موقع « فِيَش » الكهرباء عن مستوى تناول الأطفال ؛ كى لا يضع طفل أصابعه فى تلك الفتحات فتصعقهم الكهرباء ، ووجدنا بعضاً من المهندسين قد صَمَّموا أجهزة تفصل الكهرباء آلياً إنْ لمستْها يَدُ بشر .

وهذا هو دَرْء المفسدة المُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وعلينا أن نحتاط لمثل هذه الأمور .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

وهل قوله :

﴿ أَكْثَرُ النَّاسِ .. (١٠٣) ﴾ [يوسف]

نسبةٌ للذين لا يؤمنون ، يعنى أن المؤمنين قلة ؟

---

(١) قفاه : يقفوه قفواً : مشى خلفه أو تبعه . وأصله من القفا . وقوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء] أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

نقـول : لا ؛ لأن « أكـثـــر » قـد يقـابله « أقل » ، وقـد يـقـابله « الكثير » .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

وهكذا نجد أن كلمة « كثير » قد يقابلها أيضاً كلمة « كثير » .

وقد أوضح الحق سـبحانه لرسوله ﷺ أنه لو حـرص ما استطاع أن يجـعل أكثـر الناس مـؤمنين ، والحـرْص هو تعلُّق النفس وتعـبئـة مجهود للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلبَ لنا نفعاً أو يذهب بضُرٍّ ، وهو استمساك يتطلب جهداً .

ولذلك يوضح له الحق سـبحانه : أنت لن تهـدى مَنْ تحرص على هدايته .

ويقول سبحانه :

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ .. (٣٧) ﴾ [النحل]

ومن هذه الآية نستفيد أن كل رسول عليه أن يُوطِّن نفسه على أن الناس سيعقـدون مقارنات بين البدائل النفعية ؛ وسـيقعون فى أخطاء اخـتيـار غـير الـملائم لفـائدتهم على المـدى الطويل ؛ فـوطِّنْ نفـسك يا محمد على ذلك .

وإذا كنتَ يا رســول الله قـد حـملتَ الـرســالة وتســألهم الإيمـان

لفائدتهم ، فأنت تفعل ذلك دون أجر ؛ رغم أنهم لو فَطنوا إلى الأمر لكان يجب أن يقدروا أجراً لمن يهديهم سواء[(١)] السبيل ، لأن الأجر يُعْطَى لمن يقدم لك منفعة .

والإنسان حريص على أن يدفع الأجر لمن يُعينه على منفعة ؛ والمنفعة إما أن تكون موقوتة بزمن دنيوى ينتهى ، وإما أن تكون منفعة ممتدة إلى ما لا نهاية ؛ راحة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة .

ويأتى القرآن بقول الرسل[(٢)] :

﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .. (٩٠)﴾ [الأنعام]

ولم يَقُلْ ذلك اثنان هما : إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام .

وكان العقل يقول : كان يجب على الناس لو أنها تُقدِّر التقدير السليم ؛ أن تدفع أجراً للرسول الذى يُفسِّر لهم أحوال الكون ، ويُطمئنهم على مصيرهم بعد الموت ، ويشرح لهم منهج الحق ، ويكون لهم أُسْوة حسنة .

---

(١) سواء : تدل على معنى التوسط والتعادل . فسواء السبيل : وسطه . قال تعالى : ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)﴾ [القصص] أى : وسط الطريق الموصِّل للخير . [القاموس القويم ١/٣٣٨] .

(٢) قالها نوح عليه السلام : [يونس : ٧٢] ، [هود : ٢٩] ، [الشعراء : ١٠٩] .
وقالها هود عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] .
وقالها صالح عليه السلام : [الشعراء : ١٤٥] .
وقالها لوط عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] .
وقالها شعيب عليه السلام : [الشعراء : ١٨٠] .
وقالها محمد ﷺ رسول الله : [سبأ : ٤٧] .

ونحن نجد فى عالمنا المعاصر أن الأسرة تدفع الكثير للمدرس الخصوصى الذى يُلقِّن الابن مبادىء القراءة والكتابة ، فما بالنا بمَنْ يضىء البصر والبصيرة بالهداية ؟

ومقتضى الأمر أن الرسول ﷺ يقدم نفعاً أبدياً لمن يتبعه ، لكنه لم يطلب أجراً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

وفى هذا القول الكريم ما يوضح أن النبى ﷺ لا يسأل قومه أجراً على هدايته لهم ؛ لأن أجره على الله وحده .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور]

والحق سبحانه يقول على لسان رسوله فى موقع آخر :

﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ]

وهو هنا يُعلى الأجر ، فبدلاً من أن يأخذ الأجر من محدود القدرة على الدَّفْع ، فهو يطلبها من الذى لا تُحَدّ قدرته فى إعطاء الأجر ؛ فكأن العمل الذى يقوم به لا يمكن أن يُجَازى عليه إلا من الله ؛ لأن العمل الذى يؤديه بمنهج الله ومن الله ، فلا يمكن إلا أن يكون الأجر عليه من أحد غير الله .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف]

والذكر يُطْلَق إطلاقات متعددة ، ومادة « ذال » و « كاف » و « راء » مأخوذة من الذاكرة . وعرفنا من قبل أن الإنسان له آلات استقبال هى الحواس الإنسانية ، وتنتقل المعلومات أو الخبرات منها إلى العمليات العقلية ، وتمرُّ تلك المعلومات ببؤرة الشعور ، لتُحفظ لفترة فى هذه البؤرة ، ثم تنتقل إلى حاشية الشعور ، إلى أن تستدعيها الأحداث ، فتعود مرة أخرى إلى بُؤْرة الشعور .

ولذلك أنت تقول حين تتذكر معلومة قديمة « لقد تذكرتها » ؛ كأن المعلومة كانت موجودة فى مكان ما فى نفسك ؛ لكنها لم تكُنْ فى بؤرة الشعور . وحين جاءت عملية الاستدعاء ، فهى تنتقل من حاشية الشعور إلى بُؤْرة الشعور .

والتذكُّر هو : استدعاء المعلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ..(٥)﴾ [إبراهيم]

أى : ذكِّرهم بما مَرَّ عليهم من أحداث أجراها الله ؛ وهى غير موجودة الآن فى بُؤْرة شعورهم . وسُمِّى القرآن ذكراً ؛ لأنه يُذكِّر كل مؤمن به بالله الذى تفضَّل علينا بالمنهج الذى تسير به حياتنا إلى خير الدنيا والآخرة .

فالذكر - إذن - يكون للعاقل معونة له ، وهو من ضمن رحمة الله بالخَلْق ، فلم يترك الخلقَ منشغلين بالنعمة عن مَنْ أنعمها عليهم ، فهذا الكون منظم بدِقَّة بديعة ، وفيه كل مُقوِّمات حياة البشر .

ومن فضل الله عليهم أنه أرسل الرسل مُذكِّرين لهم بهذا العطاء الربانى .

وكلمة « ذكر » تدل على أن الفطرة فى الإنسان كان يجب أن تظل واعية ذاكرة لله ، وقد قَدَّر الله غفلة الأحداث ، فجعل لهم الذكر كله فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وإذا سمعتَ « كأين » افهم أن معناها كثير كثير كثير ؛ بما يفوق الحَصْر ، ومثل « كأين » كلمة « كم » ، والعَدُّ هو مظنة الحصر ، والشيء الذى فوق الحصر ؛ تنصرف عن عَدِّه ، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً ، لكن كلاً منا يعُدُّ النقود التى يردُّها لنا البائع ، بعد أن يأخذ ثمن ما اشتريناه .

إذن : فالانصراف عن العَدِّ معناه أن الأمر الذى نريد أن نتوجه لعدِّه فوق الحصر ، ولا أحد يعُدُّ النجوم أو يحصيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُنبِّهنا إلى هذه القضية ، لإسباغ نعمه على خلقه ، ويقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ..(٣٤) ﴾ [إبراهيم]

و « إنْ » هى للأمر المشكوك فيه ، وأنتم لن تعدُّوا نعمة الله ؛ لأنها فوق الحصر ، والمعدود دائماً يكون مُكَرراً ، وذَكَر الحق هنا نعمة واحدة ، ولم يحددها ؛ لأن أىَّ نعمة تستقبلها من الله لو استقصيتها لوجدتَ فيها نِعَماً لا تُحصَر ولا تُعَدُّ .

إذن : فكلمة « كأين » تعنى « كم » ، وأنت تقول للولد الذى لم يستذكر دروسه : كم نصحتك ؟ وأنت لا تقولها إلا بعد أن يفيض بك الكيل .

وتأتى « كم » ويُراد بها تضخيم العدد ، لا منك أنت المتكلم ، ولكن ممَّنْ تُوجِّه إليه الكلام ، وكأنك تستأمنه على أنه لن ينطق إلا صِدْقاً ، أو كأنك استحضرتَ النصائح ، فوجدتها كثيرة جداً .

والسؤال عن الكمية إما أنْ يُلْقَى من المتكلم ، وإما أن يُطلب من المخاطب ؛ وطلبُه من المخاطب دليل على أنه سَيُقِرّ على نفسه ، والإقرار سيد الأدلة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فمعناها أن ما يأتى بعدها كثير..

وسبحانه القائل :

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[١] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا[٢] لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا[٣] وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾

[آل عمران]

وهكذا نفهم أن (كأين) تعنى الكثير جداً ؛ الذى بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرر لنا العذر أمام الغير إنْ لم نُحْصِه .

والآيات هى جمع « آية » ؛ وهى الشىء العجيب ، المُلْفت للنظر ، ويُقال : فلان آية فى الذكاء . أى : أن ذكاءه مَضْرب المثل ، كأمر عجيب يفوق ذكاء الآخرين .

ويُقال : فلان آية فى الشجاعة ؛ وهكذا .

ومعنى الشىء العجيب أنه هو الخارج عن المألوف ، ولا يُنسَى .

وقد نثر الحق سبحانه فى الكون آيات عجيبة ، ولكل منثور فى الكون حكمة . وتنقسم معنى الآيات إلى ثلاثٍ :

الأول : هو الآيات الكونية التى تحدثنا عنها ، وهى عجائب ؛ وهى حُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذى أوجدها ؛ وهى تلفتُك إلى أن مَنْ خلقها لا بُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدِّقة ، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه .

---

(١) الرِّبِّيُّ : العالم التقى الصابر . قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ .. (١٤٦)﴾ [آل عمران] والربى : مَنْ ربَّيته ، وهم هنا من ربَّاهم النبى فقاتلوا معه وناصروه . [القاموس القويم ١/٢٥١] .

(٢) الوهن : الضعف فى العمل والأمر . ورجل واهن فى الأمر والعمل ، وموهون فى العظم والبدن . [لسان العرب ـ مادة : وهن] .

(٣) استكان : خضع وذل . [لسان العرب ـ مادة : سكن] .

وقد نشر الحق سبحانه هذه الآيات فى الكون . وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذى خلقها ، ولم يَقُلْ أحد غيره : « أنا الذى خلقت » فهذه المسألة ـ مسألة الخلق ـ تثبُت له سبحانه ، فهو الخالق وما سواه مخلوق، وهذه الآيات قد خُلقت من أجل هدف وغاية .

وفى سورة الروم نجد آيات تجمع أغلب آيات الكون ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ[(١)] (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾ [الروم]

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود فى الكون أنه يتمتع فيه

---

(١) أظهر : دخل فى وقت الظهيرة . والظهيرة : وقت الظهر ، ويتسع إلى العصر ، قال تعالى : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨) ﴾ [النور] أى : حين تستريحون فى منازلكم بعد صلاة الظهر عادة إلى العصر [القاموس القويم ١/٤١٨] .

طبقاً لنواميس عليا ؛ فيها سِرُّ بقاء حياته ؛ فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها .

وبعد أن يتنبه إلى وجود واحد أعلى ؛ كان عليه أن يسأل : ماذا يريد منه هذا الخالق الأعلى ؟

هذه الآيات تفرض علينا عقلياً أن يوجد مَنْ يبلغنا مطلوبَ الواجد الأعلى ، وحينما يأتى رسول يقول لنا : إن مَنْ تبحثون عنه اسمه الله ؛ وهو قد بعثنى لأبلغكم بمطلوبه منكم أن تعبدوه ؛ فتتبعوا أوامره وتتجنبوا نواهيه .

والنوع الثانى من الآيات هى آيات إعجازية ، والمراد منها تثبيت دعوة الرسل ، فكان ولا بُدَّ أن يأتى كل رسول ومعه آية ؛ لتثبت صدْق بلاغه عن الله ؛ لأن كل رسول هو من البشر ، ولا بد له من آية تخرق النواميس ، وهى المعجزات التى جاءت مع الرسل .

وهناك آيات حُكْمية ، وهى **النوع الثالث** ، وهى الفواصل التى تحمل جُملاً ، فيها أحكام القرآن الكريم ؛ وهو المنهج الخاتم .

وهى آياتٌ عجيبة أيضاً ؛ لأنك لا تجد حُكْماً من أحكام الدين إلا ويمسُّ منطقياً حاجةً من حاجات النفس الإنسانية ، والبشر وإنْ كفروا سيُضطرون إلى كثير من القضايا التى كانوا ينكرونها ، ولكن لا حَلَّ للمشكلات التى يواجهونها ، ولا تُحَلّ إلا بها .

والمثل الواضح هو الطلاق ، وهم قد عَابُوا مجىء الإسلام به ؛ وقالوا : إن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير

من القسـوة على الأسرة ، لكنهم لجـأوا إليه بعـد أن عضَّتـهم أحداث الحياة ، وهكذا اهتدى العقل البشرى إلى حكم كان يناقضه .

وكذلك أمر الربا الذى يحاولون الآن وَضْع نظام ليتحللوا من الربا كله ، ويقـولون : لا شىء يمنع العـقل البـشـرى من الـتـوصُّل إلى ما يفيد .

وهكذا نجـد الآيات الكونية هى عـجـائب بكل المقـاييس ، والآيات المصـاحبة للرسل هى معـجزات خَرَقَتْ النواميس ، وآياتُ القـرآن بما فـيـهـا من أحكام تَقِى الإنسـان مـن الداء قـبل أن يقع ، وتُجـبـرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها .

وهم يُعرضون عن كل الآيات ، يُعـرضون عن آيات الكون التى إنْ دَقَّقوا فيها لَـثبتَ لهم وجود إله خالق ؛ ولأخذوا عطاءً من عطاءات الله ليسـرى تربية وتنميـة ، وكل الاكتشـافات الحديثة إنمـا جاءت نتيـجةً لملاحظاتِ ظاهرةٍ ما فى الكون .

وسبق أن ضـربتُ المثل بالرجل الذى جلس ليطهـو فى قدْر ؛ ثم رأى غطاء القدْر يعلو ؛ فـفكَّر وتساءل : لماذا يـعلو غطاء القدر ؟ ولم يُعـرِض الرجَل عن تأمُّل ذلك ، واسـتنبـاط حقـيـقة تحـوُّل المـاء إلى بخـار ؛ واستطاع عـن طريق ذلك أن يكتـشـف أن الماء حـين يتـبخـر يتمدد ؛ ويحتاج إلى حَيِّزٍ أكبر من الحَيِّز الذى كان فيه قبل التمدد .

وكـان هذا التأمُّل وراء اكـتـشاف طاقـة البـخار التـى عملتْ بهـا البواخر والقطارات ، وبـدأ عصر سُمِّى « عصـر البخار » . وهذا الذى رأى طَفْـوَ طبقٍ على سطح الماء وتـأمّل تلك الظاهرة ، ووضـع قاعـدة باسمه ، وهى « قاعدة أرشميدس » .

وهكذا نجد أن أى إنسان يتأمل الكون بدقَّة سيجد فى ظواهره ما يفيده فى الدنيا ؛ كما استفاد العالم من تأملات أرشميدس وغيره ؛ ممَّنْ قدَّموا تأملاتهم كملاحظات ، تتبعها العلماء ليصلوا إلى اختراعات تفيد البشرية .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يضِنُّ على الكافر بما يفيد العالم ما دام يتأمل ظواهر الكون ، ويستنبط منها ما يفيد البشرية .

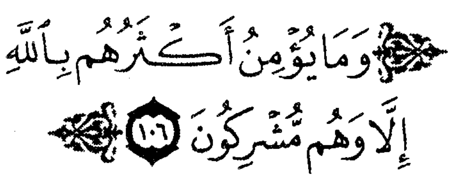
إذن : فقوله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا . . (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إنْ أردتها وسيلة للإيمان بإله ؛ فهى تقودك إلى الإيمان ؛ وإنْ أردتها لفائدة الدنيا فالحقُّ لم يبخل على كافر بأن يُعطِيه نتيجة ما يبذل من جهد .

فكل المطلوب ألاّ تمُرَّ على آيات الله وأنت مُعرِض عنها ؛ بل على الإنسان أن يُقبِل إقبال الدارس ، إما لتنتهى إلى قضية إيمانية تُثرِى حياتك ؛ وتعطيك حياة لا نهايةَ لها ، وهى حياة الآخرة ، أو تُسعِد حياتك وحياة غيرك ، بأن تبتكر أشياء تفيدك ، وتفيد البشرية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :



وهكذا نرى المصافى التى يمر بها البشر ليصلوا إلى الإيمان .

المصفى الأول : قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

أى : أن الكثير من الناس لن يَصلوا إلى الإيمان ، حتى ولو حرص الرسول ﷺ أن يكونوا مؤمنين .

وقلنا : إن مقابل « كثير » قد يكون « قليل » ، وقد يكون « كثير » ، وبعض المؤمنين قد يشوب إيمانهم شبهةٌ من الشرك ، صحيح أنهم مؤمنون بالإله الواحد ، ولكن إيمانهم ليس يقينياً ، بل إيمانٌ متذبذب ، ويُشرِكون به غيره .

والمصفى الثانى : قوله تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

ومثال هذا : كفار قريش الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

ويقول فيهم أيضاً :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

ورغم قولهم هذا إلا أنهم جعلوا شفعاء لهم عند الله ، وقالوا : إن الملائكة بنات الله ، وهكذا جعلوا لله شركاء . ومعهم كل مَنْ ادعى أن لله ابناً من أهل الكتاب .

وأيضاً مع هؤلاء يوجد بعض من المسلمين الذين يخصُّون قوماً أقوياء بالخضوع لهم خضوعاً لا يمكن أن يُسمَّى فى العرف مودة ؛ لأنه تَقرُّب ممتلىء بالذلة ؛ لأنهم يعتقدون أن لهم تأثيراً فى النفع والضر ؛ وفى هذا لون من الشرك .

ويأتى الواحد من هؤلاء ليقول لِمَنْ يتقرب منه : أرجو أن تقضى لى الأمر الفلانى . ويرد صاحب النفوذ : اعتمد على الله ، وإن شاء الله سيقضى الله لك حاجتك .

لكن صاحب الطلب يتمادى فى الذِّلة ، ليقول : وأنا أعتمد عليك أيضاً ، لتقضى لى هذه الحاجة .

أو يرد صاحب النفوذ ويقول : أنا سوف أفعل لك الشىء الفلانى ؛ والباقى على الله .

وحين أسمع ذلك فأنا أتساءل : وماذا عن الذى ليس باقياً ، أليس على الله أيضاً ؟

وينثر الله حِكَماً فى أشياء تمنَّاها أصحابها ؛ فَقُضِيتْ ؛ ثم تبين أن فيها شراً ، وهناك أشياء تمناها أصحابها ؛ فلم تُقْضَ ؛ ثم تبين أن عدم قضائها كان فيه الخير كل الخير .

نجد الأثر يقول :

وَاطلبُوا الأشياءَ بِعزَّةِ الأنفُسِ فَإِنَّ الأُمورَ تَجْرِى بِمقَادِير

وربما منعك هذا فكرهته ، وكان المنع لك خيراً من قضائه لك ، فإن المنع عَيْن العطاء ، ولذلك فعلى الإنسان أن يعرف دائماً أن الله هو الفاعل ، وهو المسبب ، وأن السبب شىء آخر .

ودائماً أذكِّر بأننا حين نحجُّ أو نعتمر نسعى بين الصفا[1] والمروة

---

(١) الصفا والمروة : جبلان بين بطحاء مكة والمسجد . وأصل الصفا العريض من الحجارة الأملس. [لسان العرب ـ مادة : صفا] . والمروة : الحجر الأبيض الهشُّ البراق . ومروة المسعى التى تُذكر مع الصفا ، وهى أحد رأسيْه اللذين ينتهى السعى إليهما سميت بذلك . [لسان العرب ـ مادة : صفا] .

لنتذكر ما فعلته سيدتنا هاجر التى سَعَتْ بين الصفا والمروة ؛ لتطلب الماء لوليدها بعد استنفدت أسبابها ؛ ثم وجدت الماء تحت رِجْل وليدها إسماعيل .

فقد أخذتْ هى بالأسباب ، فجاء لها رَبُّ الأسباب بما سألتْ عنه . ولم يَأْتِ لها الحقُّ سبحانه بالماء فى جهة الصفا أو المروة ؛ ليثبت لها القضية الأولى التى سألت عنها إبراهيم عليه السلام حين أنزلها فى هذا المكان .

فقد قالت له : ءأنزلتنا هنا برأيك ؟ أم أن الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم أمرنى ربِّى . قالت : إذن لا يضيعنا[1] .

وقد سَعَتْ هى بحثاً عن الماء أخذاً بالأسباب ، وعثرتْ على الماء بقدرة المسبِّب الأعلى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

يتطلب منا أن نعرف كيف يتسرَّب الشرك إلى الإيمان ، ولنا أن نتساءل : ما دام يوجد الإيمان ؛ فمن أين تأتى لحظة الشرك ؟

ويشرح الحق سبحانه لنا ذلك حين يقول :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ[2] دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٧) ، وحينئذ استقبل إبراهيم عليه السلام القبلة ، ثم دعا فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] .

(٢) الفلك : السفينة . للمذكر وللمؤنث ، وللواحد وللجمع . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾ [العنكبوت]

هم إذن قد آمنوا وهم فى الفُلْك ، وأخذوا يدعُون الله حين واجهتهم أزمة فى البحر(١) ؛ لكنهم ما أن وصلوا إلى الشاطىء حتى ظهر بينهم الشرك .

حين يسألهم السائل : ماذا حدث ؟

فيجيبون : أنهم كانوا قد أخذوا حذرهم ، واستعدوا بقوارب النجاة . ونَسَوْا أن الله هو الذى أنقذهم فانطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ [إبراهيم]

وفى حياتنا اليومية قد تذهب لتقضى حاجة لإنسان ؛ وبعد أن يُسَهِّل لك الله قضاء تلك الحاجة ؛ تلتفت فلا تجده ، ولا يفكر فى أن يُوجِّه لك كلمة الشكر .

وحين تلقاه يقول لك : كل ما طلبته منك وجدته مقضياً ، لقد كلَّمْتُ فلاناً فقضاها .

---

(١) يقول الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٣)﴾ [يونس] .

وهو يقول لك ذلك ليُبعد عنك ما أسبغه الله عليك من فضل قضائك لحاجته ؛ وذلك لأنه لحظة أن طلب منك مساعدته فى قضاء تلك الحاجة تذلَّل وخضع ، وبعد أن تنقضى يتصرف كفرعون ويتناسى .

ولا ينزعه من فرعنته إلا رؤياك ؛ لأنه يعلم أنك صاحب جميل عليه ، بل قد يريد بك الشر ؛ رغم أنك أنت مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأن هذه هى طبيعة الإنسان .

يقول تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

ولذلك يُقال فى المثل : « اتَّقِ شَرّ من أحسنت إليه » .

وأنت تتقى شره ، بأن تحذر أن تمُنَّ عليه بالإحسان ؛ كى لا تنمى فيه غريزة الكره لك .

والناصح يحتسب أىَّ مساعدة منه لغيره عند الله ؛ فيأخذ جزاءه من خالقه لحظة أداء فعل الخير ، ولا ينتظر شيئاً ممَّنْ فعل الخير له ؛ لأنك لا تعلم ماذا فكَّر لحظة أن أدَّيْتَ له الخدمة ، فحين يجد ترحيبَ الناس بك فى الجهة التى تُؤدِّى له الخدمة فيها ؛ قد يتساءل : لماذا يحترمونك أكثر منه ؟

وهو يسأل هذا السؤال لنفسه على الرغم من أنك مُتواجِد معه فى هذا المكان لتخدمه .

ولذلك يقول العامة هذا المثل : « اعمل الخير وارْمه فى البحر » ؛

لأن الله هو الذى يجازيك وليس البشر ؛ فاجعل كل عملك مُوجَّهاً لله ، وانْسَ أنك فعلْتَ معروفاً لأحد .

والمعروف المنكُور هو أجْدى أنواع المعروف عليك ؛ لأن الذى يُجازِى عليه هو الله ؛ وهو سبحانه مَنْ سيناولك أجره وثوابه بيده ؛ ولذلك عليك أن تنسى مَنْ أحسنتَ إليه ؛ كى يُعوِّضك الله بالخير على ما فعلت .

ويُقال فى الأثر : إن موسى عليه السلام قال : يا ربِّ ، إنى أسألك ألاّ يُقال فيّ ما ليس فىّ . فأوضح له الله : يا موسى لم أصنعها لنفسى ؛ فكيف أصنعها لك .

ويعرض الحق سبحانه هذه المسألة فى القرآن بشكل آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا[1] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[2] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ⑧ ﴾ [الزمر]

والإنسان لحظةَ أن يمسَّه الضُّر ؛ فهو يدعو الربوبية المتكفِّلة بمصالحه : يا ربِّ أنت الذى خلقتنى ، وأنت المتكفِّل بتربيتى ؛ وأنا

---

(١) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ⑩﴾ [الشورى] أى : إليه أتوب وأرجع . ومنيب اسم فاعل . وجاء جمع منيب فى قوله : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ .. ㉛﴾ [الروم] أى : راجعين إلى الله تائبين إليه. أى : كونوا تائبين وكونوا متقين . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

(٢) خوله : ملَّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/٢١٤] .

أتوكل عليك فى مصالحى ، فأنقذنى ممَّا أنا فيه .

ومثل هذا الإنسان كمثل الرُّبان الذى ينقذه الله بأعجوبة من العاصفة ؛ لكنه بعد النجاة يحاول أن ينسب نجاة السفينة من الغرق لنفسه .

ولذلك أقول دائماً : احذروا أيها المؤمنون أن تنسَوْا المُنعِم المُسبِّب فى كل شىء ، وإياكم أن تُفْتنوا بالأسباب ؛ فتغفلوا عن المُسبِّب ؛ وهو سبحانه مُعْطى الأسباب .

وأقول ذلك حتى لا تقعوا فى ظلم أنفسكم بالشرك بالله ؛ فسبحانه القائل :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا[1] إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام]

والظلم ـ كما نعلم ـ هو أن تُعطِى الحق لغير صاحبه ؛ فكيف يَجْرؤ أحد على أن يتجاهل فَضْل الله عليه ؟ فيقع فى الشرك الخفى ، والظلم الأكبر هو الشرك .

وسبحانه القائل :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أى : لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، وهو الظلم العظيم ، ولا بأى نوع من الظلم . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ[(١)] مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً[(٢)] وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

ألم يحسب هؤلاء حساب انتقام الله منهم بعذاب الدنيا الذى يَعُمُّ ؛ لأن الغاشية هى العقاب الذى يَعُمُّ ويُغطِّى الجميع ؛ أم أنهم استبطئوا الموت ، واستبطئوا القيامة وعذابها ؛ رغم أن الموت مُعلَّق على رقاب الجميع ، ولا أحد يعلم ميعاد موته .

فالرسول ﷺ يقول : « من مات قامت قيامته »[(٣)] .

فما الذى يُبطئهم عن الإيمان بالله والإخلاص التوحيدى لله ، بدون أنْ يمسَّهم شرك ؛ قبل أن تقوم قيامتهم بغتةً ؛ أى : بدون جرس تمهيدى .

ونعلم أن مَنْ سبقونا إلى الموت لا يطول عليهم الإحساس بالزمن إلى أن تقومَ قيامة كُلِّ الخَلْق ؛ لأن الزمن لا يطول إلا على مُتتبع أحداثه .

والنائم مثلاً لا يعرف كَمْ ساعةً قد نام ؛ لأن وَعْيَه مفقود فلا

---

(١) قال مجاهد : عذاب يغشاهم. وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . [تفسير القرطبى ٥ / ٣٦٠٨] .

(٢) بغته ـ بغتاً وبغتة : فاجأه على غرة وغفلة . قال تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف] .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : «أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غِنًى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة » .

يعرف الزمن ، والذى يوضح لنا أن الذين سبقونا لا يشعرون بمرور الزمن هو قوله الحق :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات]

ويأتى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ[1] أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

أى : قُلْ يا محمد هذا هو منهجى . والسبيل كما نعلم هو الطريق ، وقوله الحق :

﴿ هَٰذِهِ سَبِيلِى .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أن كلمة السبيل تأتى مرة مُؤنَّثة ، كما فى هذه الآية ، وتأتى مرة مُذكَّرة ؛ كما فى قوله الحق :

﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ[2] يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .. ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وأَعْلِنْ يا محمد أن هذه الدعوة التى جِئْتَ بها هى للإيمان بالله الواحد ؛ وسبحانه لا ينتفع بالمنهج الذى نزل عليك لِيُطبِّقه العباد ، بل

---

(١) البصيرة : نور القلب الذى يرى به حقائق الأمور ، وهى أيضاً ما يبصره القلب من الحق الواضح . والبصيرة : البيان الواضح والحجة المقنعة والطريقة البينة التى لا لَبْس فيها ولا غموض . [القاموس القويم ١ / ٧٠] بتصرف .

(٢) الغَىُّ : الفساد والضلال والخيبة . والغواية : الانهماك فى الغَىِّ . [لسان العرب ـ مادة : غوى] .

فيه صلاح حياتهم ، وسبحانه هو الله ؛ فهو الأول قبل كل شيء بلا بداية ، والباقي بعد كل موجود بلا نهاية ؛ ومع خَلْق الخَلْق الذين آمنوا هو الله ؛ وإن كفروا جميعاً هو الله ، والمسألة التكليفية بالمنهج عائدة إليكم أنتم ، فمَنْ شاء فَلْيؤمن ، ومَنْ شاء فَلْيكفر .

ولنقرأ قوله الحق:

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ[1] لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[2] ۝٢ ﴾ [الانشقاق]

فهي تنشقُّ فَوْرَ سماعها لأمر الله ، وتأتي لحظة الحساب .

وقوله الحق :

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ .. ۝١٠٨ ﴾ [يوسف]

أي : أدعو بالطريق المُوصِّل إلى الله إيماناً به وتَقبُّلاً لمنهجه ، وطلباً لما عنده من جزاء الآخرة ؛ وأنا على بصيرة مما أدعو إليه .

والبصر ـ كما نعلم ـ للمُحسَّات ، والبصيرة للمعنويات .

والبصر الحسيُّ لا يُؤدِّي نفس عمل البصيرة ؛ لأن البصيرة هي يقينٌ مصحوبٌ بنور يُقنِع النفس البشرية ، وإنْ لم تكُنْ الأمور الظاهرة مُلجئة إلى الإقناع .

ومثال هذا : أم موسى حين أوحى الله لها أن تقذف ابنها في

---

(١) أذنت : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم ١/١٦] .

(٢) حق الأمر يحق : ثبت ووجب . وحقَّ له : ثبت له . وحُقَّ له بالبناء للمجهول أثبت له . قال تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ ﴾ [الانشقاق] أي : كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/ ١٦٤] .

اليَمِّ ، ولو قاسَتْ هى هذا الأمـر بعقلها لما قَـبلَتْه ، لكنها بالبـصيرة قَبِلَتْه ؛ لأنه وارد من الله لا مُعانِدَ له من النفس البشرية .

فـالبصـيرة إذن : هى يقـين ونور مبـنى على برهان من القلب ؛ فيطيعه العبد طاعة بتفويض ، ويُقال : إن الإيمان طاعة بصيرة .

ويمكن أن نقرأ قوله الحق :

﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ .. (١٠٨) ﴾ [يوسف]

وهنا جملة كاملة ؛ ونقرأ بعدها :

﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ..(١٠٨) ﴾ [يوسف]

أو نقرأها كاملة :

﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [يوسف]

وقول الحق :

﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ .. (١٠٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه مُنزَّه تنزيهاً مطلقاً فى الذات ، فلا ذاتَ تُشبهه ؛ فـذاته ليست مـحصـورة فى القالب الـمادى مـثلك ، والمنفوخـة فيـه الروح ، وسبـحانه مُنزَّه تنزيـهاً مُطْلقاً فى الأفـعال ، فـلا فعلَ يشـبه فعله ؛ وكذلك صفاته ليست كصفات البشر ، فحين تعلم أن الله يسمع ويرى ، فخُذْ ذلك فى نطاق :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

وكذلك وجوده سبحانه ليس كوجودك ؛ لأن وجوده وجود واجد أزلىّ ، وأنت حَدَثٌ طارئ على الكون الذى خلقه سبحانه .

ولذلك قاس بعض الناس رحلة الإسراء[١] والمعراج[٢] على قدرة رسول الله ﷺ ؛ ولم ينتبهوا إلى أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أُسرى بى »[٣] .

ونزل قول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾[الإسراء]

وهكذا تعلم أن الفعل لم يكن بقوة محمد ﷺ ؛ ولكن بقوة مَنْ خلقَ الكون كله ، القادر على كل شىء ، والذى لا يُمكن لمؤمن حقٍّ أن يشرك به ، أمام هذا البرهان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾

---

(١) سرى يسرى : سار ليلاً . وأسرى به : جعله يسرى ، أو حمله معه على السير ليلاً ، وهذا يُشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ومعيناً له فى إسرائه [القاموس القويم ١/٣١٢] .

(٢) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع ، والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود ، والجمع : معارج . [القاموس القويم ٢/١٣] .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

وينتقل الحق سبحانه هنا إلى الرسل الذين سبقوا محمداً ﷺ ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء]

أى : أنهم كانوا يطلبون رسولاً من غير البشر ، وتلك مسألة لم تحدث من قبل ، ولو كانت قد حدثتْ من قَبْل ؛ لقالوا : « ولماذا فعلها الله مع غيرنا ؟ » .

ولذلك أراد سبحانه أن يَرُدَّ لهم عقولهم ؛ فقال تعالى :

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

والملائكة بطبيعتها لا تستطيع أن تحيا على الأرض ، كما أنها لا تصلح لأنْ تكون قُدْوة أو أُسْوة سلوكية للبشر .

فالحق سبحانه يقول عن الملائكة :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

والملاك لا يصلح أن يكون أُسْوة للإنسان ؛ لأن المَلَك مخلوق غيبىّ غير مُحَسٍّ من البشر ؛ ولو أراده الله رسولاً لَجسَّده بشراً ؛ ولو جعله بشراً لبقيتْ الشبهةُ قائمةً كما هى .

أو : أن الآية جاءت لتسدَّ على الناس ذرائع[1] انفتحت بعد ذلك

(١) الذريعة : الوسيلة . وقد تذرع فلان بذريعة ، أى : توسل . والجمع : الذرائع . والذريعة : السبب إلى الشىء . يقال : فلان ذريعتى إليك. أى : سببى ووُصْلتى الذى أتسبب به إليك . [لسان العرب ـ مادة : ذرع] .

على الناس فى حروب الرِّدة حين ادَّعَتْ سجاح أنها نبية مُرْسَلة .

لذلك جاء الحق سبحانه من البداية بالقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يوسف]

ليوضح لنا أن المرأة لا تكون رسولاً منه سبحانه ؛ لأن مهمة الرسول أن يلتحم بالعالم التحامَ بلاغٍ ، والمرأة مطلوب منها أن تكون سَكناً .

كما أن الرسول يُفترض فيه ألاّ يسقط عنه تكليف تعبدىّ فى أى وقت من الأوقات ؛ والمرأة يسقط عنها التكليف التعبدى أثناء الطمث [1] ، ومهمة الرسول تقتضى أن يكون مُسْتوفى الأداء التكليفى فى أىِّ وقتٍ .

ثم كيف يطلبون ذلك ولَمْ تَأْتِ فى مهام الرسل من قبل ذلك إلا رجالاً ، ولم يسأل الحق أيّاً منهم ، ولم يستأذن من أىِّ واحد من الرسل السابقين ليتولى مهمته ؛ بل تلقَّى التكليف من الله دون اختيار منه ، ويتلقى ما يُؤمر أن يُبلِّغه للناس ،ويكون الأمر بواسطة الوحى .

والوحى كما نعلم إعلام بخفاء ، ولا ينصرف على إطلاقه إلا للبلاغ عن الله . ولم يوجد رسول مُفوَّض ليبلغ ما يحب أو يُشرِّع ؛ لكن كل رسول مُكلَّف بأن ينقل ما يُبلَّغ به ، إلا محمد ﷺ ، فقد فوَّضه الحق سبحانه فى أن يُشرِّع ، ونزل فى القرآن:

﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

---

(١) طمثت المرأة تطمث : حاضت . والطمث : الدم والنكاح . [لسان العرب ـ مادة : طمث] .

ويقول الحق سبحانه عن هؤلاء الرسل السابقين أنهم :

﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

والقرية كانت تأخذ نفس مكانة المدينة فى عالمنا المعاصر . وأنت حين تزور أهل المدينة تجد عندهم الخير عكس أهل البادية ، فالبدوىّ من هؤلاء قد لا يجد ما يُقدِّمه لك ، فقد يكون ضرع الماشية قد جَفَّ ؛ أو لا يجد ما يذبحه لك من الأغنام .

والفارق بين أهل القرية وأهل البادية أن أهل القرية لهم توطُّن ؛ ويملكون قدرة التعايش مع الغير ، وترتبط مصالحهم ببعضهم البعض ، وترِقُّ حاشية[1] كل منهم للآخر ، وتتسع مداركهم بمعارف متعددة ، وليس فيهم غِلْظة أهل البادية .

فالبدوىُّ من هؤلاء لا يملك إلا الرَّحْل على ظهر جَمله ؛ ويطلب مساقط المياه ، وأماكن الكلأ[2] لما يرعاه من أغنام .

وهكذا تكون فى أهل القرى رِقَّة وعِلْم وأدبُ تناول وتعامل ؛ ولذلك لم يَأْتِ رسول من البدو كَى لا تكون معلوماته قاصرةً ، ويكون جافاً ، به غِلْظة قوْلٍ وسلوك .

والرسول يُفترض فيه أن يستقبل كل مَنْ يلتقى به بالرِّفق واللِّين وحُسْن المعاشرة ؛ لذلك يكون من أهل القرى غالباً ؛ لأنهم ليسوا قُساة ؛ وليسوا على جهل بأمور التعايش الاجتماعى .

---

(١) الحاشية : الجانب والناحية . أى : أنه يكون مهذباً دمث الطباع ، حسن السمت ، لين الجانب ، سليم الطوية .

(٢) الكلأ : العُشْب والبَقْل . وقيل : هو العشب رَطْبه ويابسُه . [لسان العرب ـ مادة : كلأ] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم إنْ كانوا غير مؤمنين بآخرة يعودون إليها ؛ ولا يعلمون متى يعودون ؛ فليأخذوا الدنيا مقْياساً ؛ ولْينظروا فى رُقْعة الأرض ؛ وينظروا ماذا حدث للمُكذِّبين بالرسل ، إنهم سيجدون أن الهلاك والعذاب قد حاقا[1] بكل مُكذِّب .

ولو أنهم ساروا فى الأرض ونظروا نظرة اعتبار ، لرأوا قُرَى مَنْ نحتوا بيوتهم فى الجبال[2] وقد عصف بها الحق سبحانه ، ولَرأوْا أن الحق قد صَبَّ سَوْط العذاب على قوم عاد وآل فرعون ، فإن لم تَخَفْ من الآخرة ؛ فعليك بالخوف من عذاب الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وهذا القول هو من لَفَتات الكَونيّات فى القرآن ، فقديماً كنا لا نعرف أن هناك غلافاً جوياً يحيط بالأرض ، ولم نكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى به الأكسوجين الذى نحتاجه للتنفس .

ولم نكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى من ضمن تمام الأرض ،

---

(١) حاق به الشىء يحيق : نزل به وأحاط به . وأحاقه الله به : أنزله . وقيل : حاق بهم العذاب أى أحاط بهم ونزل كأنه وجب عليهم . [لسان العرب ـ مادة : حيق] .

(٢) هؤلاء هم أصحاب الحجر ، قال عنهم رب العزة : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾ [الحجر] .

وأنك حين تسير على اليابسة ، فالغلاف الجوى يكون فوقك ؛ وبذلك فأنت تسير فى الأرض ؛ لأن ما فوقك من غلاف جوى هو من مُلْحقات الأرض .

والسَّيْر فى الأرض هو للسياحة فيها ، والسياحة فى الأرض نوعان : سياحة اعتبار ، وسياحة استثمار .

ويُعبِّر الحق سبحانه عن سياحة الاعتبار بقوله :

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَينظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٩)﴾ [الروم]

ويُعبِّر سبحانه عن سياحة الاستثمار بقوله :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت]

إذن : فسياحة الاعتبار هى التى تَلْفتك لقدرة الله سبحانه ، وسياحة الاستثمار هى من عمارة الأرض ، يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً .. (١٠٠)﴾ [النساء]

وأنت مُكلَّف بهذه المهمة ، بل إن ضاق عليك مكان فى الأرض فابحث عن مكان آخر ، بحسب قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

ولك أن تستثمر كما تريد ، شرطَ ألاَّ يُلهيك الاستثمار عن الاعتبار .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.. (١٠٩)﴾ [يوسف]

ويا لَيْتَ الأمر قد اقتصر على النكال[1] الذى حدث لهم فى الدنيا ؛ بل هناك نَكَالٌ أشدُّ وَطْأة فى انتظارهم فى الآخرة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وحديث الحق سبحانه عن مصير الذين كَذَّبوا ؛ يَظهر لنا كمقابل لما ينتظر المؤمنين ، ولم تذكر الآية مصير هؤلاء المُكذِّبين بالتعبير المباشر ، ويُسمُّون ذلك فى اللغة بالاحتباك[2] .

مثل ذلك قوله الحق :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وكل يوم تنقص أرض الكفر ، وتزيد رقعة الإيمان .

وهكذا يأتى العقاب من جانب الله ، ونأخذ المقابل له فى الدنيا ؛ ومرة يأتى بالثواب المقيم للمؤمنين ، ونأخذ المقابل فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يَقُلِ الحق سبحانه أنه سوف يأتى لهم بما هو أشدّ شراً من عذاب الدنيا فى اليوم الآخر ؟

---

(١) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة. قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [المائدة] أى : عقوبة زاجرة فرضها الله ليتعظ بها الناس. [القاموس القويم ٢ / ٢٨٨] .

(٢) هو نوع من أنواع الحذف ، قال السيوطى : « هو من ألطف الأنواع وأبدعها ، وقلَّ من تنبه له أو نبَّه عليه من أهل فن البلاغة ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ .. (١٧١) ﴾ [البقرة]. التقدير : ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذى ينعق ، والذى يُنعَق به ، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة « الذى ينعق » عليه ، ومن الثانى الذى يُنعق به لدلالة « الذين كفروا » عليه » [الإتقان فى علوم القرآن ٣/١٨٢] .

وأقول : إن السياق العقلى السطحى الذى ليس من الله ؛ هو الذى يمكن أن يُذكِّرهم بأن عذاب الآخرة هو أشدُّ شراً من عذاب الدنيا .

ولكن الحق سبحانه لا يقول ذلك ؛ بل عَدَل عن هذا إلى المقابل فى المؤمنين ؛ فقال :

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ [يوسف]

فإذا جاء فى الدنيا بالعذاب للكافرين ؛ ثم جاء فى الآخرة بالثواب للمُتقين ؛ أخذ من هذا المقابل أن غير المؤمنين سيكون لهم حسابٌ عسير ، وقد حذف من هنا ما يدل عليه هناك ؛ كى نعرف كيف يُحْبَك النظم القرآنى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾

وكلمة :

﴿ حَتَّىٰ (١١٠) ﴾ [يوسف]

تدل على أن هناك غاية ، وما دامتْ هناك غاية فلا بُدَّ أن بداية ما قد سبقتْها ، ونقول : « أكلتُ السمكة حتى رأسها » . أى : أن البداية كانت أَكْل السمكة ، والنهاية هى رأسها .

والبداية التى تسبق :

﴿ اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ .. (١١٠) ﴾ [يوسف]

هى قوله الحق :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وما دام الحقُّ سبحانه قد أرسلهم ؛ فهم قد ضَمنوا النصر ، ولكن النصر أبطأ ؛ فاستيأس الرسل ، وكان هذا الإبطاء مقصوداً من الحق سبحانه ؛ لأنه يريد أن يُحمِّل المؤمنين مهمة هداية حركة الحياة فى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فيجب ألا يضطلع بها إلا المُخْتَبر اختباراً دقيقاً .

ولا بُدّ أن يمر الرسول ـ الأُسْوة لمَنْ معه ـ ومَنْ يتبعه من بعده بمحن كثيرة ، ومَنْ صبر على المِحَن وخرج منها ناجحاً ؛ فهو أَهْلٌ لأن يحمل المهمة[1] .

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا[2] مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

إذن : لا بُدَّ من اختبار يُمحِّص . ونحن فى حركة حياتنا نُؤهِّل التلميذ دراسياً ؛ ليتقدم إلى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ، ثم نُؤهِّله

---

(١) مثال هذا : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة] .

(٢) خلا الأمر ، يخلو : مضى وسبق . قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر] أى : مضى وسبق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

لنَيْل شهادة إتمام الدراسة الإعدادية ؛ ثم نؤهله لنيل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ثم يلتحق بالجامعة ، ويتم اختباره سنوياً إلى أن يتخرج من الجامعة .

وإنْ أراد استكمال دراسته لنيل الماجستير والدكتوراه ، فهو يبذل المزيد من الجَهْد .

وكل تلك الرحلة من أجل أن يذهب لتولىّ مسئولية العمل الذى يُسند إليه وهو جدير بها ، فما بَالُنا بعملية بَعْث رسول إلى قوم ما ؟

لا بُدَّ إذن من تمحيصه هو ومَنْ يتبعونه ، وكى لا يبقى على العهد إلا المُوقِن تمام اليقين بأن ما يفوته من خير الدنيا ؛ سيجد خيراً أفضل منه عند الله فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : وهل من المعقول أن يستيئس الرسل ؟

نقول : فلنفهم أولاً معنى « استيأس » ؛ وهناك فرق بين « يأس » و «استيأس » ، فـ « يأس » تعنى قطع الأمل من شىء . و « استيأس » تعنى : أنه يُلِحّ على قَطع الأمل .

أى : أن الأمل لم ينقطع بعد . ومَنْ قطع الأمل هو مَنْ ليس له منفذ إلى الرجاء ، ولا ينقطع أمل إنسان إلا إنْ كان مؤمناً بأسبابه المعزولة عن مُسبِّبه الأعلى .

لكن إذا كان الله قد أعطى له الأسباب ، ثم انتهت الأسباب ، ولم تَصِلْ به إلى نتيجة ، فالمؤمن بالله هو مَنْ يقول : أنا لا تُهمّنى الأسباب ؛ لأن معى المُسبِّب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف]

ولذلك نجد أن أعلى نسبة انتحار إنما تُوجَد بين الملاحدة الكافرين ؛ لأنهم لا يملكون رصيداً إيمانياً ، يجعلهم يؤمنون أن لهم رباً فوق كل الأسباب ؛ وقادر على أن يَخْرِق النواميس .

أما المؤمن فهو يأوى إلى رُكْن شديد ، هو قدرة الحق سبحانه ، مُسبِّب كل الأسباب ، والقادر على أن يَخْرِق الأسباب .

ولماذا يستيئس الرسل ؟

لأن حرصهم على تعجُّل النصر دفع البعض منهم أن يسأل مثلما سأل المؤمنون :

﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

فضلاً عن ظَنِّهم أنهم كُذِّبوا ، والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا .. (١١٠)﴾ [يوسف]

ومادة « الكاف » ، و « الذال » و « الباء » منها « كَذَبَ » ، و« كُذبَ عليه » و « كُذِّب » . والكذب هو القول المخالف للواقع والعاقل هو من يُورِد كلامه على ذِهْنه قبل أن ينطق به .

أما فاقد الرشد الذى لا يمتلك القدرة على التدبُّر ؛ فينطق الكلام

على عَـواهِنه(١) ؛ ولا يمـرر الكلام علـى ذهنه ؛ ولذلـك يقـال عنه « مخرف » .

وقـد سـبق لنا أن شـرحنا الصـدق ، وقلنا : إنه تطابق النسـبـة الكلامـيـة مع الواقع ، والكذب هـو ألاَّ تتطابق النسـبـة الكلامـيـة مع الواقع .

ومَنْ يقول كلاماً يعلم أنه لا يطابق الواقع ؛ يقال عنه : إنه مُتعمِّد الكذب ، ومَنْ يقول كلاماً بغالبية الظن أنه لا يطابق الواقع ، ونقله عن غـيره ؛ فـهـو يكذب دون أن يُحـسب كَـذبه افتـراءً . والإنسـان الذى يتوخَّى الدِّقة ينقل الـكلام منسوباً إلى مَنْ قاله له ؛ فيقـول « أخبرنى فلان » فلا يُعَدُّ كاذباً .

ولذلك أقـول دائماً : يجب أن يُفـرِّق العلمـاء بين كذب المُـفْتـين ، وكذب الخبـر ؛ وكذب المُخْبر . فـالخبر الكاذب مسئـول عنه مَنْ تعمَّد الكذب ، أمـا الناقل للخبـر ما دام قـد نسبـه إلى مَنْ قاله ، فـموقـفه مختلف .

وفى الآية التى نحن بصـدد خـواطرنا عنهـا نجد لـهـا قـراءتين ؛ قـراءة هى : «وظنوا أنهم قـد كُـذبوا » أى : حـدَّثهم غـيـرهم كَـذباً ؛ وقراءة ثانية (٢) هى : « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا » وهى تعنى : أنهم قد

(١) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتدبره . وقيل : هو إذا لم يُبلْ أصاب أم أخطأ . وعهن الشيء إذا حـضـر ، أى : أرسل الكلام على مـا حـضـر منه وعـجل من خطأ وصـواب . [لسـان العرب ـ مادة : عهن] .

(٢) هناك قراءة ثالثة ذكـرها القرطبى فى تفسيـره (٣٦١١/٥) قال : « قرأ مجاهد وحـميد : « قـد كَذَبوا » بفـتح الكاف والذال مُـخفّـفـاً ، على معنى : وظـن قوم الرسل أن الرسل قـد كَذَبوا ، لما رأوا من تفضُّل الله عز وجل فى تأخير العذاب » .

ظنُّوا أن ما قيل لهم من كلام عن النصر هو كذب .

ولقائل أن يسأل : كيف يظن الرسل[(١)] ذلك ؟

وأقول : إن الرسول حين يطلب من قومه الإيمان ؛ يعلم أن ما يُؤكِّد صدْق رسالته هو مجيء النصر ؛ وتمرُّ عليه بعض من الخواطر خوفاً أن يقول المقاتلون الذين معه : « لقد كذب علينا » ؛ لأن الظن إخبار بالراجح .

ولا يخطر على بال الرسل أن الله سبحانه وتعالى ـ معاذ الله ـ قد كَذَبهم وعده ، ولكنهم ظَنُّوا أن النصر سيأتيهم بسرعة ؛ وأخذوا بطء مجيء النصر دليلاً على أن النصر لن يأتى .

أو : أنهم خافوا أن يُكذِّبهم الغير .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُعْلِم رسله أن النصر سيأتى فى الموعد الذى يحدده سبحانه ، ولا يعرفه أحد ، فسبحانه لا يَعْجَلُ بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

ويقول سبحانه :

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ..(١١٠)﴾ [يوسف]

---

(١) سأل عروةُ بن هشام عائشةَ رضى الله عنها عن قول الله عز وجل : ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ .. (١١٠)﴾ [يوسف] فقال : أكُذبوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا .. (١١٠)﴾ [يوسف] قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت ، فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم كَذّبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٩٥) وأورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦١١) .

وهكذا يأتى النصر بعد الزلزلة الشديدة ؛ فيكون وَقْعه كوَقْع الماء على ذى الغُلَّة[١] الصَّادى ، ولنا أن نتخيل شَوْق العطشان لكوب الماء.

وأيضاً فإن إبطاء النصر يعطى غروراً للكافرين يجعلهم يتمادون فى الغرور ، وحين يأتى النصر تتضاعف فرحة المؤمنين بالرسول ، وأيضاً يتضاعف غَمُّ الكافرين به .

ومجىء النصر للمؤمنين يقتضى وقوع هزيمة للكافرين ؛ لأن تلك هى مشيئة الله الذى يقع بَأْسه وعذابه على الكافرين به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

ونلحظ أن هذه الآية جاءت فى سورة يوسف ؛ أى : إنْ أردتَ قصة يوسف وإخوته ؛ ففى السورة كل القصة بمَراميها وأهدافها وعظَتها ، أو المهم فى كل قصص الأنبياء .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

ونعلم أن معنى القَصَص مأخوذ من قَصِّ الأثر ؛ وتتبُّعه بلا زيادة أو نقصان .

---

(١) الغلة : شدة العطش وحرارته . وبعير غَالٌّ وغَلاَّن : عطشان شديد العطش . [لسان العرب ـ مادة : غلل] والصَّدَى : شدة العطش .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

وفى أول السورة قال الحق :

﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) ﴾ [يوسف]

ونعرف أن مادة « العين » و « الباء » و « الراء » تفيد التعدية من جلىّ إلى خفىّ .

والعبْرة فى هذه القصة ـ قصة يوسف ـ وكذلك قصص القرآن كلها ؛ نأخذ منها عبْرة من الجلىِّ فيها إلى الخَفىِّ الذى نواجهه ؛ فلا نفعل الأمور السيئة ؛ ونُقدِم على الأمور الطيبة .

وحين نُقبل على العمل الطيّب الذى جاء فى أىّ قصة قرآنية ؛ وحين نبتعد عن العمل السيء الذى جاء خَبَرُه فى القصة القرآنية ؛ بذلك نكون قد أحسنَّا الفهم عن تلك القصص .

وعلى سبيل المثال : نحن نجد الظالم فى القَصَص القرآنى ؛ وفى قصة يوسف تحديداً ؛ وهو ينتكس ، فيأخذ الواحد منَّا العبرة ، ويبنى حياته على ألاّ يظلم أحداً . وحين يرى الإنسان منا المظلومَ وهو ينتصر ؛ فهو لا يحزن إنْ تعرَّض لظلم ؛ لأنه أخذ العبرة لما ينتظره من نصر بإذن الله .

ونحن نقول : « عبر النهر » أى : انتقل من شاطىء إلى شاطىء .

وكذلك قولنا « تعبر الرُّؤْيا » أى : تؤوّلها ؛ لأن الرُّؤْيا تأتى رمزية ؛ وتعبرها أى : تشرحها وتنقلها من خفىّ إلى جلىّ ؛ وإيضاح المطلوب منها .

ونَصفُ الدَّمْعة بأنها « عَبْرة » ؛ والحزن المدفون فى النفس البشرية تدل عليه الدَّمْعة .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

والعِبْرة قد تمرُّ ، ولكن لا يلتفت إليها إلا العاقل الذى يُمحِّص الأشياء ، أما الذى يمرُّ عليها مُرور الكرام ؛ فهو لا يستفيد منها .

و« أولو الألباب » هم أصحاب العقول الراجحة ، و « الألباب » جمع « لُبّ » . واللب : هو جوهر الشيء المطلوب ؛ والقشْر موجود لصيانة اللُّبِّ ، وسُمِّى العقلُ « لُبّاً » لأنه ينثرُ القشور بعيداً ، ويعطينا جوهر الأشياء وخيرها .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ..(١١١) ﴾ [يوسف]

أى : أن ما جاء على لسانك يا محمد وأنزله الحق وَحْياً عليك ليس حديث كَذبٍ مُتعمَّد ؛ بل هو الحق الذى يطابق الكتب التى سبقتْه.

ويُقال : « بين يديك » أى : سبقك ؛ فإذا كنت تسير فى طابور ؛ فَمَنْ أمامك يُقال له « بين يديك» ، ومَنْ وراءك يُقال له « مَنْ خلفك » .

والقرآن قد جاء ليصدق الكتب التى سبقتْه ؛ وليست هى التى تُصدِّق عليه ؛ لأنه الكتاب المهيمن ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

ويضيف الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

فالقرآن يُصدِّق الكتب السابقة ، ويُفصِّل كل شيء ؛ أى : يعطى كل جزئية من الأمر حُكْمها فى جزئية مناسبة لها . فهو ليس كلاماً مُجْملاً ، بل يجرى تفصيل كل حُكْم بما يناسب أىَّ أمر من أمور البشر .

وفى أعرافنا اليومية نقول : « فلان قام بشراء بذلة تفصيل » . أى : أن مقاساتها مناسبة له تماماً ؛ ومُحْكمة عليه حين يرتديها .

وفى الأمور العقدية نجد - والعياذ بالله - مَنْ يقول : إنه لا يوجد إله على الإطلاق ، ويقابله مَنْ يقول : إن الآلهة مُتعددة ؛ لأن كل الكائنات الموجودة فى الكون من الصعب أن يخلقها إله واحد ؛ فهناك إله للسماء ، وإله للأرض ؛ وإله للنبات ؛ وإله للحيوان .

ونقول لهم : كيف يوجد إله يقدر على شيء ، ويعجز عن شيء آخر ؟

وإنْ قال هؤلاء : « إن تلك الآلهة تتكاتف مع بعضها » .

نردُّ عليهم : ليست تلك هى الألوهية أبداً ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[١] وَرَجُلاً سَلَمًا[٢] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وحين يكون الشركاء مختلفين ؛ فحالُ هذا العبد المملوك لهم يعيش فى ضَنْك وعذاب ؛ أما الرجل المملوك لرجل واحد فحاله يختلف ؛ لأنه يأتمر بأمر واحد ؛ لذلك يحيا مرتاحاً .

ونجد الحق سبحانه يقول عن الآلهة المتعددة :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

أما مَنْ يقول بأنه لا يوجد إله فى الكون ، فنقول له : وهل يُعقل أن كل هذا الكون الدقيق والمُحْكم بلا صانع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يُفَصِّلَ هذا الأمر ليؤكد أنه لا يوجد سوى إله واحد فى الكون ، ونجد القرآن يُفصِّل لنا الأحكام ؛ ويُنزل لكل مسألة حُكْماً مناسباً لها ؛ فلا ينتقل حُكْم من مجال إلى آخر .

وكذلك تفصيل الآيات ، فهناك المُحْكم والمُتَشابه ؛ والمَثَل هو قول الحق سبحانه .

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (١١٤)﴾ [آل عمران]

ويقول فى موقع آخر :

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] .

(٢) سلماً : أى ملْكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(١٣٣) ﴾ [آل عمران]

جاء مرة بقول « إلى » ، ومرة بقول « فى » ؛ لأن كلاً منها مناسبة ومُفصَّلة حَسْب موقعها .

فالمُسَارعة إلى المغفرة تعنى أن مَنْ يسارع إليها موجود خارجها ، وهى الغاية التى سيصل إليها ، أما مَنْ يسارع فى الخيرات ؛ فهو يحيا فى الخير الآن ، ونطلب منه أن يزيد فى الخير .

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ونجد قوله الحق :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وواحدة منهما وردتْ فى المصائب التى لها غَرِيم ، والأخرى قد وردتْ فى المصائب التى لا غريم فيها ؛ مثل المرض حيث لا غَرِيم ، ولا خُصومة .

أما إذا ضربنى أحد ؛ أو اعتدى على أحد أبنائى ؛ فهو غريمى وتوجد خصومة ؛ فوجوده أمامى يَهِيج الشر فى نفسى ؛ وأحتاج لضبط النفس بعزيمة قوية ، وهذا هو تفصيل الكتاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣) ﴾ [فصلت]

أى : أن كل جزئية فيه مناسبة للأمر الذى نزلتْ فى مناسبته .

ومثال هذا هو قوله سبحانه :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ[1] نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

وقوله الحق :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

وكل آية تناسب موقعها ، ومعناها مُتَّسق فى داخلها ، وتَمَّ تفصيلها بما يناسب ما جاءت له ، فقوله :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

يعنى أن الفقر موجود ، والإنسان مُنْشغل برزقه عن رزق ابنه .

أما قوله :

﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن الفقر غير موجود ، وهناك خَوْف أن يأتى إلى الإنسان ؛ وهو خوف من أمر لم يَطْرأ بعد .

وهكذا نجد فى القرآن تفصيل كل شىء تحتاجونه فى أمر دنياكم وآخرتكم ، وهو تفصيل لكل شىء ليس عندك ؛ وقد قال الهدهد عن ملكة سبأ بلقيس :

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (٢٣) ﴾ [النمل]

---

(١) أملق : افتقر بعد غنى ، والإملاق : الفقر . [القاموس القويم ٢/٢٣٤] .

وليس معنى هذا أنهـا أوتيت من كل شىء فى هذه الدنيا ، بل هى قد أُوتيَتْ من كل شىء تملكه ، أو يُمكِن أن تملكه فى الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ..(١١١) ﴾ [يوسف]

لا يعنى أن نسأل مثلاً : « كم رغيفاً فى كيلة القمح ؟ » .

وقد حدث أن سـأل واحد الإمام محـمد عبده هذا السـؤال ؛ فجاء بخباز ، وسأله هذا السؤال ؛ فأجـاب الخباز ؛ فقال السائل : ولكنك لم تَأْتِ بالإجابة من القرآن ؟ فقال الإمام محمد عبده : لماذا لا تذكر قوله الحق :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وهكذا نعلم أنه سبحانه لم يُفرِّط فى الكتاب من شىء.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن الهُـدى هو الطـريق المُـؤدى إلى الخـيـر ، وهذا الطريق المؤدى إلى الخير ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الوقاية من الشر لمن لم يقع فيه .

والقسم الثانى : علاج لمَنْ وقع فى المعصية .

وإليك المثال : هَبْ أن أُناساً يعملون الشر ؛ فنردهم عنه ونشفيهم منه ؛ لأنه مرض ، وهو رحمة بمعنى ألاَّ يقعوا فى المرض بداية .

إذن : فهناك ملاحظتان يشيران إلى القسمين :

الملاحظة الأولى : أن المنهج القرآنى قد نزل وقايةً لمَنْ لم يقع فى المعصية .

والملاحظة الثانية : أن المنهج يتضمن العلاج لِمَنْ وقع فى المعصية .

ويُحدِّد الحق سبحانه مَنْ يستفيدون من المنهج القرآنى وقاية وعلاجاً ، فيقول :

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ [يوسف]

أى : هؤلاء الذين يؤمنون بإله واحد خلقهم وخلق الكون ، ووضع للبشر قوانين صيانة حياتهم ، ومن المنطقىِّ أن يسمع المؤمن كلامه ويُنفذه ؛ لأنه وضع المنهج الذى يمكنك أن تعود إليه فى كل ما يصون حياتك ، فإنْ كنت مؤمناً بالله ؛ فَخُذ الهدى ، وخُذ الرحمة .

ونسأل الله أن نُعطَى هذا كله .

○ ○ ○

سُورَةُ الرَّعْدِ



سورة الرعد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ① ﴾

وقد سبق لنا أن تكلمنا طويلاً فى خواطرنا عن الحروف التى تبدأ بها بعض من سور القرآن الكريم ، مثل قوله الحق :

﴿ الٓمٓ ① ﴾ [البقرة]

وقوله :

﴿ الٓمٓر .. ① ﴾ [الرعد]

ومثل قوله :

﴿ الٓمٓصٓ ① ﴾ [الأعراف]

---

(١) سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة فى ترتيب المصحف . قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦١٣) : « مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية فى قول الكلبىّ ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة ، وهما قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ .. ㉛ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ .. ㉜ ﴾ [الرعد] وانظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١ / ٣١) عدد آياتها ٤٣ آية ، وسميت بسورة الرعد لورود ذكره فى السورة فى قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ⑬ ﴾ [الرعد] .

وغيـر ذلك من الحروف التوقـيفيـة التى جاءتْ فى أول بعض، من فَواتِح السُّور .

ولكن الذى أُحب أن أؤكد عليه هنا هو أن آيات القـرآن كلها مَبْنية على الوَصْل ؛ لا عَلى الوَقْف ؛ ولذلك تجدها مَشْكُـولة ؛ لأنها مَوْصُولة بما بعدها .

وكان من المـفروض ـ لو طبَّقْنَـا هذه القاعدة ـ أن نقـرأ « المر » فننطـقـهـا : « ألفٌ » « لامٌ » « مـيمٌ » « راءٌ » ، ولكن شـاء الحق سبـحانه هنا أن تأتى هذه الحـروف فى أول سورة الرعد مَـبْنية على الوقف ، فنقول : « ألفْ » « لامْ » « ميمْ » « راءْ » .

وهكذا قـرأها جبـريل عليـه السلام على مـحمـد بن عبـدالله ﷺ ؛ وهكذا نقرأها نحن .

ويتابع سبحانه :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. ①﴾ [الرعد]

أى : أن السـورة القـادمـة إليك هى من آيات الـكتـاب الـكريم ـ القرآن ـ وهى إضافة إلى ما سـبق وأُنْزل إليك ، فالكتاب كله يشمل من أول ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة]

فى أول القرآن ، إلى نهاية سورة الناس.

ونعلم أن الإضـافة تأتى على ثلاث مَـعَانٍ ؛ فـمرَّة تأتى الإضـافة بمـعنى « من » مـثل قـولنا « أردب قـمح » والمقـصـود : أردب من القمح .

ومرة تأتى الإضافة بمعنى « فى » مثل قولنا : « مذاكرة المنزل » والمقصود : مذاكرة فى المنزل .

ومرة ثالثة تأتى الإضافة بمعنى « اللام » وهى تتخذ شكْلَيْن .

إمَّا أن تكون تعبيراً عن ملكية ، كقولنا « مالُ زيدٍ لزيد » .

والشكل الثانى أن تكون اللام للاختصاص كقولنا « لجام الفرس » أى : أن اللجام يخص الفرس ؛ فليس معقولاً أن يملك الفرس لِجَاماً .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (١) ﴾ [الرعد]

يعنى تلك آياتٌ من القرآن ؛ لأن كلمة « الكتاب » إذا أُطلقتْ ؛ فهى تنصرف إلى القرآن الكريم .

والمثل هو القول « فلانٌ الرجل » أى : أنه رجل حقاً ؛ وكأن سلُوكه هو معْيار الرجولة ، وكأن خصَال الرجولة فى غيره ليست مُكْتملة كاكتمالها فيه ، أو كقولك « فلان الشاعر » أى : أنه شاعر مُتميِّز للغاية .

وهكذا نعلم أن كلمة « الكتاب » إذا أُطْلقتْ ينصرف فى العقائد إلى القرآن الكريم ، وكلمة الكتاب إذا أُطلقت فى النحو انصرفتْ إلى كتاب سيبويه الذى يضم قواعد النحو .

ويتابع سبحانه فى وصف القرآن الكريم :

﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

ونعلم أن مراد الذى يخالف الحق هو أن يكسب شيئاً من وراء تلك المخالفة .

وقد قال سبحانه فى أواخر سورة يوسف :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يوسف]

ثم وصف القرآن الكريم ، فقال تعالى :

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ(١) وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ [يوسف]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يريد الكَسْب منكم ، لكنه شاء أن يُنزل هذا الكتاب لتكسبوا أنتم :

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١)﴾ [الرعد]

أى : أن أكثر مَنْ دعوتَهُم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه نزل إليك من ربك ؛ لأنهم لم يُحسنوا تأمُّل ما جاء فيه ؛ واستسلموا للهَوَى ، وأرادوا السلطة الزَمنية ، ولم يلتفتوا إلى أن ما جاء بهذا الكتاب هو الذى يعطيهم خير الدنيا والآخرة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)﴾

---

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وافترى عليه الكذب : اخترعه . قال تعالى :﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (٣٨)﴾ [يونس] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . [القاموس القويم ٢ / ٨٠] .

وكلمة « الله » عَلَمٌ على واجب الوجـود ؛ مَطْمورة فيه كُـلُّ صفات الكمـال ؛ ولحظةَ أنْ تقـول « الله » كأنك قُلْـتَ « القادر » « الضـار » « النافع » « السـميع » « البصـير » « المُـعْطى » إلى آخر أسـماء الله الحسنى .

ولذلك قال ﷺ : « كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبتر(١) »(٢) .

لأن كل عـمل لا يبدأ باسـمه سـبحـانه ؛ لا تستـحضـر فيـه أنه سبحانه قد سَخَّر لك كُلَّ الأشياء ، ولم تُسخِّرْ أنت الأشياء بقدرتك .

ولذلك ، فالمـؤمن هو مَنْ يدخل على أيِّ عمل بحـيثـية « بسم الله الرحمن الـرحيم » ؛ لأنه سبـحانه هو الذى ذلَّلَ للإنـسان كل شىء ، ولو لم يُذلِّلها لَمَا استجابتْ لك أيها الإنسان .

وقد أوضـح الحق سبـحانه ذلك فى أمـثلة بسيطة ؛ فنجـد الطفل الصـغير يُمسك بـحبل ويربطه فى عنق الجمـل ، ويأمره بأن « ينخّ » ويركع على أربع ؛ فيمتثل الجمل لذلك .

ونجد البـرغوث الصغيـر ؛ يجعل الإنسان سـاهراً الليل كُلَّه عندما يتسلل إلى مـلابسه ؛ ويبذل هذا الإنسان الجَـهْدَ الجَهِيد لِـيُمْسِك به ؛ وقد يستطيع ذلك ؛ وقد لا يستطيع .

وهكذا نعرف أن أحـداً لم يُسخِّـر أىَّ شيئ بإرادته أو مـشيئـته ،

---

(١) البتر : استئصال الشىء قطعاً . وكل أمـر انقطع من الخير أثره ، فهو أبتر . والبتر : أصله القطع الحسى والقطع المـعنوى من الخير . [لسان الـعرب ـ مادة : بتر ، القامـوس القويم ١/٥٤] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر ، أو قال : أقطع » .

ولكن الحق سبحانه هو الذى يذلِّل كُلَّ الكائنات لخدمة الإنسان .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

وأنت حين تُقبِل على أىِّ عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : « باسم القادر الذى أعطانى بعض القدرة » .

وإنْ أقبلتَ على عمل يحتاج مالاً ؛ تقول : « باسم الغنى الذى وَهَبنِى بعضاً من مال أقضى به حاجاتى » .

وفى كل عمل من الأعمال التى تُقبِل عليها تحتاج إلى قدرة ؛ وحكمة ؛ وغنىً ، وبَسْط ؛ وغير ذلك من صفات الحق التى يُسخِّر بها سبحانه لك كُلَّ شىء ؛ فشاءتْ رحمتُه سبحانه أنْ سَهَّل لنا أن نفتتح أىَّ عمل باسمه الجامع لكل صفات الجمال والكمال « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولذلك يُسَمُّونه « عَلَمٌ على واجب الوجود » .

وبقية الأسماء الحسنى صفات لا توجد بكمالها المُطْلق إلاَّ فيه ؛ فصارتْ كالاسم .

فالعزيز على إطلاقه هو الله . ولكنَّا نقول عن إنسان ما « عزيزُ قومه » ، ونقول « الغَنىّ » على إطلاقه هو الله ، ولكِنْ نقول «فلان غنىّ » و « فلان فقير » .

وهكذا نرى أنها صفاتٌ أخذتْ مرتبة الأسماء ؛ وهى إذا أُطلِقَتْ إنما تشير إليه سبحانه .

وعرفنا من قَبْل أن أسماء الله ؛ إما أن تكون أسماءَ ذات ؛ وإما أن تكون أسماءَ صفات ؛ فإنْ كان الاسم لا مقابل له فهو اسمُ ذاتٍ ؛ مثل : « العزيز » .

أما إنْ كان الاسم صفةَ الصفة والفعل ، مثل « المُعِز » فلا بُدَّ أن له مقابلاً ، وهو هنا « المُذِلّ » .

ولو كان يقدر أنْ يُعِزَّ فقط ؛ ولا يقدر أن يُذِلَّ لما صار إلهاً ، ولو كان يضر فقط ، ولا ينفع أحداً لَمَا استطاعَ أن يكون إلهاً ، ولو كان يقدر أنْ يَبسُطَ ، ولا يقدر أن يقبض[1] لما استطاع أنْ يكون إلهاً .

وكل هذه صفات لها مُقَابلها ؛ ويظهر فعلُها فى الغير ؛ فسبحانه ـ على سبيل المثال ـ عزيزٌ فى ذاته ؛ ومُعِزٌّ لغيره ، ومُذِلٌّ لغيره .

وكلمة « الله » هى الاسم الجامع لكل صفات الكمال ، وهناك أسماء أخرى علَّمها الله لبعض من خلقه ، وهناك أسماء ثالثة سنعرفها إنْ شاء الله حين نلقاه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ[2] (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

ونلحظُ أن الحق سبحانه بدأ هذه الآية بالحديث عن العالم العُلْوى أولاً ؛ ولم يتحدث عن الأرض ؛ فقال :

---

(١) قال الحليمى فى معنى الباسط : أنه الناشر فضله على عباده يرزق من يشاء ويوسع ويجود ويُفضل ويمكِّن ويُخوّل ويعطى أكثر مما يُحتاج إليه . وقال فى معنى القابض : يطوى بره ومعروفه عمَّنْ يريد ويُضيق ويُقتِّر أو يحرم فيفقر . ذكره القرطبى فى كتابه « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » (١/ ٣٦٠) .

(٢) نضر الوجه : حَسُن وكان له رونق وبهجة . ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) ﴾ [الإنسان] . أى : وأكسب الله وجوههم نضرة ، أى : حُسْناً وبهجة وجمالاً . [القاموس القويم ٢/ ٢٧١] .

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ .. ② ﴾ [الرعد]

وكلمة « رفع » إذا استعملتَها استعمالاً بشرياً ؛ تدلُّ أن شيئاً كان فى وَضْع ثم رفعتَه عن موضعه إلى أعلى ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ.. ⑩⓪ ﴾ [يوسف]

فقد كان أَبَوا يوسف فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعهما يوسف إلى موضع أعلى مما كَانَا فيه ، فهل كانت السماء موضوعة فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعها الله ؟ لا ، بل خلقها الله مرفوعة .

ورَحم الله شيخنا عبد الجليل عيسى الذى قال : « لو قلت : سبحان الله الذى كبَّر الفيل ؛ فهل كان الفيل صغيراً ثم كبَّره الله ؛ أم خلقه كبيراً ؟ لقد خلقه الله كبيراً . وإنْ قلت : سبحان الله الذى صغَّر البعوضة ؛ فهل كانت كبيرة ثم صَغَّرها الله ؟ لا بل خلقها الله صغيرة » .

وحين يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. ② ﴾ [الرعد]

فهذا يعنى أنه خلقها مرفوعة ، وفى العُرْف البشرى نعرف أن مُقْتضى رَفْع أىِّ شىء أَنْ تُوجَد من تحته أعمدة ترفعه .

ولكن خلقَ الله يختلف ؛ فنحن نرى السماء مرفوعة على امتداد الأفق[1] ؛ ويظهر لنا أن السماء تنطبق على الأرض ؛ ولكنها لا تنطبق بالفعل .

---

(١) الأفق : الناحية ـ وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . وجمعه آفاق . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ .. ⑤③ ﴾ [فصلت] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ②③ ﴾ [التكوير] . أى : ما بين السماء والأرض . [القاموس القويم ١/ ٢٢] .

ولم نجد إنساناً يسير فى أىِّ اتجاه ويصطدم بأعمدة أو بعمود واحد يُظَنُّ أنه من أعمدة رَفْع السماء ؛ وهى مَرْئية هكذا ؛ فهل هناك أعمدة غير مَرْئية ؛ أم لا توجد أعمدة أصلاً ؟ .

وقد يكون وراء هذا الرَّفْع أمر آخر ؛ فقد قلنا : إن الشيء إذا رُفع ؛ فذلك بسبب وجود ما يُمسكه أو ما يَحْمله ؛ وسبحانه يقول فى أمر رفع السماء :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

فإذا كانت مَمْسُوكة من أعلى ؛ فهى لا تحتاج إلى عَمَد ، وقوله الحق : (يمسك) يعنى أنه سبحانه قد وضع لها قوانينها الخاصة التى لم نعرفها بَعْدُ .

وقد قام العلماء المعاصرون بمَسْح الأرض والفضاء بواسطة الأقمار الصناعية وغيرها ، ولم يجدوا عَمَداً ترفع السماوات أو تُمْسِكها .

والمهندسون يتبارَوْنَ فى عصرنا ليرفعوا الأسْقُفَ بغير عَمَدٍ ؛ لكنهم حتى الآن ؛ ما زالوا يعتمدون على الحوائط الحاملة .

وهكذا نعلم أنه سبحانه إمَّا أنه حمل السماء على أعمدة أدقّ وألطفَ من أنْ تراها أعيننا ؛ ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

و « عَمَد » اسم جمع ـ لا جمع ـ ومفردها «عمود» أو «عِمَاد».
وقد جاءتْ هذه الآية بمثابة التفسير لِمَا أُجمل في قول الحق سبحانه في سورة يوسف :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وجاء سبحانه هنا بالتفصيل ؛ فأوضح لنا أنه :

﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

أى : لا ترونها أنتم بِحُكْم قانون إبصاركم . ولا تعجب من أنْ يوجد مخلوق لا تراه ؛ لأن العينَ وسيلة من وسائل الإدراك ، ولها قانون خاص ؛ فهى ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

هذا بدليل أنك إذا نظرتَ إلى إنسان طوله مِتْران يتحرك مُبْتعداً عنك ؛ تجده يَصْغُر تدريجياً إلى أن يتلاشى من مجال رؤيتك ؛ لكنه لا يتلاشى بالفعل .

وهذا معناه أن قانون إبصارك مَحْكوم بقانون ؛ له مدىً مُحدَّد .

وهناك قوانين أخرى مثل : قانون السمع ؛ وقانون الجاذبية ؛ وقانون الكهرباء ؛ وكلها ظواهر نستفيد بآثارها ، ولكنّا لا نراها ، فلا تعجب من أن يوجد شيء لا تدركه ؛ لأن قُوَى إدراكك لها قوانين خاصة .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق ذلك بأن يجعل ما يكتشفه العلماء في الكون من أشياء وقُوىً لم تكُنْ معروفة من قبلٍ ؛ ولكننا كنا نستفيد منها دون أن ندرى ؛ مما يدلُّ على أن إدراك

الإنسان غَيْرُ قادر على إدراك كل شيء .

وذلك يوضح لنا أن رؤيتنا للسماء مرفوعة بغير عَمَد نراها ؛ قد يعنى وجود أعمدة مصنوعة بطريقة غير معروفة لنا ؛ أو هى مرفوعة بغير عَمَدٍ على الإطلاق .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..(٢) ﴾ [الرعد]

هو كلام خبرى ، والمثل من حياتنا حين تقول لابنك : « أنا خارج إلى العمل ؛ وذاكر أنت دروسك » ، وبذلك تكون قد أوضحتَ له : « ذاكر دروسك » وهذا كلام خبرىّ ؛ لكن المراد به إنشائىّ .

وإبراز الكلام الإنشائى فى مَقَام الكلام الخبرى له ملْحظ ، مثلما تقول : « فلان مات رحمه الله » وقولك « رحمه الله » كلام خبرىّ ؛ فأنت تخبر أن الله قد رحمه .

على الرغْم من أنك لا تدرى : هل رحمه الله أم لا ؛ ولكنك قلت ذلك تفاؤلاً أن تكون الرحمةُ واقعةً به ، وكان من الممكن أن تقول : « مات فلان يا ربِّى ارحمه » ، وأنت بذلك تطلب له الرحمة .

كذلك قول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..(٢) ﴾ [الرعد]

أى : دَقِّقوا وأمعنُوا النظر إليها ، وابحثوا فيما يعينكم على ذلك إن استطعتم ، وإذا لفتَكَ المتكلم إلى شىء لِيُحرِّك فيك حواسَّ إدراكك ؛ فمعنى ذلك أنه واثقٌ من صنْعته .

والمثل من حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنزَّه عن أن يكون له مثل ـ حين تدخل لتشترى صُوفاً ؛ فيقدم لك البائع قماشاً ؛ فتسأله : « هل هذا صوف مائة فى المائة ؟ » فيقول لك البائع : « نعم إنه صوف مائة فى المائة ، وهاتِ كبريتاً لنشعل فتلة منه لترى بنفسك » .

ويوضِّح الحق سبحانه هنا : أن السماوات مرفوعة بغير عَمَد ؛ وانظروا أنتم ؛ بمَدِّ البصر ، ولن تجدوا أعمدة على هذا الامتداد ، وضمان عدم وجود أعمدة مُتحقِّق لك ولغيرك على مدى أُفُق أىٍّ منكم .

ولكُلِّ إنسان أُفُقه الخاص على حسب قدرة بصره ، فهناك مَنْ تنطبق السماء على الأرض أمام عيونه ؛ فنقول له : أنت تحتاج إلى نظارة طبية تعالج هذا الأمر .

فالآفاق تختلف من إنسان إلى آخر ، وفى التعبير اليومى الشائع يقال : « فلان ضَيِّق الأفق لا يرى إلا ما تحت قدميْه » .

ولقائل أن يقول : إن هذا يحدث معى ومع مَنْ يعيشون الآن ؛ ولا أحد يرى أعمدة ترفع السماوات ؛ فهل سيحدث ذلك مع مَنْ سيأتون من بعدنا ؟

ونقول : لقد مسحتْ الأقمار الصناعية من الفضاء الخارجى كل مساحات الأرض ؛ ولم يجد أحدٌ أية أعمدة ترفع السماء عن الأرض .

وهذا دليل صدق القضية التى قالها الحق سبحانه فى هذه الآية :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ② ﴾ [الرعد]

والسماوات جمع « سماء » وهى كل ما عَلاَك فأظلَّك ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. ㉒ ﴾ [البقرة]

ونعلم أن المطر إنما نزل من السُّحُب التى تعلو الإنسان ، وتبدو مُعلَّقة فى السماء ، وإذا أُطلقتْ السماء انصرفت إلى السماء العليا التى تُظلِّل كل ما تحتها .

وحين أراد الناس معرفة كُنْه السماء ، وهل لها جِرْم[1] أم ليس لها جِرْم ؛ وهل هى امتداد أجواء وهواء ؟ لم يتفق العلماء على إجابة.

وقد نَثَر الحقُّ سبحانه أدلة وجوده ، وأدلة قدرته ، وأدلة حكمته ، وأدلة صَنْعته فى الكون ؛ ثم أعطاك أيها الإنسان الأدلة فى نفسك أيضاً ؛ وهو القائل سبحانه :

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ㉑ ﴾ [الذاريات]

وانظر إلى نفسك تجد العلماء وهم يكتشفون فى كل يوم شيئاً جديداً وسِراً عجيباً ، سواء فى التشريح أو علم وظائف الأعضاء .

وسوف تعجب من أمر نفسك ، وأنت ترى تلك الاكتشافات التى كانت العقول السابقة تعجز عن إدراكها ، وقد يُدرِك بعضها الآن ، ويُدرِك بعضها لاحقاً.

---

(١) الجرم : الجسم والبدن . [لسان العرب ـ مادة : جرم] . والمقصود هل السماء لها أبعاد محددة تأخذ حيزاً كالأجسام ، أم هى مجرد فضاء وهواء ؟

وإدراكُ البعض للمجهول فى الماضى يُؤذِن بأنك سوف تدرك فى المستقبل أشياء جديدة .

وإن نظرت خارج نفسك ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ[1] وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

ومعنى ﴿ سَنُرِيهِمْ ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

أن الرؤية لا تنتهى ؛ لأن « السين » تعنى الاستقبال ، ومَنْ نزل فيهم القرآن قرءوها هكذا ، ونحن نقرؤها هكذا ، وستظل هناك آيات جديدة وعطاءٌ جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة .

وسبحانه القائل :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

وأنت حين تفكر فى خَلْق السماوات والأرض ستجده مسألة غايةً فى الضخامة ؛ ويكفيك أن تتحيّر فى مسألة خَلْقك وتكوينك ؛ وأنت مجرد فرد محدود بحيّز ، ولك عمر محدود ببداية ونهاية ، فما بَالُك بخَلْق السماوات والأرض التى وُجِدَتْ من قَبْلك ، وستستمر من بعدك إلى أن تنشقَّ بأمر الله ، وتتكسر لحظتها النجوم .

ولا بُدَّ أن خَلْق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ،

---

(١) الأفق : الناحية ـ وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . وجمعه آفاق . [القاموس القويم ١/٢٢] . بتصرف . والأفْق والأفُق : ما ظهر من نواحى الفَلَك وأطراف الأرض ، وكذلك آفاق السماء نواحيها . [لسان العرب ـ مادة : أفق] .

فالسماوات والأرض تشمل الكون كله .

وحين تُحدَّث عنها إياك أن تخلط فيها بوهمك ؛ أو بتخمينك ؛ لأن هذه مسألة لا تُدرك فى المعامل ، ولا تستطيع أن تُجرِى تحليلات لمعرفة كيفية خَلْق السماوات والأرض .

ولذلك عليك أنْ تكتفى بمعرفة ما يطلبه منك مَنْ خلقها ؛ وماذا قال عنها ، وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء]

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين ؛ فلا داعى أن تُرهِق نفسك فيهما :

الأمر الأول : هو كيفية خَلْق الإنسان ؛ وهل كان قرداً فى البداية ثم تطوَّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك ، فلا تتدخل فيها بافتراضات تُؤدى بك إلى الضلال .

والأمر الثانى : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى وقائع .

وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١)﴾ [الكهف]

---

(١) قفا الشىء يقفوه : مشى خلفه أو تبعه. وقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] . أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

ولو كان الحق سبحانه قد أراد أن تعلم شيئاً عن تفاصيل هذين الأمرين لأشهد خلقهما لبعض من البشر ، لكنه سبحانه نفى هذا الإشهاد ؛ لذلك ستظل هذه المسألة لُغْزاً للأبد ؛ ولن تَحُلَّ أنت هذا اللُّغْز أبداً ؛ بل يحلُّه لك البلاغ عن الحقِّ الذى خلق .

وقد أوضح لك أنه قد خلقك من طين ، ونفخَ فيك من روحه ، فاسمع منه كيفية خَلْقك وخَلْق الكون كله .

ويدل الإعجاز البيانى فى القرآن على أن بعضاً ممَّنْ يملكون الطموح العقلى أرادوا أن يأخذوا من القرآن أدلة على صحَّة تلك النظريات التى افترضها بعض من العلماء عن خَلْق الإنسان وخَلْق الأرض ، فيبلغنا الحق سبحانه مقدَّماً ألاَّ نصدقهم .

ويقول لنا :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً[1] ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

والمُضلّ هو مَنْ يُضلُّك فى المعلومات ، هكذا أثبت لنا الحق سبحانه أن هناك مُضلِّين سيأتون ليقولوا كلاماً افتراضياً لا أساسَ له من الصِّحة .

وأوضح لنا سبحانه أن أحداً لم يتلصَّصْ عليه ، ليعرف كيفية خَلْق الشمس أو الأرض ، ومَنْ يدعى معرفة ذلك فهو من المُضلِّين ؛ لأنهم قَفَوْا ما ليس لهم به علم .

---

(١) العضد : المعاون المساعد . وهو فى الأصل : ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعمل مجازاً للمعين المساعد . قال تعالى : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. ﴿٣٥﴾﴾ [القصص] .أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

وما دام الحق سبحانه قد قال ذلك ، فنحن نُصدِّق ما قال .

وقد أثبتت التحليلات صدْق ما قاله سبحانه عن خلْق الإنسان ، فسبحانه قد خلق الكون أولاً ، ثم خلق السيد لهذا الكون وهو الإنسان ، وكل الكون مُسخَّر للإنسان ويخدم هذا الخليفة فى الأرض ، وكل ما فى الكون يسير بنظام وانتظام .

والمُتمرِّد الوحيد فى الكون هو الإنسان ، فيأتى الحقُّ سبحانه إلى هذا المتمرِّد ؛ ليجعل الآية فيه ؛ وليثبت صدْق الغيب فى الأرض .

وأوضح سبحانه أنه خلق آدم من الطين ؛ والإنسان من نسل آدم الذى سَوَّاه الله ، ونفخ فيه من روحه ، وبعد ذلك أمر الملائكة ؛ من المُدبِّرات أمراً ومن الحَفَظة ؛ أنْ تسجدَ للإنسان.

وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان . هذا الذى بدأت حكاية خَلْقه من تراب ، ثم خُلط التراب بالماء ؛ ليصير طيناً ؛ ثم تُركَ قليلاً ليصير حَمَأً مَسْنوناً[1] ؛ ثم يجفّ الحَمأ المسنون ليصير صلْصالاً كالفخَّار ؛ ثم ينفخ فيه الحق بالروح .

فإذا ما انتهى الأجل ؛ فأول ما يُنقض هو خروج الروح ؛ ثم يتصلَّب الجثمان ، وبعد أن يُوارَى التراب يصير الجثمان رِمّة[2] ؛ ثم

---

(١) الحمأ والحمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقْل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

(٢) رَمَّ الميت : بلِى جسمه . قال تعالى : ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس] . والرميم : الخلق البالى من كل شىء. [لسان العرب ـ مادة : رمم] .

يتسرَّب الماء الموجود فى الجثة إلى الأرض ، وتبقى العظام إلى أن تتحول هى الأخرى إلى تراب .

وهكذا يتحقق نَقْضُ كل بناء ؛ فما يُبنى فى نهاية أىِّ بناء هو ما يُنقض أولاً ، وهكذا يتأكد لنا صدق الحق سبحانه حين نرى صدق المقابل فيما أخبرنا به سبحانه عن كيفية الخلق .

وعندما يُخبرنا الحق سبحانه أن كيفية خَلْق السماوات والأرض ليست فى مُتَناولنا ؛ فقد أعطانا من قبل الدليل على صِدْق ما جاء به ، فيما أخبرنا به عن أنفسنا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. (٢) ﴾ [الرعد]

وكلمة « السماوات» فى اللغة جمع ، وفى آية أخرى ، يقول سبحانه :

﴿ فَقَضَاهُنَّ[1] سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ..(١٢) ﴾ [فصلت]

وقديماً كانوا يقولون : إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة : الشمس ، والقمر ، وعطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمُشْترى .

---

(١) قضاهن : خلقهن وأوجدهن وأنفذ إرادته بخلقهن. [القاموس القويم ٢/١٢٢] . وللقضاء معان كثيرة ذكرها السيوطى فى (الإتقان ٢/١٢٨) منها : الفراغ ، فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ .. (٢٠٠) ﴾ [البقرة] . ومنها : الفصل . فى قوله تعالى : ﴿ لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) ﴾ [الأنعام] . ومنها العهد : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] .

وشاء سبحانه أن يُكذِّب هذا القول وأصحابُه أحياء ؛ فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل : نبتون وبلوتو ؛ وكان فى ذلك لَفْتة سماوية لِمَنْ قالوا : إن المقصود بالسماوات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحُسْن نية وبرغبة فى رَبْط القرآن بالعلم ؛ لكنهم نَسُوا أن يُدقِّقوا الفهم لِمَا فى كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب كلها زينة السماء الدنيا(١) ، فما بالُنَا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ۝٢﴾ [الرعد]

وهذه قضية هى أهمُّ قضية كلامية ناقشها علماء الكلام ؛ قضية الاستواء والعرش ، وحتى نفهم أىَّ قضية لا بُدَّ أن نُحلِّل ألفاظها لنتفقَ على معانيها ، ثم نبحثها جملة واحدة ، لكن أن نجلس لنتجادل ونحن غير مُتواردين ومتفقين على فَهْم واحد ؛ فهذا أمرٌ لا يليق .

ولننظر الآن معنى « الاستواء » ومعنى « العرش » ، ونحن حين نستقرىء كلمة « استوى » فى القرآن نجدها قد وردتْ فى آيات متعددة .

وجاءت مرّة واحدة بمعنى الاستواء . أى : النضج ، فى قول الحق سبحانه :

---

(١) يقول تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات] . ويقول أيضاً : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢﴾ [فصلت] .

﴿ ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ[1] واسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا .. (١٤) ﴾ [القصص]

أى : أنه قد بلغ نُضْجه الكمالىّ ، ويستطيع أن يكون رجلاً صالحاً لممارسة ما يُبقِى نوعه ، وإنْ تزوج فلسوف يُنجِب مثله ؛ وهذا استواء لمخلوق هو الإنسان .

ومرة أخرى يقول القرآن :

﴿ ذُو مِرَّةٍ[2] فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ﴾ [النجم]

والمعنى هنا هو : صعد ؛ والمقصود هو صعود محمد و جبريل عليهما السلام إلى الأفق الأعلى .

وهناك قوله الحق :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. (٢٩) ﴾ [البقرة]

أى : أنه سبحانه قد استوى إلى السماء ؛ وإياك أن تظن أن استواءه سبحانه إلى السماء مُسَاوٍ لاستواء البشر ؛ لأننا قُلْنا من قبل : إن كل شىء بالنسبة لله إنما نأخذه فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

---

(١) الأشد : مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة . قال الأزهرى : الأشد فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة معان يقرب اختلافها . فقوله فى قصة يوسف : ﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (٢٢)﴾ [يوسف] فمعناه الإدراك والبلوغ . وأما قوله فى قصة موسى : ﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَىٰ .. (١٤)﴾ [القصص] أى : أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهى شبابه . وأما قوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ..(١٥)﴾ [الأحقاف] فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد ، وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله . [لسان العرب ـ مادة : شدد] . بتصرف .

(٢) المرة : القوة والشدة وحصافة الرأى وقوة الخلق ، مأخوذ من إمرار الحبل وإحكام فتْله . قال تعالى : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] ، وهو وصف لجبريل عليه السلام بأنه ذو قوة . [القاموس القويم ٢/٢٢٣] .

وبذلك يكون استواؤه سبحانه إلى السماء هو استواء يليق بذاته، والاستواء المطلق شيء مختلف عن الاستواء على العرش .

وهكذا نجد استواءً لغير الله من إنسان ؛ وهناك استواء لغير الله من إنسان ومن ملك ؛ وهناك استواء من الله إلى غير العرش . وبجانب ذلك هناك استواء على العرش .

وقد وردَ الاستواء على العرش فى سبعة مواقع بالقرآن ؛ فى : سورة الأعراف ؛ وسورة يونس ؛ والرعد ، وطه ، والفرقان ، والسجدة ، والحديد .

وورد ذكر العرش فى القرآن بالنسبة لله واحداً وعشرين مرَّة، وورد بالنسبة لبلقيس أربع مرات ؛ فهو القائل سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل]

ثم قال :

﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل]

وبالنسبة ليوسف قال سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف]

وإيَّاك أن تأخذ الاستواء بالنسبة لله على أن معناه « النُّضْج » ؛

لأن النُّضْجَ إشعارٌ بكمالٍ سَبَقه نَقْصٌ .

ولذلك نجد العلماء المُدقِّقين قد علِمُوا أن ذِكْر استواء الله على العرش قد ورد فى سبعة مواضع بالقرآن الكريم وقالوا :

وَذِكْرُ استْواء اللَّه فِى كَلِمَاته علَى ... العَرْشِ فى سَبْعِ مَوَاضعِ فَاعْدُدِ

فَفِى سُورَةِ الأعْرَاف ثُمَّةَ يُونُسَ ... وَفِى الرَّعْدِ مع طَه فَلْلعَدِّ أكِّدِ

وَفِى سُورَةِ الفُرْقَانِ ثُمَّةَ سَجْدة ... كَذَا فِى الحدِيدِ افْهمْهُ فَهْم مُؤيَّدِ

وقالوا فى المعنى :

فَلَهُمْ مَقالاتٌ علَيْهَا أَرْبعَة ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفارسِ الطَّعَّانِ

وَهى اسْتقرَّ وقَدْ عَلاَ ... وكذلكَ ارتفَع مَا فِيهِ مِنْ نُكْرانِ

وكَذاكَ قَدْ صَعَدَ الذى هُوَ رَابِعٌ ... بِتمَامِ أمْرٍ مِنْ حِمَى الرَّحمَانِ

والصعود إلى العرش هو حركة انتقال من وضع إلى وضع لم يَكُنْ فيه .

وهكذا نجد أن المعانى التى تتمشَّى مع الاستواء فى عُرْفنا البشرى لا تتناسب مع كمال الله .

واختلف العلماء : قال واحد منهم : « سآخذ اللفظ كما قاله الله ».

ونردُّ على هذا بسؤال : وهل يمكنك أن تُغَيِّبَ :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

طبعاً ، لا أحدَ يستطيع ذلك ، وعليك أن تأخذ كل فَهْمٍ لشىء يخصُّ الذات العلية فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

ولذلك نجد أهل الدِّقة[١] يقولون : « الاستواء معلوم ، والكَيْف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

فنحن نعلم معنى الاستواء ؛ ولكن كيفية استواء الله مجهولةٌ بالنسبة لنا ، والسؤال عن الكيفية بدعة ؛ لأن المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يسألوا عن تلك الكيفية ، رغم أنهم سألوا عن كثير من الأمور .

وهناك آيات متعددة[٢] تبدأ بقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

وكان السؤال وارداً بالنسبة لهم ؛ لكنهم بملكتهم العربية الفطرية قد فَهِموا الاستواء كشيء يناسب الله ، فَلَمْ يسألوا عنه .

وجاء السؤال من المتأخرين الذين تمحَّكوا ، فقال واحد : سآخذ الألفاظ بمعناها ؛ فإن قال : إن له صعوداً ؛ فهو يصعد ، وإنْ قال : إن له استواء فهو يستوى .

ولمَنْ قال ذلك نردُّ عليه : إن ما تقوله صالحٌ للأغيار ، ولا يليق أن تقول ذلك عن الذى يُغيِّر ولا يتغيَّر . وإذا سألتَ عن معنى كلمة « استواء » فهو « استتب له الأمر » . وهل كان الأمر غير مستتب له سبحانه ؟

---

(١) رُوِى هذا عن الإمام مالك بن أنس .

(٢) ورد هذا فى ١٥ موضعاً فى القرآن : [البقرة : ١٨٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢] ، [المائدة : ٤] ، [الأعراف : ١٨٧] ، [الأنفال : ١] [الإسراء : ٨٥] ، [الكهف : ٨٣] ، [طه : ١٠٥] ، [النازعات : ٤٢] .

ونقول : نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى صفات متعددة ، وهذه الصفات كانت موجودة قبل أن يخلق الله الخَلْق والكَون ؛ فسبحانه موصوفٌ أنه خالق قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ومُعزٌّ قبل أن يخلق مَنْ يُعزّه ، ومُذِلّ قبل أنْ يخلق مَنْ يُذِلّه ، وله سبحانه صفاتُ الكمال المُطْلَق .

وبهذه الصفات خلق الخلق ، يقول الحق :

﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه]

وكذا نؤمن بأن صفة الخَلْق كانت فى ذاته قبل أن يخلق خَلْقه، وحين خلق سبحانه السماوات والأرض أبرز الصفة التى كانت موجودة فيه وليس لها مُتعلِّق ؛ فأوجد هو سبحانه المُتعلِّق ، وهكذا استتبَّ له الأمر سبحانه .

إذن : إذا ذُكِر استواءُ الله ، فهذا يعنى تمامَ المُرَاد له ، فصار للصفات التى كانت فيه ، وليس لها مُتعلِّق أو مَقْدُور ؛ مُتعلِّق ومَقْدور .

وإذا وُجِدَتْ هذه الصفة فى البشر مثل بلقيس التى وصفها سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]

فهى تختلف عن صفَة الله ؛ لأنها لم تجلس على العرش إلا بعد أن خلقها الله ، ولا يستتب الأمر لملك أو ملكة إلا بمتاعب ومعارك ، وقد ينشغل هذا الشخص فى معارك وحروب ، ثم يستتبّ له الأمر .

وهكذا يختلف استواءُ الله عن استواءِ خَلْق الله ، وإذا ذُكر استواء

الله على العرش ؛ فنحن نُنزِّه الله عن كل استواء يناسب البشر ، ونقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

واستواؤه هو تمام الأمر له ، لأن أمره صادر ، وعند تحقيق أمره في توقيته المراد له يكون تمام الأمر ، وتمام الأمر استواؤه ، أما كلمة « العرش » فنحن نجدها في القرآن بالنسبة لله .

إما مُضَافاً لاسم ظاهر :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ .. (١٧) ﴾ [الحاقة]

وإما مُضَافة للضمير المخاطب أو الغائب :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

وإما مُضَافاً للتنسيب :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢) ﴾ [الرعد]

والتسخير هو طلب المُسخِّر من المُسخَّر أن يكون كما أراده تسخيراً ، بحيث لا تكون له رغبة ، ولا رأي ، ولا هَوَى ، والتسخير ضِدُّه الاختيار .

والكائن المُسخَّر لا اختيارَ له ، أما الكائن الذي له اختيار فهو إنْ شاء فعل ، وإنْ شاء لم يفعل .

وقُلْنا قديماً : إن الحق سبحانه قد خَيَّرَ الإنسان :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وبذلك قَبِل الإنسان أداء الأمانة وَقْتَ أدائها ؛ لا وَقْتَ تحمُّلها ، ووقت الأداء غَيْر وقت التحمُّل ، وضربتُ المَثَل بمَنْ يقول لصديقه : « عندى ألف جنيه ؛ وأخاف أنْ يضيعوا منِّى ؛ فاحفظهم لى معك ؛ وحين أحتاجهم اعْطِهمْ لى » .

ويقول الصديق : « هَاتِ النقود وسأُعطيها لك وقت أنْ تطلبها » .

والصديق صادقٌ وقت تحمُّل الأمانة ؛ لكن ظروفاً تمرُّ عليه ، فيتصرَّف فى هذه الأمانة ؛ وحين يطلبها صاحبها ؛ قد يعجز حامل الأمانة عن ردِّها ، وهو بذلك ضَمِنَ نفسه وقت التحمُّل ؛ لكنه لم يضمن نفسه وقت الأداء .

وكان من الواجب عليه أن يقول لصديقه لحظةَ أنْ طلب منه ذلك : « أرجوك ، ابتعد عنِّى لأنِّى لا أضمن نفسى وَقْت الأداء » .

وقد أَبَت السماء والأرض والجبال تحمُّل الأمانة وَقْت عَرْضها ؛ وقَبِلتْ كل منهم التسخير ؛ فلا الجبال ولا السماوات ولا الأرض لها قدرة الاختيار ، ولا هَوى لأىٍّ منها فى هذه القدرة ؛ مثلها فى ذلك مثل كل أجناس الكون ما عدا الإنسان ؛ ولم نجد فساداً فى الأرض

---

(١) أشفق من الشىء : خشى أن يناله منه مكروه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] . أى : ضقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [القاموس القويم ١/٣٥١] .

قد نشأ من ناحية المُسخَّرات .

أما الإنسان فقد قَبل تحمُّل الأمانة ؛ لأن له عقلاً يُفكِّر ويختار ؛ ومن الاختيار ونتيجة للهوى جاء الفساد فى الكون ، ولو أقبل الإنسان على العمل وكأنه مُسخَّر خاضع لمنهج الله ؛ لاستقام عمل الإنسان مِثْلما يستقيم عَمَلُ كل الكائنات المُسخَّرة بأمر الله .

فإنْ أردتم أن تستقيمَ أموركم فيما لكم فيه اختيار ، فطبِّقوا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا[1] فِى الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ[2] وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ [الرحمن]

وانظروا ماذا يطلب الحق منكم فى منهجه ، فإنْ نفَّذتم المنهج تَسْتقِمْ أموركم ، كما استقامتْ الكائنات المُسخَّرة .

ولا يأتى الخَلَل إلا من أننا نحن البشر نقوم ببعض الأعمال باختيارنا ، وتكون مخالفة لمنهج المُشرِّع ، أما إذا كنا نؤدى أعمالنا ونضع نُصْب أعيننا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ [الرحمن]

فلسوف تكون أعمالنا مُطابِقة لمنهج الله ، وسنجد فى أعمالنا ما يَسرُّنا مثل سرورنا حين نجد الأفلاك منتظمة بدقة وحساب .

إذن : فالفساد لا يأتى إلا من الاختيار غير المُرْتجى لمنهج مَنْ

---

(١) طغى يطغى : تجاوز الحدَّ . [القاموس القويم ١/٤٠٢] .

(٢) القسط : العدل. وقسط يقسط : عدل . وأقسط : عدل وأزال الظلم والجور [القاموس القويم ٢/١١٦] .

خلق فينا الاختيار ، وإن كنت تريد أن تكون مختاراً ؛ فعليك أن تلتزم بمنهج مَنْ خيَّرك .

ولذلك نجد الصالحين من خَلْق الله قد ساروا على منهج ربهم ؛ والتزموا باختيار مراد ربهم فيما لهم فيه اختيار ؛ فصاروا وكأنهم مُسخَّرون لمُرَادات الله .

وهؤلاء يسمُّونهم «العباد » لا « العبيد » ؛ فكل مملوك لله من العبيد ؛ آمن به أو كفر ؛ أطاع أو عصى ؛ أما العباد فَهُمْ مَنْ جعلوا مرادات الله هى اختيارهم ، يقول تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

هؤلاء هم مَنِ اتجهوا بالاختيار إلى ما يختاره لهم الله .

ونجد الحق سبحانه يقول فى الملائكة :

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء]

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه فى حال الاختيار ؛ فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم ؛ لأنهم مَقْهورون بالتسخير ؛ بينما تتمتع أنت بالاختيار ؛ وآثرْتَ منهج ربك .

ويقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) الهَوْن والهُوَيْنا : التؤدة والرفق والسكينة والوقار . [لسان العرب ـ مادة : هون] .

﴿ وَسَخَّرَ(١) الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩) ﴾
[لقمان]

ولحظةَ تجد التنوين مثل « كلٌّ » فهذه يعنى كُلاًّ من السابق . أى : الشمس والقمر . أما الجَرْى إلى أَجَل مُسمّى ؛ فيقتضى مِنَّا أن نفهم معنى الجَرْى ؛ وهو تقليل الزمن عن المسافة .

فحين تريد الوصول إلى مكان مُعيَّن فقد تمشى الهُوَيْنا ؛ لتصلَ فى ساعة زمن ، وقد تجرى لتقطع نفس المسافة فى نصف ساعة ؛ والجَرْى بطبيعة الحال ملحوظ ممَّن يراك .

لكن : هل يرى أحدنا الشمس وهى تجرى ؟

لا ، لأنها تجرى فى ذاتها ؛ ويُسمَّى هذا النوع من الجرى « جرى انسيابى » . أى : لا تدركه بالعين المجردة ، وهناك ما يُسمّى « انتقال قفزى » ، وهناك ما يُسمّى « انتقال انسيابى » .

وانظر إلى عقارب الساعة ؛ ستجد عقربَ الثَّوانى أسرعَ من عقرب الدقائق الذى يبدو ساكناً رغم أنه يتحرك ؛ وأنت ترى حركة عقرب الثوانى ؛ لأنها تتم قَفْزاً ؛ بينما لا ترى حركة عقرب الدقائق ؛ لأنه يتحرك تبَعاً لدورة هادئة من التروس داخل الساعة ؛ وكل جزئية فى حركة التُّرْس الخاص بعقرب الدقائق تتأثر بحركة تُرْس عقرب الثَّوانى ؛ والحركة القفزية لعقرب الثوانى تتحول إلى حركة انسيابية فى عقرب الدقائق .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. (٥٤) ﴾ [الأعراف] . أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ٣٠٦/١] .

وحركة كل من العقربين تتحول إلى حركة أكثر انسيابية فى عقرب الساعات ، وهذا يعني أن كل جزئية من الزمن فيها جزئية من الحركة .

وحتى فى النمو بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات ، تجد عملية النمو غير ظاهرة لك ؛ لأن الكائن الذي ينمو إنما ينمو بقدر بسيط غير ملحوظ ، وهذا القدر البسيط شائع فى اليوم كله .

وإن أردتَ أن تعرف هذه المسألة أكثر ، انظر إلى الظل ، وأنت ترى الظل واضحاً ساعةَ سطوع الشمس ، ثم ينحسر الظل بانحسار الشمس .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا (٤٥) ﴾ [الفرقان]

أى : أن الظل متحرك وغير ثابت ، وكل جزئية من الزمن تؤثر فى حركة الشمس ، فيتأثر بها الظل .

وهكذا يجب أن نُفرِّق بين الحركة القفزية والحركة الانسيابية ، وحين تقدمنا فى العلم نجدهم يقولون : « سنزيد من الحركة الانسيابية عن الحركات القفزية » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢) ﴾ [الرعد]

والأجل هو المدة المحدودة للشىء ؛ وهى محدودة زمناً إنْ أردنا ظرف الزمان ؛ أو محدودة بالمسافة إن أردنا المكان .

والمقصود هنا بالأجل ؛ إما الأجل النهائى لوجود الشمس والقمر ؛ ثم إذا انشقتْ السماء كُوِّرت[(١)] الشمس ، وانكدرت[(٢)] النجوم .

أو : أن المقصود هنا بالأجل هو للتعبير عن عملها اليومى .

وقد عرفنا أن هناك مطالع متعددة للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ؛ لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا فى بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ فى البناء .

فتطلع الشمس كُلَّ يوم من أحد هذه الطاقات ؛ فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها ، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمّى أى يومياً .

ونُسمِّى نحن تلك المنازل « البروج » كبرج الحَمَل ؛ والجَدى ؛ والثور ؛ والأسد ؛ والسنبلة ؛ والقوس ؛ والحوت ؛ ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة ، وبرودة ، ومطر ، وغير ذلك ، ذلك أن كُلَّ برج له زمن ، ويمكن تعريف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة .

ولكن بعضاً من تصرفات الإنسان تفسد عملية التحديد الدقيق فى الكون ، مثلما يشعل البعض الحرائق فى الغابات ؛ فتحرق النار

---

(١) كوّر الشىء : لَفَّه على شىء مستدير ، فيقال « كوَّر عمامته » : لفَّها على رأسه . وقوله : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ .. ۝٥﴾ [الزمر] . أى : يزيد الليل فيلتف على جزء من النهار وبالعكس . [القاموس القويم ٢/١٧٧] .

(٢) قال تعالى : ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير] . أى : تغيَّر لونها ولم يعد صافياً لامعاً ، أو تناثرت وتساقطت بسرعة كالصقور المنقضة على فرائسها عند قيام الساعة . [القاموس القويم ٢/١٥٥] .

الأكسوجين الذى يحتاجه البشر والحيوانات للتنفس ، ويحاول الغلاف الجوى أن يتوازن ، فيشُدّ كميات من الهواء من منطقة أخرى ، فيختلّ ميزان الطقس لأيام .

وكذلك يفسد الجو من التجارب الذرية التى تُجريها الدول أعضاء النادى الذرى ؛ تلك التجارب التى تقوم بتفريغ الهواء ، فتجعل الطقس غَيْرَ مُسْتقر وغير منضبط ؛ وهذا ما يفسد استخدامنا للأبراج كوسيلة لمعرفة تقلُّبات الطقس .

وقد أوجز الشاعر تلك الأبراج فى قوله :

حَملَ الثورُ جَوْزةَ السَّرطَانِ ورَعَى الليْثُ سُنْبلَ الميزَان

عَقْرب القَوْس جدْى دَلْو وحُوت مَا عَرفْنَا مِنْ أُمة السُّرْيَانِ

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ②﴾ [الرعد]

وسبحانه قد أوضح من أول الآية مسألة رَفْع السماوات بغير عَمَد ، واستوائه على العرش ، وتسخير الشمس والقمر ، وكيف يجرى كُلُّ شىء لأجل مُسمّى .

وكُلُّ ذلك يتطلب تدبيراً للأمر بعد أن أبرز القدرة ؛ ثم يصون ذلك كله ، فكما قَدَّر فخلق ، فهو يُدبِّر بقيوميته ، فهو القائم على كل شىء ، وسبحانه كل يوم هو فى شأن[1] .

---

(١) عن عبدالله بن منيب الأزدى قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ㉙﴾ [الرحمن] فقلنا : يا رسول الله ، وما ذاك الشأن ؟ قال : «أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين» أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٧٣) .

وأقول هذا المثل لأوضح - لا لأُشبِّه فسبحانه مُنَزَّه عن التشبيه - ونحن نقول : فلان فكَّر أولاً ثم دبَّر ، والتفكير هو العملية التى تبحث فيها عن الشىء لإخراج المطلوب منه ؛ كأن تأتى بقليل من حبوب القمح لتفركه بيدك لتخرج القمحة من قشرته .

هذا هو التفكير الذى يطلب منك أن تبحث وتُنقِّب إلى أن تصل إلى لُبِّ الأشياء . والتدبُّر يقتضى ألاَّ تقتنع بما هداك إليه فكرك فى نفس اللحظة ، ولكن أن تُمحِّص الأمر لترى ماذا سينتج عن تنفيذ ما وصل إليه فكرك ؟

فربما ما فكرتَ فيه يُسعِفك ويُعينك فى لحظتِكَ الحالية ؛ لكنه سيأتى لك بعَطَبٍ بعد قليل .

والمَثَلُ الذى أضربه على مثل هذه الحالة دائماً هو اختراع المُبيدات الحشرية ؛ ولم يَفْطنوا إلى أن هذه المبيدات لا تقتل الحشرات الضارة وحدها ، بل تُسمِّم الطيور التى كانت تفيد الفلاح .

ووصل الأمر إلى حَدِّ تحريم استخدام هذه المبيدات ؛ وجاء هذا التحريم ممن تفاخروا من قَبْل على كل شعوب الأرض باختراعهم لتلك المبيدات ، فقد فَطنوا إلى أنَّ ما جاءهم من خَير عن طريق تلك المبيدات هو أقلُّ بكثيرٍ من الضُّرِّ الذى وقع بسببها .

وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا اختراعهم لتلك المبيدات ؛ فقاموا بتصنيعها لفائدة عاجلة ، دون أن يلتفتوا إلى الخطورة الآجلة ، وكان لا بُدَّ لهم أن يتدبروا الأمر ؛ لأن التدبُّر معناه النظر فى دُبُر الأشياء .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد]

أى : لا تنظر إلى واجهة الآية فقط ، بل انظر فى أعماقها ، ولذلك يقول لنا سيدنا عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : « ثَوِّروا[1] القرآن » .

أى : استخرجوا منه الكنوز بالتدبُّر ؛ لأن التدبر يحمى من حماقة التفكر ، والمثل البسيط المتكرر فى بيوتنا هو أننا نغسل أفواهنا بعد تناول الطعام ونتمضمض ممَّا بَقِى فى الفم من بقايا .

ونجد من بين هذه البقايا بعضاً من « الفتافيت الصلبة بعض الشىء » ، ثم نغسل حوض المياه بتيار متدفق من ماء الصنبور ، ونُفَاجأ بعد فترة من الزمن بانسداد ماسورة الصرف الخاصة بالحوض ؛ وحين يفتح السباك ماسورة الصرف هذه يجدها مليئة برواسب من بقايا الأطعمة .

وأنت حين تمضمضتَ لم تلتفت إلا لنظافة الفَم من البقايا ، ولم تتدبر أمر تلك البقايا ، ولو أنك تدبرتَ ذلك لَقُمْتَ بتركيب ماسورة صرف للحوض أكبر من الماسورة التقليدية الضيقة ؛ ولَجعلْتَ صندوق الطرد الخاص بالحوض أكبر من الحجم المعتاد والمُجهَّز لصرف المياه فقط .

---

(١) أورد ابن منظور فى لسان العرب حديث ابن مسعود : « أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين » قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه » [مادة : ثور] .

وهكذا نرى أن الفكر يحثُّك علـى أن تبحث عن مطلوب لك ؛ ولكن عليك أن تنـظر وتُدقِّق : هل يحـقق لـك مـا يقـترحـه عـليك فكرك ؛ ما يفيدك أم ما يضرك ؟

هذا هو التدبُّر ، وهو ما نُسمِّيه صيانة الأشياء .

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾ [الرعد]

وتفصيل الآيات يعنى أنه جعل لكل أمـر حُكْماً مناسباً له . ودائماً أقول لمـن يسألنى عن فـتوى ؛ ويُلِحّ أن تتـوافق الفتـوى مع مراده : « نحن لا نُفـصِّل الفتـوى من أجل هواك ؛ لأن مـا عندى هى فتـاوى جاهزة ؛ وعليك أن تضبط مقـاسك أنت على الفتوى ، لا أن نُفصِّل لك الفتوى على هواك » .

أقـول ذلك ؛ لأن المسـألة ليست حـيـاة تنتهى إلى العَـدَم ، ولكن هناك حياة أخرى تُحاسب فيهـا على كل تصرُّف ، فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُورًا ۝٢٣ ﴾ [الفرقان]

وهو القائل سبحانه أيضاً جَلَّ وعلا :

---

(١) الهبـاء : الغبار المـتطاير فى الجو . قـال تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦ ﴾[الواقعة] . أى : تراباً متطايراً هنا وهناك . ومثله قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ۝٢٣ ﴾ [الفرقان] . أى : كل عمل عملوه كالهباء المنثور لا يُعتدُّ به ولا قيمة له . [القاموس القويم ٢/٢٩٧] .

﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ[1] لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

ولذلك فعليك أن تُقبِل على كل عمل وأنت مُوقن بأن هذا العمل لا ينتهى بتركك للحياة الدنيا ، ولكن لكل عمل آثاره فى حياة باقية ، وإذا كانت الدنيا تحمل لك راحة موقوتة أو تعباً موقوتاً ، فالراحة فى الآخرة باقية أبداً ؛ والتعب فيها غير مَوْقوت .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ[2] وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي[3] اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) ﴾

ويتابع الحق سبحانه سَرْد آياته الكونية فى هذه الآية :

﴿ مَدَّ الأَرْضَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

يعنى أنها موجودة أمامك ومُمْتدة ، وبعض الناس يفهمون المَدَّ بمعنى البسط ، ونقول : إن البَسْطَ تابع للمَدِّ .

---

(١) عصفت الريح : اشتد هبوبها . والريح العاصفة أحياناً تدمر كل شىء تمر عليه . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٢) الرواسى : الجبال ، لأنها تثبت الأرض فتستقر ولا تميل . [لسان العرب ـ مادة : رسا].

(٣) غشَّيت الشىء تغشية إذا غطيته . [لسان العرب ـ مادة : غشى] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٠٠) : « أى : جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر » .

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا : ومن قال إن الأرض كُرَوِيّة ؟

إن الحق سبحانه قال : إنها مبسوطة ، وهو سبحانه الذى قال : إنه قد مَدَّ الأرض .

وقلتُ لهؤلاء العلماء : فَلْنفهم كلمة المَدِّ أولاً ، وَلْنفْهَمْ أيضاً كلمة « الأرض » وهى التى تقف عليها أنت وغيرك ، وتعيش عليها الكائنات ، وتمتد شمالاً إلى القُطْب الشمالى ، وجنوباً إلى القُطْب الجنوبى ، أيّاً ما كُنْت فى أىِّ موقع فهى مَمْدودة شرقاً وغرباً .

ومعنى :

﴿ مَدَّ الأَرْضَ .. ۝ ﴾ [الرعد]

تعنى أنك إنْ وقفتَ فى مكان وتقدمتَ منه ؛ تجد الأرض ممدودة أمامك ؛ ولا توجد حَافّة تنتهى لها ، ولو أنها كانت مبسوطة لكانَ لها نهاية ، ولكانت على شكل مُثلّث أو مُربّع أو مُسْتطيل ؛ ولكانَ لها حافة ؛ ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة ، وهو يقول : « لقد وصلتُ لحافة الأرض ؛ وأمامى الفراغ » ولم يحدث أنْ قال ذلك واحد من البشر .

وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلاً ؛ فسيظل ماشياً على اليابسة أو راكباً لمركب تقطع به البحر أو المحيط ليصل إلى نفس النقطة التى بدأ منها سَيْره .

وهكذا نجد الأرض ممدودة غير محدودة ، لا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، بحيث إذا مشيت مُتتبِّعاً أىَّ خط من خطوط العرض أو خطوط الطول لانتهتْ إلى النقطة التى بدأت منها سَيْركَ .

وكان هذا هو الدليل الذى يقدمه العلماء على كروية الأرض ؛ قبل أن يخترعوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوى .

ونأخذ من قول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ .. ③ ﴾ [الرعد]

معنًى آخر هو ضرورة أن ينظر الإنسانُ فى هذا الامتداد ؛ ومَنْ تضيق به الحياة فى مكان يُمكنه أن يرحلَ إلى مكان آخر ، فأرضُ الله واسعة ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ⑨⑦ ﴾ [النساء]

ونعلم أن فساد العالم فى زمننا إنما ينشأ من فساد السياسات ، وزيادة الاضطرابات ، وذلك واحد من نتائج تعويق مَدِّ الأرض ، فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه ؛ يجد الحراسات والعوائق عند حدود البلاد المجاورة ، وتناسَى الجميع قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ⑩ ﴾ [الرحمن]

فسبحانه قد سَخَّر الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام[1] ، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآنى ؛ سيظل العالم فى صراع ؛ وستظلُّ بعض من البلاد فى حاجة للبشر ، وبعض من البلاد فى ضِيق من الرزق ؛ لزيادة السكان عن إمكانات الأرض التى يعيشون عليها .

وستظل هناك أرض بلا رجال ؛ ورجال بلا أرض ، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد .

---

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلْق . وقال المفسرون : هم الجان والإنس . [لسان العرب ـ مادة : أنم] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٧٠) : « أى : كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات لتستقر لما على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم فى سائر أقطارها وأرجائها » .

وحتى تُحل هذه القضية ـ كما قلنا فى الأمم المتحدة ـ لابد من تطبيق المبدأ القرآنى :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

ومَنْ تضيق به الأرض التى نشأ فيها فليسمح له بالهجرة .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا .. (٣) ﴾ [الرعد]

والرواسى هى جمع « رَاسٍ » وهو الشىء الثابت

وسبحانه يقول :

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) ﴾ [النازعات]

وهكذا جاء الحق بالحكم الذى شاء أن تكون عليه الجبال ، وفى آية أخرى يأتينا الله بعلة كونها رواسى ؛ فيقول :

﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الأنبياء]

أى : لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات ؛ لما احتجْنَا إلى الجبال الرواسى كى تُثبِّتها ، ولكن الأرض مخلوقة متحركة ، وهى عُرْضة للاضطراب ، ولولا الجبال الرواسى لَمَادتْ الأرض .

ولسائل أن يقول : ولكننا نقطع الآن الجبال ، ونأخذ الجرانيت من جبل لِنُزيِّن به أرضية بعض المناطق ؛ ونقطع الرخام من جبل آخر لنصنع منه حمامات وأحواضاً ودرجات السلالم ، ونقتطع بعض أحجار أنواع معينة من الجبال ؛ لنستخلص اليورانيوم منها ؟

ونقول : انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق ؛ وحكمته حين دَبَّر ، فهذه الأرض لها محيط ؛ ولها مركز ؛ ولها أقطار ، وكلما اقتربتْ من مركز الأرض فالقطر يَقِلّ .

ومثال هذا هو البطيخة ؛ فأنت إن استخلصتَ القشرة الخارجية لها يكون لديْكَ كرة من القشرة الخضراء ؛ وكرة أخرى من مُكوِّنات البطيخة التى نأكلها ، ولو استخلصتَ كرة أخرى من مكونات الألياف الحمراء التى تتكون منها البطيخة ، لصار عندك كرة أخرى ، ولصار قُطْر الكرة الجديدة أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء .

وكلما استخلصتَ كُريّات أخرى من مُكوِّنات البطيخة ؛ صَغُرَتْ الأقطار ؛ لأنك تقترب من مركز الدائرة ، والمحيط الأخضر الذى يحيط بالبطيخة وهو القشرة ؛ يشبه المحيط الذى يوجد على الكرة الأرضية ؛ وهذه القشرة التى توجد حول الكرة الأرضية صُلْبة ؛ أما ما بداخل الأرض وجَوْفها ؛ فهو مُكوَّن من أشياء ومواد متعددة ، منها ما هو سائل ومنها ما هو صَلْب .

وكلما اقتربنا من مركز الأرض ؛ وجدنا ارتفاعاً فى درجة الحرارة ؛ وتدلُّنا على ذلك كُتَل الحُمَم التى تخرج فوَّارة من فُوَّهات البراكين ؛ وهى حُمَم ذات حرارة مرتفعة للغاية ؛ وهى حُمَم مُحْرِقة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً ، رحمةً بنا ؛ ذلك أننا حين نبنى بيوتاً ؛ أو نقتطع أحجاراً من الجبال ؛ أو نستخدم مُكوِّنات الجبال فى أى غرض ؛ إنما ننقل بعضاً من مُكوِّنات الأرض من موقع إلى آخر .

وحين ينتقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر ؛

فالسائل الذى فى باطن الأرض ينتقل من المنطقة التى زاد عليها الثقل إلى المنطقة التى خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن ، ولو لم يحدث ذلك لَتساَقطتْ العمارات الشاهقة التى نراها أثناء دوران الأرض .

والمَثَلُ الذى يُوضِّح ذلك أنك لو وضعتَ قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة ، وجعلت البطيخة أو الكرة فى حالة دوران لَطردتْ الكرة أو البطيخة قطعة العجين من على سطحها .

وقد شرح العلماء فى « علم الحركة » ذلك فقالوا : إن كل شىء مستدير يتحرك ؛ إنما تنشأ عن حركته عملية اسمها الطرد الذاتى ؛ لأن قطعة العجين أو أىَّ شىء نضعه على شىء مستدير يتحرك ؛ تكون له كثافة وثقل على المنطقة التى يوجد فيها ، ويصل هذا الثقل إلى المركز ، ولكى تستمر الحركة الدائرية متوازنة لا بد أن يطرد الشىء المستدير ما فوقه من ثُقْل زائد .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نِصْفى الكرة الأرضية من أى موقع تتخيله ، متساوياً فى الوزن مع النصف الآخر ، ومهما أخذتَ من مواد ونقلتَها من موقع إلى آخر ، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التى فى بطن الأرض .

وهذا يدلُّ على عظمة الخالق الذى خلق بتدبير دقيق ، ويكفى أن ننظر إلى عظمة الحق الذى لم يجعل الجبال رواسىَ ليمنع الأرض من أنْ تميدَ بنا ، بل جعل فى الجبال والصحارى ما استنجدنا به حين ضاقت الأرض بنا ؛ فذهبنا إلى الجبال ؛ لنستخرج منها المواد الخام ؛ ونُصدِّرها ؛ ثم نشترى بثمنها القمح .

ونرى من حولنا الصحارى حيث كان المقيمون فيها يلهثون قديماً من العطش ، ولا يجدون شجرة يستظلون بها ؛ فيُفجِّر فيها الحق آبار البترول .

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فيه خير مُسَاوٍ لأى قطاع آخر من الأرض ، وجعل الله لكل أمر زمناً يمكن للبشر أن يستفيدوا من هذا الأمر فى ذلك الزمن .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى الجبال :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا[1] ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[2] فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت]

أى : أنه سبحانه بارك فى الجبال ، وهى جزء من الأرض ، وشاء أن يُقدِّر الأقواتَ فى الجبال والأرض ؛ ويكفى أن نعلم أن المطر حين يتساقط من السماء على الجبال ؛ فيحمل المطر بعضاً من الطَّمْى من على أسطُح تلك الجبال ، فتتجدد خُصوبة الأرض .

ولو كانت الجبال هَشَّة لذابتْ الجبال من عدد قليل من مراتِ سقوط المطر ، ولَذابتْ القشرة الخِصْبة التى تُغذِّى النبات حين نزرعه فى الأرض .

---

(١) الند : المثل والنظير ، وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. (٣٠) ﴾ [إبراهيم] . أى : أمثالاً شركاء . [القاموس القويم ٢/٢٥٧] .

(٢) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه « أقوات » . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] . أى أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ٢/١٣٦] .

ولكنه سبحانه شاء أنْ تمُرَّ الظروف الجوية باختلافها وتنوُّعها فى تتابع يُوفِّر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتشقق ؛ فيصير سطح الجبال الصّلْبة هَشَّاً لينزل مع المطر ؛ وليُغذِّى الأرض بالخُصوبة من أجل أن يستمر استبقاء الحياة بإنتاج ما نحتاجه من نباتات مزروعة .

ونلحظ قوله سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا .. ③ ﴾ [الرعد]

وهنا يجمع الحق بين الرواسى وهى الثوابت ، وبين الأنهار وهى التى تحمل الماء السائل ، وهذا جَمْعٌ بين الأضداد .

والنهر يُطلق على ما يحمل المياه العَذْبة ؛ أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضتَ أنهار الدنيا كلها ؛ ستجد أن مجاريها تصبُّ فى البحار ، وهذا دليل على أن منسوب النهر أعلى دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس ؛ لَطَغى ماء البحر على مياه النهر ، ولَمَا استطعنا أن نشرب أو نزرع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الماء العَذْب هو الأعلى ؛ لأن له مهمة يُؤدِّيها قبل أن يصُبَّ فى البحر . أقول ذلك حتى نعلم الحكمة فى قول الحق سبحانه :

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[1] لاَّ يَبْغِيَانِ ⑳ ﴾ [الرحمن]

---

(١) البرزخ : الحاجز بين الشيئين ، فالله تعالى جعل بين البحرين حاجزاً من الأرض يحجز كلاً منهما فى مجراه فلا يبغى ولا يطغى على الآخر ، فهو يمزجهما حين يلتقيان فلا يبقى العذب عذباً لكن بينهما من الأرض برزخ قبل التقائهما يحفظ كلاً منهما فى مجراه . [القاموس القويم ١/٦٣] .

ومن العجيب أن البرزخ الذى يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر فى مياه البحر بما يُحقِّق سهولة فى هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إنْ حفرتَ عند شاطىء البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم شاطىء النخيل ؛ ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل فى هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العَذْب من هذا المكان الذى يوجد على البحر ؛ وقد تكون له جداول عذبة .

فسبحانه القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ[١] فِى الأَرْضِ..(٢١) ﴾ [الزمر]

ونحن فى الريف نجد من يحفر بئراً ويكون ماؤه عَذْباً ؛ وآخر يحفر بئراً ويكون ماؤه مالحاً . وهذا دليل على أن الماء فى بطن الأرض غير مختلط ، بل لكل ماء مسارب[٢] تختلف باختلاف نوعية المياه .

ويُرتِّب الحق سبحانه فى نفس الآية مجىء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت ـ الجبال ـ كمصدر للغرْيَن[٣] وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التى تحمل الماء اللاَزم للرى ، وهكذا يكون مجىء الثمرات أمراً طبيعياً .

---

(١) ينابيع : جمع ينبوع . وهو من نبع الماء إذا جرى من العين ، أى : تفجّر . والينبوع : الجدول الكثير الماء . [لسان العرب ـ مادة : نبع] .

(٢) السرب : الطريق والمسلك . [لسان العرب ـ مادة : سرب] .

(٣) الغرين : ما بقى فى أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

والثمرة كما نعلم هى الغاية من أى زرع .

وفى نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ③ ﴾ [الرعد]

ويستعمل البعض كلمة « زوج » ويراد به شيئان كقولنا « زوج أحذية » مع أن التعبير الدقيق يقتضى أن نقول « زوجان من الأحذية » كتوصيف لفردة حذاء يُمْنى وفردة حذاء يُسْرى ؛ لأن كلمة « زوج » مفرد ، وتستخدم فى الشيء الذى له مثْل ؛ ولذلك نجد العدد الفردى والعدد الزوجى ؛ والعدد الزوجى مُفْرد له مثيل ؛ وفى الإنسان هو الذكر والأنثى .

وسبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ㊾ ﴾ [الذاريات]

ويخطىء الناس أيضاً فى فهم كلمة التوأم ، ويظنون أنها تعنى الاثنين اللذين يولدان معاً ، ولكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذى يُولَد مع آخر ، ويقال لاثنين معاً «التوأمان » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ③ ﴾ [الرعد]

ولم يخلق الحق سبحانه أىَّ شيء إلا وشاء له أن يتكاثر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ㊱ ﴾ [يس]

وكُلٌّ تكاثر إنما يحتاج إلى زوجين ، وكنا نعتقد قديماً أن التكاثر يحدث فقط فى النبات ؛ مثلما نُلقِّح النخلة بالذَّكَر ، وفى الحيوان يخصب الفَحْل الأنثى ، ثم كشف لنا العلم بعد ذلك أن الكهرباء ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تتكون من سالب وموجب وغير ذلك كثير ، وكل ما قدمه العلم من كشوف يؤيد صدْقه سبحانه :

﴿ سبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُغْشِى(١) اللَّيْلَ النَّهَارَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

أى : أن تأتى الظُّلْمة على النهار فتُغطيه ؛ وهو القائل فى موقع آخر من القرآن :

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

وذلك تحقيقاً لمشيئته التى قالها :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً(٢) .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

وإنْ سأل سائل : هل الليل هو الذى خُلِقَ أولاً أم النهار ؟

أقول : نحن نرى الآن الليل والنهار ، كُلٌّ منهما يُؤدِّى مُهمَّته فى نصف ما فى الكرة الأرضية ، وكل منهما يخلف الآخر ، ولا بد أن الأمر كذلك من أول الخلق .

---

(١) أى : يجعل الليل يَغْشَى النهار ويغطيه بظلامه . [القاموس القويم ٢/٥٥] .

(٢) الخلفة : اسم مصدر بمعنى الاختلاف ، أو مصدر خلف : جاء بعده ليحل محله . أى : أن الليل والنهار يختلف كل منهما عن الآخر طولاً وقصراً ، أو يخلف كل منهما الآخر ويأتى بعده . [القاموس القويم ١/٢٠٦] .

فإنْ كان سبحانه قد أوجد الأرض مبسوطة وفى مواجهتها الشمس ، لَكان النهار هو الأسبق فى الخَلْق ، وإنْ كان قد خلق الشمس غير مواجهة للأرض ؛ يكون الليل هو الذى سبق النهار فى الخَلْق .

ويوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً فى سورة يس حين يقول :

﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]

وكان العرب قديماً يظنُّون أن الليل هو الذى سبق النهار فى الخَلْق ؛ لأنهم كانوا يُؤرِّخون الشهور بالقمر ؛ فيدخل الشهر بليله لا بنهاره ، ونحن نعلم أن رمضان يأتينا بأول ليلة فيه .

وقد أوضح الحق سبحانه لهم على قَدْر معارفهم ، ثم ثبت لنا أن الليل والنهار قد وُجِدا فى وقت واحد بعد أن وضحتْ لنا أن صورة الأرض كروية ، وأنه سبحانه قد خلقها كذلك ، فما واجه الشمس كان نهاراً ؛ وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً ، ويخلف كل منهما الآخر .

وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان فى آنٍ واحد .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)﴾ [الرعد]

أى : أن على الإنسان مسئولية التفكُّر فيما يراه من حوله ليصل إلى لُبِّ الحقائق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ (١) وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾

هذه الآية جاءت بشيء من التفصيل لقول الحق سبحانه في أواخر سورة يوسف :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وتلك آية تنضم إلى قوله تعالى :

﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

وتنضم إلى :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ .. (٢) ﴾ [الرعد]

وتنضم إلى قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

---

(١) الصِّنو (بكسر الصاد وضمها) : المِثْل ، إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد ، قيل لكل واحد منهما صنو . والجمع صِنوان (بضم الصاد وكسرها) . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ .. ④ ﴾ [الرعد]

نجد أننا لا نستطيع أن نعرفها بأنها التى يعيش عليها أمثالنا ؛ تلك هى الأرض ، ولو أردنا تعريفها لأبهمناها ، فهى أوضح من أن تُعَرَّف .

وكلمة « قِطَع » تدلُّ أول ما تدلُّ على « كل » ينقسم إلى أجزاء ، وهذا الكُلُّ هو جنس جامع للكلية ؛ وفيه خصوصية تمييز قطع عن قطع .

وأنت تسمع كلام العلماء عن وجود مناطق من الأرض تُسمّى حزام القمح ، ومناطق أخرى تُسمَّى حزام الموز ؛ ومناطق حارة ؛ وأخرى باردة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ .. ④ ﴾ [الرعد]

هو قول يدل على الإعجاز ؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً منها تناسب الطقس الذى توجد فيه ؛ فزراعة الذرة تحتاج مناخاً مُعيناً ؛ وكذلك زراعة الموز .

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، لا بل هى تربة مناسبة للجو الذى توجد به .

ومن العجيب أن فيها الأسرار التى يحتاجها الإنسان ؛ هذا السيد الذى تخدمه كل الكائنات ، فليست الأرض سائلة فى التماثل ؛ بل تختلف بما يناسب الظروف ، فهناك قطعة سبخة لا تنبت ؛ وأخرى خصبة تنبت .

بل وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر ؛ ومن قطعة إلى أخرى ؛ فثمرة الجوافة من شجرة معينة فى منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة فى منطقة أخرى ؛ والقمح فى منطقة معينة يختلف عن القمح فى منطقة أخرى ؛ ويقال لك « إنه قمح فلان » .

ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسْقَى بماء واحد .

ويقول العلماء البعيدون عن منطق السماء : « إن السبب فى الاختلاف هو عملية الاختيار والانتخاب » . وكأنهم لا يعرفون أن الاختيار يتطلب مُخْتاراً ، وأن يكون له عقل يُفكِّر به ليختار ، وكذلك الانتخاب فهل البُذَيْرات تملك عقلاً تُفكِّر به وتختار ؟ طبعاً لا .

ويقولون : إن النبات يتغذَّى بالخاصية الشعرية ، ونعلم أن الأنابيب الشعرية التى نراها فى المعامل تكون من الزجاج الرفيع ؛ وإذا وضعناها فى حوض ماء ، فالماء يرتفع فيها على مستوى الإناء .

وإنْ صدَّقْنا العلماء فى ذلك ، فكيف نُصدِّقهم فى أن شجرة ما تأخذ ماءً مثل الشجرة الأخرى ؛ وتنتج كل منهما نفس الثِمار ؛ لكن ثمار شجرة تختلف عن الأخرى فى الطَّعْم ؟

ونقول : إن كل شجرة تأخذ من الأرض ما ينفعها ؛ ولذلك تختلف النباتات ، ويحدث كل ذلك بقدرة الذى قَدَّر فهدى .

وهكذا نرى الأرض قطعاً متجاورات ؛ منها ما يصلح لزراعة تختلف عن زراعة الأرض الأخرى .

وقد يقول بعض من الملاحدة : إن هذا الاختلاف بسبب الطبيعة والبيئة .

وهؤلاء يتجاهلون أن الطبيعة فى مجموعها هى الشمس التى تعطى الضوء والحرارة والإشعاع ، والقمر أيضاً يعكس بعضاً من الضوء ، والنجوم تهدى مَنْ يسير فى الفَلاَة[1] ، وتيارات الهواء تتناوب ولها مسارات ومواعيد .

ورغم كل ذلك فهناك أرض خِصْبة تنتج ، وأرض سبخة لا تنتج ، وأرض حمراء ؛ وأخرى سوداء ، وثالثة رملية ، وكلها متجاورة .

لا بد إذن من وجود فاعل مختار يأمر هذه أمراً مختلفاً عن تلك .

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ..④﴾ [الرعد]

وجاء الحق سبحانه هنا بالمُرفِّهات أولاً ؛ فتحدث عن الفاكهة ؛ ثم تحدث عن الزرع الذى منه القُوت الأساسى ، ونحن فى حياتنا نفعل ذلك ؛ فحين تدخل على مائدة أحد الكبار ؛ تجد الفاكهة مُعدَّة على أطباق بجانب المائدة الرئيسية التى يُقدَّم عليها الطعام .

ويأتى الحق سبحانه بعد الأعناب والزَّرْع الذى منه القُوت الضرورى بالنخيل ، وهو الذى ينتج غذاء ، وقد يكون التمر الذى ينتجه تَرَفاً يتناوله الإنسان بعد تناول الطعام الضرورى .

وقول الحق سبحانه :

﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. ④﴾ [الرعد]

(١) الفلاة : القفر من الأرض التى لا ماء بها ولا أنيس . والفلاة : المفازة . وقيل : هى الصحراء الواسعة . [لسان العرب ـ مادة : فلا] .

يتطلب منَّا أن نعرف ما الصنوان ؟ ونجد الرسول ﷺ يقول : « العم صِنْو أبيك»[1] أى : أن الصِّنْو هو المِثْل .

وبهذا يكون معنى الصِّنْوان هو المِثْلان . ونرى ذلك واضحاً فى النخيل ؛ فنرى أحياناً أصلاً واحداً تخرج منه نخلتان ؛ أو ثلاث نخلات ؛ وأحياناً يخرج من الأصل الواحد أربع أو خمس نخلات .

ويُطلق لقب « الصنوان » على الأصل الواحد الذى يتفرع إلى نخلتين أو أكثر ؛ فكلمة « صنوان » تصلح للمثنى وللجمع ، ولكنها فى حالة المثنى تُعامل فى الإعراب كالمثنى ؛ فيقال « أثمرتْ صنوان » و « رأيت صنوين » أما فى حالة الجمع فيقال « رأيت صنواناً » و « مررْتُ بصنوان » . والمفرد طبعاً هو « صِنْو » .

ويقول سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ .. ④ ﴾ [الرعد]

ومن العجيب أن كل شجرة تأخذ عَبْر جذورها كمية من الماء والغذاء اللازم لإنتاج ثمارٍ ذات شكل وطَعْم مختلف .

وهذا ما جعلنا نقول من قَبْل : إن افتراضات العلماء المتخصصين فى علوم النبات عن أن النباتات تتغذَّى بخاصية الأنابيب الشعرية هو افتراض غير دقيق .

فلو كان الأمر كذلك لأخذت الأنابيب الشعرية الخاصة بنبات

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٩٨٣) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لعمر رضى الله عنه « يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) .

المواد التى أخذتها الأنابيب الشعرية الخاصة بنبات آخر . والأمر ليس كذلك ، فكل نبات يأخذ من الأرض ما يخصه فقط ، ويترك ما عدا ذلك .

ذلك أن الثمار لكل نبات تختلف ولا تتشابه ؛ بل إن الشجرة الواحدة تختلف ثمارها من واحدة إلى أخرى .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك تنتقى من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقى من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروقُ لك ؛ وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة .

وحين تذهب لشراء الفاكهة ؛ فأنت تشترى حسب موقفك من الادخار ؛ فإنْ كنتَ تحب الادخار فسوف تشترى الفاكهة التى من الدرجة الثانية ؛ وإذا كنت تحب أن تستمتع بالطيب من تلك الفاكهة فسوف تشترى من الفاكهة المتميزة .

وأتحدى أنْ يقف واحد أمام قفص للفاكهة ، وينتقى الثمار غير الجميلة الشكل والرَّوْنق[1] ، بل يحاول كل إنسان أن يأخذ الجميل والطيب من تلك الفاكهة ، وحين يدفع ثمن ما اشترى سنجده يدفع النقود الورقية القديمة التى تُوجد فى جيبه ، وسيحتفظ لنفسه بالنقود الجديدة .

وهذا الموقف يغلب على مواقف أى إنسان ، فهو مُقبل دائماً على رَفْض أخذ السيء ؛ وخائف دائماً على التفريط فى الحَسَن .

(١) الرونق : الصفاء والحسن . [لسان العرب ـ مادة : رنق] .

والحق سبحانه يقول :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ .. ﴾ (١٠٠) [الإسراء]

وأنت لا تجد فى الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً فى الطَّعْم من نوع إلى نوع ؛ كذلك تجد اختلافاً فى طريقة تناولها ؛ فلا أحد منَّا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أن نُخرج منها النواة ؛ ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونخرج ما فى قلب حَبَّة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المِشْمشة من بعد ذلك .

فكل ثمرة لها نظام خاص ؛ وليست مسألة ميكانيكية فى عطاء الله لثمار متشابهة ؛ بل هناك اختلاف ، ويمتد هذا الاختلاف إلى أدقِّ التفاصيل ؛ لدرجة أنك حين تتناول قِطْفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبَّات العنب عن غيرها .

ونحن لا نُفضِّل بعضاً من الفاكهة على البعض الآخر فى الأُكُل فقط ، بل نُفضِّل فى الصنف الواحد بعضاً من ثماره عن البعض الآخر .

وحين تقرأ :

﴿ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ .. ﴾ (٤) [الرعد]

فاعلم أنه لا يوجد شىء أو أمر مُفضَّل على إطلاقه ، وأمر آخر مفضول على إطلاقه ، فما دُمْنَا نُفضِّل بعضه على البعض الآخر ؛ فهذا يعنى أن كلاً منهما مُفضَّل فى ناحية ، ومفضول عليه فى ناحية أخرى .

والمثل الواضح أمامنا جميعاً أننا حين نجلس إلى مائدة عليها ديك رومى قد تجد يدك تتجه إلى طبق « المخلل » قبل أن تمتدّ يدك إلى الديك الرومى ؛ لأن « نفسك » قد طلبتْه أولاً ، فلا تَقُلْ : إن هناك

شيئاً مفضولاً عليه طوال الوقت ، أو شيئاً مفضلاً كل الوقت .

وكذلك الناس ؛ إياك أن تظن أن هناك إنساناً فاضلاً على إطلاقه ؛ وآخر مفضولاً على إطلاقه ؛ بل هناك إنسان فاضل فى ناحية ، ومفضول عليه فى ناحية أخرى .

والمَثَل : هو صاحب السيارة الفارهة ؛ ثم ينفجر إطار سيارته ؛ فيتمنى أن يرزقه الله بمَنْ يمرُّ عليه ليقوم بتغيير إطار السيارة ؛ فيمرُّ عليه هذا الإنسان صاحب الملابس غير النظيفة بما عليها من شحوم ؛ فيكون هذا الإنسان أفضل منه فى قدرته على فَكِّ الإطار المنفجر بالإطار السليم الاحتياطى .

وهكذا نشر الله الفضل على الناس ليحتاج بعضهم لبعض ؛ ولذلك أقول : حين تجد نفسك فاضلاً فى ناحية إياك أنْ تقعَ فى الغرور ؛ واسأل نفسك : ما الذى يَفْضُل عليك فيه غيرك ؟

وتذكَّر قول الحق سبحانه :

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يُوزِّع الفضل بين الناس ، ليحتاج كل منهم الآخر ، وليتكامل المجتمع . وكذلك وَزَّع سبحانه الفضل فى الأطعمة والفواكه والثمار ، وانظر إلى نفسك لحظة أنْ تُقدَّم لك أصناف متعددة من الفاكهة ؛ فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح ؛ فساعة طلبتْ نفسك ثمرة الجميز صارت فى تقدير الموازين والتبادل هى الأفضل ، وكل إنسان يمكن أن يجد ذلك فيما يَخصُّه أو يُحبه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾ [الرعد]

ولذلك نجد الإنسان وهو يُلوِّن ويتفنَّن فى صناعة الطعام ، ويختلف إقبال الأفراد على الأطعمة المُنوَّعة ، وقد تجد اثنين يُقبلان على لحم الدجاج ؛ لكن أحدهما يُفضِّل لحم الصدر ؛ والآخر يُفضِّل لحم « الوَرِك » ، وتجد ثالثاً يُفضِّل لحم الحمام ؛ وتجد رابعاً يفضل تناول السمك .

بل إنك تجد اختلافاً فى طريقة تناول مَنْ يحبون السمك ؛ فمنهم مَنْ يحب أكل رأس السمكة ، ومنهم مَنْ يحب لحم السمكة نفسها ، ولا أحد يملك معرفة السبب فى اختلاف الأمزجة فى الانجذاب إلى الألوان المختلفة من الأطعمة .

وحين تتأمل تلك المسائل قد يأتى إلى خاطرك قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

والسؤال هنا من الله للتعجُّب ؛ والتعجُّب عادة يكون من شىء خَفِى سببه ، فهل يَخْفَى سبب على الله ليتعجب ؟

طبعاً لا ، فسبحانه مُنزَّه عن ذلك ، وسبحانه يعلم سبب كفر الكافرين ؛ لكنه ينكر عليهم أسباب الكفر .

والمثَلُ من حياتنا ـ ولله المَثَلُ الأعلى ـ فأنت تجد نفسك وأنت تنطق بكلمة « كيف تسُبّ أباك ؟ » لإنسان يوجه كلمات جارحة لوالده ؛ فتتعجب لِتُنكِر ما فعله هذا الإنسان .

وكذلك القول : كيف تكفـرون بالله ؟ لأن الكفر شيء لا يتأتى من عاقل . وكان لنا شـيخ هو فضيلة العالم أحمـد الطويل ؛ وكان يحدثنا عن شيخ له حين كان يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

كـان يقول : إن الخطـاب هنا عام لكل إنســان ؛ لأن الحق بعـدها يأتى بالقضية العامة :

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا القول للعموم . وكان شيخنا يحكى عن شيخه أنه حدَّثهم أن إنساناً كان مُسـرفاً على نفسه ؛ ثم انصبَّتْ عليـه الهداية مرة واحدة ؛ ورآه كل مَنْ حوله وهـو مُقْبِل على الله ؛ فـسألوه عن سـبب الهداية ، فقال :

كنت أجلس فى بسـتان ، ثم رَاقَ لى عـنقود من العنب ؛ فـقطفتُ العنقود ، وأخذتُ أتأمل فيه ؛ فوجدت غشاءً رقيقاً شفافاً ـ وهو قشرة حبة العنب ـ يشفُّ عما تحته من لحم العِنبة الممتلىء بالعصير .

وحين وضعتُ حـبة العنب فى فمى ؛ صارت مـاء رطباً ؛ وأخذنى العجب من احـتفاظ حـبة العنب ببرودتهـا ورطوبتها رغم حـرارة جَوِّ شهـر بؤونة ؛ ثم وجدت بذرة الحبة ولهـا طَعْم المسْك ؛ فلما غـمرنى السرور من طَعْم وجمال العنب سمـعت هاتفاً يهتف بى : « كيف تكفر بالله وهو خالق العنب ؟ » فهتفت : آن يا رب أن أُومن بك .

وكل منَّا له أن ينظر إلى شىء يعجبه ؛ وسيجد الشىء كأنه يقول له : كـيفَ تكفـر بالله وهو خـالقــى ؟ وهكذا سنجـد كل إنســان وهو

مُـخاطب بهـذه العبـارة ، لأنه ما مـن كائن إلا وله شىء يعـجبـه فى الكون .

وهكذا نفهم معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ .. (٤) ﴾ [الرعد]

ونجـد أى شىء هو فاضل فى وقت الـحاجـة إليه وطلبـه ؛ وكل شىء مَفْضُول عليه فى وقت ما ؛ وإنْ كـان فاضلاً عند مَنْ يحتاجه . ونجد أن التفضيل هنا عند الأكْل .

والأُكل هو ما يُؤكَل ؛ لا الآن فقط إنما ما يؤكل الآن أو بعد ذلك، وسبحانه القائل :

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ[1] فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ[2] .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

وكذلك قال :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نجد أن الأُكـل مقصـود به ما يُؤكل الآن ، ومـا بعد الأكل أيضاً .

---

(١) الوابل : المطر الغزير . وبل المطر : كثر وعَظُم قَطْره . [القاموس القويم ٢/٣١٨] .

(٢) الطَّل (بفتح الطاء) : المطر الخفيف يكون له أثر قليل ، لـكنه يقى النبات شر الظمأ . قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة] . فإن لم يصب الربوة أو الحديقة وابل يسقـيها ويرويهـا فإنه يصـيبهـا طل ، فهى محـفوظة من الظمأ دائـماً . [القامـوس القويم ١/٤٠٦] .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الرعد]

وبعض الناس يظنون أن العقل يعنى أنْ يمرحَ الإنسان فى الأشياء ، وأنه يعطى الإنسان الحرية المطلقة ، ومثل هذا الظن خاطىء ؛ لأن العقل جاء ليُبصِّر الإنسانَ بعواقب كُلِّ فعل ونتائجه ، فيقول للإنسان : « إياك أنْ يستهويك الأمر الفلانى لأن عاقبته وخيمة » . ومن مادة العين والقاف واللام عقل . ويقال : عقلْتُ البعير.

ومن مهام العقل أنْ يُفرز الأشياء ، وأنْ يفكر فيها ليستخرج المطلوب ، وأنْ يتدبر كل أمر ، فعمليات العقل هى الاستقبال الإدراكى والبحث فيه لاستخلاص الحقائق والنتائج ، وأن يتدبر الإنسان كل أمر كى يتجنب ما فيه من ضرر .

والمثل : هو ما توصَّل إليه بعضٌ من العلماء من اكتشاف لأدوية يستخدمونها لفترة ما ، ثم يعلنون عن الاستغناء عنها ؛ لأن آثارها الجانبية ضارة جداً ؛ وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا الأمر جيداً ؛ وخَطَوْا خطوات إلى ما ليس لهم به كامل العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الرعد]

نلحظ فيه توجيهاً بالتعاون بين العقول ، لتبحث فى آيات رَبِّ العقول ؛ فلا يأخذ أحد قراراً بعقله فقط ؛ بل يسمع أىّ منّا لرأى عقل ثانٍ وعقل ثالث ورابع ؛ ليستطيع الإنسان تدبُّر ما يمكن أنْ يقع ؛ ولتتكاتف العقول فى استنباط الحقائق النافعة التى لا يتأتَّى منها

ضرر فيما بعد ؛ لأن من استبد برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركهم فى عقولهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ الْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

والعجب هو أن تُبدى دهشة من شىء لا تعرف سببه ، وهذا التعجب لا يتأتَّى من الله ؛ لأنه سبحانه يعلم كل شىء ، فإذا صدر عجب من الله مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة]

فمعنى هذا أنه سبحانه يُنكِر أن يكفر الإنسان مع قيام الأدلة على الإيمان ؛ لكن بعضاً من الناس ـ رغم ذلك ـ يكفر بالله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد]

هو خطاب مُوجَّه لرسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يتعجّب من أنهم كانوا يُسمُّونه قبل أن يبعثه الله رسولاً بالصادق الأمين ؛ وبعد ما جاءت الرسالة قالوا : إنه ساحر كذاب .

فكيف يكون صادقاً أميناً ببشريته وذاتيته ؛ ثم إذا أمدّه الحق سبحانه بالمَدَد الرِّسَالى تتهمونه بالكذب ؟ ألم يكُنْ من الأجدر أنْ

تقولوا إنه صار أكثر صدْقاً ؟ وهل من المُمْكن أن يكون صادقاً عندكم ، ثم يكذب على الله ؟

والتعجُّب أيضاً من أنهم أنكروا البعث من بعد الموت ، رغم أنه سبحانه أوضح الأدلة على ذلك ؛ ولكن المؤمنين وحدهم هم الذين استقبلوا أمر البَحْث بالتصديق ؛ بمجرد أن أبلغهم به رسول الله مُبلِّغاً عن ربِّه .

ونجد الحقَّ سبحانه وتعالى قد احترم فُضُول العقل البشرى ، فأوضح سبحانه ذلك ونَصَبَ الأدلة عليه ؛ وأبلغنا أنه لم يعجز عن الخلْق الأول ؛ لذلك لن يعجز عن البعث .

فقد جاء بنا سبحانه من عدم ، وفى البعث سيأتى بنا من موجود ، ومن الغباء إذنْ أن يتشكَّك أحد فى البعث ، والمُسْرِف على نفسه إنما يُنكِر البعث ؛ لأنه لا يقدر على ضبْط النفس ؛ ويظن أنه بإنكار البعث لن يَلْقَى المصير الأسود الذى سيلقاه فى الآخرة .

ولذلك تجد المسرفين على أنفسهم يحاولون التشكيك فى البعث ، ويأتى الحق سبحانه بتشكيكهم هذا فى قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا مَا هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية]

ولو أن الواحد منهم وضع مسألة البَعْث فى يقينه لانصرف عن شهواته ، بينما هو يريد أن ينطلق بالشهوات ؛ ولذلك نجدهم يقولون :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

وهم يقصدون بذلك أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ، ويعودون

إلى الأرض كعناصر وتراب تَذْروه[1] الرياح ، فكيف سيأتى بهم الله للبعث ، ويُنشئهم من جديد ؟

ويقول سبحانه :

﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ[2] رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ [يس]

ومن الكافرين مَنْ قال : سنصير تراباً ، ثم نختلط بالتربة ، ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تنبته الأرض من فواكه وخُضر وأشجار ؛ ثم يأكل طفل من الثمرة التى تغذَّتْ بعناصرنا ؛ فيصير بعضٌ مناً فى مكونات هذا الطفل ؛ والقياس يُوضِّح أننا سوف نتناثر ؛ فكيف يأتى بنا الله ؟

كل ذلك بطبيعة الحال من وسوسة الشيطان ووحيه :

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ..(١٢١)﴾ [الأنعام]

وأقول : لنفترض أن إنساناً قد مرض ؛ وأصابه هُزَال ، وفقد ثلاثين كيلوجراماً من وزنه ، وما نزل من هذا الوزن لا بُدَّ أنه قد ذهب إلى الأرض كعناصر اختلطتْ بها ، ثم جاء طبيب قام بتشخيص الداء وكتب الدواء ، وشاء الله لهذا المريض الشفاء واستردَّ وزنه، وعاد مرة أخرى لحالته الطبيعية ؛ فهل الثلاثين كيلو جراماً التى استردَّها هى هى نفس الكمية بنوعيتها وخصوصيتها التى سبق أنْ فقدها ؟ طبعاً لا .

---

(١) ذرت الريح التراب تذروه : أطارته وسفَتْه وأذهبته . وقيل : حملته فأثارته . [لسان العرب - مادة : ذرا] .

(٢) رم الميت : بَلِيَ جسمه . والرميم : الخلق البالى من كل شىء . [لسان العرب - مادة : رمم] .

وهكذا نفهم أن التكوين هو تكوين نسبىّ للعناصر ، كذا من الحديد ؛ كذا من الصوديوم ؛ كذا من المغنسيوم ؛ وهكذا .

إذن : فالجزاء فى اليوم الآخر عملية عقلية لازمة ، يقول الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

ما دام هناك أمر ؛ وهناك نهى ؛ وهناك منهج واضح يُبيِّن كل شىء . وإنْ كنت تعجبُ يا محمد من الكفار وما يثيرونه من أقضية ، فلَكَ أنْ تعجب لأنها أمور تستحق العجب .

والحق سبحانه حين يخاطب الخَلْق فهو يخاطبهم إمَّا فى أمر يشكُّون فيه ، أو فى أمر لا يشكُّ فيه أحد .

والمَثَل من حياتنا ـ ولله المَثَلُ الأعلى ـ حين تخاطب أنت واحداً فى أمر يَشُكُّ هو فيه ؛ فأنت تحاول أن تؤكد هذا الأمر بكل الطرق ، وهكذا وجدنا بعضاً من الناس ينكرون البعث والحساب ؛ ووجدنا الحق سبحانه وتعالى يُذكِّرهم به عبر رسوله ويؤكده لهم .

وأيضاً خاطبهم الحق سبحانه فيما لم يَشكُّوا فيه ؛ وهو الموت ؛ وقال :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ويقول الرسول ﷺ :

« ما رأيت يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت » .

فالموت يقين ، ولكن لا أحد يحاول التفكير فى أنه قادم ، وسبحانه يقول :

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون]

وهذا تأكيد لأمر يُجمع الناس على أنه واقع ، لكنهم لغفلتهم عنه بَدَوْا كالمنكرين له ، لذلك خاطبهم خطابَ المنكرين ، ثم قال بعد ذلك:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون]

ولم يَقُلْ : « ولتبعثون » لأن البعث مسألة لا تحتاج إلى تأكيد ، وعدم التأكيد هنا آكد من التأكيد ، لأن أمر الموت واضح جداً رغم الغفلة عنه ، أما البعث فهو واقع لا محالة بحيث لا يحتاج إلى تأكيد .

والمثل من حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ـ يذهب الإنسان إلى الطبيب ؛ فيقول له الطبيب بعد الكشف عليه « اذهب فلن أكتب لك دواء » . وهذا القول يعنى أن هذا الإنسان فى تمام الصحة ؛ وكأن كتابة الدواء يحمل شبهة أن هناك مرضاً .

وكذلك الحق سبحانه يخاطب الخَلْق فى الشىء الذى ينكرونه وعليه دليل واضح ؛ فيأتى خطابه لهم بلا تأكيد ؛ وهو يوضح بتلك الطريقة أنهم على غير حق فى الإنكار ، أما الشىء الذى يتأكدون منه وهم غافلون عنه ؛ فهو يؤكده لهم ؛ كى لا يغفلوا عنه .

وكذلك فى القَسَم ؛ فنجده سبحانه قد أقسم بالتين والزيتون ؛ وأقسم بالقرآن الحكيم ؛ وأقسم بغير ذلك ، ونجده فى مواقع أخرى يقول :

﴿لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ[1] ① وَأَنتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ② وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③﴾ [البلد]

والعجيب أنه يأتى بجواب القسم ، فيقول :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ[2] ④﴾ [البلد]

وقد يقول قائل : كيف يقول :

﴿لا أُقْسِمُ .. ①﴾ [البلد]

ثم يأتى بجواب القسم ؟

وأقول : لقد جاء هنا بقوله :

﴿لا أُقْسِمُ .. ①﴾ [البلد]

وكأنه يُوضِّح ألاَّ حقَّ لكم فى الإنكار ؛ ولذلك ما كان يصحّ أنْ أقسم لكم ، ولو كنت مُقْسِماً ؛ لأقسمتُ بكذا وكذا وكذا .

وسبحانه يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ⑤﴾ [الرعد]

وهو جَلَّ وعلا يُذكِّرهم بما كان يجب ألاَّ ينسوه ؛ فقد خلقهم من تراب ؛ وخلق التراب من عدم ، وهو القائل :

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ[3] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾ [ق]

---

(١) البلد : المكان المحدود يستوطنه جماعات من الناس ، وقد يسمى بها المكان الواسع من الأرض ينتفع به أهل البلد . قال تعالى : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ.. ⑤⑧﴾ [الأعراف] . وقوله تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ①﴾ [البلد] . أى : مكة . [القاموس القويم ١/٨٢] بتصرف .

(٢) الكبد : المشقة والعناء . فالإنسان فى مشقة وعناء ، طول حياته من المهد إلى اللحد . [القاموس القويم ٢/١٤٩] .

(٣) لبس الشىء : خلطه وعمّاه وأبهمه وجعله مُشْكلاً مُحيراً . وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾ [ق] . أى : شك . [القاموس القويم ٢/١٨٨] بتصرف .

إذن : فسبحانه يتعجب من أمر هؤلاء ؛ ويزيد من العجب، أنهم كذَّبوا محمداً ﷺ بعد أن جرَّبوا فيه الصدق ، ولمسوا منه الأمانة ؛ وقالوا عنه ذلك من قبل أن يُبعث ؛ وفوق ذلك أنكروا البعث مع قيام الدليل عليه .

ويصفهم الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد]

أى : أن هؤلاء المُكذِّبين لك يا محمد والمُنْكرين للبعث لم يكفروا فقط بالله الذى أوجب التكليف العبادى ؛ بل هم يكفرون بالربوبية التى تعطى المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصى ، وتأتمر بأمرها الأسباب لتستجيب لأىٍّ مجتهد يتبع قوانين الاجتهاد ، فيأخذ من عطاءات الربوبية ؛ وهى عطاءات التشريف التى تضمن الرزق ، بينما عطاءات الألوهية ؛ هى تكليفاتٌ بالطاعة للأوامر التعبدية ؛ الممثلة فى « افعل » و« لا تفعل » .

وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا بعد أنْ يبلغ الإنسان درجة النضج التى تؤهله ؛ لأنْ ينجب مثيلاً له ؛ وقد ترك الحق سبحانه كل إنسان يرتع فى خير النعم التى أسبغها سبحانه على البشر ، وكان على الإنسان أن يسعى إلى الإيمان فَوْر أن تصله الدعوة من الرسول المُبلِّغ عن الله ؛ هذا الرسول المشهود له بالصدق والأمانة .

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يَصف المُنكرين للإيمان :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد]

ويضيف :

﴿ وأُولَـٰئِكَ الأَغْـلالُ فِى أَعْنَاقِـهِمْ وأُولَـٰئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِـيـهَـا خَالِدُونَ (٥) ﴾ [الرعد]

والغُلّ : هو طَوْق الـحـديد الذى له طرف فى كل يد لِـيُـقَـيِّـدها ؛ وطرف مُعلَّق فى الرقبـة لِيُقلل من مساحة حركـة اليدين ، ولمزيد من الإذلال .

وهم أصـحاب الـنار ؛ وكلمة « صـاحب » تُطلق على مَـنْ تعرفـه معرفةً تروق كيانك وذاتك ؛ فهناك مَنْ تصاحبه ؛ وهناك مَنْ تصادقه ؛ وهناك مَنْ تُؤاخيه ؛ وهناك مَنْ تعرفه معرفة سطحية ، ولا تقيم علاقة عميقة معه .

إن المعـرفة مراتب ، والصـحبة تآلف وتجـاذب بين اثنين ؛ ومَنْ يصاحب النار فـهو مَنْ تعـشقه النار ، ويعـشق هو النار ، ويحب كل منهما ملازمة الآخر ؛ ألاَ تقول النار لربها يوم القيامة :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

أى : أن العذاب نفسه يكون مَشُوقاً أنْ يصلَ إلى العاصى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ(١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦) ﴾

---

(١) المثلة : العـقوبة الفـاضحة التى يتمثل بها لشـدتها وشهـرتها وتتـخذ عبـرة وعظة . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. (٦) ﴾ [الرعد] . أى : مضت العـقوبات الزاجرة فى الأمم العاصية مما يُعدُّ عبرة لهم ولغيرهم . [القاموس القويم ٢/٢١٦] .

والاستعجال أن تطلب الشيء قبل زمنه ، وتقصير الزمن عن الغاية ، فأنت حين تريد غايةً ما ؛ فأنت تحتاج لزمن يختلف من غاية لأخرى ، وحين تتعجل غايةً ، فأنت تريد أنْ تصل إليها قبل زمنها .

وكل اختيار للتعجُّل أو الاستبطاء له مميزاته وعيوبه ، فهل الاستعجال هنا لمصلحة أمر مطلوب ؟

إنهم هنا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، وهذا دليل على اختلال وخُلْف موازين تفكيرهم ، وقد سبق لهم أنْ قالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهكذا نجد هؤلاء الكافرين وهم يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، كما استعجلوا أنْ تنزل عليهم الحجارة ، وهم لا يعرفون أن كل عذاب له مدة ، وله ميعاد موقوت . و لم يفكروا فى أنْ يقولوا : « اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه » .

بل إنهم قالوا :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه ما وصلوا إليه من خلل فى نفوسهم وفسادها ؛ ذلك أن مقاييسهم انتهت إلى الكفر ، وليس أدلّ على فساد المقاييس إلا استعجالهم للسيئة قبل الحسنة ؛ لأن العاقل

---

(١) الكسفة : القطعة ، وجمعها : كسف وكِسَف . [لسان العرب ـ مادة : كسف] .

حين يُخيَّر بين أمرين ؛ فهو يستعجل الحسنة ؛ لأنها تنفع ، ويستبعد السيئة .

وما دامت نفوس هؤلاء الكافرين فاسدة ؛ وما دامت مقاييسهم مُخْتلة ، فلا بد أن السبب فى ذلك هو الكفر .

إذن : فاستعجال السيئة قبل الحسنة بالنسبة للشخص أو للجماعة ؛ دليلُ حُمْق الاختيار فى البدائل ؛ فلو أنهم أرادوا الاستعجال الحقيقى للنافع لهم ؛ لاستعجلوا الحسنة ولم يستعجلوا السيئة .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. (٦) ﴾ [الرعد]

فلماذا يستعجلون العذاب ؟ ألم ينظروا ما الذى حاق بالذين كذَّبوا الرسل من قبلهم ؟

وحين يقول الرسول : احذروا أن يصيبكم عذاب ، أو احذروا أنْ كذا وكذا ؛ فهل فى ذلك كذب ؟ ولماذا لم ينظروا للعِبَر التى حدثتْ عَبْر التاريخ للأقوام التى كذبتْ الرسل من قبلهم ؟

و« المَثُلات » جمع « مُثْلة » ؛ و فى قول آخر « مَثُلَة » . والحق سبحانه يقول لنا :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

ويقول أيضاً :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

وهكذا تكون « مَثُلات » من المثل ؛ أى : أن تكون العقوبة مُمَاثلة للفعل .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. ⑥ ﴾ [الرعد]

يعنى : أنه سبحانه سبق وأنزل العذاب بالمثيل لهم من الأمم السابقة التى كذبتْ الرسل ؛ إما بالإبادة إن كان ميئوساً من إيمانهم، وإما بالقهر والنصر عليهم .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⑥ ﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه لا يُعجِّل العذاب لِمَنْ يكفرون ؛ لعل رجلاً صالحاً يوجد فيهم ، وقد صبر سبحانه على أبى جهل ؛ فخرج منه عكرمة بن أبى جهل ؛ وهو الصحابى الصالح ؛ وصبر على خالد بن الوليد فصار سيفَ الله المسلول ، بعد أن كان أحد المقاتلين الأشداء فى معسكر الكفر .

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف قاتل عكرمة بن أبى جهل ؛ إلى أن أصيب إصابة بالغة ، فينظر إلى خالد بن الوليد قائلاً : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف حزن واحد من المقاتلين المسلمين لحظة أنْ أفلتَ منه خالد بن الوليد أيام أنْ كان على الكفر ؛ وهو لا يعلم أن الحق سبحانه قد ادخر خالداً ليكون سيف الله المسلول من بعد إسلامه .

وهكذا شاء الحق أن يُفلت بعض من صناديد قريش من القتل أيام أنْ كانوا على الكفر ، كى يكونوا من خيرة أهل الإسلام بعد ذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⁽٦⁾ ﴾ [الرعد]

فمع أن الناس ظالمون ؛ فسبحانه يغفر لهم ؛ لأنه سبحانه أفرح بعبده التائب المؤمن من أحدكم ، وقد وقع على بعيره ، وقد أضلَّه فى فَلاة[1] .

ولذلك أرى أن مَنْ يُعيِّر عبداً بذنب استغفر منه الله ؛ هو إنسان آثم ؛ ذلك أن العبد قد استغفر الله ؛ فلا يجب أنْ يحشر أحد أنفه فى هذا الأمر .

ونلحظ هنا قول الحق سبحانه :

﴿ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⁽٦⁾ ﴾ [الرعد]

وفى هذا القول يجد بعض العلماء أن الله قد استعمل حرفاً بدلاً من حرف آخر ؛ فجاءت « على » بدلاً من « مع » .

ونلحظ أن « على » هى ثلاثة حروف ؛ و « مع » مكونة من حرفين ؛ فلماذا حذف الحق سبحانه الأخفَّ وأتى بـ « على » ؟ لا بد أن وراء ذلك غاية .

أقول : جاء الحق سبحانه بـ « على » فى قوله :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⁽٦⁾ ﴾ [الرعد]

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

ليؤكد لنا أن ظلم الناس كان يقتضى العقوبة ؛ ولكن رحمته سبحانه تسيطر على العقوبة .

وهكذا أدت كلمة « على » معنى « مع » ، وأضافت لنا أن الحق سبحانه هو المسيطر على العقوبة ؛ وأن رحمة الله تَطْغَى على ظلم العباد .

ومثْل ذلك قوله سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. ⟨٨⟩ ﴾ [الإنسان]

أى : أنهم يُحبون الطعام حَبًّا جَمًّا ؛ لكن إرادة الحفاوة والكرم تَطْغى على حُبِّ الطعام.

ولكن لا يجب أن يظن الناس أن رحمة الله تطغى على عقابه دائماً ؛ فلو ظن البعض من المجترئين هذا الظن ؛ وتوهموا أنها قضية عامة ؛ لَفسد الكون ؛ ولذلك يُنهِى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ⟨٦⟩ ﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه قادر على العقاب العظيم ، وهكذا جمعت الآية بين الرجاء والتخويف .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ⟨٧⟩ ﴾

ونحن نعلم أن « لولا » إنْ دخلت على جملة إسمية تكون حرف امتناع لوجود ؛ مثل قولك « لولا زيد عندك لَزُرْتك » ، أى : أن الذى يمنعك من زيارة فلان هو وجود زيد .

ولو دخلتْ « لولا » على جملة فعلية ؛ فالناطق بها يحب أنْ يحدث ما بعدها ؛ مثل قولك « لولا عطفتَ على فلان » أو « لولا صفحتَ عن ولدك » ، أى : أن فى ذلك حَضّاً على أنْ يحدث ما بعدها .

وظاهر كلام الكفار فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها أنهم يطلبون آية لتأييد صدق الرسول ﷺ فى البيان الذى يحمله من الحق لهم ، وكأنهم بهذا القول يُنكرون المعجزة التى جاء بها ﷺ وهى القرآن الكريم ، رغم أنهم أمةُ بلاغة وأدب وبيان ، وأداء لُغوى رائع ؛ وأقاموا أسواقاً للأدب ، وخَصَّصوا الجوائز للنبوغ الأدبى ؛ وعلَّقوا القصائد على جدران الكعبة ، وتفاخرت القبائل بمَنْ أنجبتهم من الشعراء ورجال الخطابة .

فلما نزل القرآن من جنس نبوغكم ؛ وتفوَّق على بلاغتكم ؛ ولم تستطيعوا أن تأتوا بآية مثل آياته ؛ كيف لم تعتبروه معجزة ؛ وتطالبون بمعجزة أخرى كمعجزة موسى عليه السلام ؛ أو كمعجزة عيسى عليه السلام ؟

لقد كان عليكم أن تفخروا بالمعجزة الكاملة التى تحمل المنهج إلى قيام الساعة .

ولكن الحُمْق جعلهم يطلبون معجزة غير القرآن ، ولم يلتفتوا إلى المعجزات الأخرى التى صاحبتْ رسول الله ﷺ ، لم يلتفتوا إلى أن

الماء قد نبع من أصابعه ﷺ ؛ والطعام القليل أشبع القوم وفاض منه ، والغمامة قد ظللته ، وجذع النخلة قد أنَّ بصوت مسموع عندما نقل رسول الله منبره ؛ بعد أنْ كان ﷺ يخطب من فوق الجذع[1] .

وقد يكونون أصحاب عُذْر فى ذلك ؛ لأنهم لم يَرَوْا تلك المعجزات الحِسِّية ؛ بحكم أنهم كافرون ؛ واقتصرت رُؤْياها على مَنْ آمنوا برِسالته ﷺ .

وهكذا نعلم أن الرسول ﷺ لم يُحرم من المعجزات الكونية ؛ تلك التى تحدث مرة واحدة وتنتهى ؛ وهى حُجَّة على مَنْ يراها ؛ وقد جاءتْ لتثبيت إيمان القلَّة المضطهدة ؛ فحين يروْنَ الماء مُتفجراً بين أصابعه ، وَهُمْ مُزَلْزلون بالاضطهاد ؛ هنا يزداد تمسُّكهم بالرسول ﷺ .

ولكن الكافرين لم يَرَوْا تلك المعجزات . وكان عليهم الاكتفاء بالمعجزة التى قال عنها رسول الله ﷺ : « القرآن كافينى[2] » .

والقرآن معجزة من جنس ما نبغتُم فيه أيها العرب ، ومحمد رسول من أنفسكم ، لم يَأْتِ من قبيلة غير قبيلتكم ، ولسانه من

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦/٦٠١ فتح البارى) ، والترمذى فى سننه ـ صلاة الجمعة ـ باب ما جاء فى الخطبة على المنبر ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٥٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فَحنَّ الجذع ، فأتاه النبى ﷺ فمسحه فسكن » .

(٢) أورد العجلونى فى كشف الخفاء (١٨٦٨) : « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى بعده » وعزاه لأبى يعلى والدارقطنى عن أنس مرفوعاً . وقال الدارقطنى : رواه أبو معاوية عن الحسن مرسلاً . قال فى المقاصد : « وهو أشبه بالصواب » .

لسانكم ، وتعلمون أنه لم يجلس إلى مُعلِّم ؛ ولا عُلِم عنه أنه خطب فيكم من قبل ، ولم يَقْرِض[1] الشعر ، ولم يُعرف عنه أنه خطيب من خطباء العرب .

ولذلك جاء الحق سبحانه بالقول على لسانه :

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا[2] مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس]

أى : أننى عِشْتُ بينكم ولم أتكلَّم بالبلاغة ؛ ولم أنافس فى أسواق الشِّعْر ؛ وكان يجب أن تؤمنوا أنه قول من لَدُنْ حكيم عليم .

ولكن منهم مَنْ قال : « لقد كان يكتم موهبته وقام بتأجيلها» .

وهؤلاء نقول لهم : هل يمكن أن يعيش طفل يتيم الأب وهو فى بطن أمه ؛ ثم يتيم الأم وهو صغير ، ويموت جَدّه وهو أيضاً صغير ، ورأى تساقط الكبار من حوله بلا نظام فى التساقط ؛ فقد ماتوا دون مرض أو سبب ظاهر ؛ أكان مثل هذا الإنسان يأمنُ على نفسه أن يعيش إلى عمر الأربعين ليعلن عن موهبته ؟

ثم من قال : إن العبقرية تنتظر إلى الأربعين لتظهر ؟ وكلنا يعلم أن العبقريات تظهر فى أواخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث .

---

(١) القريض : الشعر . والقرْض : قَرْض الشعر . وقرض فى سيره يقرض قرضاً : عدل يَمْنة ويَسرة . وقال الجوهرى : القرض قَوْل الشعر خاصة . يُقال : قرضتُ الشعر أقرضه إذا قلته . [لسان العرب ـ مادة : قرض] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤١٠) : « قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملِك الحبشة : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة » .

ورغم عدم اعترافكم بمعجزة القرآن ؛ هاهو الحق سبحانه يُجرى على ألسنتكم ما أخفيتموه فى قلوبكم ؛ ويُظهره للناس فى مُحكم كتابه :

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف]

وهكذا اعترفتُم بعظمة القرآن ؛ وحاولتُم أن تغالطوا فى قيمة المُنزَّل عليه القرآن .

ويقول سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ.. ۝٧﴾ [الرعد]

فلماذا إذنْ قُلْتم واعترفتم أنَّ له رباً ؟ أمَا كان يجب أن تعترفوا برسالته وتُعلنون إيمانكم به وبالرسالة ، وقد سبق أنْ قالوا : إن ربَّ محمد قد قَلاَه[2] .

وهذا القول يعنى أنهم اعترفوا بأن له رباً ؛ فلماذا اعترفوا به فى الهَجْر وأنكروه فى الوَصْل .

وإذا كانوا يطلبون منك معجزة غير القرآن فاعلم يا محمد أن ربك هو الذى يرسل المعجزات ؛ وهو الذى يُحدِّد المعجزة لكل رسول

---

(١) القريتان : مكة والطائف . ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

(٢) القلَى : البغض . قال ابن سيده : قليته : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . وقال تعالى : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] . [لسان العرب - مادة : قلى] .

حسب ما نبغ فيه القوم المُرْسَل إليهم الرسول ، وأنت يا محمد مُنْذر فقط ؛ أى مُحذِّر :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الرعد]

فكل قوم لهم هَاد ، يهديهم بالآيات التى تناسب القوم ؛ فبنو إسرائيل كانوا مُتفوِّقين فى السحر ؛ لذلك جاءت معجزة موسى من لَوْنِ ما نبغوا فيه ؛ وقوم عيسى كانوا مُتفوِّقين فى الطب ؛ لذلك كانت معجزة عيسى من نوع ما نبغوا فيه .

وهكذا نرى أن لكل قوم هادياً ، ومعه معجزة تناسب قومه ؛ ولذلك رَدَّ الله عليهم الرد المُفْحم[1] حين قالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[2] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ[3] أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

فيقول الحق سبحانه :

---

(١) أفحمه : أسكته . والمُفْحَم : العَيِيُّ . وكلّمه فَفَحم : لم يُطق جواباً . [لسان العرب ـ مادة : فحم] .

(٢) الكسفة : القطعة . وكِسْف السحاب وكِسَفة : قطَعه . وكل شيء قطعته فقد كسفته . [لسان العرب مادة : كسف] .

(٣) الزخرف : الذهب . ثم استعمل فى الزينة وفى أثاث البيت الجميل . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء] . أى من ذهب أو كله زينة وأثاث جميل . [القاموس القويم ١/ ٢٨٥] .

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

ويأتى الرد من الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩) ﴾ [الإسراء]

أى : أن قوماً قبلكم طلبوا ما أرادوا من الآيات ؛ وأرسلها لهم الله ؛ ومع ذلك كفروا ؛ لأن الكفر يخلع ثوب العناد على الكافر ؛ لأن الكافر مُصَمِّم على الكفر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ[1] وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾

وما المناسبة التى يقول فيها الحق ذلك ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يؤكد مسألة أن لكل قوم هادياً ، وأن رسوله ﷺ هو منذر ، وأن طلبهم للآيات المعجزة هو ابنٌ لرغبتهم فى تعجيز الرسول ﷺ .

---

(١) قال العوفى عن ابن عباس : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ..(٨) ﴾ [الرعد] يعنى : السقط . ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ..(٨) ﴾ [الرعد] يقول : مازادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهم من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى . [تفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٢] .

ولو جاء لهم الرسول بآية مما طلبوها لأصرُّوا على الكفر ، فهو سبحانه العَالِم بما سوف يفعلون ، لأنه يعلم ما هو أخفى من ذلك ؛ يعلم - على سبيل المثال - ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .

ونحن نعلم أن كُلَّ أنثى حين يشاء الله لها أن تحبل ؛ فهى تحمل الجنين فى رحمها ؛ لأن الرحم هو مُسْتقرٌّ الجنين فى بطن الأم .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الرعد]

أى : ما تُنقص وما تُذهب من السَّقْط فى أى إجهاض ، أو ما ينقص من المواليد بالموت ؛ فغاضت الأرحام ، أى : نزلتْ المواليد قبل أن تكتمل خلْقتها ؛ كأن ينقص المولود عيناً أو إصبعاً ؛ أو تحمل الخلْقة زيادة تختلف عما نألفه من الخَلْق الطبيعى ؛ كأن يزيد إصبع ، أو أن يكون برأسين .

أو أن تكون الزيادة فى العدد ؛ أى : أن تلد المرأة تَوْأماً أو أكثر ، أو أن تكون الزيادة متعلقة بزمن الحَمْل .

وهكذا نعلم أنه سبحانه يعلم ما تغيض الأرحام . أى : ما تنقصه فى التكوين العادى أو تزيده ، أو يكون النظر إلى الزمن ؛ كأن يحدث إجهاض للجنين وعمره يوم أو شهر أو شهران ، ثم إلى ستة أشهر ؛ وعند ذلك لا يقال إجهاض ؛ بل يقال ولادة .

وهناك مَنْ يولد بعد ستة شهور من الحمل أو بعد سبعة شهور

أو ثمانية شهور ؛ وقد يمتد الميلاد لسنتين عند أبى حنيفة ؛ وإلى أربع سنوات عند الشافعى ؛ أو لخمس سنين عند الإمام مالك ، ذلك أن مدة الحمل قد تنقص أو تزيد .

ويُقَال : إن الضحاك وُلد لسنتين فى بطن أمه[1] ، وهرم بن حيان[2] وُلد لأربع سنين ؛ وظَل أهل أمه يلاحظون كبَر بطنها ؛ واختفاء الطَّمْث الشهرى طوال تلك المدة ؛ ثم ولدتْ صاحبنا ؛ ولذلك سموه « هرم » أى : شاب وهو فى بطنها .

وهكذا نفهم معنى « تغيض » نَقْصاً أو زيادة ؛ سواء فى الخلْقة أو للمدة الزمنية .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾ [الرعد]

والمقدار هو الكمية أو الكيف ؛ زماناً أو مكاناً ، أو مواهب ومؤهلات .

وقد عَدَّد الحق سبحانه مفاتيح الغيب الخمس حين قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ .. (٣٤) ﴾ [لقمان]

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٠٢/٢) ، أن الضحاك قال : وضعتنى أمى وقد حملتنى فى بطنها سنتين ، وولدتنى وقد نبتت ثنيتى .

(٢) هرم بن حيان العبدى ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات فى يوم شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه . (حلية الأولياء ١١٩/٢) .

وقد حاول البعض أن يقيموا إشكالاً هنا ، ونسبوه إلى الحضارة والتقدم العلمى ، وهذا التقدم يتطرق إليه الاحتمال ، وكل شىء يتطرق إليه الاحتمال يبطل به الاستدلال ، وذلك بمعرفة نوعية الجنين قبل الميلاد ، أهو ذكر أم أنثى ؟ وتناسَوْا أن العلم لم يعرف أهو طويل أم قصير ؟ ذكى أم غبى ؟ شقى أم سعيد ؟ وهذا ما أعجز الأطباء والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم .

ثم إنْ سألتَ كيف عرف الطبيب ذلك ؟

إنه يعرف هذا الأمر من بعد أن يحدث الحَمْل ؛ ويأخذ عينة من السائل المحيط بالجنين ، ثم يقوم بتحليلها ، لكن الله يعلم دون أخذ عينة ، وهو سبحانه الذى قال لواحد من عباده :

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ .. (٧)﴾ [مريم]

وهكذا نعلم أن عِلْم الله لا ينتظر عيِّنة أو تجربة ، فعلْمه سبحانه أزلىّ ؛ مُنزَّه عن القصور ، وهو يعلم ما فى الأرحام على أى شكل هو أو لون أو جنس أو ذكاء أو سعادة أو شقاء أو عدد .

وشاء سبحانه أن يجلى طلاقة قدرته فى أنْ تحمل امرأة زكريا عليه السلام فى يحيى عليه السلام ، وهو الذى خلق آدم بلا أب أو أم ؛ ثم خلق حواء من أب دون أم ؛ وخلق عيسى من أم دون أب ، وخلقنا كلنا من أب وأم ، وحين تشاء طلاقة القدرة ؛ يقول سبحانه :

﴿كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

والمثل ـ كما قلت ـ هو فى دخول زكريا المحرابَ على مريم عليها السلام ؛ فوجد عندها رزقاً ؛ فسألها :

﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

قالت :

﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

وكان زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؛ ولكن هذا العلم كان فى حاشية شعوره ؛ واستدعاه قول مريم إلى بُؤْرة الشعور ، فزكريا يعلم عِلْم اليقين أن الله هو وحده مَنْ يرزق بغير حساب .

وما أنْ يأتى هذا القول مُحرِّكاً لتلك الحقيقة الإيمانية من حافة الشعور إلى بُؤْرة الشعور ؛ حتى يدعو زكريا ربه فى نفس المكان ليرزقه بالولد ؛ فيبشره الحق بالولد .

وحين يتذكر زكريا أنه قد بلغ من الكبر عتياً[1] ، وأن امرأته عاقر ؛ فيُذكِّره الحق سبحانه بأن عطاء الولد أمر هَيِّن عليه سبحانه :

﴿قَالَ كَذَالِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾

ومَنْ كُلُّ شيء عنده بمقدار ؛ لا يغيب عنه شيء أبداً ، وما يحدث لأيِّ إنسان فى المستقبل بعد أن يُولَد هو غَيْب ؛ لكن المُطَّلع عليه وحده هو الله .

---

(١) عتا يعتو عُتواً : أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته . [القاموس القويم ٢/٦] .

وكأن هناك « نموذجاً » مُصَغَّراً يعلمه الله أولاً ؛ وإن اطلع عليه الإنسان فى أواخر العمر ؛ لوجده مطابقاً لمَا أراده وعلمه الله أولاً ؛ فلا شىء يتأبَّى عليه سبحانه ؛ فكُلُّ شىء عنده بمقدار .

وهو عالم الغيب والشهادة ؛ يعلمُ ما خَفِى من حجاب الماضى أو المستقبل ، وكُلّ ما غاب عن الإنسان ، ويعلم - من باب أَوْلَى - المشهودَ من الإنسان ، فلم يقتصر علمه على الغيب ، وترك المشهود بغير علم منه ؛ لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد]

والكبير اسم من أسماء الله الحسنى ؛ وهناك مَنْ تساءل : ولماذا لا يوجد « الأكبر » ضمن أسماء الله الحسنى ؛ ويوجد فقط قولنا « الله أكبر » فى شعائر الصلاة ؟

وأقول : لأن مقابل الكبير الصغير ، وكل شىء بالنسبة لمُوجِده هو صغير. ونحن نقول فى أذان الصلاة « الله أكبر » ؛ لأنه يُخرجك من عملك الذى أوكله إليك ، وهو عمارة الكون ؛ لتستعين به خلال عبادتك له وتطبيق منهجه ، فيمدُّك بالقوة التى تمارس بها إنتاج ما تحتاجه فى حياتك من مأكل ، وملْبس ، وستْر عورة .

إذن : فكلُّ الأعمال مطلوبة حتى لإقامة العبادة ، فإياك أن تقول : إن الله كبير والباقى صغير ، لأن الباقى فيه من الأمور ما هو كبير من منظور أنها نعَم من المُنعم الأكبر ؛ ولكن الله أكبرُ منَّا ؛ ونقولها حين يُطلَبُ منَّا أنَ نخرج عن أعمالنا لنستعين بعبادته سبحانه .

ونعلم أن العمل مطلوب لعمارة الكون ، ومطلوب حتى لإقامة العبادة ، ولن توجد لك قوة لتعبد ربك لو لم يُقوِّك ربُّك على عبادته ؛

فهو الذى يستبقى لك قُوتك بالطعام والشراب ، ولن تطعم أو تشرب ؛ لو لم تحرُثْ وتبذر وتصنع ، وكل ذلك يتيح لك قوة لتُصلى وتُزكِّى وتحُج ؛ وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وسبق أنْ قُلت: إن الحق سبحانه حينما نادانا لصلاة الجمعة قال:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

وهكذا يُخرجنا الحق سبحانه من أعمالنا إلى الصلاة الموقوتة ؛ ثم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا سبحانه من العمل ، وهو أمر كبير إلى ما هو أكبر ؛ وهو أداء الصلاة .

وقول الحق سبحانه فى وصف نفسه (المتعال) يعنى أنه المُنزَّه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ؛ فلا ذات كذاته ؛ ولا صفة كصفاته ، ولا فعل كفعله ، وكل ما له سبحانه يليق به وحده ، ولا يتشابه أبداً مع غيره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ[1] بِٱلنَّهَارِ (١٠) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : « مستخف » مستتر . و « سارب » ظاهر . وقال أبو رجاء : السارب الذاهب على وجهه فى الأرض . وقال القتبى : « سارب بالنهار » أى : منصرف فى حوائجه بسرعة . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٢٦) .

وساعة تسمع كلمة « سواء » فالمقصود بها عدد لا يقل عن اثنين ، فنقول « سواء زيد وعمرو » أو « سواء زيد وعمر وبكر وخالد » .

والمقصود هنا أنه ما دام الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ؛ فأيُّ سرٍّ يوجد لا بد أن يعلمه سبحانه ، وهو سبحانه القائل :

﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ﴾ [طه]

وهل السر هو ما ائتمنتَ عليه غيرك ؟ إذا كان السر هو ذلك ؛ فالأخْفَى هو ما بَقِى عندك ، وإنْ كان السر بمعنى ما يوجد عندك ولم تَقُلْه لأحد ؛ فسبحانه يعلمه قبل أن يكون سراً .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝ ﴾ [الرعد]

وهكذا جمع الحق سبحانه هنا كل أنواع العمل ؛ فالعمل كما نعلم هو شغل الجوارح بمتعلقاتها ؛ فعمل اللسان أن يقول وأن يذوق ، وعمل الأيدى أن تفعل ، وعمل الأذن أن تسمع ، وعمل القلب هو النية ، والعمل كما نعلم يكون مرَّة قَوْلاً ، ومرَّة يكون فِعْلاً .

وهكذا نجد « القول » وقد أخذ مساحة نصف « العمل » ، لأن البلاغ عن الله قَوْل ، وعمل الجوارح خاضع لِمَقُول القول من الحق سبحانه وتعالى .

ولذلك أوضح لنا الحق سبحانه أن العمل هو كُلُّ فعل متعلق بالجوارح ؛ وأخذ القول شقاً بمفرده ؛ وأخذتْ أفعال الجوارح الشِّقَّ الآخر ؛ لأن عمل بقية الجوارح يدخل فى إطار ما سمع من منهج الله .

ولذلك تجمع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها كل العمل من قَوْل وفعل :

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) ﴾ [الرعد]

ومَنْ يستخفى بالليل لابد أنه يُدبِّر أمراً ؛ كأن يريد أن يتسمَّع ما وراء كل حركة ؛ أو ينظر ما يمكن أنْ يشاهده ، وكذلك مَنْ يبرز ويظهر فى النهار فالله عالم به .

وكان على الكفار أن ينتبهوا لأمر عجيب كانوا يُسِرُّونه فى أنفسهم ؛ لحظة أنْ حكى الله ؛ فقال :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

فكيف علِمَ الله ذلك لولا أنه يعلم السِّرَّ وأخْفَى ؟

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ[1] مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١) ﴾

(١) التعقب : العود بعد البَدْء . وقال أبو الهيثم : سميت الملائكة « مُعقِّبات » لأنهن عادت مرة بعد مرة . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٢٦] .

وكلمة (له) تفيد النفعية ، فإذا قلت « لك كذا » فهى عكس أن نقول « عليك كذا » . وحين يقول سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فكأنَّ المُعقِّبات لصالح الإنسان . و « مُعقِّبات » جمع مؤنث ، والمفرد « مُعقِّبة » ، أى : أن للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحِفْظه ليلاً ونهاراً من الأشياء التى لا يمكن الاحتراز منها .

والمَثَلُ هو تلك الإحصاءات التى خرجت عن البشر الذين تلدغهم الثعابين ، فقد ثبت أنها لا تلدغهم وهم نائمون ؛ بل فى أثناء صَحْوتهم ؛ أى : ساعةَ يكونون فى سِتْر النوم فهناك ما يحفظهم ؛ أما فى اليقظة فقد يتصرَّف الإنسان بطَيْشٍ وغَفْلة فتلدغه الأفعى .

ونحن نقول فى أمثالنا الشعبية : « العين عليها حارس » ؛ ونلحظ كثيراً من الأحداث التى تبدو لنا غريبة كأنْ يسقط طفل من نافذة دور عُلوى ؛ فلا يُصَاب بسوء ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن تحفظه الملائكة المُعقِّبات من السُّوء ؛ لأن مهمة الحَفَظة أنْ يحفظوا الإنسان من كُلِّ سوء .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكونَ قبل أن يخلقه ليستخلفه فيه ؛ أعدَّ السماوات وأعدَّ الأرض ؛ وسَخَّر الشمس والقمر ؛ وأخرج الثمرات ؛ وجعل الليل يَغْشَى النهارَ .

كُلُّ ذلك أعدَّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة ؛ وهو سبحانه قَيُّوم على هذا الخليفة ؛ فيصونه أيضاً بعد الخَلْق ، ولا يَدَعُه ما ت نفسه ليدافع عنها فيما لا يستطيع الدفاع عنها ، ويُكلِّف الله الملائكة المُعقِّبات بذلك .

وقد ينصرف معنى المُعقِّبات إلى الملائكة الذين يتعقَّبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته وكتابة سيئاته ، ويمكن أن يقوما بالعملين معاً ؛ حِفْظه وكتابة أعماله ، فإن كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه .

ولقائل أن يقول : ولكنهم سيكتبون السيئات ؛ وهذه على الإنسان وليست له .

وأقول : لا ؛ ويَحْسُن أن نفهم جيداً عن المُشرِّع الأعلى ؛ ونعلم أن الإنسان إذا ما عرف أن السيئة ستُحْسب عليه وتُحْصى ؛ وتُكتب ؛ يمسك كتابه ليقرأه ؛ فلسوف يبتعد عن فعل السيئات .

وهكذا يكون الأمر فى مصلحته ، مَثَلُه مَثَلُ الطالب الذى يرى المراقب فى لجنة الامتحان ، فلا يكرهه ؛ لأنه يحمى حَقَّه فى الحصول على التقدير الصحيح ؛ بدلاً من أن يغُشَّ غيره ، فيأخذ فرصة أكبر منه فى التقدير والنجاح ؛ فضلاً عن أن كل الطلبة يعلمون أن وجود المراقب اليَقِظ هو دافعٌ لهم للمُذَاكرة .

ولذلك أقول دائماً : إياك أنْ تكره أن يكون لك أعداء ؛ لأن الذى يَغُرُّ الإنسانَ فى سلوكه هو نفاقُ أصحابه له ، أما عدوك فهو يفتح عينيه عليك طوال الوقت ؛ ولذلك فأنت تحذر أن تقع فى الخطأ .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

عِدَاى لَهُمْ فَضْل علىَّ ومَيْزَةٌ ... فَتعدَّى لَهُم شُكْر عَلى نَفْعِهم ليَاَ

فَهم كَالدَّواءِ والشِّفَاءِ لمُزْمنٍ ... فَلا أبعدَ الرحمَانُ عنِّى الأعَادِيَا

هُمْ بَحثُوا عَنْ زَلَّتى فاجْتَنبْتُهَا ... فَأصبَحتُ مِمَّا ذله العربُ خَاليَا

إذن : فكتابة الحسنات والسيئات هي مسألةٌ لصالح الإنسان ؛ وحين يتَعاقبُونَ على الإنسان ؛ فكأنهم يصنعون دَوْريَّاتٍ لحماية الفرد ؛ ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر[1] ؛ فيصعد إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ـ وهو أعلم بكم ـ : كيف تركتُم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهُمْ يصلون ، وتركناهم وهُمْ يُصلُّون »[2] .

وكأن الملائكة دوريات .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أن ملائكة الليل يشهدون ؛ ومعهم ملائكة النهار[3] .

وحديث رسول الله ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمنى للحركة الإنسانية ؛ فَكُلُّ حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى

---

(١) قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (المجلد ٣ / ص ١٣٩) طبعة دار القلم ـ بيروت ١٩٨٧ : « أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم ، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٣٢) . والبخارى فى صحيحه (٥٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٤٧٤) ، والترمذى فى سننه (٣١٣٥) ، وابن ماجه فى سننه (٦٧٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى هذه الآية : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء] « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » .

العصر ، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك ؛ ثم ينام .

والمُعقِّبات يَكُنَّ من بين يدى الإنسان ومن خلفه ؛ و (من بين يديه) من أجل الرصد ، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أثناء الهجرة النبوية كان يسير بعض الوقت أمام النبى ﷺ ؛ وكان يسير البعض الآخر خلف النبى ﷺ .

كان أبو بكر - رضى الله عنه - يتقدم ليرقب : هل هناك مَنْ يرصد الرسول أم لا ؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب : أهناك مَنْ يتتبعهما ؟ وهكذا حرص أبو بكر على أنْ يحمى الرسول ﷺ من الرَّصد أو التربُّص[1] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..(١١) ﴾

[الرعد]

والسطحىّ يقول : إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله .

ونقول : إن الله لم يُنزل الملائكة ليعارضوا قَدَره ؛ وهذا الحفظ لا يكون من ذات الإنسان لنفسه ، أو من الملائكة ضد قَدَر الله ؛ والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله .

---

(١) أخرج البيهقى فى سننه (٢/٤٧٦) أن عمر بن الخطاب قال : « والله لليلة من أبى بكر خير من آل عمر ، وليوم من أبى بكر خير من آل عمر ، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتى فطن له رسول الله ﷺ ، فقال : « يا أبا بكر ما لك تمشى ساعة بين يدى وساعة خلفى ؟ فقال : يا رسول الله أذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك » .

ولذلك نجد فى القرآن قول الحق سبحانه :

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا .. (٢٥) ﴾ [نوح]

أى : بسبب خطيئتهم أغرقوا ، فإياك أنْ تظن أنَّ الملائكة يحفظون الإنسان من قَدَر الله ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أمراً فلا رَادَّ له .

ويتابع سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١) ﴾ [الرعد]

وهو سبحانه الذى خلق الكون الواسع بكل أجناسه ؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وأفلاكاً وأملاكاً ؛ وجعل كل ذلك مُسخَّراً للإنسان ؛ ثم يحفظ الحق سبحانه الإنسان ويصونه بقيوميته .

وقد يقول قائل : ولماذا إذن تحدث الابتلاءات لبعض من الناس ؛ رغم أنه سبحانه قد قال إنه يحفظهم ؟

ونقول : إن تلك الابتلاءات إنما تجرى إذا ما غَيَّر البشر من منهج الله ؛ لأن الصيانة تُقوِّم ما قام بالمنهج .

واقرءوا قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) رَغُد العيش : اتسع وطاب . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/ ٢٦٩] .

وهكذا نعلم أن الصيانة للإنسان والحفظ له والإمداد له من قبل أن يُولَد ؛ كُلٌّ ذلك لن يرجع عنه الله ما دام الإنسان يمشى على صراط مستقيم ؛ لكن إذا ما حَادَ الإنسان عن الصراط المستقيم ؛ فيلفته الله ببعض من العِبَر والعظات ليعود إلى الصراط المستقيم .

والتغيير الذى يُجريه الله على البشر حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ؛ يشمل الإمدادات الفرعية ؛ أما الإمدادات الأصلية فلا يمنعها عنهم ؛ مثل الشمس والقمر والنجوم والهواء ؛ ولم يمنع الأرض أن تُخرِج لهم المياه .

ويصيبهم فى الأشياء التى من الممكن أن يسير الكون فى انتظامه رغم حدوثها ؛ كالمصيبة فى المال أو المصيبة فى النفس ؛ ويظل الكون على مسيرته المنتظمة .

ولهذا نجد أحد الفلاسفة وقد قال : « إن الله لا يتغير من أجلكم ؛ ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله » .

وسبق أن قال الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[١] .. (١٢٤) ﴾ [طه]

---

(١) الضنك : الضيق من كل شىء . والضنك : ضيق العيش . وقال الليث فى تفسيره : أكل ما لم يكن من حلال فهو ضنك وإن كان مُوسَّعاً عليه ، وقد ضنك عيشه . [لسان العرب ـ مادة : ضنك] .

وأنت ترى فى عالمنا المعاصر مجتمعات مُتْرَفة ؛ نستورد منهم أدوات الحضارة المعاصرة ؛ لكنهم يعيشون فى الضَّنْك النفسى البالغ ؛ وهذا ما يُثبت أن الثراءَ المادى بالنقود أو أدوات الحضارة ؛ لا يُحقِّق للإنسان التوازن النفسى أو السعادة ؛ وينطبق عليهم ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقى[1] رحمه الله :

ليسَ الحمْلُ مَا أطَاقَ الظُّهْرُ مَا الحمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْر

فقد يكون الثراء المادى فى ظَنِّ البعض هو الحُلْم ؛ فيجنح الإنسان إلى الطريق غير السَّوى بما فيه من عُمولات ؛ وعدم أمانة ؛ ورغم النقود التى قد يكتنزها هذا الإنسان ، إلا أن الأمراض النفسية أو الأمراض العضوية تفتكُ به .

وهكذا نجد الحق سبحانه وهو يُغيِّر ولا يتغيَّر ؛ فهو المُغيِّر لا المُتغيِّر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (١١) ﴾ [الرعد]

يُوضِّح لنا أن أعمال الجوارح ناشئةٌ من نَبْعِ نفس تُحرِّك الجوارح ؛ وحين تصلح النفس ؛ تصبح الجوارح مستقيمة ؛ وحين تفسد النفس تصير الجوارح غير مستقيمة .

---

(١) أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر ، يلقب بأمير الشعراء ، ولد بالقاهرة عام ١٨٦٨ م ، وتوفى بها عام ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً . نشأ فى ظل البيت المالك ، درس الحقوق فى فرنسا واطلع على الأدب الفرنسى . تنوع إنتاجه بين نظم الشعر والقصص الشعرية . [الأعلام للزركلى ١/١٣٦] .

فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لمُرادَات النفس ، فلو كانت النفسُ مخالفةً لمنهج الله ؛ فاللسان خاضع لها ؛ ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد ؛ لأن النفسَ التى تديره مخالفةٌ للإيمان .

والمَثَل : هم هؤلاء الذين نسبوا الرسل الذين اختارهم الله ؛ فادَّعَوْا أنهم أبناءُ الله ؛ وسبحانه مُنزَّهٌ عن ذلك ؛ أما إذا كانت النفس مؤمنةً فهى تأمرُ اللسان أن يقول كلمة التوحيد ؛ ويسعد هو بذلك ؛ لكنه فى الحالتين لا يعصى النفس التى سَخَّره لها الله .

وهكذا تكون الجوارح مُنفعِلَة لإرادة صاحبها ، ولا تنحلُّ الإرادة البشرية عن الجوارح إلا حين يشاء الله ذلك فى اليوم الآخر ، وفى الموقف الحق .

ولحظتَها لن يستطيع أحد أنْ يسيطر على جوارحه ؛ لأن المُلْك يومئذ للواحد القهار ؛ وسقطتْ ولاية الفَرْد على جوارحه ؛ وتشهد هذه الجوارح على صاحبها بما فعلتْه وَقْتَ أنْ كانت مقهورة لإرادته .

وهكذا نعلم أن التغيير كله فى النفس التى تدير الجوارح .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ .. (١١) ﴾ [الرعد]

يَدلُّنا أنه سبحانه لا يتدخَّل إلا إذا عَنَّت[1] الأمور ؛ وفسد كل المجتمع ؛ واختفتْ النفس اللوَّامة من هذا المجتمع ؛ واختفى مَنْ

---

(١) عَنَّ الشيء يعن : ظهر أمامك . [لسان العرب ـ مادة : عنن] والمقصود أن تظهر الفواحش والمعاصى فى المجتمع وتفشو .

يَقْـدِرون على الرَّدْع ـ ولو بالكلمـة ـ من هذا المجـتمع ؛ هنا يتـدخل الحق سبحانه .

وحين يُغيِّـر الناس ما بأنفسـهم ، ويُصـحِّحون إطلاق الإرادة على الجوارح ؛ فـتنصلح أعمالهم ؛ وإياكـم أنْ تظنوا أنَّ هناك شيئـاً يتأبَّى على الله .

ولذلك يتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ..(١١) ﴾ [الرعد]

وعليكم أن تأخذوا الأمرين معاً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. (١١) ﴾ [الرعد]

و ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ..(١١) ﴾ [الرعد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد]

إياك أن تفـهم أن هناك سلطة تحُـول دون أن يُغـيِّر الله مـا يريد تغييره ؛ ولن يجدوا صَدْراً حَنُوناً آخر يُربِّت عليهم إذا ما أراد الله بهم السُّـوء ، فليـس هناك وَالٍ آخـر يأخـذهم من الله ويتـولَّـى شـئـونهم وأمورهم من جَلْبِ الخير ودَفْعِ الشر .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن ظاهرة فى الكون لها وجهان وتُستقبل استقبالين ؛ أحدهما : سَارٌ ، والآخر : مُزْعِج ؛ سواء فى النفس الواحدة أو فى الجماعة الواحدة .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ ﴾

وكُلُّنا يعرف البَرْق ، ونحن نستقبله بالخوف مما يُزعِج وبالطمع فيما يُحَبّ ويُرْغَب ، فساعةَ يأتى البرق فنحن نخاف من الصواعق ؛ لأن الصواعقَ عادةً تأتى بعد البَرْق ؛ أو تأتى السحابات المُمْطِرة .

وهكذا يأتى الخَوْف والطَّمَع من الظاهرة الواحدة . أو : أنْ يكون الخوف لقوم ؛ والرجاء والطمع لقوم آخرين .

والمثل الذى أضربه لذلك دائماً هو قول أحد المقاتلين العرب وصف سيفه بأنه « فَتْح لأحبابه ، وحَتْفٌ[1] لأعدائه » .

والمثل الآخر الذى أضربه ما رواه لنا أمير بلدة اسمها « الشريعة » وهى تقع بين الطائف ومكة ؛ وقد حدثنا أمير الشريعة عام ١٩٥٣ عن امرأة صالحة تحفظ القرآن ؛ اسمها « آمنة » .

هذه المرأة كان لها بنتان ؛ تزوَّجتا ؛ وأخذ كُلُّ زَوْجٍ زوجته إلى

(١) الحتف : الموت . وجمعه : حُتُوف . والحتف : الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : حتف] .

مَحَلِّ إقـامته ؛ وكـان أحدُ زَوْجَى البنتـين يعمل فى الزراعـة ؛ والآخر يعمل بصناعة « الشُّرُك[1] » . وقالت آمنة لزوجهـا : ألاَ تذهب لمعرفة أحوال البنتـين ؟ فذهب الرجل لمـعرفة أحوال البـنتين ، فكان أول مَنْ لقى فى رحلته هـى ابنته المتـزوجة ممَّنْ يحـرث ويبذر ، فقـال لها : كيف حالك وحال زوجك وحال الدنيا معك أنت وزوجك ؟

قالت : يا أبتِ ، أنا مـعه على خيـر ، وهو معى على خيـر ، وأما حال الدنيا ؛ فَـادْعُ لنا الله أنْ يُنزِل المطر ؛ لأننا حرثنا الأرض وبذرْنَا البذور ؛ وفى انتظار رَىِّ السماء .

فرفع الأب يديه إلى السماء وقال : اللهم إنِّى أسألك الغَيْث لها .

وذهب إلى الأخـرى ؛ وقـال لهـا : مـا حـالك ؟ ومـا حـال زوجك ؟ فقالت : خير ، وأرجـوك يا أبى أن تدعوَ لنا الله أنْ يمنع المطر ؛ لأننا قد صنعنا الشِّرَاك من الطين ؛ ولو أمطرتْ لَفسدتِ الشُّرُك ، فَدَعا لها .

وعاد إلى امرأته التى سـألته عن حال البنتين ؛ فبـدا عليه الضيق وقال : هى سَنَة سيـئة على واحدة منهما ، وروى لهـا حال البنتين ؛ وأضـاف : ستكون سنة مُرْهِقة لواحدة منهما .

فـقـالـت له آمنة : لو صـبـرتَ ؛ لَقُلْتُ لك : إن مـا تقـوله قـد لا يتحقق ؛ وسبحانه قادر على ذلك .

قال لها : ونعم بالله ، قولى لى كيف ؟ فقالت آمنة : ألم تقرأ قول الله :

---

(١) الشُّرُك : جمع شَرَك ، وهو حبائل الصائد ، وكذلك ما ينصب للطير . [لسان العرب ـ مادة : شرك] .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[2] فَتَرَى الْوَدْقَ[3] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[4] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. (٤٣)﴾ [النور]

فسجد الرجل لله شكراً أنْ رزقه بزوج تُعينه على أمر دينه ، ودعا : اللهم اصْرِف عن صاحب الشِّراكِ المطر ؛ وأفِضْ بالمطر على صاحب الحَرْث . وقد كان .

وهذا المثل يوضح جيداً معنى الخوف والطمع عند رؤية الرعد :

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٢)﴾ [الرعد]

إما من النفس الواحدة بأن يخافَ الإنسانُ من الصواعق ، ويطمع فى نزول المطر ، أو من متقابلين ؛ واحد ينفعه هذا ؛ وواحد يضره هذا .

ويضيف الحق سبحانه :

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)﴾ [الرعد]

---

(١) أزجاه : ساقه برفق . وقال تعالى عن السفن : ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء] أى : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الركام : السحاب المتراكم بعضه فوق بعض . [لسان العرب ـ مادة : ركم] .

(٣) الودق : المطر شديده وهيِّنه . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣)﴾ [النور] أى : المطر يخرج من خلال السحاب المتراكم فى السماء . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] .

(٤) البرد : حبات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً . [القاموس القويم ١/ ٦٢] .

ونحن نعلم أن السحاب هو الغَيْم المُتَراكم ؛ ويكون ثقيلاً حين يكون مُعَبئاً ؛ وهو عكس السحاب الخفيف الذى يبدو كَنُتَف[١] القطن .

ويُقال عند العرب : « لا تستبطىء الخَيْل ؛ لأن أبطأ الدِّلاء فَيْضاً أملؤها ، وأثقلَ السحابِ مَشْياً أَحْفلُهَا »[٢] .

فحين تنزل الدَّلْو فى البئر ؛ وترفعه ؛ فالدَّلْو المَلآن هو الذى يُرهقك حين تشدُّه من البئر ؛ أما الدلو الفارغ فهو خفيفٌ لحظة جَذْبه خارج البئر ؛ وكذلك السحاب الثِّقَال تكون بطيئة لِمَا تحمله من ماء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ[٣] ١٣ ﴾

وسبق أن جاء الحق سبحانه بذكر البرق وهو ضوئىّ ؛ وهنا يأتى بالرعد وهو صوتىّ ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء أسرع من سرعة الصوت ؛ ولذلك جاء بالبرق أولاً ، ثم جاء بالرعد من بعد ذلك .

وحين يسمع أحدُ العامة واحداً لا يعجبه كلامه ؛ يقول له

---

(١) النتف : جمع نُتْفة ، وهو ما نتفْته بأصابعك من نَبْت أو غيره . [لسان العرب ـ مادة : نتف] .

(٢) الحَفْل : اجتماع الماء فى مَحْفله . مَحْفل الماء : مُجْتمعه . وحفلت السماء : اشتد مطرها . [لسان العرب ـ مادة : حفل] .

(٣) المحال من الله : العقاب على الكيد والتدبير المحكم المتين ، فهم يجادلون ويكيدون لإبطال الدين والله شديد العقاب لهم على هذه المجادلة الباطلة ، وهو قوى يُحكم التدبير لإبطال كيدهم وإفساد تدبيرهم . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

« سمعت الرعد » ؛ أى : يطلب له أَنْ يسمع الصوت المزعج الذى يُتعب مَنْ يسمعه . ولنا أن ننتبه أن المُزْعجات فى الكون إذا ما ذكرت مُسبِّحة لربها فلا تنزعج منها أبداً ، ولا تظن أنها نغمة نَشَازٌ فى الكون ، بل هى نغمة تمتزج ببقية أنغام الكون .

ونحن نفهم أن التسبيح للعاقل القادر على الكلام ، ولكن هذا عند الإنسان ؛ لأن الذى خلق الكائنات كلها علَّمها كيف تتفاهم ، مثلما علَّم الإنسان كيف يتفاهم مع بنى جنسه ؛ وكذلك علَّم كل جنس لغته .

وكلنا نقرأ فى القرآن ماذا قالت النملة حين رأتْ جنودَ سليمان :

﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

وقد سمعها سليمان عليه السلام ؛ لأن الله علَّمه مَنْطق تلك اللغات ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه علَّم سليمان منطق الطير ، قال تعالى :

﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل]

ألم يتخاطب سليمان عليه السلام مع الهدهد وتكلَّم معه ؟ بعد أن فكَّ سليمان بتعليم الله له شَفْرة حديث الهدهد ؛ وقال الهدهد لسليمان :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

إذن : فكُلُّ شىء له لغة يتفاهم بها لقضاء مصالحه ، ومَنْ يفيض الله عليه من أسرار خَلْقه يُسْمعه هذه اللغات ، وقد فاض الحقُّ سبحانه على سليمان بذلك ، ففهم لغةَ الطير وتكلَّم بها مع الهدهد ؛ وقال له :

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

وهكذا عرفنا بقصة سليمان وبلقيس ؛ وكيف فَهم سليمان مَنْطق الطير وتكلَّم بها مع الهدهد ؟ وهكذا علمنا كيف يتعلَّم الإنسان لغات متعددةً ؛ فحين يذهب إنسان إلى مجتمع آخر ويبقى به مُدَّة ؛ فهو يتعلم لغة ذلك المجتمع ، ويمكن للإنسان أن يتعلم أكثر من لغة .

وقد عرض الحق سبحانه مسألة وجود لغات للكائنات في قصة النملة وقصة الهدهد مع سليمان ؛ وهما من المرتبة التالية للبشر ، ويعرض الحق سبحانه أيضاً قضية وجود لغة لكل كائن من مخلوقاته في قوله :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

وكأن الجبال تفهم تسبيح داود وتُردِّده من خَلْفه .

أيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ[1] ﴿١٩﴾ ﴾ [ص]

وكذلك يخاطب الله الأرض والسماء ، فيقول :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً .. ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت]

فيمتثلان لأمره :

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت]

---

(١) الأوّاب : المسبح . أوبى معه : سبِّحى معه ورجِّعى التسبيح . والأوّاب : صيغة مبالغة أى كثير الرجوع إلى الله تعالى . [لسان العرب ـ مادة : أوب ، والقاموس القويم ١/٤٢] .

وهكذا نعلم أن لكل جنس لغةً يتفاهم بها ، ونحن نلحظ أن لكل نوع من الحيوانات صَوْتاً يختلف من نوع إلى آخر ، ويدرس العلماء الآن لُغةَ الأسماك ، ويحاولون أنْ يضعوا لها مُعْجماً .

إذن : فساعة تسمع :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

فافهم أن ما من كائن إلا وله لغة ، وهو يُسبِّح بها الخالق الأكرم[1] .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

مثلما لا يفقه جاهل بالإنجليزية لغة الإنجليز .

وقال البعض : إن المُرَاد هنا هو تسبيح الدلالة[2] على الخالق ؛ وقد حكم سبحانه بأننا لا نستطيع فَهْم تسبيح الدلالة .

ولكني أقول : إن العلم المعاصر قد توصَّل إلى دراسة لغات الكائنات وأثبتها ؛ وعلى ذلك يكون التسبيح من الكائنات بالنُّطْق والتفاهم بين مُتكلِّم وسامع ، بل ولتلك الكائنات عواطف أيضاً .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : « اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق فرُبَّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله منه » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٤٣٩ ، ٤٤٠) وابن حبان (٢٠٠٢ ـ موارد الظمآن) .

(٢) وكما تطلق الدلالة على تسبيح الخالق ، فأنت عندما ترى نعمة إبداعية تسبح الله فى حين أن كل مخلوق يسبح بلغته الخاصة التى لا نستطيع فقهها ، فيجتمع تسبيحان الرائى لإبداع الخالق وتسبيح المرئى بلغته [لسان اللسان مادة دل ص ٤١٧ جـ ١] .

ونحن نرى العلماء فى عصرنا يدرسـون عواطف الشجر تجاه مَنْ يسقـيه من البشر ، وهناك تجـربة تتحـدث عن قياس العلمـاء لذبذبة النبـات أثناء رَيِّه بـواسطة مُـزارِع مـسـئـول عنه ؛ ثم مـات الرجل ؛ فقـاسوا ذبذبة تلك النـباتات ؛ فوجـدوها ذبذبة مضطربة ؛ وكـأن تلك النباتات قد حزنتْ على مَنْ كان يعتنى بها ؛ وهكذا توصَّل العلماء إلى معرفة أن النباتات لها عواطف .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه أن الجـمادات لها أيضاً عواطف ؛ بدليل قوله عن قوم فرعون :

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ..(٢٩)﴾ [الدخان]

فالسماء والأرض قد استراحتا لذهاب هؤلاء الأشرار عن الأرض ، فـالسمـاوات والأرض ملتـزمـتان مع الـكون التزامـاً لا تخـرج به عن مُرادات الله ، وحين يأتى كـافر ليصنع بكفره نشـازاً مع الكون ؛ فهى تفرح عند اختفائه ولا تحزن عليه .

ومـا دامت السـماء والأرض لا تبكيـان على الكافـر عند رحـيله ؛ فلابد أنهما تفرحان عند هذا الرحـيل ؛ ولا بُدَّ أنهما تبكيان عند رحيل المؤمن[1] .

ولذلك نجد قَوْل الإمام على كرم الله وجهه : إذا مات ابن آدم بكى عليـه موضـعان ؛ مـوضع فى السمـاء ، وموضع فى الأرض ؛ وأمـا

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) قول مـجاهد فى تفسير آية الدخان ٢٩ : « ما مات مـؤمن إلا بكت عليه السـماء والأرض أربعـين صـباحـاً . قال : فـقلت له : أتبكى الأرض ؟ فـقـال : أتعجب ؟ ومـا للأرض لا تبكى عـلى عبـد كـان يعـمرهـا بالركوع والسـجـود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوىّ كدوىّ النحل » .

موضعه فى الأرض فَموضِع مُصَلاَّه ؛ وأما موضعه فى السماء فَمصْعَدُ عمله »[(١)] .

وهكذا نجد أن معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد]

أى : يُنزِّه الرعد ويُمجِّد اسم الحق - تبارك وتعالى - تسبيحاً مصحوباً بالحمد .

ونحن حين نُنزِّه ذات الله عن أن تكون مثل بقية الذوات ، وحين ننزه فعْل الله عن أن يكون كأفعال غيره سبحانه ، وحين ننزه صفات الله عن أنَ تكون كالصفات ، فلا بد أن يكون ذلك مصحوباً بالحمد له سبحانه ؛ لأنه مُنزَّه عن كل تلك الأغيار ، وعلينا أنْ نُسَرَّ من أنه مُنزَّه.

ويقول تعالى :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد]

ولقائل أنْ يتساءل : كيف تخاف الملائكة من الله ؟ وهم الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

وأقول : إن الملائكة يخافون الله خيفة المَهابة ، وخيفة الجلال . ونحن نرى فى حياتنا مَنْ يحب رئيسه أو قائده ؛ فيكون خوفه مَهَابة ؛ فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى الذى تُحبه ملائكته وتَهاب جلاله وكماله ، صحيح أن الملائكة مقهورون ، لكنهم يخافون ربَّهم من فوقهم.

وساعة تسمع الملائكةُ الرعدَ فهم لا يخافون على أنفسهم ؛

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأورد أيضاً نحوه عن ابن عباس .

ولكنهم يخافون على الناس ؛ لأنهم حفظة عليهم ؛ فالملائكة تعى مهمتها كحفظة على البشر ؛ وتخشى أن يربكهم أىُّ أمر ؛ وهم يستغفرون لِمَنْ فى الأرض(١) .

إذن : فقوله :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد]

يُبيِّن لنا أن الملائكة تخاف على البشر من الرعد ؛ فَهُمْ مُكلَّفون بحمايتهم ، مع خوفهم من الله مهابة وإجلالاً .

ويقول رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف :

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملَكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعْطِ مُنْفقاً خلَفاً . ويقول الآخر : اللهم أعْطِ مُمْسكاً تلَفاً »(٢) .

وقد يظُنُّ ظَانٌّ أن هذه دعوة ضد المُمْسك ؛ ولكنى أقول : لماذا لا تأخذها على أنها دعوة خَيْر ؟ فالمُنفق قد أخذ ثواباً على ما أدَّى من حسنات ؛ أما المُمْسك فحين يبتليه الله بتلف بعضٍ من ماله ؛ ويصبر على ذلك ؛ فهو يأخذ جزاء الصبر .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾ [الرعد]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾ [غافر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٠) ، وقال النووى فى شرحه : « قال العلماء : هذا فى الإنفاق فى الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك ، بحيث لا يُذَم ولا يسمى سرفاً . والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا » .

ولا بُدَّ من وجود حَدَث أليم فى الكون لينتبه هؤلاء الناس من غفلتهم ؛ وها هو ذا رسول الله ﷺ ؛ وقد جاءه اثنان من المعاندين الكبار أربد بن ربيعة ؛ أخو لبيد بن ربيعة ، وعامر بن الطُّفَيْل ؛ ليُجادلاه بهدف التلكُّؤ والبحث عن هَفْوة فيما يقوله أو عَجْزٍ فى معرفته ، والمثل ما قاله مجادلون مثلهم ، وأورده القرآن الكريم :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

وكذلك استعجال بعض من المجادلين للعذاب[1] .

وجاء هذان الاثنان وقالا لرسول الله ﷺ : هل ربنا مصنوع من الحديد أم من النحاس ؟ وهما قد قالا ذلك لأنهما من عَبَدة الأصنام المصنوعة من الحجارة ، والأقوى من الحجارة هو الحديد أو النحاس ؛ فدعا رسول الله ﷺ ؛ فنزلت صاعقة ؛ فأحرقتهما[2] .

وإرسال الصواعق هنا آية قرآنية ، ولابد وأن تأتى آية كونية تصدقها ؛ وقد حدثتْ تلك الآية الكونية .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد]

والجدال فى الله أنواع متعددة ؛ جدال فى ذاته ؛ وجدال فى

---

(١) قال تعالى :﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) ﴾ [ص] . وقال أيضاً : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] .

(٢) أورد هذه القصة القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٣١ ، ٣٦٣٢) وعزاها لابن عباس ، وكذا ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٠٦) ، وأوردها الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٥٦) .

صفاته ، أو جدال فى الحسنة والسيئة ، وقد جادلوا أيضاً فى إنزال آية مادية[1] عليه ؛ لأنهم لم يكتفوا بالقرآن كآية ؛ على الرغم من أن القرآن آية معجزة ومن جنس ما برعوا فيه ، وهو اللغة .

وقد جادلوا أيضاً فى الرعد ؛ وقالوا : إن الرعد ليس له عَقْل ليُسبح ؛ والملائكة لا تكليفَ لها ؛ فكيف تُسبِّح ؟

ولكن الحق سبحانه قال : إنه قادر على أن يُرسل الصواعق ويصيب بها مَنْ يشاء ؛ فيأتى بالخير لمَنْ يشاء ؛ ويصيبَ بالضر مَنْ يشاء . فهل هُمْ يملكون كل الوقت لهذا الجدل ؛ بعد أن خلق الحق كل هذا الكون ؟

هل لديكم الوقت لكل تلك المُمَاراة بقصد الجدَل والعناد المذموم ؟

فالجدل فى حَدِّ ذاته قد يَحْسُن استخدامه وقد يُساء استخدامه ؛ والحق سبحانه قال لنا :

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

وقال أيضاً :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا[2] وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. (١) ﴾ [المجادلة]

---

(١) قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء] .

(٢) نزلت هذه السورة سورة المجادلة فى شأن خولة بنت ثعلبة وكانت تشتكى زوجها أوس ابن الصامت أنها قالت لرسول الله ﷺ : « يا رسول الله ، أبلى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى » أى قال لها : أنت حرام علىَّ كظهر أمى . [انظر : أسباب النزول للواحدى ص ٢٣١ ، ٢٣٢] .

وهذا جَدَلٌ المراد منه الوصول إلى الحق .

ويُذيِّل الله آية سورة الرعد بقوله :

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ⑬ ﴾ [الرعد]

ويقال : « محل فلان بفلان » أى : كَادَ له كيداً خفياً ومكر به ، والمحَال هو الكَيْد والتدبير الخفىّ ، ومَنْ يلجأون إليه من البشر هُم الضِّعاف الذين يعجزون عن مواجهة الخَصْم علانية ، فيُبيِّتون له بإخفاء وسائل الإيلام .

وهذا يحدث بين البشر وبعضهم البعض ؛ لأن البشر لا يعلمون الغيب ؛ لكن حين يكيد الله ؛ فلا أحدَ بقادر على كَيْده ، وهو القائل سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ⑮ وَأَكِيدُ كَيْدًا ⑯ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ⑰ ﴾ [الطارق]

لأن كيد الله لا غالب له ؛ وهو كَيْد غير مفضوح لأحد ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ㉚ ﴾ [الأنفال]

هُمْ أرادوا أن يُبيِّتوا لرسوله ﷺ ؛ وأرادوا قَتْله ؛ وجاءوا بشاب من كل قبيلة ليمسك سيفاً كى يتوزع دَمُه بين القبائل ، وترصدوا له المرصاد ؛ ولكن رسول الله ﷺ كانت تصاحبه العناية فخرج عليهم ملهماً قوله تعالى :

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ⑨ ﴾ [يس]

وبذلك أوضح لهم أنهم لن يستطيعوا دَفْع دعوة الإسلام ؛

لا مُجَابهة ومُجَاهرة ؛ ولا كَيْداً وتبييتاً ؛ حتى ولو استعنتُم بالجنِّ ؛ فالإنسان قد يمكر ويواجه ، وحين يفشل قد يحاول الاستعانة بقوة من جنس آخر له سلطان كسلطان الجن ، وحتى ذلك لم يفلح معه ﷺ ؛ فقد حاولوا بالسحر ؛ فكشف الله له بالرؤيا موقع وَضْع السحر[1] .

وذهب بعض من صحابته ليستخرجوا السِّحر من الموقع الذى حدده رسول الله لهم .

وهكذا أوضح لهم الحق سبحانه أن كل ما يفعلونه لن يَحِيق برسوله ﷺ ؛ فسبحانه :

﴿ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهكذا كان الحق سبحانه وما زال وسيظل إلى أنْ يرِث الأرضَ ومَنْ عليها ، وهو شديد المحال .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) ﴾

وسبحانه قد دعانا إلى أنْ نؤمن بإله واحد وهى دعوة حق ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سُحِر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله ، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما فيه شفائى ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىَّ ، فقال أحدهما للآخر : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب (أى : مسحور) قال : ومن طَبَّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فيما ذا ؟ قال : فى مشط ومشاقة وجُفِّ طَلْعةٍ ذكر . قال : فأين هو ؟ قال : فى بئر ذروان » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) .

والذين من دونه يدعون لإله غير حق . والضمير هنا قد يعود إلى الله ؛ فكأن الله قد دعا خَلْقه إلى كلمة الحق وهى « لا إله إلا الله » ، وهو سبحانه قد شهد بأنه لا إله إلا هو ؛ وشهدتْ الملائكة شهادةَ المشْهد ، وشَهِد بها أولو العلم شهادة الاستدلال[1] ؛ تلك هى دعوة الحق .

أو « له » أى : للإنسان الذى يدعو إلى الحق ، وحين يدعو الإنسان فهذا يدلُّ على أن أمراً قد خرج عن نطاق أسبابه ؛ لذلك يدعو مَنْ يعينه على هذا الأمر .

والدعاء لَوْنٌ من الطلب ، إلا أن الطلب يختلف باختلاف الطالب والمطلوب منه ؛ فإنْ كان الطالبُ أدنى من المطلوب منه لا يُقال له فعل أمر ؛ كقولك « اغفر لى يا رب» وهذا لا يقال له فعل أمر ؛ بل يقال له دعاء.

وهكذا نرى أنه إن كان فعل الأمر من الأدنى للأعلى ؛ لا نسميه فعْل أمر بل نسميه دعاءً ، والطالب الذكىّ هو مَنْ يلحظ أثناء الإعراب إنْ كان المطلوب هو من الأدْنى إلى الأعلى ؛ فهو لا يقول « فعْل أمر » بل يقول « فعل دعاء » مثل قول العبد لله : يا رب اغفر لَى ، وإنْ كان المطلوب من مُساَو ؛ فهو يقول « التماس » . وإنْ كان المطلوب قد صدر من الأعلى للأدنى فهو « فعل أمر » .

وحين يدعو الإنسان ربه ؛ فهذا يعنى أن أسبابَ العبد قد نفدتْ ؛ وهو يلجأ إلى مَنْ يعلو الكون ويملك كل الأسباب ، ولذلك فكُلٌّ منّاَ يدعو الله ؛ لأنه سبحانه القادر على إنفاذ مطلوب العباد ؛ ولا يُعْجِزه شَىء .

ولكنْ إنْ دعوتَ مَنْ لا يستطيع ؛ فهذه دعوةٌ لا تنفع العبد ، وهم

---

(١) قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] .

كـانوا يدعُـونَ الأصنام ؛ والأصنام لا تضـرُّ ولا تـنفع ؛ فـالصنم مِنْ هؤلاء لا يقدر على نفسه أو لنفسه ؛ فقد كان من الحجر .

وبطبيعـة الحال فالدعاء لمـثل تلك الأصنام لا تحقق شيـئاً ؛ لأنها لا تقدر على أيِّ شيء .

وهكذا يتـأكد لنا أن دعوة الحـقِّ هى أنْ تدعوَ القادر ؛ أمـا الذين يدعون المعبودات الباطلة فإنهـا تخيب من يدعوها فى مقصده ، ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَهُ دَعْـوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُـونَ مِن دُونِهِ لا يَسْـتَـجِـيـبُـونَ لَهُم بِشَيْءٍ .. (١٤) ﴾ [الرعد]

لأنهم لا يملكون شيئاً فالصنم من هؤلاء لا يسمع فكيف يستجيب؟

ثم يضرب الحق سبحانه المَثَل بشيء مُحَسٍّ ؛ نفعله كلنا ؛ فيقول :

﴿ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ .. (١٤) ﴾ [الرعد]

فالعطشان مـا أنْ يرى ماءً حتى يَمُدَّ يده إليه ليـغترف منه ؛ لكن يده لا تصل إلى المـاء ؛ هذا هو حال مَنْ يدعو غـير الله ؛ فقـد سأل غير القـادر على إنفاذ مطلبه ، وهكذا يكون دعاء غـير الله ؛ وهو دعاء فى ضلال وفى غير متاهة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[1] ۩ (١٥) ﴾

---

(١) الأصيل : الـوقت حين تصـفرُّ الشمـس بعد العـصر إلى المغـرب ، وقد يراد به الـعشى . والجـمع : أصُل . وجـمع الجـمع : آصال . قـال تعـالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) ﴾ [الأحزاب] . وقـال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور] [القامـوس القويم ١/ ٢١] .

والسجود كما نعرفه حركة من حركات الصلاة ، والصلاة هى وَقْفة العبد بين يدى ربه بعد ندائه له ، والصلاة أقوال وأفعال مُبْتدأة بالتكبير ومُخْتتمة بالسلام(١) ؛ بفرائض وسنن ومستحبات مخصوصة .

والسجود هو الحركة التى تُبرز كاملَ الخضوع لله ؛ فالسجود وَضْع لأعلى ما فى الإنسان فى مُسْتوى الأدنى وهو قَدَم الإنسان ؛ ونجد العامة وهُمْ يقولون : « لا ترفع رأسك علىَّ » أى : لا تتعالى علىّ ، لأن رَفْع الرأس معناه التعالى ، وتخفيضها بالركوع أو السجود هو إظهارٌ للخضوع ، فإذا قال الله :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٥) ﴾ [الرعد]

عليك أن تفهم أن هذا ما يحدث فعلاً ؛ وإنْ لم يتسع ذهْنك إلى فَهْم السجود كما يحدث منك ؛ فليتسع ظنُّك على أنه مُنْتهى الخضوع والذِّلة لله الآمر .

وأنت تعلم أن الكون كله مُسخَّر بأمر الله ولأمر الله ، والكون خاضع له سبحانه ؛ فإن استجاب الإنسان لأمر الله بالإيمان به فهذا خير . وإنْ لم يستجب الإنسان ـ مثلما يفعل الكافر ـ فعليه سُوء عمله .

ولو استقصيتَ المسألة بدقَّة الفَهْم ؛ لوجدتَ أن الكافر إنما يتمرد بإرادته المُسَيطرة على جوارحه ؛ لكن بقية أبعاضه مُسخّرة ؛ وكلها تؤدى عملها بتسخير الله لها ، وكلها تُنفِّذ الأوامر الصادرة من الله لها ؛ وهكذا يكون الكافر مُتمرداً ببعضه ومُسخَّراً ببعضه الآخر ، فحين يُمرضه الله ؛ أيستطيع أنْ يعصى ؟

---

(١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٢٣ ، ١٢٩)، والدارمى فى سننه (١/١٧٥) والترمذى فى سننه (١/٨) وقال : « هذا الحديث أصح شىء فى هذا وأحسن » .

طبعاً لا . وحين يشاء الله أن يُوقف قلبه أيقدر أن يجعل قلبه يخالف مشيئة الله ؟ طبعاً لا .

إذن : فالذى يتعوّد على التمرد على الله فى العبادة ؛ وله دُرْبة على هذا التمرد ؛ عليه أن يُجرِّب التمرد على مرادات الله فيما لا اختيار له فيه ؛ وسيقابل العجز عن ذلك .

وعليه أنْ يعرف أنه لم يتمرد بالكفر إلا بما أوسع الله له من اختيار ؛ بدليل أن تسعة وتسعين بالمائة من قُدراته محكوم بالقهر ؛ وواحد بالمائة من قدراته متروك للاختيار ، وهكذا يتأكد التسخير .

وخضوع الكافر فى أغلب الأحيان ؛ وتمرّده فى البعض الآخر ؛ هو مُنْتهى العظمة لله ؛ فهو لا يجرؤ على التمرد بما أراده الله مُسخَّراً منه .

ولقائل أن يقول : ولماذا قال الله هنا :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٥)﴾ [الرعد]

ولم يقُلْ : « ما فى السماوات وما فى الأرض » ؟

وأقول : ما دام فى الأمر هنا سجود ؛ فهو دليل على قمّة العقل ؛ وسبحانه قد جعل السجود هنا دليلاً على أنّ كافة الكائنات تعقل حقيقة الألوهية ؛ وتعبد الحق سبحانه .

وهو هنا يقول :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ..(١٥)﴾ [الرعد]

وهنا يُعلمنا الحق سبحانه أن كل الكائنات ترضخ لله سجوداً ؛ سواء المُسخَّر ؛ أو حتى أبعاض الكافر التى يستخدمها بإرادته فى الكفر بالله ؛ هذه الأبعاض تسجد لله .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥)﴾ [الرعد]

ونحن فى حياتنا اليومية نسمع مَنْ يقول : « فلان يَتْبع فلاناً كَظله » ؛ أى : لا يتأبّى عليه أبداً مطلقاً ، ويلازمه كأنه الظل ؛ ونعلم أنَ ظلَّ الإنسان تابعٌ لحركته .

وهكذا نعلم أن الظِّلال نفسها خاضعة لله ؛ لأن أصحابها خاضعون لله ؛ فالظل يتبع حركتك ؛ وإياك أنْ تظنَّ أنه خاضع لك ؛ بل هو خاضع لله سبحانه .

وسبحانه هنا يُحدِّد تلك المسألة بالغُدوِّ والآصال ؛ و « الغدو » جمع « غداة » وهو أول النهار ، والآصال هو المسافة الزمنية بين العصر والمغرب .

وأنت حين تقيس ظلَّك فى الصباح ستجد الظِّل طويلاً ، وكلما اقتربت من الشمس طال الظل ، وكلما اقتـرب الزوال يقصُر الظلُّ إلى أنْ يتلاشى ؛ وأبرز ما يتمايل الظل بتمايل صاحبه هو فى الصبح وبعد العصر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ (١٦) ﴾

و « قل » هى أَمْر للرسول أنْ يقول للكافرين ، وهناك فى آيات أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[1] (٨٧) ﴾ [الزخرف]

---

(١) أفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . والإفك : الكذب . وأفَّاك : كثير الكذب صيغة مبالغة [القاموس القويم ١/٢٢] .

ولقائل أن يسأل : لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالإجابة ؛ ولم يتركْها لتأتى منهم ؟

ونقول : إن مجىء الإجابة من الحق هنا عن الذى خلق السماوات والأرض أقوى ممَّا لو جاءت الإجابة منهم .

والمثل من حياتنا ؛ ولله المَثَل الأعلى ؛ قد تقول لابنك الصغير المُتَشاحن مع أخيه الكبير : مَن الذى جاء لك بالحُلَّة الجديدة ؟ فيرتبك خجلاً ؛ لأنه يعلم أن مَنْ جاء له بالحُلَّة الجديدة هو أخوه الأكبر الذى تشاحن معه ؛ فتقول أنت : جاء لك بها أخوك الأكبر الذى تشاحنتَ معه .

وهنا لحظة أن يقول رسول الله ﷺ لهم ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٦) ﴾ [الرعد]

فسوف يرتبكون ؛ فيؤكد لهم بعد ذلك ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلِ اللَّهُ ..(١٦) ﴾ [الرعد]

ويتتابع أمر الله لرسوله ﷺ ، فيقول له الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا ..(١٦) ﴾ [الرعد]

وهكذا يكشف لهم الرسول ببلاغ الحق سبحانه مدى جهلهم ؛ وهم مَنْ سبق لهم الاعتراف بأن الله هو خالق السماوات والأرض ؛ ولم يجرؤ واحد منهم على أن ينسب خَلْق السماوات والأرض للأصنام .

وهنا يوضح لهم الرسول ﷺ ما أمر الحقُّ سبحانه بإيضاحه : لقد خلق الله السماوات والأرض أفبعد ذلك تتخذون من

دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ؛ ولا ضراً ؟ بدليل أن الصنم من هؤلاء لا يقدر لهم على شيء .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ (١٦) ﴾ [الرعد]

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يستوى الأعمى بالمبصر .

وساعةَ ترى « أَمْ » اعلم أنها ضَرْب انتقالى ، وهكذا يستنكر الحق ما فعلوه بالاستفهام عنه ؛ لأنه شيء مُنْكر فعلاً :

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ .. (١٦) ﴾ [الرعد]

أى : لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خَلْق الله ؛ لكَان لهم أنْ يعقدوا مقارنة بين خَلْق الله وخَلْق هؤلاء الشركاء ؛ ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مشاركين لله فى الألوهية لا يَقْدرون على خَلْق شيء ؛ فكيف يختارونهم شركاء لله ؟

ويأتى الأمر من الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى يُقدِّم الحق سبحانه تفسيراً لتلك الآية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحدٌ الادعاء بأن هؤلاء الشركاء عندهم نية الخَلْق ، ولكن مجيء « لن » هنا يُؤكد أنهم حتى بتنبيههم لتلك المسألة ؛ فلَسوف يعجزون عنها ؛

لأن نَفْى المستقبل يستدعى التحدِّى ؛ رغم أنهم آلهة متعددة ؛ ولو اجتمعوا فلن يخلقوا شيئاً .

يستمر التحدى فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

أى : لو أخذ الذباب بساقه الرفيعة شيئاً مِمَّا يملكون لَمَا استطاعوا أن يستخلصوه منه .

وهكذا يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكُلِّ شىء ؛ وتلزم عبادته وحده لا شريكَ له ؛ وهو جَلَّ وعَلاَ المتفرِّد بالربوبية والألوهية ؛ وهو القهار المتكبر ؛ والغالب على أمره أبداً ، فكيف يكون مَنْ دونه مساوياً له ؟ لذلك لا شريك له أبداً .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا[1] رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً[2]ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ (١٧) ﴾

---

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جَيَشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

(٢) الجفاء : الزَّبَد . مثل الزبد الذى ترمى به القِدْر عند الغليان . وجفأ الوادى غثاءه : رمى بالزبد والقذى . [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

وهو سبحانه يُنزل الماء من جهة العُلو وهو السماء ، ونعلم أن الماء يتبخَّر من البحار والأنهار والأرض التى تتفجّر فيها العيون ليتجمع كسحاب ؛ ثم يتراكم السحاب بعضُه على بعض ؛ ويمرُّ بمنطقة باردة فيتساقط المطر .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. (١٧) ﴾ [الرعد]

والوادى هو المُنْخفض بين الجبلين ؛ وساعةَ ينزل المطر على الجبال فهو يسيل على الأودية ؛ وكل وَادٍ يستوعب من المياه على اتساعه .

ولنا أن نلحظ أن حكمة الله شاءتْ ذلك كَيْلا يتحول الماء إلى طوفان ، فلو زاد الماء فى تلك الأودية لَغرقتْ نتيجة ذلك القرى ، ولَخربت الزراعات ، وتهدمتْ البيوت .

والمَثَل على ذلك هو فيضان النيل حين كان يأتى مناسباً فى الكمية لحجم المَجْرى ؛ وكان مثل هذا القَدْر من الفيضان هو الذى يُسعد أهل مصر ؛ أما إذا زاد فهو يُمثِّل خطراً يَدْهَم القرى ويخربها .

وهكذا نجد أن من رحمة الحق سبحانه أن الماء يسيل من السماء مطراً على قَدْر اتساع الأودية ؛ اللهم إلا إذا شاء غير ذلك .

والحق سبحانه هنا يريد أنْ يضرب مثلاً على ما ينفع الناس ؛ لذلك جاء بجزئية نزول الماء على قَدْر اتساع الأودية .

ومَنْ رأى مشهد نزول المطر على هذا القَدْر يمكنه أنْ يلحظ أن نزول السَّيْل إنما يكنس كل القَشِّ والقاذورات ؛ فتصنع تلك الزوائد

رَغْوةً على سطح الماء الذى يجرى فى النهر ، ثم يندفع الماء إلى المَجْرى ؛ لِيُزيح تلك الرَّغاوى جانباً ؛ ليسير الماء من بعد ذلك صَافياً رَقْراقاً .

﴿ أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] ..(١٧) ﴾ [الرعد]

وهذا المَثَل يدركه أهل البادية ؛ لأنها صحراء وجبال ووديان ؛ فماذا عن مَثَلٍ يناسب أهل الحضر ؟

ويأتى الحق سبحانه بهذا المثل المناسب لهم ؛ فيقول :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ..(١٧) ﴾ [الرعد]

وأنت حين تذهب إلى موقع عمل الحداد أو صائغ الذهب والفضة ؛ تجده يُوقد النار ليتحول المعدن إلى سائل مَصْهور ؛ ويطفو فوق هذا السائل الزَّبَد وهو الأشياء التى دخلت إلى المعدن ، وليست منه فى الأصل ؛ ويبقى المعدن صافياً من بعد ذلك .

والصَّائغ يضع الذهب فى النار لِيُخلِّصه من الشوائب ؛ ثم يضيف إليه من المواد ما يُقوِّى صلابته ؛ أو ينقله من حالة النقاء إلى درجة أقل نقاءً ، وحالة النقاء فى الذهب هى ما نطلق عليه « عيار ٢٤ » ، والأقل درجة هو الذهب من « عيار ٢١ » ، والأقل من ذلك هو الذهب من « عيار ١٨ » .

---

(١) ربا الشىء يربو : زاد ونما . قال تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الروم] .

والذهب الخالص النقاء يكون ليِّناً ؛ لذلك يُضيفون إليه ما يزيد من صلابته ، ويصنع الصائغ من هذا الذهب الحُلى .

وهذا هو المَثَلُ المناسب لأهل الحضر ؛ حين يصنعون الحلى ، وهم أيضاً يصنعون أدوات أخرى يستعملونها ويستعملها مثلهم أهل البادية كالسيوف مثلاً ، وهى لا بُدَّ وأن تكون من الحديد الصُّلْب ؛ ذلك أن كل أداة تصنع منه لها ما يناسبها من الصَّلابة ؛ فإنْ أراد الحدَّاد أن يصنع سيفاً فلا بد أنْ يختار له من الحديد نوعيةً تتناسب مع وظائف السيف .

والزَّبَد فى الماء النازل من السماء إنما يأتى إليه نتيجة مرور المطر أثناء نزوله على سطح الجبال ؛ فضلاً عن غسيل مَجْرى النهر الذى ينزل فيه ؛ وعادة ما يتراكم هذا الزَّبَد على الحَوافّ ؛ ليبقى الماء صافياً من بعد ذلك .

وحين تنظر إلى النيل ـ مثلاً ـ فأنت تجد الشوائب ، وقد ترسبتْ على جانبى النهر وحَوافّه ، وكذلك حين تنظر إلى مياه البحر ؛ فأنت تجد ما تلقيه المركب ، وهو طافٍ فوق الأمواج ؛ لِتُلقيه الأمواج على الشاطىء .

وهكذا ضرب الله المَثَل لأهل البدو ولأهل الحضر بما يفيدهم فى حياتهم ؛ سواء حلية يلبسونها ، أو أداة يقاتلون بها ، أو أداة أخرى يستخدمونها فى أَوْجُه أعمالهم الحياتية ؛ وهم فى كل ذلك يلجئون إلى تصفية المعادن التى يصنعون منها تلك الحلى أو الأدوات الحياتية ليستخلصوا المعادن من الخَبَث أو الزَّبَد .

وكذلك يفعل الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

وحين يضرب الله الحقَّ والباطل ؛ فهو يستخلص ما يفيد الناس ؛ ويُذهب ما يضرُّهم ، وقوله :

﴿ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد]

أى : يبعده ؛ فـ « جُفَاء » يعنى « مَطْروداً » ؛ من الجَفْوة ؛ ويُقال : « فلان جَفَا فلاناً » أى : أبعده عنه .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وشاء سبحانه أن يُبيِّن لنا بالأمور الحسِّية ؛ ما يساوى الأمور المعنوية ؛ كى يعلمَ الإنسانُ أن الظُّلْمَ حين يستشرى ويَعْلو ويَطْمِس الحق ، فهو إلى زَوَال ؛ مثله مثل الزَّبَد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا[1] بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ[2] (١٨) ﴾

---

(١) افتدى : قدَّم الفدية عن نفسه ليخلصها من الأَسْر . وافتدى الأسير : فداه وأنقذه . قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ .. (١٨) ﴾ [الرعد] . [القاموس القويم ٢/٧٤] .

(٢) المهاد : الفراش ، وأصل المهد التوثير . يقال : مهدت لنفسى ومهدت أى جعلت لها مكاناً وطيئاً سهلاً . [لسان العرب ـ مادة : مهد] .

والذين يستجيبون للرب الذى خلق من عَدَم ، وأوجد لهم مُقوِّمات الحياة واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ؛ فإذا دعاهم لشىء فليعلموا أن ما يطلبه منهم مُتمِّم لصالحهم ؛ الذى بدأه بإيجاد كل شىء لهم من البداية .

وهؤلاء الذين يستجيبون لهم الحُسْنى ؛ فسبحانه جعل الدنيا مزرعة للآخرة ، وأنت فى الدنيا مَوْكُول لقدرتك على الأَخْذ بالأسباب ؛ ولكنك فى الآخرة مَوْكُول إلى المُسبِّب .

ففى الدنيا أنت تبذُر وتحرُث وتروى وتحصد ، وقد تختلف حياتك شَظفاً[1] وتَرفاً بقدرتك على الأسباب .

فإذا استجبْتَ لله واتبعتَ منهجه ؛ فأنت تنتقل إلى حياة أخرى ؛ تحيا فيها مع المسبب ؛ لا الأسباب ؛ فإذا خطر ببالك الشىء تَجِدْهُ أمامك ؛ لأنك فى الحياة الأخرى لا يكلك الله إلى الأسباب ، بل أنت مَوْكُول لذات الله ، والموكول إلى الذَّاتِ بَاقٍ ببقاء الذات .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ .. ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء]

وبعض المُفسِّرين يقولون « إنها الجنة » وأقول : هذا تفسير مقبول ؛ لأن الجنة من رحمة الله ؛ ولكن الجنة باقية بإبقاء الله لها ؛ ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الشظف : يُبس العيش وشدته وضيقه . [لسان العرب ـ مادة : شظف] .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ..﴿١٨﴾ ﴾ [الرعد]

ويقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس]

والحسنى هى الأمر الأحسن ؛ وسبحانه خلق لك فى الدنيا الأسباب التى تكدح فيها ؛ ولكنك فى الآخرة تحيا بكل ما تتمنى دون كَدْح ، وهذا هو الحسن .

وهَبْ أن الدنيا ارتقتْ ؛ والذين يسافرون إلى الدول المُتقدمة ؛ وينزلون فى الفنادق الفاخرة ؛ يُقال لهم اضغط على هذا الزر تنزل لك القهوة ؛ والزِّر الآخر ينزل لك الشاى .

وكل شىء يمكن أن تحصل عليه فَوْر أن تطلبه من المطعم حيث يُعدُّه لك آخرون ؛ ولكن مهما ارتقتْ الدنيا فلن تصل إلى أنْ يأتى لك ما يمرُّ على خاطرك فَوْر أنْ تتمناه ؛ وهذا لن يحدث إلا فى الآخرة .

وكلمة « الحسنى » مُؤنَّثة وأفعل تفضيل ؛ ويُقَال « حسنة وحُسْنى » ؛ وفى المذكر يُقَال « حسن وأحسن » . والمقابل لمن لم يستجيبوا معروف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ ..﴿١٨﴾ ﴾ [الرعد]

أى : يقول خذوا ما أملك كله واعتقونى ، لكن لا يُستجاب له .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾ [الرعد]

لأن الحساب يترتب عليه مرة خَيْر ؛ ويترتب عليه مرة أخرى شَرٌّ ؛ وجاء الحق سبحانه بكلمة :

﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾ [الرعد]

هنا ؛ لأن الواحد من هؤلاء والعياذ بالله لن يستطيع أن يتصرف لحظة وَضْعه فى النار ، كما لا يستطيع الطفل الوليد أن يتصرف فى مِهَاده ؛ ومن المؤكد أن النار بِئْس المهاد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ[(١)] (١٩) ﴾

والمؤمن هو مَنْ يعلم أن القرآن الحامل للمنهج هو الذى أنزله سبحانه على رسوله ؛ ولا يمكن مقارنته بالكافر وهو الموصوف هنا من الحق سبحانه :

﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ (١٩) ﴾ [الرعد]

وجاء هنا بـ « علم » و « عمى » ؛ لأن الآيات الدالة على القدرة من المرئيات .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) اللبُّ : العقل وجمعه ألباب . [القاموس القويم ٢/١٨٧] ولُبُّ كل شيء : خالصه وخياره . وهو أيضاً : نفسه وحقيقته . [لسان العرب - مادة : لبب] .

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد]

أى : أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك عن أولى الألباب :

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ (٢٠) ﴾

والواحد من أولى الألباب ساعةَ آمن بالله ؛ فهو يعلم أنه قد تعاهد مع الله عهداً بألاَّ يعبد غيره ؛ وألاَّ يخضع لغيره ؛ وألاَّ يتقرَّب لغيره ؛ وألاَّ ينظر أو ينتظر من غيره ؛ وهذا هو العهد الأول الإيمانى .

ويتفرّع من هذا العهد العقدى الأول كُلُّ عهد يُقطع سواء بالنسبة لله ، أو بالنسبة لخَلْق الله ؛ لأن الناشىء من عهد الله مثله مثل عهد الله ؛ فإذا كنتَ قد آمنتَ بالله ؛ فأنت تؤمن بالمنهج الذى أنزله على رسوله ؛ وإذا أوفيتَ بالمنهج ؛ تكون قد أوفيتَ بالعهد الأول .

ولذلك نجد كل التكليفات المهمة البارزة القوية فى حياة المؤمنين نجد الحق سبحانه يأتى بها فى صيغة البناء ؛ فيما يسمى « البناء للمجهول » ؛ مثل قوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ[1] فِى الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

---

(١) القصاص : معاقبة الجانى بمثل جنايته . [القاموس القويم ٢/ ١٢٠] . والقصاص : القَوَد وهو القتل بالقتل ، أو الجرح بالجرح . وقال الليث : القصاص والتَّقاص : شىء بشىء . [لسان العرب ـ مادة : قصص] .

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وكُلُّ التكليفات تأتى مَسْبوقة بكلمة « كُتب » والذى كتب هو الله ؛ وسبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به ؛ فساعةَ إعلان إيمانك بالله ؛ هى ساعة تعاقدك مع الله على أن تُنفِّذ ما يُكلِّفك به .

وأنت حُرٌّ فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ؛ لكنك لحظةَ إيمانك بالله تدخل إلى الالتزام بما يُكلِّفك به ، وتكون قد دخلت فى كتابة التعاقد الإيمانى بينك وبين الله .

ولذلك قال الحق سبحانه « كُتِب » ولم يَقُلْ : « كتبْتُ » ؛ لأن العهد بينك وبين الله يقتضى أن تدخلَ أنت شريكاً فيه ، وهو سبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

وسبحانه هنا يقول :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ[1] الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ [الرعد]

أى : أن العهد الإيمانى مُوثَّق بما أخذْتَه على نفسك من التزام .

ويواصل سبحانه وَصْفَ هؤلاء بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾

وأوَّل ما أمر به الله أنْ يُوصَل هو صلة الرَّحم ؛ أى : أن تَصل ما يربطك بهم نَسَبٌ . والمؤمن الحقُّ إذا سَلْسَلَ الأنساب ؛ فسيدخل

---

(١) النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء . وفى الصحاح : النقض نقض البناء والحبل والعهد [لسان العرب ـ مادة : نقض] .

كُلُّ المؤمنين فى صِلَةَ الرَّحم ؛ لأن كل المؤمنين رَحم مُتداخل ؛ فإذا كان لك عَشْرة من المؤمنين تَصلهم بحكم الرَّحم ؛ وكل مؤمن يَصل عشرة مثلك ، انظر إلى تداخل الدوائر وانتظامها ؛ ستجد أن كل المؤمنين يدخلون فيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« أنا الرحمن ؛ خلقت الرَّحم ، واشتققتُ لها اسماً من اسمى ؛ فمَنْ وصلها وَصلْته ؛ ومَنْ قطعها قطعتُه »[(١)] .

وقد رَويْتُ من قَبْل قصةً عن معاوية رضى الله عنه ؛ فقد جاء حاجبه ليعلن له أن رجلاً بالباب يقول : إنه أخوك يا أمير المؤمنين .

ولا بد أن حاجبَ معاوية كان يعلم أن معاوية بن أبى سفيان لا إخوةَ له ، لكنه لم يَشَأْ أنْ يتدخَّل فيما يقوله الرجل ؛ وقال معاوية لحاجبه : ألاَ تعرف إخوتى ؟ فقال الحاجب : هكذا يقول الرجل . فأذنَ معاويةُ للرجل بالدخول ؛ وسأله : أى إخوتى أنت ؟ أجاب الرجل : أخوك من آدم . قال معاوية : رَحِم مقطوعة ؛ والله لأكون أوَّلَ من يَصلها .

والتقى الفضيل بن عياض[(٢)] بجماعة لهم عنده حاجة ؛ وقال لهم : من أين أنتم ؟ قالوا : من خُراسان . قال : اتقوا الله ، وكونوا من حيث شِئْتم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٩١ ـ ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبدالرحمن بن عوف .

(٢) هو : الفضيل بن عياض التميمى ، أبو على ، شيخ الحرم المكى ، من أكابر العُبَّاد والصُلحاء ، ثقة فى الحديث ، ولد بسمرقند (١٠٥ هـ) ، وسكن مكة وتوفى بها (١٨٧هـ) عن ٨٢ عاماً . الأعلام (٥/١٥٣) .

وقد أمرنا سبحانه أن نَصلَ الأهل أولاً ؛ ثم الأقارب ؛ ثم الدوائر الأبعد فالأبعد ؛ ثم الجار ، وكُلُّ ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق ؛ ليستطرق النافع لغير النافع ، والقادر لغير القادر ، فهناك جارك وقريبك الفقير إنْ وصلْتَه وصلَك الله .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ ومِنْ خلاله يأمر كل مؤمن برسالته :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣) ﴾ [الشورى]

وقال بعض مَنْ سمعوا هذه الآية : قُرْباك أنت في قُرْباك[1] .

وقال البعض الآخر : لا ، القربى تكون في الرسول ﷺ ؛ لأن القرآن قال في محمد ﷺ :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ (٦) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا تكون قرابة الرسول أَوْلَى لكل مؤمن من قرابته الخاصة .

يستمر قول الحق سبحانه في وصف أُولِي الألباب :

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾ [الرعد]

والخشية تكون من الذي يمكن أن يُصيبَ بمكروه ؛ ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه ؛ أي : أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيهم ؛ خوف إجلال وتعظيم .

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (١/٢٦٨) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لا أسألكم على ماآتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن تُوادُّوا الله تعالى وأنْ تَقرَّبوا إليه بطاعته » قال ابن كثير في تفسيره (٤/١١٢) : « أي : إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى».

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب ؛ وأنت تقول : خِفْتُ زيداً ، وتقول : خِفْتُ المرض ، ففيه شيء تخافه ؛ وشيء يُوقِع عليك ما تخافه .

وأولو الألباب يخافون سُوء حساب الحق سبحانه لهم ؛ فيدفعهم هذا الخوف على أَنْ يَصلوا ما أمر به سبحانه أنْ يُوصَل ، وأنْ يبتعدوا عن أى شىء يغضبه .

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن ظلم أحد ، ولكن مَنْ يُناقش الحسابَ فهو مَنْ يَلْقى العذاب(١) ؛ ونعوذ بالله من ذلك ، فلا أحد بقادر على أن يتحمل عذابَ الحق له .

ويواصل الحق سبحانه وَصْف أُولى الألباب فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أولى الألباب الذين يتذكَّرون ويعرفون مَواطن الحق بعقولهم اهتداءً بالدليل ؛ الذين يُوفون بالعهد الإيمانى بمجرد إيمانهم بالله فى كُلِّيات العقيدة

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حُوسب يوم القيامة عُذِّب . فقال عبدالله بن أبى مليكة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الانشقاق] فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، مَنْ نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٦) قال النووى فى شرحه : « معناه أن التقصير غالب فى العباد فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك ودخل النار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

الوحدانية ، ومُقْتضيات التشريع الذى تأتى به تلك العقيدة .

ولذلك جعلها سبحانه صفقة أوضحها فى قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا.. (١١١)﴾ [التوبة]

وهى صفقة إيجاب وقَبُول ، والعهد إيجاب وقبول ؛ وهو ميثاق مُؤكَّد بالأدلة الفطْرِية أولاً ، والأدلة العقلية ثانياً .

وهُمْ فى هذه الآية مَنْ صبروا ابتغاءَ وجه ربهم ، والصبر هو تحمُّل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرِج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام فى النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مَصْبوراً عليه ؛ والمَصْبور عليه فى الأحداث قد يكون فى ذات النفس ؛ كأنْ يصبر الإنسان على مشقَّة التكليف الذى يقول « افعل » و « لا تفعل » .

فالتكليف يأمرك بترْك ما تحب ، وأنْ تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعَاد عما ينهاك عنه ، وكُلُّ هذا يقتضى مُجَاهدة من النفس ، والصبر الذاتى على مشَاقِّ التكليف .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً :

﴿ وَإِنَّهَا[1] لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٨٧) : « الضمير فى قوله : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ..(٤٥)﴾ [البقرة] عائد إلى الصلاة نصَّ عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك » .

وهذا صَبْر الذَّات على الذَّات . ولكن هناك صَبْر آخر ؛ صبر منك على شيء يقع من غيرك ؛ ويُخرجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها .

وهو ينقسم إلى قسمين : قسم تجد فيه غريماً لك ؛ وقسم لا تجد فيه غريماً لك .

فالمرض الذى يُخرِج الإنسان عن حَيِّز الاستقامة الصِّحية ويُسبِّب لك الألم ؛ ليس لك فيه غريم ؛ لكنك تجد الغريم حين يعتدى عليك إنسانٌ بالضرب مثلاً ؛ ويكون هذا الذى يعتدى عليك هو الغريم لك .

وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله ؛ فالذى يَقْدر على شيء ليس له فيه غريم ؛ يكون صَبْره معقولاً بعض الشيء ؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره .

أما صبر الإنسان على ألم أوقعه به مَنْ يراه أمامه ؛ فهذا يحتاج إلى قوة ضَبْط كبيرة ؛ كى لا يهيج الإنسان ويُفكِّر فى الانتقام .

ولذلك تجد الحق يفصل بين الأمرين ؛ يفصل بين شيء أصابك ولا تجد لك غريماً فيه ، وشيء أصابك ولك من مثلك غريمٌ فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر الذى ليس لك غريم فيه :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ويقول عن الصبر الذى لك فيه غريم ، ويحتاج إلى كَظْم الغيظ ، وضبط الغضب :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر ؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك ؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أنْ يصبروا على إيذائك لهم ؛ فكأنه طلب منك أنْ تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك ؛ وأنت فَرْد واحد .

وطلب من الغير أيضاً أنْ يصبر على إيذائك ، وهذا هو قمة التأمين الاجتماعى لحياة النفس الإنسانية ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تصبر على مَنْ آذاك ؛ فقد طلب من الناس جميعاً أن يصبروا على آذاك لهم .

فإذا بدرتْ منك بادرة من الأغيار ؛ وتخطىء فى حق إنسان آخر وتؤلمه ؛ فإن لك رصيداً من صبر الآخرين عليك ؛ لأن الحق سبحانه طلب من المقابل لك أنْ يصبر عليك وأن يعفو .

وإذا كان لك غريم ؛ فالصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل : أنْ تصبر صبراً أولياً بأن تكظم فى نفسك ؛ ولكن الغيظ يبقى ، وإن منعت الحركة النُّزوعية من التعبير عن هذا الغيظ ؛ فلم تضرب ولم تَسُبّ ؛ ويسمى ذلك :

﴿ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

والكَظْم مأخوذ من عملية رَبْط القِرْبة التى نحمل فيها الماء ؛ فإنْ لم نُحْكِم ربطها انسكب منها الماء ؛ ويُقال « كظم القربة » أى : أحكم ربطها .

ثم يأتى الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وهنا تظهر المسألة الأرْقى ، وهى إخراج الغيظ من الصدر ؛ ثم التسامى فى مرتبة الصِّديقين ؛ فلا ينظر إلى مَنْ كظم غيظه عنه أولاً ؛ بل يعفو عنه ، ولا ينظر له بعداء ، بل بنظرة إيمانية .

والنظرة الإيمانية هى أن مَنْ آذاك إنما يعتدى على حَقِّ الله فيك ؛ وبذلك جعل الله فى صَفِّك وجانبك ؛ وهكذا تجد أن مَنْ ظلمك وأساء إليك قد جعلك فى معية الله وحمايته ؛ وعليك أن تُحسن له.

والصبر له دوافع ؛ فهناك مَنْ يصبر كى يُقال عنه : إنه يملك الجلَد والصبر ؛ وليبين أنه فوق الأحداث ؛ وهذا صبر ليس ابتغاء لوجه الله ؛ بل صبر كيلا يَشْمت فيه أعداؤه .

وصبر لأنه قد توصل بعقله أن جزعه لن ينفعه ، ولو كان حصيفاً[١] لَصبر لوجه الله ، لأن الصبر لوجه الله يخفف من قَدَر الله .

ومَنْ يصبر لوجه الله إنما يعلم أن لله حكمة أعلى من الموضوع الذى صبر عليه ؛ ولو خُيِّر بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع ؛ لاختار الذى وقع .

والذى يصبر لوجه الله إنما ينظر الحكمة فى مَوْرد القضاء الذى وقع عليه ، ويقول : أحمدُكَ ربى على كل قضائك وجميل قَدَرك ؛ حَمْدَ الرضى بحكمك لليقين بحكمتك .

فمَنْ يصبر على الفاقة[٢] ؛ ويقول لنفسه : « اصبرى إلى أن

---

(١) الحصيف : جيد الرأى مُحكم العقل . وإحصاف الأمر : إحكامه . [لسان العرب ـ مادة : حصف] .

(٢) الفاقة : الفقر والحاجة . وافتاق الرجل أى افتقر . [لسان العرب ـ مادة : فوق] .

يفرجها الله » ولا يسأل أحداً ؛ سيجد الفرج قد أتى له من الله .

انظر إلى الشاعر وهو يقول :

إذَا رُمْتَ أنْ تستخرِجَ المالَ مُنْفقاً
عَلى شَهَواتِ النفْسِ فى زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلْ نفسكَ الإنفاقَ مِنْ كَنزِ صَبْرِها
عليْكَ وإنذاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ
فَإنْ فعلْتَ كنتَ الغنىَّ وإنْ أبيْتَ
فَكلُّ مُنوَّع بعدَها واسِعُ العُذْرِ

أى : إنْ راودتْك نفسك لتقترض مالاً لتنفقه على شهوات النفس ، ورفضتَ تلك المُراودة ، وطلبت من نفسك أنْ تعطيك من كَنْز الصبر الذى تملكه ؛ وإنْ فعلتَ ذلك كنت الغنىَّ ، لأنك قدرتَ على نفسك .

والذى يلتفت إلى الحدَث وحده يتعب ؛ والذى يلتفت إلى الحدث مقروناً بواقعه من ربه ؛ ويقول : « لا بد أن هناك حكمة من الله وراء ذلك » فهو الذي يصبر ابتغاء وجه الله . ويريد الله أنْ يخُصَّ مَنْ يصبر ابتغاء وجهه بمنزلة عالية ؛ لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يُجريه من أقدار .

ويتابع سبحانه وَصْف أُولى الألباب :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

وسبق أن قلنا فى الصلاة أقوالاً كثيرة ؛ وأن مَنْ يؤديها على

مطلوبها ؛ فهو مَنْ يعلم أنها جَلْوة[١] بين العبد وربه ، ويكون العبد فى ضيافة ربه .

وحين تُعْرَض الصَّنْعة على صانعها خمس مرات فى اليوم ؛ فلا بد أنْ تنال الصَّنْعة رعاية وعناية مَنْ صمَّمها وخلقها ، وكما أن الله غَيْبٌ عنك ؛ فكذلك أسباب شفائك من الكروب يكون غيباً عنك .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ ذلك « فكان إذا حزبه[٢] أمر قام إلى الصلاة »[٣] .

ومن عظمة الإيمان أن الله هو الذى يدعوك إلى الصلاة ؛ وهو سبحانه لا يمنع عنك القُرْب فى أىِّ وقت تشاء ؛ وأنت الذى تُحدِّد متى تقف بين يديه فى أى وقت بعد أن تُلبِّى دعوته بالفروض ؛ لتؤدى ما تحب من النوافل ؛ ولا يُنْهى سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا ؛ بل تُنهى أنت اللقاء وقتَ أنْ تريد .

ولقد تأدَّب رسول الله ﷺ بأدب ربه ؛ وتخلَّق بالخُلق السامى ؛ فكان إذا وضع أحد يده فى يد الرسول ﷺ ؛ فهو لا ينزع يده من يد مَنْ يُسلِّم عليه ؛ إلا أنْ يكون هو النازع[٤] .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

---

(١) اجتلى الشىء : نظر إليه . وجلَّى الشىء : كشفه . فالجلوة : الانكشاف والظهور وكأنه ينظر إليه . [لسان العرب ـ مادة : جلا] .

(٢) حزبه أمر : أصابه . أى نزل به مهمٌ أو أصابه غَم واشتد عليه . وأمر حازب وحزيب : شديد . [لسان العرب ـ مادة : حزب] .

(٣) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٤) عن أنس بن مالك قال : « إن كانت الأمَة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة ، فى حاجتها » . أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٣٩٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/١٧٤ ، ٢١٦) .

يعنى : أنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك ، ولكن انظر إلى أنك إنْ وصلتَ إلى أن تحتاج من الغير سيؤخذ لك ، وهذا هو التأمين الفعال ، ومَنْ يخاف أن يترك عيالاً دون قدرة ، ولو كان هذا الإنسان يحيا فى مجتمع إيمانى ، لوجد قول الحق مُطبَّقاً :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً[١] ﴿٩﴾ ﴾ [النساء]

وبذلك لا يشعر اليتيم باليُتْم ؛ ولا يخاف أحد على عياله ، ولا يسخط أحد على قَدَر الله فيه . وسبحانه يضع الميزان الاقتصادى حين يطلب منا الإنفاق ، والإنفاق يكون من مال زائد ؛ أو مال بلغ النصاب[٢] ، ولذلك فعليك أنْ تتحرك حركة نافعة للحياة ، ويستفيد منها الغير ، كى يكون لك مال تُنفِق منه ، وعلى حركتك أن تَسعكَ وتسَعَ غيرك .

وهناك مَنْ ينفق ممَّا رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها ، وينفق الباقى لوجه الله ؛ لأنه يضمن أن له إلهاً قادراً على أن يرزقه ، والمضمون عند الله أكثر ممَّا فى يده .

وها هو رسول الله ﷺ يسأل أبا بكر فيما ناله من غنائم ويقول له : ماذا صنعتَ بها يا أبا بكر ؟ فيقول أبو بكر الصديق رضى الله

---

(١) السداد : الصواب وموافقة الحق والعدل . قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : موافقاً للعدل والحق والشرع لا خطأ فيه . [القاموس القويم : ١/٣٠٧] .

(٢) النصاب من المال : القَدْر الذى تجب فيه الزكاة إذا بلَغه . [لسان العرب ـ مادة : نصب] . ويُقدَّر هذا النصاب بما يساوى قيمة ٨٥ جراماً من الذهب بسعر اليوم الذى تُخرج فيه الزكاة ، إذا مرَّ عليه عام.

عنه وأرضاه : تصدَّقْتُ بها كلها . فيقول الرسول : وماذا أبقيت ؟ يقول أبو بكر : أبقيت الله ورسوله[١] .

وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وماذا فعلتَ يا عمر ؟ فيقول ابن الخطاب : تصدقْتُ بنصفها ولله عندى نصفها . وكأنه يقول للرسول : « إن كان هناك مصرف تريدنى أن أصرف فيه النصف الباقى لله عندى ؛ فلسوف أفعل » .

وهكذا رأينا مَنْ يصرف ممَّا رزقه الله ؛ بكل ما رزقه سبحانه ، وهو أبو بكر الصديق ؛ ونجد مَنْ ينفق ممَّا رزقه الله ومستعد لأن ينفق الباقى إنْ رأى رسولُ الله مصرفاً يتطلب الإنفاق .

ونجد من توجيهات الإسلام أن مَنْ يرعى يتيماً ؛ فليستعفف فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم إنْ كان الوليُّ على اليتيم له مال ؛ وإن كان الولى فقيراً فليأكل بالمعروف[٢] .

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا نأتى بالفقير لتكون له ولاية على مال اليتيم؟

وأقول : كى لا يحرم المجتمع من خبرة قادرة على الرعاية ؛ فيأتى بالفقير صاحب الخبرة ؛ وليأكل بالمعروف .

---

(١) ذكر القصة الكاندهلوى فى حياة الصحابة (٢/ ١٣٧) وعزاها لأبى داود والترمذى والدارمى والحاكم أن عمر رضى الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندى فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إنْ سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالى فقال ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده . فقال : يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه إلى شىء أبداً » .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ۝٥ ﴾ [النساء]

ولم يَقُلْ « وارزقوهم منها » أى : خُذوا الرزق من المَطْمور فيما يملكون بالحركة فى هذا المال .

وهكذا نفهم كيف يُنفق الإنسان المؤمن ممَّا رزقه الله ؛ فهناك مَنْ ينفق كل ما عنده ؛ لأنه واثق من رصيده عند ربه ، وهناك مَنْ ينفق البعض مما رزقه الله ؛ وقد تأخذه الأريحية والكرم فيعطى كل مَنْ يسأله ، وقد ينفق كل ما عنده ؛ مثل مَنْ يجلس فى جُرْن القمح ويريد أن يُزكِّى يوم الحصاد ؛ فيعطى كل مَنْ يسأله ؛ إلى أن يفرغ ما عنده .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝١٤١ ﴾

[الأنعام]

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المُنْفقين فى سبيله :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. ۝٢٢ ﴾ [الرعد]

والسر هو الصَّدقة المندوبة ، أما الإنفاق فى العلانية ؛ فهى الصَّدقة الواضحة ؛ لأن الناس قد تراك غنياً أو يُشَاع عنك ذلك ، ولا يرونك وأنت تُخرج الزكاة ، فتنالك ألسنتهم بالسوء ؛ وحين يَرَوْنكَ وأنت تنفق وتتصدَّق ؛ فهم يعرفون أنك تؤدى حقَّ الله ، وتشجعهم أنت بأن يُنفقوا مما رزقهم الله .

وصدقة السِّر وصدقة العلَن أمرها متروك لتقدير الإنسان ؛ فهناك مَنْ يعطى الصدقة للدولة لتتصرف فيها هى ؛ ويعطى من بعد ذلك للفقراء سراً ؛ وهذا إنفاق فى العلَن وفى السر ؛ وجاء الحق بالسر والعلانية ؛ لأنه لا يريد أنْ يحجب الخير عن أىٍّ أحد بأى سبب .

وقد يقول قائل : إن فلاناً يُخرِج الصدقة رياءً .

وأقول لمَنْ يتفوَّه بمثل هذا القول : أَلَمْ يَسْتفِد الفقير من الصدقة ؟ إنه يستفيد ، ولا أحدَ يدخل فى النوايا .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

والدَّرْء : هو الدَّفْع بشدة ؛ أى : يدفعون بالحسنة السيئة بشدة . وأول حسنة إيمانية هى أنْ تؤمن بالله ؛ وبذلك تدفع سيئة الشرك ، أو دفعتَ السيئة . أى : دفعتَ الذنب الذى ارتكبته وذلك بالتوبة عنه ؛ لأن التوبة حسنة ، وحين ترى مُنْكراً ، وهو سيئة ، فأنت تدفعه بحسنة النُّصْح .

أو : أن يكون معنى :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

هو إنْ فعلتَ سيئة فأنت تتبعها بحسنة ، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله ؛ لنفترض أن واحداً لديه سيئة مُلِحّة فى ناحية من النواحى ؛ فالحقُّ سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة .

يقول سبحانه :

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. ﴿١١٤﴾﴾ [هود]

وها هو رسول الله ﷺ يقول لمعاذ[1] رضى الله عنه :

« اتق الله أينما تكون ، وأتبع السيئة حسنة تَمْحُها ، وخالق الناس بخلق حسن »[2] .

ولذلك ، فأنت تجد أغلب أعمال الخير فى المجتمع لا تصدر من أىِّ رجل رقيق لا يرتكب السيئات ؛ فلا سيئةَ تطارده كى يفعل الحسنة التى يرجو أنْ تمحو السيئة .

فالسيئة ساعةَ تُلهِب ضمير مَن ارتكبها ؛ ولا يستطيع أن يدفعها ؛ لأنه ارتكبها ؛ فهو يقول لنفسه « فَلأبنِ مدرسة » أو « أبنى مسجداً » أو « أقيم مستشفى » أو « أتصدق على الفقراء » .

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات ، فلا أحدَ بقادر على أنْ يأخذ شيئاً من وراء الله ؛ فمَنْ يرتكب سيئة لابُدَّ أنْ تُلِحّ عليه بأحاسيس الذَّنْب ؛ لتجده مدفوعاً من بعد ذلك إلى فعل الحسنات ؛ لعلَّ الحسنات تُعوِّض السيئات .

ومن دَرْء الحسنة بالسيئة أيضاً ؛ أنه إذا أساء إليك إنسان فأنت

---

(١) هو : معاذ بن جبل الأنصارى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام ، كان من أجمل الرجال وشهد المشاهد كلها ، أرسله رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن معلماً ومُفقِّهاً ، توفى فى طاعون الشام عام ١٧ هـ وكان عمره ٣٤ عاماً . [الإصابة ١٠٦/٦] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٣٦) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٣٧٦/٤) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

تَكْظِم غيظك وتعفو ؛ وبذلك فأنت تحسن إليه .

وتجد الحق سبحانه يقول :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وإذا أنت جرَّبْتَها فى حياتك ؛ وأخلصْتَ المودة لمن دخل فى العداوة معك ؛ ستجد أنه يستجيب لتلك المودة ويصبح صديقاً حميماً لك .

ولكن هناك مَنْ يقول : جرَّبْتُ ذلك ولم تنفع تلك المسألة .

وأقول لمن يقول ذلك : لقد ظننتَ أنك قد دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكنك فى واقع الحال كنت تتربص بما يحدث منك تجاه مَنْ دخلتَ معه فى عداوة ، ولم تُخلص فى الدفع بالتى هى أحسن ، وأخذت تُجرِّب اختبار قول الله ؛ فذهبتْ منك طاقة الإخلاص فيما تفعل ؛ وظل الآخر العدو على عداوته .

لكنك لو دفعتَ بالتى هى أحسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصِّدْق ؛ لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتى ظاهرة كونية تُكذِّب القرآن .

ولذلك يقول الشاعر :

يَا مَنْ تُضايِقه الفِعَالُ مِنَ التى ومِنَ الذى

دفع فِدْيتك بالتى حتَّى نَرى فإذَا الذِى

أى : يا مَنْ تضايقه أفعال الذى بينك وبينه عداوة ؛ عليك أن

تُحسِن الدَّفْع بالتى هى أحسن ، حتى ترى أن العداوة التى كانت بينك وبينَ ما ذكره الحق سبحانه فى قوله :

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾ [الرعد]

أى : أن المتقدمين أولى الألباب الذين اجتمعت لهم تلك الصفات التسعة ؛ بدايةً من أنهم يُوفُون بعهد الله ؛ ولا ينقضون الميثاق ؛ ويَصِلون ما أمر الله أنْ يُوصَل ويخشوْن ربهم ؛ ويخافون سُوء الحساب ؛ وصبروا ابتغاء وجه ربهم ؛ وأقاموا الصلاة ؛ وأنفقوا مما رزقهم الله سراً وعلانية ؛ ويَدْرءون بالحسنة السيئةَ ، هؤلاء هم الذين لهم عُقْبى الدار .

وعُقْبى مأخوذة من العقب ؛ فالقدم له مقدم وله عَقب ، وعقب هو ما يعقب الشيء ، ونقول فى أفراحنا « والعاقبة عندكم فى المسرات » أى : أننا نتمنى أن تتحقق لكم مَسرَّة مثل التى عندنا ، وتكون عقب المَسرَّة التى فرحنا نحن بها .

وهكذا تكون العُقْبى هى الشيء الذى يَعْقُب غيره ، والذى يعقب الدار الدنيا هى الدار الآخرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى الآية التالية مُوضِّحاً العاقبة لهؤلاء :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) ﴾

إذن : فالدار الآخـرة التى تعقب الدنيا بالنسبـة لأُولِى الألباب هى جنات عَدْن . و « العَدْن » هو الإقامة الدائمة ؛ وجنات عدن هى جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة .

وكل نعـيم فى الدنيـا إمـا أن تفـوته بالمـوت أو يفوتك بأغـيـار الحياة . أما جنات عَدْن فهى دار إقـامة دائمة ؛ بما أن « عدن » تعنى مرافقة دائمة للجنات .

والجنات معناها كـما نفهم هى البساتين التى فـيها أشجار وفـيها ثمار ؛ وكل مـا تشتـهى الأنفس ، مع ملاحظة أن هذه الجنَّـات ليست هى المساكن ؛ بل فى تلك الجنات مسكن بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ..(٧٢) ﴾ [التوبة]

فالجنات هى الحـدائق ؛ وفيها مـساكن ، ونحن فى حيـاتنا الدنيا نجد الـفيلات فى وسط الحـدائق ، فمـا بالنا بما يَعِـد به الله من طيب المساكن وسط الجنات ؟

لا بد أن ينطـبق عليـه وصف الرسـول ﷺ لـلجنة فى الحـديث القدسى عن رب العزة سبحانه :

« أعددت لعـبادى الصالحـين ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سـمعتْ ، ولا خَطر على قلب بشر »[1] .

وهكذا بيَّن الله سبحانه عقبى الدار ؛ فهى :

﴿ جَنَّاتُ عَـــدْنٍ يَدْخُلُونَهَـــا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِـــهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وَذُرِّيَّاتِهِمْ .. (٢٣) ﴾ [الرعد]

وآباء جمع « أب » أى : يدخلها مع أولى الألباب مَنْ كان صالحاً من الآباء مُتبعاً لمنهج الله .

وإنْ سأل سائل : وأين الأمهات ؟

أقول : نحن ساعة نثنى المتماثلين نُغلِّب الذَّكر دائماً ، ولذلك فآباؤهم تعنى الأب والأم ، أَلَمْ يقُلِ الحق سبحانه فى سورة يوسف :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة من أُولى الأَلْبابِ الذين استوفَوْا الشروط التسعة التي تحدَّثنا عنها ؛ فهل استوفى الآباء والأزواج والأبناء الشروط التسعة ؟

ونقول : إن الحقَّ سبحانه وتعالى يعامل خَلْقه فى الدنيا بمقتضى العواطف الموجودة فى الذُّرية ؛ فالواحد منّا يُحب أولاده وأزواجه وآباءه ؛ وما دام يحبهم وقد صلحوا كُلٌّ حَسْبَ طاقته ؛ فالحق سبحانه يُلحقهم به .

ولذلك تأتى آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ[2] (٢١) ﴾ [الطور]

---

(١) لاته يليته حقَّه لَيْتاً : نقصه ولم يُؤدِّه كاملاً . قال تعالى : ﴿ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٢) أى : مرهون عند الله حتى يُحاسَب على ما كسبه . [القاموس القويم ١/٢٧٨] .

وهنا يمسك القرآن القضية العقلية فى الإلحاق بمعنى أنْ تُلحق ناقصاً بكامل ، فلو كان مُساوياً له فى العمل ما سُمِّى إلحاقاً ، فكل إنسان يأخذ حَقَّه ؛ وقد اشترط الحق سبحانه شرطاً واحداً فى إلحاق الذرية بالآباء ، أو إلحاق الآباء بالذرية فى الجنة ، وهو الإيمان فقط .

وأوضح لنا هنا أن الآباء قد تميَّزوا بعمل إيمانى بدليل قوله تعالى:

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ..(٢١)﴾ [الطور]

فلم يأخذ سبحانه عمل الأب الذى عمل ؛ والابن الذى لم يعمل ، ومزج الاثنين ، ليأخذ المتوسط ، لا ، وذلك كى لا يظلم مَنْ عمل من الآباء أو الأبناء .

ثم إن ذلك لو حدث ؛ لما اعتُبِر تواجدُ الآباء مع الأبناء فى الجنة إلحاقاً ؛ لأن الإلحاق يقتضى أن يبقى حَقُّ كل مَنْ عمل ؛ ثم يتكرم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق ؛ بشرط واحد هو أن يكون الشخص المُلْحق مؤمناً .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ..(٢١)﴾ [الطور]

أى : أن الذرية مؤمنة ؛ والأزواج مؤمنون ؛ والأهل مؤمنون ؛ والأبوين مؤمنان ، ولكن الذى يلحق به هو مَنْ يُكرمه الله بهذا الإلحاق ؛ كى يُدخل الفرح على قَلْب المؤمن حين يرى أولاده معه فى الجنة ما داموا مؤمنين ؛ وهذه قمة فى العدالة ، لماذا ؟

والمَثل الذى أضربه على ذلك : هَبْ أن أباً قد حرص على أنْ يطعَم أهلُه من حلال ؛ فقد يعيش أولاده فى ضيق وشَظَف ؛ بينما

نجد أبناء المنحرف يعيشون فى بُحْبُوحَة[1] من العيش ؛ وهكذا يتنعَّم أبناء المنحرف الذى يأكل ويطعم أولاده من حرام ؛ بينما يعانى أبناء الأمين الذى قد يعتبره البعض مُتزمتاً ؛ لأنه يَرْعى حق الله ، ويرفض أكل الحرام .

وما دام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يُعانون معه من عدم التنعُّم ؛ فالحق سبحانه يلحقهم فى الجنة بنعيم يعيشه الأب ؛ لا يفوتهم فيه شىء ؛ ولا يفوته شىء .

وبذلك تسعد الذرية ؛ لأنها جاءت من صُلْب رجل مؤمن قضى حياته على جَادة الصواب ؛ رغم أن بعض الناس قد اتهمتْه فى الدنيا بأنه مُتزمِّت[2] .

ولقائل أنْ يقول : ألاَ يوجد تناقض بين هذا الإلحاق وبين قول الحق سبحانه :

﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا.. (٣٣)﴾

[لقمان]

وأقول : لا يوجد تناقض ؛ لأننا نصلى على الميت صلاة شرَّعها المُشرِّع ؛ وفائدتها أنْ تصل الرحمة للميت المؤمن ؛ والإيمان من عمله .

ولذلك يضيف له الحقُّ سبحانه فوق رصيد الإيمان ما يشاؤه هو سبحانه من الرحمة بصلاة الجنازة التى أقامها المسلمون عليه :

---

(١) بحبوحة كل شىء : وسطه وخياره . وقال الفراء : البحبحىُّ الواسع فى النفقة ، الواسع فى المنزل . وتبحبح فى المجد أى أنه فى مجد واسع . [لسان العرب ـ مادة : بحح] .

(٢) الزَّميت والزِّمِّيت : الحليم الساكن القليل الكلام . [لسان العرب ـ مادة : زمت] .

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد]

وكلمة « زوج » تعنى المرأة التى يتزوجها الرجل ؛ وتعنى الرجل الذى تتزوجه المرأة ، ونحن نخطىء خطأ شائعاً حين نقول « زوجة » ؛ بل الصحيح أن نقول « زوج » عن المرأة المنسوبة لرجل بعلاقة الزواج[1] .

وسبحانه يقول :

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ..﴿٦﴾﴾ [الأحزاب]

وهكذا نعلم أن جنات عَدْنٍ هى مكان ينتظم كل شىء ؛ ولهذا المكان أبواب متعددة ؛ هى أبواب الطاعات التى أدَّتْ إلى خير الجَزَاءات ؛ فباب الصلاة يدخله أُناس ؛ وباب الزكاة يدخله أُناس ؛ وباب الصبر يدخله أُناس ؛ وهكذا تتعدد الأبواب ؛ وهى إمَّا أبواب الطاعات أو أبواب الجزاءات التى تدخل منها الطيبات :

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ..﴿٢٥﴾﴾ [البقرة]

فالبابُ يكون مفتوحاً ؛ تأتى منه الفاكهة والثَّمَرات والخيرات على اختلاف ألوانها ؛ فمرَّةً تأتى ثمار المانجو من باب ؛ وبعد ذلك تأتى ثمار التفاح .

---

(١) كلمة « زوج » للذكر والأنثى هى لغة الحجازيين . أما « زوجة » فهى لغة بنى تميم ، فيقولون : هى زوجته . وأبَى الأصمعى فقال : زوج لا غير . واحتج بقول الله تعالى : ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة] فقيل له : نعم ، كذلك قال الله ، فهل قال الله : لا يُقال زوجة ؟ وكانت من الأصمعى فى هذا شدة وعُسْر . [لسان العرب ـ مادة : زوج] .

وتلك الأبواب كما قلت هى إمّا للجزاءات ؛ أو هى أبواب الطاعات التى أدّت إلى الجزاءات ، وتدخل عليهم الملائكة من كُلِّ باب ؛ فماذا تقول الملائكة ؟

يقول الملائكة لأهل الجنة :

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ فَنِعۡمَ عُقۡبَى[1] ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾

والسلام يعنى الاطمئنان والرضا الذى لا تأتى بعده الأغيار ؛ لأن السلام فى الدنيا قد تُعكِّر أَمْنه أغيارُ الحياة ؛ فأنتم أيها المؤمنون الذين دخلتم الجنة بريئون من الأغيار .

وقال ﷺ عن لحظات ما بعد الحساب :

« الجنة أبداً ، أو النار أبداً »[2] .

ولذلك يقول سبحانه عن خيرات الجنة :

﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة]

والملائكة كما نعلم نوعان :

الملائكة المهيمون الذين يشغلهم ذكر الله تعالى عن أىِّ شىء ولا يدرون بِنَا ؛ ولا يعلمون قصة الخَلْق ؛ وليس لهم شَأْنٌ بكُلِّ ما يجرى ؛ فليس فى بالهم إلا الله وهم الملائكة العَالُون ؛ الذين جاء ذكرهم فى قصة السجود لآدم حين سأل الحق سبحانه الشيطان :

---

(١) العاقبة والعُقْبى : آخر كل شىء وخاتمته . قال تعالى : ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ٢/٢٨] .

(٢) أخرج الطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم (١/٨٣) وصححه عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فلما قدم عليهم قال : « أيها الناس إن رسول الله ﷺ إليكم يخبركم أن المرد إلى الله وإلى جنة أو نار ، خلود بلا موت ، وإقامة بلا ظعن ، فى أجساد لا تموت » .

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

أى : أن العالين هنا هم مَنْ لم يشملهم أَمْرُ السجود ، وليس لهم علاقة بالخلق ، وكُلُّ مهمتهم ذكر الله فقط .

أما النوع الثانى فهم الملائكة المُدبِّرات أمراً ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد استدعى آدم إلى الوجود هو وذريته ، وأعدَّ له كل شىء فى الوجود قبل أن يجىء ؛ الأرض مخلوقة والسماء مرفوعة ؛ والجبال الرَّواسى بما فيها من قُوتٍ ؛ والشمس والقمر والنجوم والمياه والسحاب .

والملائكة المُدبِّرات هم مَنْ لهم علاقة بالإنسان الخليفة ، وهم مَنْ قال لهم(١) الحق سبحانه :

﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ .. (٣٤) ﴾ [البقرة]

وهم الذين يتولَّوْن أمر الإنسان تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه لهم ، ومنهم الحفظة الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

أى : أن الأمر صادر من الله سبحانه ، وهم بَعْد أنْ يفرغوا من

---

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (١/٧٥) إلى أن الملائكة المأمورين بالسجود هنا هم هؤلاء الذين أرسلهم مع إبليس لمحاربة من أفسد فى الأرض وسفك الدماء قبل خلق آدم ، فألحقوهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، فاغتر إبليس فى نفسه ، فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه ، واستدل ابن كثير بحديث طويل لابن عباس أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره .

مهمتهم كحفظة من رقيب وعتيد على كل إنسان ، ولن يوجد ما يكتبونه من بعد الحساب وتقرير الجزاء ؛ هنا سيدخل هؤلاء الملائكة على أهل الجنة ليحملوا ألطاف الله والهدايا ؛ فهم مَنُوط بهم الإنسان الخليفة .

وسبحانه حين يُورِد كلمة فى القرآن بموقعها البيانى الإعرابى ؛ فهى تُؤدِّى المعنى الذى أراده سبحانه . والمَثَل هو كلمة «سلام » ؛ فضيف إبراهيم من الملائكة :

﴿ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ .. (٦٩) ﴾ [هود]

وكان القياس يقتضى أن يقول هو « سلاماً » ، ولكنها قضية إيمانية ، لذلك قال :

﴿ سَلامٌ .. (٦٩) ﴾ [هود]

فالسلام هنا لم يَأْتِ منصوباً ؛ بل جاء مرفوعاً ؛ لأن السلام للملائكة أمرٌ ثابت لهم ؛ وبذلك حَيَّاهم إبراهيم بتحية هى أحسن من التحية التى حَيَّوه بها .

فنحن نُسلِّم سلاماً ؛ وهو يعنى أن نتمنى حدوث الفعل ، ولكن إبراهيم عليه السلام فَطِنَ إلى أن السلام أمرٌ ثابت لهم .

وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة ، فَهُمْ يقولون :

﴿ سَلامٌ .. (٢٤) ﴾ [الرعد]

وهى مرفوعة إعرابياً ؛ لأن السلام أمر ثابت مُستقِر فى الجنة ،

وهم قالوا ذلك ؛ لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك ؛ لا يتغير بتغيُّر الأغيار ؛ كما فى أمر الدنيا .

والسلام فى الجنة لهؤلاء بسبب صبرهم ، كما قال الحق سبحانه على ألسنة الملائكة :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وجاء الصبر فى صيغة الماضى ، وهى صيغة صادقة ؛ فهم قد صبروا فى الدنيا ؛ وانتهى زمن الصبر بانتهاء التكليف .

وهم هنا فى دار جزاء ؛ ولذلك يأتى التعبير بالماضى فى موقعه ؛ لأنهم قد صبروا فى دار التكليف على مشقَّات التكليف ؛ صبروا على الإيذاء ؛ وعلى الأقدار التى أجراها الحقُّ سبحانه عليهم .

وهكذا يكون قول الحق سبحانه :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

في موقعه تماماً .

وكذلك قوله الحق عمَّنْ توفّرت فيهم التسع صفات ، وهم في الدنيا :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ..(٢٢) ﴾ [الرعد]

وجاء بالصبر هنا فى الزمن الماضى ؛ رغم أنهم ما زالوا فى دار التكليف ؛ والذى جعل هذا المعنى مُتّسِعاً هو مَجِىء كل ما أمر به الله بصيغة المضارع ؛ مثل قوله تعالى :

﴿ الَّذين يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [الرعد]

وهذه مسألة تحتاج إلى تجديد دائم ؛ وقوله :

﴿ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ [الرعد]

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ .. (٢١) ﴾ [الرعد]

و ﴿ وَيَخْشَوْنَ ﴾ ، ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ [الرعد]

هكذا نرى كل تلك الأفعال تأتى فى صيغة المضارع ، ثم تختلف الصيغة إلى الماضى فى قوله :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

والمتأمل لكل ذلك يعلم أن كل تلك الأمور تقتضى الصبر ؛ وكأن الصبر يسبق كل هذه الأشياء ، وهو القاسم المشترك فى كل عهد من العهود السابقة .

وقد عبَّر الحق سبحانه ـ لأجل هذه اللفْتة ـ بالماضى حين جاء حديث الملائكة لهم وهم فى الجنة .

وهكذا تقع كلمة الصبر فى موقعها ؛ لأن الملائكة تخاطبهم بهذا القول وهم فى دار البقاء ؛ ولأن المتكلم هو الله ؛ فهو يُوضِّح لنا جمال ما يعيش فيه هؤلاء المؤمنون فى الدار الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

وعلمنا أن « عُقْبى » تعنى الأمر الذى يجىء فى العَقِب ، وحين يعرض سبحانه للقضية الإيمانية وصفات المؤمنين المعايشين للقيم الإيمانية ؛ فذلك بهدف أن تستشرفَ النفس أن تكون منهم ، ولا بُدّ أن تنفِرَ النفس من الجانب المقابل لهم .

والمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الانفطار]

ويأتى بمقابلها بعدها :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

وساعة تقارن بأنهم لو لم يكونوا أبراراً ؛ لكَانوا فى جحيم ؛ هنا نعرف قَدْر نعمة توجيه الحق لهم ، ليكونوا من أهل الإيمان .

وهكذا نجد أنفسنا أمام أمرين : سلب مَضرَّة ؛ وجَلْب منفعة ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن النار :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا[1] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم]

أى : كلنا سنرى النار .

ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر]

وذلك لكى يعرف كل مسلم ماذا صنعتْ به نعمة الإيمان ؛ قبل أن

---

(١) ورد يرد : حضر أو أشرف على المكان دخله أو لم يدخله . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠] .
قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : « ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها ، وورود المشركين أن يدخلوها » [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/١٣٣] .

يدخل الجنة ، وبذلك يعلم أن الله سلب منه مَضرَّة ؛ وأنعم عليه بمنفعة ، سلب منه ما يُشقِى ؛ وأعطاه ما يُفيد .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

وإذا كان الحق سبحانه قد وصف أُولى الألباب بالأوصاف المذكورة من قبل ؛ فهو يُبيِّن لنا أيضاً خيبة المقابلين لهم ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ (١) وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٢٥) ﴾

ولقائل أنْ يسأل : وهل آمن هؤلاء وكان بينهم وبين الله عهد ونَقَضوه ؟

ونقول : يصح أنهم قد آمنوا ثم كفروا ، أو : أن الكلام هنا ينصرف إلى عهد الله الأزلى.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهنا يوضح سبحانه أن مَنْ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وتأكيده بالآيات الكونية التى تدل على وجود الخالق الواحد :

(١) اللعنة : سخطه وغضبه وطرده من رحمته . [القاموس القويم ٢/١٩٥] .

﴿ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ..(٢٥) ﴾ [الرعد]

والمقابل لهم هم أُولو الألباب الذين كانوا يَصِلون ما أمر سبحانه أن يُوصل ـ وهؤلاء الكفرة نقضة العهد :

﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [الرعد]

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالمقابل لكُلِّ عمل أدَّاه أولو الألباب ؛ فلم يَقُل : « ولا يخشون ربهم » ؛ لأنهم لا يؤمنون بإله ؛ ولم يَقُلْ : « لا يخافون سوء الحساب » لأنهم لا يؤمنون بالبعث .

وهكذا يتضح لنا أن كل شيء في القرآن جاء بِقَدرٍ ، وفي تمام موقعه .

ونحن نعلم أن الإفساد في الأرض هو إخراجُ الصَّالح عن صلاحه ، فأنت قد أقبلتَ على الكون ، وهو مُعَدٌّ لاستقبالك بكل مُقَوِّمات الحياة من مأكل ومَشْرب وتنفس ؛ وغير ذلك من الرزق ، واستبقاء النوع بأن أحلَّ لنا سبحانه أن نتزاوج ذكراً وأنثى .

والفساد في الكون أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده ؛ ونقول دائماً : إن كنت لا تعرف كيف تزيد الصالح صلاحاً ؛ فاتركه على حاله ؛ واسمع قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..(٣٦) ﴾ [الإسراء]

فلا تنظر في أيِّ أمر إلى الخير العاجل منه ؛ بل انظر إلى ما يؤول إليه الأمر من بعد ذلك ؛ أيضرُّ أم ينفع ؟

---

(١) قفاه قفواً : تبعه ، وهو أن يتبع الشيء ، والمعنى : لا تتبع ما لا تعلم . [لسان العرب ـ مادة : قفا] .

لأن الضُّرَّ الآجل قد يتلصص ويتسلل ببطء وأَناة ؛ فلا تستطيع له دَفْعاً من بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه فى آخر الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾ [الرعد]

ونلحظ أن التعبير هنا جاء باللام مِمَّا يدل على أن اللعنة عشقتهم عِشْق المالك للملوك :

﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾ [الرعد]

أى : عذابها ، وهى النار والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ[1] وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾

والبَسْط هو مَدُّ الشىء .

وقد أقام العلماء معركة عند تحديد ما هو الرزق ، فهل الرزق هو ما أحلَّه الله فقط ؟ أم أن الرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان سواء أكان حلالاً أم حراماً ؟

---

(١) قدر الله الرزق : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ومنه قوله : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ..(١٦)﴾ [الفجر] أى : ضيَّقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها . [القاموس القويم ١٠٢/٢] .

فمن العلماء مَنْ قال : إن الرزق هو الحلال فقط ؛ ومنهم من قال : إن الرزق هو كل ما يُنتفع به سواء أكان حلالاً أم حراماً ؛ لأنك إنْ قُلْتَ إن الرزق محصور فى الحلال فقط ؛ إذن : فَمَنْ كفر بالله من أين يأكل ؟

ألم يخاطب الحق سبحانه المكابرين قائلاً :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..(٣١) ﴾ [يونس]

وقال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات]

ويقول تعالى :

﴿ وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ [الذاريات]

إذن : فالرزق هو من الله ؛ ومن بعد ذلك يأمر « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه يمُد الرزق لِمَن يشاء :

﴿ وَيَقْدِرُ ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

من القَدْر . أى : فى حالة إقداره على المُقَدَّر عليه ؛ وهو مَنْ يعطيه سبحانه على قَدْر احتياجه ؛ لأن القَدْر هو قَطْع شىء على

مساحة شيء ، كأنْ يعطى الفقير ويبسط له الرزق على قَدْر احتياجه.

والحق سبحانه أمرنا أنْ نُعطِى الزكاة للفقير ؛ ويظل الفقير عائشاً على فقره ؛ لأنه يعيش على الكفاف .

أو : يقدر بمعنى يُضيِّق ؛ وساعة يحدث ذلك إياك أنْ تظن أنَّ التضييق على الفقير ليس لصالحه ، فقد يكون رزقه بالمال الوفير دافعاً للمعصية ؛ ومن العفَّة ألا يجد .

أو : يقدر بمعنى يُضيِّق على إطلاقها ، يقول سبحانه :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ[1] وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ [الطلاق]

ولأن الله قد آتاه فهذا يعنى أنه بَسَط له بقدره .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٦) ﴾ [الرعد]

وطبعاً سيفرح بها مَنْ كان رزقه واسعاً ؛ والمؤمن هو مَنْ ينظر إلى الرزق ويقول : هو زينة الحياة الدنيا ؛ ولكن ما عند الله خَيْر وأبقى .

أما أهل الكفر فقد قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

---

(١) السعة فى المال : الغنى والثراء والرخاء واتساع الأرزاق . [القاموس القويم ٢/٣٣٧] .

(٢) المقصود بالقريتين : مكة والطائف . قاله ابن عباس وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقتادة والسدى وابن زيد . واختلفوا فى المقصود بهذين الرجلين . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ويردُّ الحق سبحانه عليهم :

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

وساعةَ تبحث فى تحديد هذا البعض المبسوط له الرزق ؛ والبعض المُقدَّر عليه فى الرزق ؛ لن تجد ثباتاً فى هذا الأمر ؛ لأن الأغيار قد تأخذ من الغنىّ فتجعله فقيراً ؛ وقد تنتقل الثروة من الغنىّ إلى الفقير .

وسبحانه قد ضمن أسباباً عُلْيا فى الرزق ؛ لكل من المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصى ؛ وكلنا قد دخل الحياة ليأخذ بيده من عطاء الربوبية ؛ فإنْ قصَّر واحد ؛ فليس لهذا المَرْء من سبب سوى أنه لم يأخذ بأسباب الربوبية وينتفع بها .

وقد يأخذ بها الكافر وينتفع بها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

إذن : فليس هناك تضييق إلا فى الحدود التى يشاؤها الله ، مثل أن يزرع الإنسان الأرضَ ، ويتعب فى الريِّ والحَرْث ؛ ثم تأتى صاعقة أو برد مصحوب بصقيع فيأكل الزرع ويُميته .

وفى هذا لَفْتٌ للإنسان ؛ بأنه سبحانه قد أخذ هذا الإنسان من

رزقه ؛ وهو العطاء منه ؛ كى لا يُفْتَنَ الإنسان بالأسباب ، وقد يأتى رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر .

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٢٦)﴾ [الرعد]

والفرح فى حَدِّ ذاته ليس ممنوعاً ولا مُحرّماً ، ولكن الممنوع هو فرح البطر كفرح قارون :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ[1] عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[2] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ..(٧٦)﴾ [القصص]

والحق سبحانه قد قال :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]

وهذا هو فرح البطر الذى لا يحبه الله ؛ لأنه سبحانه قال فى موقع آخر :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

---

(١) البغى : الظلم والكبر ومجاوزة الحد . والباغى : المتجاوز الحد . [القاموس القويم ١/٧٧] .

(٢) ناء الرجل بالحمل ينوء : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة أى : تثقل عليهم مفاتيح كنوز قارون وتجهدهم . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يأتى بفرحهم ؛ وبسبب هذا الفرح وهو الحياة الدنيا ؛ أى : أنه سبب تافه للفرح ، لأنها قد تُؤخذ منهم وقد يُؤخَذون منها ، ولكن الفرح بالآخرة مختلف ، وهو الفرح الحق .

لذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

ويقيس الحق سبحانه أمامنا فرح الحياة الدنيا بالآخرة ، فيقول :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦) ﴾ [الرعد]

ومتاع الرجل هو ما يعده إعداداً يُنفقه فى سفر قصير ، كالحقيبة الصغيرة التى تضع فيها بعضاً من الملابس والأدوات التى تخصُّك لسفر قصير .

والعاقل هو مَنْ ينظر إلى أقصى ما يمكن أن يفعله الإنسان فى الحياة ؛ فقد يتعلم إلى أنْ يصل إلى أرْقى درجات العلم ؛ ويسعى فى الأرض ما وَسِعه السَّعْى ؛ ثم أخيراً يموت .

والمؤمن هو مَن يَصل عمل دُنْياه بالآخرة ؛ ليصلَ إلى النعيم الحقيقى ، والمؤمن هو مَنْ يبذل الجهد ليِصلَ نفسه برحمة الله ؛ لأنها باقية ببقاء الله ، ولأن المؤمن الحق يعلم أن كل غاية لها بَعْد ؛ لا تعتبر غاية .

ولذلك فالدنيا فى حَدِّ ذاتها لا تصلح غايةً للمؤمن ، ولكن الغاية الحَقَّة هى : إمَّا الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ[(١)] مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ[(٢)] ﴿٢٧﴾ ﴾

ونعلم أن « لولا » إذا دخلت على جملة اسمية فلها وَضْع يختلف عنه وَضْعها إذا دخلتْ على جملة فعلية ، فحين نقول : « لولا زيد عندك لَزُرْتُكَ » يعنى امتناع حدوث شيء لوجود شيء آخر . وحين نقول : لولا تُذاكِر دروسك . فهذا يعنى حضاً على الفعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَـٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النور]

والجملة التى دخلت عليها « لولا » فى هذه الآية هى جملة فعلية ، وكأن الحق سبحانه يحضُّنا هنا على أن نلتفتَ إلى الآية الكبرى التى نزلت عليه ﷺ ، وهى القرآن .

وقد تساءل الكافرون ـ كَذباً ـ عن مجيء آية ؛ وكان تساؤلهم بعد مجيء القرآن ، وهذا كذب واقع ؛ يناقضون به أنفسهم ؛ فقد قالوا :

---

(١) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . وتجمع آية على « آيْ » و « آيات » قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : المعجزات والعلامات الدالة المرشدة إلى الحق . [القاموس القويم : ١/٤٧] .

(٢) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود] إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حَدَّ الإعجاز وتمنَّوْا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين ـ مكة أو الطائف .

وهم مَنْ قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ[1] إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر]

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب ، ويتذوقون البيان ، ويتذوقون الفصاحة ؛ ويقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم فى البلاغة والقصائد ، فهم أمة تطرَبُ فيها الأذن لما ينطقه اللسان .

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتى نزلت على الرسل السابقين عليهم السلام ، ونَسُوا أن الآية الكونية عمرها مَقْصور على وقت حدوثها ؛ ومَنْ رآها هو مَنْ يصدقها ، أو يصدقها مَنْ يُخبره بها مصدر موثوق به .

ولكن رسول الله ﷺ هو المبعوث لتنظيم حركة الحياة فى دنيا الناس إلى أنْ تقوم الساعة ؛ ولو أنه قد جاء بآية كونية ؛ لأخذتْ زمانها فقط .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يأتى بآية معجزة باقية إلى أنْ تقومَ الساعةُ ، فضلاً عن أنه ﷺ قد جاءتْ له معجزات حسِّية ؛ كتفجُّر

(١) الذِّكْر : الكتاب الذى فيه تفصيل الدين ، وكل كتاب من كتب الأنبياء عليهم السلام ذِكْر . [لسان العرب ـ مادة : ذكر] .

الماء من بين أصابعه[١] ؛ وحفنة الطعام التى أشبعتْ جيشاً ؛ وأظلَّتْه السحابة ؛ وحَنَّ[٢] جِذْع الشجرة حنيناً إليه ليقف من فوقه خطيباً ؛ وجاءه الضَّبُّ مسلماً[٣] .

كل تلك آيات كونية هى حُجَّة على مَنْ رآها ، وكذلك معجزات الرُّسل السابقين ، ولولا أنْ رواها لنا القرآن لَمَا آمنَّا بها ، وكانت الآيات الكونية التى جاءت مع الرسل هى مجرد إثبات لِمَنْ عاشوا فى أزمان الرسل السابقين على أن هؤلاء الرسل مُبلِّغون عن الله .

وقد شرح الحق سبحانه هذا الأمر بالنسبة لرسول الله ﷺ حين قال :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٤/١١٦) من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه ، أن هذا كان يوم الحديبية ، أن الناس قالوا لرسول الله ﷺ : «ليس عندنا ماء نشرب ، ولا ماء نتوضأ ، إلا ما بين يديك . فوضع رسول الله ﷺ يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه مثل العيون » .

(٢) حَنَّ الجذع إليه : نزع واشتاق . وأصل الحنين ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها . [لسان العرب ـ مادة : حنن] .

(٣) أخرج البيهقى فى « دلائل النبوة » (٦/٣٦) من حديث عمر بن الخطاب أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : «واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب ، وأخرج ضباً من كمه وطرحه بين يدى رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « يا ضب ، فأجابه الضب بلسان عربى مبين يسمعه القوم جميعاً : لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة. قال : من تعبد يا ضب ؟ قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عقابه . قال : فمن أنا يا ضب ؟ قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وقد خاب من كذبك » .

أى : أن الرسل السابقين الذين نزلوا فى أقوامهم وصحبتْهم الآياتُ الكونية قابلوا أيضاً المُكذِّبين بتلك الآيات ، وقوم رسول الله ﷺ قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) ﴾ [الإسراء]

ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً[2] مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا (١١١) ﴾ [الأنعام]

وهكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أنهم غارقون فى العناد ولن يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هى مجرد حُجَج يتلكئون بها .

وهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقولون :

﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٧) ﴾ [الرعد]

وهكذا نجد أنهم يعترفون أن له ربّاً ؛ على الرغم من أنهم قد اتهموه من قبل أنه ساحر ، وأنه ـ والعياذ بالله ـ كاذب ، وحين فَتَرَ[3]

---

(١) الكسفة : القطعة . وجمعها : كِسْف وكِسَف . وكسف الثوب : قطعه قطعاً . [القاموس القويم ٢/١٦١] .

(٢) القبل : المعاينة والمقابلة والمواجهة . وقيل : جمع قبيل ، أى : أصنافاً وأنواعاً . [القاموس القويم ٢/٩٨] .

(٣) فَتَر الشيءُ : سكن بعد حدّة ، ولان بعد شدة . والفترة : الانكسار والضعف . والفترة : ما بين كل نبيين من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

عنه الوحى قالوا : « إن ربَّ محمد قد قَلاَه »[1] .

وأنزل الحق سبحانه الوحى :

﴿ مَا ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴾ [الضحى]

أى : أن الوَحْى سوف يستمر ، وهكذا فضح الله كَذِبهم على مَرِّ سنوات الرسالة المحمدية .

وهم هنا يتعنتون فى طَلَبِ الآية الحسِّية الكونية ؛ وكلمة آية كما عرفنا من قبل هى : إما آية كونية تُلفِت إلى وجود الخالق .

أو : آية من القرآن فيها تفصيلٌ للأحكام ؛ وليستْ تلك هى الآية التى كانوا يطلبونها .

أو : آية معجزة تدلُّ على صِدْق الرسالة .

وكأنَّ طلبَ الآيات إنما جاء لأنهم لم يقتنعوا بآية القرآن ؛ وهذا دليل غبائهم فى استقبال أدلَّة اليقين بصدق الرسول ﷺ ؛ لأن القرآن جاء معجزةً ، وجاء منهجاً .

والمعجزة ـ كما أوضحنا ـ إنما تأتى من جنس ما نبغ فيه القوم ، ولا يأتى سبحانه بمعجزة لقوم لم يُحْسِنوا شيئاً مثلها ، ولم ينبغُوا فيه .

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) أن جندباً بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾ [الضحى] » .

فالـذين كانوا يمـارسون السِّـحْرُ[١] جاءتْ المـعجـزة مع الرسول المرْسَل إليهم من نفس النوع ، والذين كانوا يعرفون الطبَّ ، جاء لهم رسول[٢] ، ومعه معجزة ممَّا نبغُوا فيه .

وقد جاءت معجزة رسول الله ﷺ من جنس ما نبغُوا فيه ؛ فضلاً عن أن القرآن معـجزة ومنهج فى آنٍ واحد ، بخلاف معجـزة التوقيت والتقيد فى زمن .

ومع ذلك ، فإن كـفار مكة تعنتُـوا ، ولم يكتفُوا بـالقرآن معـجزةً وآيات تدلُّهم إلى سواء السبيل ؛ بل اقترحوا هم الآية حسب أهوائهم ؛ ولذلكً نجدهم قد ضلُّوا .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ﴾ [الرعد]

وهنا نقف وَقْـفـة ؛ لأن البـعض يحـاول أن يُسـقط عن الإنسـان مـسـئـوليـة التكليف ؛ ويـدَّعى أن الله هو الذى يمنـع هداية هؤلاء الكافرين . ونقول : إننا إن استقـرأنا آياتِ القرآن ؛ سنجد قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) المقصـود بهم سحرة فرعـون ، وقد قصَّ علينا الحق سبـحانه قصة موسى علـيه السلام ومواجهته لسحرة فرعون ، إذ : ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء] .

(٢) هو عيسى بن مريم عليه السلام قال تعالى له : ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى .. (١١٠)﴾ [المائدة] .

ونجد قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة]

ومن كل ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذى يجعله سبحانه لا يهديهم ، لأن الإنسان ما دام قد جاء له حُكْم أعلى ، ويؤمن بمصدر الحكم ؛ فمن أنزل هذا الحكم يُعطى للإنسان معونة ، لكن مَنْ يُكذِّب بمصدر الحُكْم الأعلى فسبحانه يتركه بلا معونة .

أما مَنْ يرجع إلى الله ؛ فسبحانه يهديه ويدلُّه ويعينه بكل المَدَد .

ويواصل الحق ما يمنحه سبحانه من اطمئنان لمن يُنيب إليه ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقراره وأُنْسُه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقشها من جديد .

ونعلم أن الإنسانَ له حواسٌّ إدراكية يستقبل بها المُحسَّات ؛ وله عقل يأخذ هذه الأشياء ويهضمها ؛ بعد إدراكها ؛ ويفحصها جيداً ، ويتلمس مدى صِدْقها أو كَذِبها ؛ ويستخرج من كل ذلك قضية

واضحة يُبقِيها فى قلبه لتصبح عقيدة ، لأنها وصلت إلى مرحلة الوجدان المحب لاختيار المحبوب .

وهكذا تمرُّ العقيدة بعدة مراحلَ ؛ فهى أولاً إدراك حِسِّى ؛ ثم مرحلة التفكّر العقلى ؛ ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة ؛ ثم الاستقرار فى القلب لتصبح عقيدة .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد]

فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة ؛ وقد يمرُّ على القلب بعضٌ من الأغيار التى تزلزل الإيمان ، ونقول لمن تمرُّ به تلك الهواجس من الأغيار : أنت لم تُعْطِ الربوبية حقَّها ؛ لأنك أنت الملُوم فى أىِّ شىء ينَالُكَ .

فلو أحسنتَ استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لَعلمْتَ تقصيرك فيما لك فيه دَخْل بأىِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما مَا وقع عليك ولا دَخْلَ لك فيه ؛ فهذا من أمر القَدَر الذى أراده الحقُّ لك لحكمة قد لا تعلمها ، وهى خَيْرٌ لك .

إذن : استقبال القدر إن كان من خارج النفس فهو لك ، وإن كان من داخل النفس فهو عليك .

ولو قُمْتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لَوجدتَّه أكثرَ بكثير مما سلَبه منك . والمَثَل هو الشاب الذى استذكر دروسه واستعدَّ للامتحان ؛ لكن مرضاً داهمه قبل الامتحان ومنعه من أدائه .

هذا الشاب فعلَ ما عليه ؛ وشاءَ الله أن ينزل عليه هذا القدر لحكمة ما ؛ كأنْ يمنع عنه حسَد جيرانه ؛ أو حسدَ مَنْ يكرهون أُمه أو أباه ، أو يحميه من الغرور والفتنة فى أنه مُعتمد على الأسباب لا على المُسبِّب . أو تأخير مرادك أمام مطلوب الله يكَون خيراً .

وهكذا فَعلى الإنسان المؤمن أن يكون موصولاً بالمُسبِّب الأعلى ، وأنْ يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأنْ يعلم أن التوكل على الله يعنى أن تعمل الجوارح ، وأنْ تتوكَّل القلوب ؛ لأن التوكل عملٌ قلبى ، وليس عملَ القوالب .

ولينتبه كُلٌّ منّا إلى أن الله قد يُغيب الأسباب كى لا نغتر بها ، وبذلك يعتدل إيمانكَ به ؛ ويعتدل إيمان غيرك .

وقد ترى شاباً ذكياً قادراً على الاستيعاب ، لكنه لا ينال المجموع المناسب للكلية التى كان يرغبها ؛ فيسجد لله شكراً ؛ مُتقبِّلاً قضاء الله وقدَره ؛ فيُوفِّقه الله إلى كلية أخرى وينبغ فيها ؛ ليكون أحدَ البارزين فى المجال الجديد .

لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة]

وهكذا نجد أن مَنْ يقبل قَدر الله فيه ، ويذكر أن له رباً فوق كل الأسباب ؛ فالاطمئنان يغمرُ قلبه أمام أىِّ حدَث مهْمَا كان .

وهكذا يطمئن القلب بذكر الله ؛ وتهون كُلّ الأسباب ؛ لأن الأسباب إنْ عجزتْ ؛ فلن يعجز المُسبِّب .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه الآية فى مَعْرِض حديثه عن التشكيك

الذى يُثيره الكافرون ، وحين يسمع المسلمون هذا التشكيك ؛ فقد توجد بعض الخواطر والتساؤلات : لماذا لم يأْتِ لنا رسول الله ﷺ بمعجزة حِسِّية مثل الرُّسُل السابقين لتنفضّ هذه المشكلة ، وينتهى هذا العناد ؟

ولكن تلك الخواطر لا تنزع من المؤمنين إيمانهم ؛ ولذلك يُنزِل الحق سبحانه قوله الذى يُطمئِن :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [الرعد]

والذِّكْر فى اللغة جاء لِمَعَانٍ شتّى ؛ فمرّةً يُطلق الذِّكر ، ويُرَاد به الكتاب أى : القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ويأتى الذكر مرّة ، ويُرَاد به الصِّيت والشهرة والنباهة ، يقول تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى : أنه شَرَفٌ عظيم لك فى التاريخ ، وكذلك لقومك أنْ تأتى المعجزة القرآنية من جنس لغتهم التى يتكلمون بها .

وقد يُطلَق الذكر على الاعتبار ؛ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا[1] (١٨) ﴾ [الفرقان]

---

(١) البوار : الهلاك . والبائر : الهالك . قال الجوهرى : البور الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . ودار البوار : دار الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : بور] .

أى : نسوا العبَر التى وقعتْ للأمم التى عاشتْ من قبلهم ؛ فنصرَ الله الدينَ رغم عناد هؤلاء .

وقد يُطلق الذِّكْر على كُلٍّ ما يبعثه الحق سبحانه على لسان أىِّ رسول :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقد يُطلَق الذِّكْر على العطاء الخيِّر من الله .

ويُطْلق الذِّكْر على تذكُّر الله دائماً ؛ وهو سبحانه القائل :

﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

أى : اذكرونى بالطاعة أذكرْكُم بالخير والتجليّات ، فإذا كان الذِّكْر بهذه المعانى ؛ فنحن نجد الاطمئنان فى أىٍّ منها ، فالذكر بمعنى القرآن يُورثِ الاطمئنان .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

فكُلُّ آية تأتى من القرآن كانت تُطمئنُ الرسول ﷺ أنه صادقُ البلاغِ عن الله ؛ فقد كان المسلمون قلة مُضطهدة ، ولا يقدرون على حمايةِ أنفسهم ، ولا على حماية ذَوِيهم .

ويقول الحق سبحانه فى هذا الظرف :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

ويتساءل عمر[١] رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا ؛ وقد هاجر بعضنا إلى الحبشة خوفاً من الاضطهاد ؟

ولكن رسول الله ﷺ يسير إلى بدر ، ويُحدِّد أماكن مصارع كبار رموز الكفر من صناديد قريش ؛ ويقول : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »[٢] ؛ بل ويأتى بالكيفية التى يقع بها القتل على صناديد قريش ؛ ويتلو قول الحق سبحانه :

﴿ سَنَسِمُهُ[٣] عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القلم]

وبعد ذلك يأتون برأس الرجل الذى قال عنه رسول الله ذلك؛ فيجدون الضربة قد جاءت على أنفه[٤] .

فمنْ ذَا الذى يتحكم فى مواقع الموت ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] . قال عمر : أىّ جمع يهزم ؟ أى أىّ جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٢١٩/٣ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) وسمه يسمه وَسْماً : جعل له علامة يُعْرف بها بالكىّ أو بقطع جزء من الجسم . قال تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القلم] . أى : سنجعل له علامة فوق أنفه بالكى أو بالجدع أو بالقطع ، وهذه العبارة كناية عن الإذلال أى سنذله . [القاموس القويم ٣٣٨/٢] .

(٤) قال ابن عباس فى تفسير الآية من تفسيره (٤٠٥/٤) : « يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف فى القتال » . وأخرج مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب أنه بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه . فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه ، وشُقَّ وجهه كضربة السوط» .

إن ذلك لا يتأتى إلاَّ من إله هو الله ؛ وهو الذى أخبر محمداً ﷺ بهذا الخبر :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

وقد طمأنَ هذا القولُ القومَ الذين اتبعوا رسول الله ﷺ الذى لا يعلم الغيب ، ولا يعلم الكيفية التى يموت عليها أىُّ كافر وأىُّ جبار ؛ وهو ﷺ يخبرهم بها وهُمْ فى منتهى الضَّعْف .

وهذا الإخبار دليل على أن رصيده قوىّ عند علاَّم الغيوب .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد]

يعنى : أن القلوب تطمئن بالقرآن وما فيه من أخبار صادقة تمام الصدق ، لتؤكد أن محمداً ﷺ مُبلِّغ عن ربِّه ؛ وأن القرآن ليس من عند محمد ﷺ بل هو من عند الله .

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً ﷺ وصَدَّقوا ما جاء به ؛ فهاهى خديجة - رضى الله عنها وأرضاها - لم تكُنْ قد سمعت القرآن ؛ وما أنْ أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أنَّ ما يأتيه قد يكون جنّاً ، فقالت :

« إنك لتَصلُ الرَّحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتَقْرى الضَّيْف ، وتُعينَ على نَوائب الحق ، والله ما يخزَيك الله أبداً »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال .
و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته .
« تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٢/ ٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/ ٢٤) .

وها هو أبو بكر - رضى الله عنه وأرضاه - يصدق أن محمداً رسول من الله ، فَوْرَ أن يخبره بذلك .

وهكذا نجده ﷺ قد امتلك سمَاتاً ؛ وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يُصدِّقون كُلَّ ما يقول فَوْرَ أنْ ينطق .

ونلحظ أن الذين آمنوا برسالته ﷺ ؛ لم يؤمنوا لأن القرآن أخذهم ؛ ولكنهم آمنوا لأن محمداً ﷺ لا يمكن أن يكْذبهم القول ، وسيرته قبل البعثة معجزة فى حَدِّ ذاتها ، وهى التى أدَّتْ إلى تصديق الأوَّلين لرسول الله ﷺ .

أما الكفار فقد أخذهم القرآن ؛ واستمال قلوبهم[1] ، وتمنَّوْا لو نزل على واحد آخر غير محمد ﷺ .

وحين يرى المؤمنون أن القرآن يُخبرهم بالمواقف التى يعيشونها ، ولا يعرفون لها تفسيراً ؛ ويخبرهم أيضاً بالأحداث التى سوف تقع ، ثم يجدون المستقبل وقد جاء بها وفْقاً لما جاء بالقرآن ، هنا يتأكد لهم أن القرآنَ ليس من عند محمد ، بل هو من عند رَبِّ محمد ﷺ .

---

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٣١٥) « أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .. » وحدث هذا الليلة الثالثة .

ولذلك فحين يُثير الكفار خزعبلاتهم للتشكيك فى محمد ﷺ يأتى القرآن مُطَمْئناً للمؤمنين ؛ فلا تؤثر فيهم خزعبلات الكفار .

والمؤمن يذكر الله بالخيرات ؛ ويعتبر من كل ما يمرُّ به ، وبكل ما جاء بكتاب الله ؛ وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئنُّ بذكر الله ؛ لأنه قد آمن إيمانَ صِدْقٍ .

وقد لمس المؤمنون أن أخبار النبى التى يقولها لهم قد تعدَّتْ محيطهم البيئىّ المحدود إلى العالم الواسع بجناحَيْه الشرقى فى فارس ، والغربى فى الروم .

وقد أعلن لهم رسول الله ﷺ - على سبيل المثال - خبر انتصار الروم على الفرس ، حين أنزل الحق سبحانه قوله :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤ ﴾ [الروم]

فأرونى أىّ عبقرية فى العالم تستطيع أن تتحكم فى نتيجة معركة بين قوتين تصطرعان وتقتتلان ؛ وبعد ذلك يحدد مَن الذى سينتصر ، ومِن الذى سيُهزم بعد فترة من الزمن تتراوح من خَمْس إلى تِسْع سنوات ؟

وأيضاً تأتى الأحداث العالمية التى لا يعلم عنها رسول الله ﷺ شيئاً ، وتوافق ما جاء بالقرآن .

وكُلُّ ذلك يجعل المؤمنين بالقرآن فى حالة اطمئنان إلى أن هذا القرآن صادق ، وأنه من عند الله ، ويُصدّق هذا قول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

ونعلم أن الكون قد استقبل الإنسان الأول - وهو آدم عليه السلام - استقبالاً ، وقد هُيِّىء له فيه كُلُّ شىء من مُقوِّمات الحياة ؛ وصار الإنسانُ يعيش فى أسباب الله ، تلك الأسباب المَمْدودة من يَدِ الله ؛ فنأخذ بها وتترقَّى حياتنا بِقَدْر ما نبذل من جَهْد .

وما أنْ نموتَ حتى نصلَ إلى أَرْقى حياة ؛ إنْ كان عملُنا صالحاً وحَسُنَ إيماننا بالله ؛ فبعد أنْ كُنّا نعيش فى الدنيا بأسباب الله الممدودة ؛ فنحن نعيش فى الآخرة بالمُسبِّب فى جنته التى أعدَّها للمتقين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

يعنى : أن الاطمئنان مُسْتوعِب لكل القلوب ؛ فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه ؛ وما أنْ يذكر الله حتى يجدَ الاطمئنان ويتثبتَ قلبه .

وقد حاول المستشرقون أن يقيموا ضَجَّة حول قوله تعالى :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وتساءلوا : كيف يقول القرآن هنا أن الذِّكْر يُطمئِن القلب ؛ ويقول فى آية أخرى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ(١) قُلُوبُهُمْ .. (٢) ﴾ [الأنفال]

فأىُّ المعنيَيْنِ هو المراد ؟

ولو أن المستشرقين قد استقبلوا القرآن بالملَكة العربية الصحيحة لَعلموا الفارق بين :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وبين قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٢) ﴾ [الأنفال]

فكأنه إذا ذُكر الله أمام الناس ؛ وكان الإنسان فى غَفْلة عن الله ؛ هنا ينتبه الإنسانَ بوجَلٍ .

أو : أن الحق سبحانه يخاطب الخلْق جميعاً بما فيهم من غرائز وعواطف ومواجيد ؛ فلا يوجد إنسان كامل ؛ ولكُلٍّ إنسان هفوة إلا مَنْ عصم الله .

وحين يتذكر الإنسانُ إسرافه من جهة سيئة ؛ فهو يَوْجَل ؛ وحين يتذكر عَفْو الله وتوبته ومغفرته يطمئن .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ(٢) لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾

---

(١) وجل يوجل : فزع وخاف . قال تعالى :﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ .. (٥٣) ﴾ [الحجر] . أى : لا تفزع ولا تخف . وهو وجل أى خائف . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) ﴾ [الحجر] . [القاموس القويم ٢/٣٢١] .

(٢) طوبى : اسم تفضيل أى لهم أطيب عاقبة . وقيل : طوبى مصدر مثل بُشْرى : أى : لهم لذة وطيب وسعادة وخير . وقيل : علَم على الجنة أو على شجرة طيبة فيها . [القاموس القويم ١/٤١٢] .

وطُوبَى من الشىء الطيِّب ؛ أى : سيُلاقُونَ شيئاً طيباً فى كُلِّ مظاهره : شكلاً ولَوْناً وطَعْماً ومزاجاً وشهوة ، فكُلُّ ما يشتهيه الواحد منهم سيجده طيباً ؛ وكأن الأمر الطيب موجود لهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرعد]

أى : حَسُنَ مرجعهم إلى مَنْ خلقهم أولاً ، وأعاشهم بالأسباب ؛ ثم أخذهم ليعيشوا بالمُسبِّب الأعلى ؛ وبإمكانية « كُنْ فيكون » .

• • •

ويريد الحق سبحانه من بعد ذلك أنْ يُوضِّح لرسوله ﷺ أنه رسول من الرُّسُل ؛ وكان كل رسول إلى أىِّ أمة يصحب معه معجزة من صِنْف ما نبغ فيه قومه .

وقد أرسل الحق سبحانه محمداً ﷺ ومعه المعجزة التى تناسب قومه ؛ فَهُمْ قد نبغوا فى البلاغة والبيان وصناعة الكلام ، وقَوْل القصائد الطويلة وأشهرها المُعلَّقات السبع ؛ ولهم أسواقٌ أدبية مثل : سوق عكاظ ، وسوق ذى المجاز .

ولذلك جاءت معجزته ﷺ من جنس ما نبغُوا فيه ؛ كى تأتيهم الحُجَّة والتعجيز .

ولو كانت المعجزة فى مجال لم ينبغوا فيه ؛ لقالوا : « لم نعالج أمراً مثل هذا من قبل ؛ ولو كُنَّا قد عالجناه لَنبغْنَا فيه » .

وهكذا يتضح لنا أن إرسالَ الرسولِ بمعجزة فى مجال نبغَ فيه

قومه هو نَوْعٌ من إثبات التحدِّى وإظهـار تفوُّق المعجزة التى جاء بها الرسول .

وهكذا نرى أن إرسال محمد ﷺ بالقرآن - وإنْ لم يُقنِع الكفار - إنما كان مُطَابقاً لمنطق الوحى من السماء للرسالات كلها .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

فكما أرسلك الله إلى أمـتك ؛ فقد سـبق أنْ أرسل سبحـانه رُسُلاً إلى الأمم التى سـبـقتْ ؛ ولم يُرسَـل مع أىٍّ منهم مـعـجـزة تناقض ما نبـغَ فيه قـومُه ؛ كَىْ لا يقـولَ واحدٌ أن المـعجزة التـى جاءتْ مع الرسول تتناولُ ضَرْباً لم يَألفوه ؛ ولو كانوا قد ألِفوه لَمَا تفوَّق عليهم الرسول .

وقول الحق : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ [الرعد]

يعنى : كهذا الإرســال السابق للرسل جاء بَعْثُكَ إلـى أمتِك ، كتلك الأمم السابقة .

ويأتى الحق سبحـانه هنا بالاسم الذى كان يجب أن يَقْدروه حَقَّ قَدْره وهو « الرحمن » فلم يَقُلْ : وهم يكفرون بالله بل قال :

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـٰنِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد]

فهم يعيشون ـ رغم كُفْرهم ـ فى رزقٍ من الله الرحمان ، وكُل ما حولهم وما يُقيتهم وما يَسْتمتعون به من نِعَم هى عطاءاتٌ من الله .

وهم لا يقومون بأداء أىٍّ من تكاليف الله ؛ فكان من اللياقة أن يذكروا فَضْل الله عليهم ؛ وأنْ يؤمنوا به ؛ لأن مطلوب الألوهية هو القيام بالعبادة .

وهو سبحانه هنا يأتى باسمه « الرحمن » ؛ والذى يفيد التطوع بالخير ؛ وكان من الواجب أنْ يقدرُوا هذا الخيْر الذى قدَّمه لهم سبحانه ، دون أن يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

وكان يجب أن يعتبروا ويعلنوا أنهم يتجهون إليه سبحانه بالعبادة ؛ وأنْ يُنفّذوا التكليف العبادىّ .

وفى صُلْح الحديبية دارتْ المفاوضات بين المسلمين وكفار قريش الذين منعوا رسول الله ﷺ من دخول مكة ، ولكنهم قَبِلوا التعاهد معه ، فكان ذلك اعترافاً منهم بمحمد ﷺ وصَحْبه الذين صاروا قوة تُعاهِدُ ؛ تأخذ وتعطى .

ولذلك نجد سيدنا أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ يقول : « ما كان فى الإسلام نصرٌ أعظم من نَصْر الحديبية » .

فقد بدأتْ قريش فى الحديبية الاعترافَ برسول الله وأمة الإسلام ؛ وأخذوا هُدْنة طويلة تمكَّن خلالها محمد ﷺ وصحابته من أنْ يغزُوا القبائل التى تعيش حول قريش ؛ حيث كانت تذهب سَرِية ومعها مُبشِّر بدين الله ؛ فتُسلِم القبائل قبيلة من بَعْد قبيلة .

وهكذا كانت الحديبية هى أعظم نصرٍ فى الإسلام ؛ فقد سكنتْ قريش ؛ وتفرَّغ رسول الله ﷺ ومَنْ معه لدعوة القبائل المحيطة بها للإسلام .

ولكن الناس لم يتسع ظنُّهم لمَا بين محمد وربِّه . والعباد دائماً يَعْجلون ، والله لا يَعْجل بعَجلة العِباد حتَّى تبلغَ الأمورُ ما أراد[1] .

وحين جاءت لحظة التعاقد بين رسول الله ﷺ وبين قريش فى الحُديْبية ، وبدأ علىٌّ بن أبى طالب فى كتابة صيغة المعاهدة ، كتب « هذا ما صَالح عليه محمد رسول الله » فاعترض سهيل بن عمرو وقال : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو » .

وأصَرَّ صحابة رسول الله ﷺ على أن تُكتب صفة محمد كرسول ، لكن النبى ﷺ قال : « والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى . اكتب محمد بن عبد الله »[2] .

ولكن علياً - كرَّم الله وجهه - يُصِرُّ على أن يكتب صفة محمد كرسول من الله ؛ فيُنطق الحق سبحانه رسوله ﷺ ليقول لعلىّ : «ستُسَام[3] مثلها فتقبل » .

---

(١) وفى هذا يورد السيوطى فى الدر المنثور (٧/٥٠٩) آثاراً ، منها الأثر الذى عزاه للبيهقى عن عروة رضى الله عنه أن بعض الصحابة قالوا : والله ما هذا بفتح ، لقد صددنا عن البيت وصُدَّ هدينا .. فقال ﷺ : « بئس الكلام، هذا أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم فى الإياب ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح » .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/٣١٧) .

(٣) سامه الأمر يسومه : كلَّفه إياه . وأكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . والسَّوْم : التكليف . [لسان العرب - مادة : سوم] .

ولما تولَّى علىٌّ - كرَّم الله وجهه - بعد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، وقامت المعركة بين على ومعاوية ؛ ثم اتفق الطرفان على عَقْد معاهدة ؛ وكتب الكاتب « هذا ما قاضى عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب » فقال عمرو بن العاص مندوب معاوية : « اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم وليس أميرنا » .

وهنا تذكَّر على - كرم الله وجهه - ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ : « ستُسَام مثلها فتقبَّل » وقَبِلها فقال : « امْحُ أمير المؤمنين ، واكتب هذا ما قاضى عليه على بن أبى طالب »[١] وتحققت مقولة الرسول ﷺ .

ومن الوقائع التى تُثبِّتُ الإيمانَ ؛ نجد قصة عمار بن ياسر ، وكان ضمن صُفوف على - كرَّم الله وجهه وأرضاه - فى المواجهة مع معاوية ؛ وقتله جُنود معاوية ؛ فصرخ المسلمون وقالوا : « وَيْحَ[٢] عمار ، تقتله الفئة الباغية »[٣] . وهكذا كان رسول الله ﷺ قد قال .

وبذلك فَهِم المسلمون أن الفئة الباغية هى فئة معاوية ، وانتقل كثير من المسلمين الذين كانوا فى صَفِّ معاوية إلى صَفٍّ على بن أبى طالب ؛ فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : تفشَّت فى

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٧/٢٨٧) طبعة دار الريان للتراث . الطبعة الأولى ١٩٨٨م . حوادث عام ٣٧ هجرية .

(٢) ويح : كلمة ترحُّم وتوجُّع . تُقال لمن تنزل به بليّة . [لسان العرب - مادة : ويح] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٩١) ، والبخارى فى صحيحه (١/٥٤١) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٤٦) من حديث أبى سعيد الخدرى .

الجيش فَاشِيـة ، إنِ استمرتْ لن يبقى معنا أحد ؛ فقـد قتلنا عمار بن ياسر ؛ وذكر صحابة رسول الله ﷺ قوله : « وَيْحَ عمار ، تقتله الفئَة البَاغِية » ، وقد فَهِم المقاتلون معنا أن الفئة الباغية هى فئتنا .

وكان مـعاوية من الدهاء بمنزلة ؛ فقـال : اسْعَ فى الجيش وقُلْ : « إنمـا قتله مَنْ أخـرجه » ويعنى عليّـاً . ولما وصل هذا القـول لعلىٍّ قـال : ومَنْ قـتل حـمـزة بن عـبـد المطلب ، وقـد أخـرجـه للقـتـال محمد ﷺ ؟!

وهنا فى قول الحق سبحانه :

﴿كَذَالِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ .. (٣٠)﴾ [الرعد]

إنما يعنى أن الحق قـد أرسلك يا محمـد بمعجـزة تُناسب ما نبغَ فيه قـومك ، وطَلَبُ غير ذلك هو جَهْل بواقع الرســالات وتعنُّتٌ يُقصَد منه مزيدٌ من ابتعادهم عن الإيمان .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى .. (٣٠)﴾ [الرعد]

أى : أنهم حين يُعـلنون الكفر فأنتَ تصـادمهم بإعـلان الإيمان ، وتقول :

﴿هُوَ رَبِّى لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ..(٣٠)﴾ [الرعد]

وكلمة « ربى » تنسـجم مع كلمة « الرحمـٰن » الذى يُنعِم بالنعم كلهـا ؛ وهو المُتـولِّى تربيتى ؛ ولو لم يـفعل سِـوَى خَلْقى وَتربيـتى ومَدِّى بالحياة ومُقوِّمـاتها ؛ لَـكانَ يكفى ذلك لأعبـده وحده ولا أشرك به أحداً .

ولو أن الإنســان قد أشرك بالله ؛ لالتـفتَ مرة لذلـك الإله ؛ ومرة أخرى للإله الآخر ؛ ومرة ثالثة للإله الثالث وهكذا ، وشاء الله سبحانه أن يريح الإنسان من هذا التشتت بعقيدة التوحيد .

ويأتى القرآن ليُطمئن القلوب أيضاً وليذكر :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ(١) وَرَجُلاً سَلَمًا(٢) لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وهكذا يعرض لنا القرآن صورتين :

الصورة الأولى : لرجل يملكه أكثر من سيد ، يعارضون بعضهم البعض .

والصورة الثانية : لرجل آخر ، يملكه سيد واحد .

ولا بُدَّ للعـقل أن يعـلمَ أن السـيـد الواحـد أفـضل من الأسـيـاد المتعددين ؛ لأن تعدُّد الأسياد فساد وإفساد ، يقول الحق سبحانه :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء]

والعـاقل هو مَنْ لا يُسـلِّم نفـسـه إلا لسيِّـد واحد يثق أنه أمـين عليه ، ونحن فى حياتنا نقول : ما يحكم به فلان أنا أرضى به ؛ وقد

---

(١) تشاكس القـوم : تنازعوا واشـتد اختـلافهم . قـال تعالى :﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] . ذلـك مثل العبـد المشـرك له آلهة مـتعـددة يتنازعون فـيه . [القاموس القويم ١/٣٥٤] .

(٢) المعنى : أن مَنْ وَحَّـد الله مَثَلُه مَثَلُ السـالم لرجل لا يشركه فـيه غيره . [لسـان العرب - مادة : سلم] .

وَكَلْته فى كذا . ولا أحد منّا يُسلِّم نفسه إلا لمَنْ يرى أنه أمين على هذا الإسلام ، ولا بُدَّ أن يكون أميناً وقوياً ، ويقدر على تنفيذ مطلوبه .

والرسول ﷺ فى المعركة العنيفة مع صناديد قريش قال : إنِّى متوكل على الله ، وهذه شهادة منه على أنه توكل على القوى الأمين الحكيم ؛ والرسول لم يَقُلْ توكلت عليه ؛ ولكنه قال :

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ..(٣٠) ﴾ [الرعد]

والفارق بين القَوْلَيْن كبير ، فحين تقول « عليه توكلت » فأنت تَقْصر التوكُّل عليه وحده ؛ ولكن إنْ قُلت : « توكلت عليه » . فأنت تستطيع أن تضيف وتعطف عدداً آخر ممَّنْ يمكنك التوكل عليهم .

ولذلك نقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ..(٥) ﴾ [الفاتحة]

ونحصر العبادة فيه وله وحده سبحانه ؛ فلا تتعداه إلى غيره ؛ ولو أنها أُخرِّتْ لَجازَ أن يعطف عليه . ويُقَال فى ذلك « اسم قصر » أى : أن العبادة مَقْصورة عليه ؛ وكذلك التوكُّل .

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ..(٣٠) ﴾ [الرعد]

أى : أننى لا آخذ أوامرى من أحد غيره ومَرْجعى إليه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ [1] أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) ﴾

و (لو) حَرْف شَـرْط يلزم لهـا جوابُ شَرْط ، وقـد ترك الحق سبحانه جواب الشَّرْط هنا اعتماداً على يقظة المُسْتمع . وإنْ كان مثل هذا القول ناقصاً حين ننطق نحن به ، فهو ليس كذلك حين يأتى من قَوْل الله سبحانه ؛ فهو كامل فيـمن تكلَّم ، وقد تركها ليقظة المُسْتمِع للقرآن الذى يبتدر المعانى ، ويتذكَّر مع هذه الآية قوله الحق :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ [2] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْـهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَـهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْـهِمْ كُلَّ

---

(١) القارعة : الداهية تفجؤهم بكفرهم وعتوِّهم . ويقال : قرعه أمر إذا أصابه . قال ابن عباس : القارعة : النكبـة . وقال أيضاً : القارعة : الطلائع والسرايا التى كـان يُنفذها رسول الله ﷺ لهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٥٧] .

(٢) القرطاس : الصحيـفة يكتب فيه من ورق أو نحوه . [القاموس القويـم ٢/١١٣] . جمعها قراطيس ورد به قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا .. (٩١) ﴾ [الأنعام] .

شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

[الأنعام]

إذن : من كل نظائر تلك الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نأخذ جواب الشرط المناسب لها من تلك الآيات ؛ فيكون المعنى : لو أن قُرآناً سُيِّرتْ به الجبال ، أو قُطِّعَتْ به الأرض ، أو كُلِّمَ به المَوْتى لَمَا آمنوا .

ويُرْوَى أن بعضاً من مُشْركى قريش مثل : أبى جهل وعبد الله ابن أبى أمية جلَسَا خلف الكعبة وأرسلا إلى رسول الله ﷺ ؛ وقال له عبد الله : إن سَرَّك أن نتبعك فَسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عَنَّا حتى تنفسح ، فإنها أرض ضيِّقة ، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً ، حتى نغرس ونزرع ، فلستَ ـ كما زعمْتَ ـ بأهْونَ على ربِّك من داود حين سخَّر له الجبال تسير معه ، وسَخِّر لنا الرِّيح فنركبها إلى الشام نقضى عليها مَيْرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ، فقد سخِّرَتْ الريحُ لسليمانَ بن داود ، ولسْتَ بأهونَ على ربِّك من سليمان ، وأحْيِى لنا قَصَبَ[1] جَدِّك ، أو مَنْ شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يُحيى المَوْتَى ، ولستَ بأهونَ على الله منه ، فأنزل الحق سبحانه هذه الآية وما قبلها للرد عليهم[2] .

---

(١) القصب من العظام : كل عظم أجوف مستدير له مُخٌ . [لسان العرب ـ مادة : قصب] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٥٥) وقال : قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك . وانظر : أسباب النزول (ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

وكانت تلك كلها مسائل يتلكَّكُونَ بها ليبتعدوا عن الإيمان ؛ فالرسول ﷺ قد جاء بمعجزة من جنْس ما نَبغُوا فيه ؛ وجاء القرآن يَحْمِل منهج السماء إلى أنْ تقومَ الساعة .

وقد طلبوا أنْ تبتعد جبال مكة ليكونَ الوادى فسيحاً ؛ ليزرعوا ويحصدوا ؛ وطلبوا تقطيع الأرض ، أى : فَصْل بقعة عن بقعة ؛ وكان هذا يحدث بِحَفْر جداول من المياه ، وقد قال الكافرون :

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء]

والمراد من تقطيع الأرض - حسب مطلوبهم - أن تقصُرَ المسافةُ بين مكان وآخر ، بحيث يستطيع السائر أنْ يستريح كل فَتْرة ؛ فالمسافر يترك فى كل خطوة من خطواته أرضاً ؛ ويصل إلى أرض أخرى ، وكُلٌّ يقطع الأرض على حَسْب قدرته ووسيلة المواصلات التى يستخدمها .

فالمُتْرَف يريد أن تكون المسافة كبيرة بين قطعة الأرض والأخرى ؛ لأنه يملك الجِيَاد التى يمكن أن يقطع بها المسافة بسهولة ، أما مَنْ ليس لديه مطية ؛ فهو يحب أن تكون المسافات قريبة ليستطيع أنْ يستريح .

ونلحظ نحن ذلك فى زماننا المعاصر ، فحين زادَ الترف صارتْ السيارات تقطَع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية دون توقُّف ؛ عكْس ما كان يحدث قديماً حين كانت السيارات تحتاج إلى راحة ومعها المسافرون بها ، فيتوقفون فى مُنتصَف الطريق .

ومثل ذلك قد حدث في مملكة سبأ ، يقول الحق سبحانه :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ..(١٩)﴾ [سبأ]

أي : اجعل المسافة بين مكان وآخر بعيدة ، كي يتمتع المُسافِر القادرُ بالمناظر الطيبة[1] .

ولاحظنا أيضاً تمادى المشركين من قريش في طلب المعجزات الخارقة ؛ بأنْ طلبوا إحياء المَوْتى في قول الحق سبحانه :

﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ.. (٣١)﴾ [الرعد]

وبعضهم طلب إحياء قصى بن كلاب الجد الأكبر لرسول الله ولقريش ؛ ليسألوه : أَحَقٌّ ما جاء به محمد ؟ ولكن القرآن لم يأْتِ لمثْل تلك الأمور ؛ وحتى لو كان قد جاء بها لَمَا آمنوا .

ومهمة القرآن تتركز في أنه منهج خَاتَمٌ صالح لكل عصر ؛ وتلك معجزته .

ويقول سبحانه :

﴿بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا..(٣١)﴾ [الرعد]

وكلمة « أمر » تدلُّ على أنه شيء واحد ، وكلمة « جميعاً » تدل على مُتعدِّد ، وهكذا نجد أن تعدُّد الرسالات والمُعْجزات إنما يدلُّ على

(١) وذلك أن الله تعالى أنعم عليهم بأن جعل القرى ظاهرة والمسافات قريبة ، فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] . ولكنهم طلبوا من الله المباعدة بين أسفارهم فقالوا : ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾ [سبأ] .

أن كُلَّ أمر من أمر تلك الرسالات إنما صدرَ عن الحق سبحانه ؛ وهو الذى اختارَ كلَّ مُعْجزة لتناسب القومَ الذين ينزل فيهم الرسول .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ..(٣١) ﴾ [الرعد]

وكلمة « ييأس » يُقَال إنها هنا بمعنى « يعلم » ؛ فهى لغة بلهجة قريش[1] ، أى : أَلَمْ يعلم الذين آمنوا أن هؤلاء الكفار لم يهتدوا ؛ لأن الله لم يَشَأ هدايتهم .

وكان المؤمنون يودُّون أن يؤمنَ صناديدُ قريش كى يَخفَّ الجهد عن الفئة المسلمة ؛ فلا يضطهدونهم ، ولا يضايقونهم فى أرزاقهم ولا فى عيالهم .

ويوضح الحق سبحانه هنا أن تلك المسألةَ ليست مُرتبطة برغبة المؤمن من هؤلاء ؛ بل الإيمان مسألة تتطلب أنْ يُخرِجَ الإنسان ما فى قلبه من عقيدة ، وينظر إلى القضايا بتجرُّد ، وما يقتنع به يُدخِله فى قلبه .

وبذلك يمتلىء الوعاء العقدىّ بما يُفيد ؛ كى لا تدخل فى قلبك عقيدة ، وتأتى عقيدة أخرى تطردُ العقيدة ، أو تُزيغ قلبك عمَّا تعتقد ، يقول تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ..(٤) ﴾ [الأحزاب]

فالوعاء القلبى كالوعاء المادىّ تماماً ؛ لا يقبل أنْ يتداخل فيه

(١) قيل : هو لغة هوازن . أى : أفلم يعلموا . وحكاه القشيرى عن ابن عباس . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٥٦) .

جِرْمَان أبداً ، فإنْ دخل جِرْم على جِرْم ؛ إنْ كان أقوى فهو يطرد من القلب الأَدْنى منه .

والمثَلُ على ذلك : لنفترض أن عندنا إناءً ممتلئاً عن آخره ؛ ويحاول واحدٌ منا أنْ يضعَ فيه كُرةً صغيرة من الحديد ؛ هنا سيجد أن الماءَ يفيضُ من حَوافِّ الإناء بما يُوازِى حجم كرة الحديد ، وهذا ماْ يحدث فى الإناء المادىّ ، وكذلك الحال فى الإناء العَقَدىّ .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

« لا يجتمع حُبِّى وحبُّ الدنيا فى قلب »[(١)] .

وهكذا نرى أن هناك حَيِّزاً للمعانى أيضاً مثلما يوجد حَيِّز للمادة ، فإذا كنتَ تريد ـ حقيقةً ـ أن تُدخِل المعانى العَقَدية الصحيحة فى قلبك ؛ فلا بُدَّ لك من أنْ تطردَ أولاً المعانى المناقضة من حَيِّز القلب ، ثم ابحَثْ بالأدلة عن مدى صلاحية أىٍّ من المعنيين ؛ وما تجده قوىَّ الدليل ؛ صحيحَ المنطق ؛ موفورَ القوة والحُجَّة ؛ فَأدخِلْه فى قلبك .

ولم يفعل الكفار هكذا ؛ بل تمادَوْا فى الغَىِّ إصراراً على ما يعتقدون من عقيدة فاسدة ؛ أما مَنْ أسلم منهم فقد أخرج من قلبه العقيدة القديمة ؛ ولم يُصِر على المُعْتَنق القديم ؛ بل درسَ وقارنَ ؛ فأسرع إلى الإسلام .

---

(١) أورد أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٢٠٨/٣) آثاراً توضح عدم اجتماع حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب عبد ، قال : « قال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك » .

أما مَنْ كان قلبه مشغولاً بالعقيدة السابقة ؛ ويريد أنْ يُدخل العقيدة الإسلامية فى قلبه ؛ فهو لم ينجح فى ذلك ؛ لأن قلبه مشغولٌ بالعقيدة القديمة .

وإذا كنت يا رسول الله ﷺ تريد من هؤلاء أن يؤمنوا ؛ فلا بد أن يعتمد ذلك على إرادتهم ، وأنْ يُخرِجوا من قلوبهم العقيدة الفاسدة ؛ وأنْ يبحثوا عن الأصحِّ والأفضل بين العقيدتين .

ولذلك يعلمنا الحق سبحانه كيف نصل إلى الحقائق بسهولة ، فيقول لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ(١) .. ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ]

أى : قُلْ يا محمد لِمَنْ كفر بك : إنِّى أعظكم عظَة ، وأنت لا تَعظ إلا مَنْ تحب أن يكون على الحق ؛ وهذا يُفسر قول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ(٢) حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

ولهذا يريد ﷺ أن تكونوا مؤمنين ؛ لذلك يدعوكم أن تقوموا لله ؛ لا لِجَاه أحد غيره ؛ لأن جاه أىِّ كائن سيزول مَهْمَا كان هذا الواحد ، ولا تقولن لنفسك : إن العبيد سيتساوون معك .

بل قُمْ لله إما مثنى أى أن تكون قائماً ومعك آخر ؛ أو يقوم غيرك

(١) الجنة : الجنون .

(٢) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشقَّ عليه . [القاموس القويم ٢/ ٣٩] .

اثنين اثنين ليتناقش كل منكم مع مَنْ يجلس معه ؛ ولا يتحيز أحد منكم لفكْر مُسْبق بل يُوجِّه فكره كله متجرداً لله .

وليتساءل كل واحد : محمد هذا ، صفته كذا وكذا ، وقد فعل كذا ، والقرآن الذى جاء به يقول كذا ، وسيجد الواحد منكم نفسه وقد اهتدى للحق بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مَنْ جلس معه ليناقشه فيستعرضان معه تاريخ محمد ﷺ وما جاء به .

وحين يتناقش اثنان لن يخاف أيٌّ منهما أن يهزمه الآخر ، لكن لو انضمَّ إليهما ثالثٌ ؛ فكل واحد يريد أن يعتز برأيه ؛ ويرفض أن يقبل رأى إنسان غيره ، ويخشى أن يُعتبر مهزوماً فى المناقشة ؛ ويرفض لنفسه احتمال أنْ يستصغره أحد .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ]

و « الجِنَّة » هى اختلال العقل ؛ أى : أن مَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلُك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ويقرن الحق سبحانه بين العقل وبين الخُلُق ، فيقول :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ويُقَال : فلان على خُلق . أى : يملك من الصفات ما يجعله على الجَادَّة من الفضائل ؛ مثل الصِّدْق والأمانة ؛ وهذه صفاتٌ يَنْظمها فى مواقفها الفِكْر العقلىّ ؛ وهو الذى يُميِّز لنا أىَّ المواقف تحتاج إلى شِدّة ؛ أو لِينٍ ؛ أو حكمة ، وكلُّ هذه أمور يُرتِّبها العقل .

والخُلُق الرفيع لا يصدر عن مجنون ؛ لأنه لا يعرف كيف يختار بين البدائل ؛ لذلك لا نحاسبه نحن ؛ ولا يحاسبه الله أيضاً .

وحين يأمرهم الحق سبحانه أن يبحثوا : هل محمد يعانى من جِنَّة ؟ فالحق سبحانه يعلم مُقدَّماً أن رسول الله ﷺ بشهادتهم يتمتَّع بكمال الخُلُق ؛ بدليل أن أهمَّ ما كانوا يملكونه كانوا يستأمنون عليه رسول الله ﷺ .

وبدليل أنه ﷺ حينما دخل عليهم وكانوا مختلفين فى أمر بناء الكعبة ؛ ارتضوه حَكَماً[1] .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾

[القلم]

وهكذا رأينا أن هؤلاء الكفار ما كانوا ليؤمنوا ؛ ولم يكُنِ اللهُ ليهديَهم ؛ لأنهم كانوا لا يملكون أدْنى استعداد للهداية ؛ وكأنهم أدمنُوا الكفر والعياذ بالله ؛ وقد طبع الله على قلوبهم فزادهم كفراً ؛

---

(١) كان عُمر رسول الله ﷺ حينئذ خمساً وثلاثين سنة ، أى : قبل البعثة بخمس سنين . وذلك أن قبائل قريش اختصمت فيما بينها من يضع الحجر الذى فى موضع الركن ، حتى أنهم أعدوا للقتال ، ثم إنهم اجتمعوا فى البيت الحرام وتشاوروا ، فأشار أبو أمية بن المغيرة عليهم بأنْ يُحكِّموا أول داخل عليهم من باب بنى شيبة ، فكان أول من دخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : « هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد » فقال ﷺ : « هلم إلىَّ ثوباً » فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً . ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه . انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/١٩٦ ، ١٩٧) .

فمـا فى تلك القلوب من كفر لا يخـرج منها ؛ وما بخارجـها لا يدخل فيها .

وقد ظَنَّ بعض من المـسلمين أن كُـفْر هؤلاء قد يُشـقِى المؤمنين بزيادة العَنت من الكافـرين ضدهم ؛ لذلك يوضح الحق سبـحانه لأهل الإيمان أن نَصْره قريب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

أى : اطمـئنوا يـا أهل الإيمـان ؛ فلن يظلَّ حـال أهل الـكفـر على ما هو عليه ؛ بل ستصيـبهم الكوارث وهم فى أماكنهم ، وسيشاهدون بأعينهـم كيف ينتشـر الإيمان فى المـواقع التى يسودونهـا ؛ وتتسع رقعةُ أرض الإيمـان ، وتضيق رقعة أهل الكفـر ؛ ثم يأتى نَصْر الله وقـد جـاء نَصْـر الله ولم يَبْقَ فى الجـزيرة العـربيـة إلا مَنْ يقـول : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وهكذا تنبأتْ الآية بمـجىء الأمل بعد اليـأس ، كى لا يظلَّ اليأس مُـسَيْطراً على حـركة الـمسلمـين وعلى نفـوسهم ، واسـتجـاب الحق سبـحانه لدعوته ﷺ حـين دعاه قـائلاً : « اللهمَّ اجعلها علـيهم سنين كسنين يوسف »[(١)] .

وقُتِل صناديدُهم واحداً وراء الآخر ؛ ولكـن عنادهم استمر ؛ وبلغ

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كـان إذا رفع رأسه من الركـعة الآخـرة يقول : «اللهم اشـدد وطأتك على مـضر ، اللهـم اجعلهـا سنين كـسنى يوسف » الحـديث أخرجـه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

العناد حَدَّ أن ابنتَىْ رسول الله ﷺ كانتا مُتزوِّجتَيْنِ من ابنىْ أبى لَهَبٍ ؛ فلما أعلن النبى ﷺ رسالته ؛ قال أبو لهب وزوجته : لا بد أن يُطلِّق أبناؤنا بنات محمد ؛ فلما طلَّق أوَّلهما بنت رسول الله ﷺ دعا رسول الله ﷺ قائلاً : « أما إنى أسأل الله أن يسلِّط عليه كَلْبه»[1] .

وها هو أبو لهب الكافر يقول : « لا تزال دعوة محمد على ابنى تشغل بَالى وتُقلقنى ، وأخاف أن أبعث بولدى إلى رحلة الشام كى لا تستجيب السماءُ لدعوة محمد » .

وكان من المناسب ألاَّ يخاف ، وجاء ميعاد السفر لقافلة الشام . وسافر أبو لَهَبٍ مع ولديْه ، وحين جاء ميعاد النوم أمر أبو لهب الرجال أن يقيموا سياجاً حول ولده ـ وكأن الرجال حوله كخط بارليف الذى بنتْه إسرائيل على قناة السويس ليمنع عنها صَيْحة النصر التى حملت صرخة الله أكبر ـ ثم أصبح الصبح فوجدوا أن وحشاً قد نهش ابن أبى لَهَب .

وقال الناس : كان أبو لَهَب يخشى دعوة محمد ؛ ورغم ذلك فقد تحققت . فقال واحد : ولكن محمداً دعا أن ينهشَه كَلْب وقال له « أكلك كلب من كلاب الله » ولم يَقُلْ فلينهشْكَ سبع[2] ، فرد عليه مَنْ

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء ، وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٤/٣٩) .

(٢) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . [لسان العرب ـ مادة : كلب] . وانظر فتح البارى (٤/٣٩) .

سـمعـه : وهل إذا نُسب كلب الله أيكون كلبـاً ؟ لا بد أن يكون الكائن المنسوب لله كبيراً .

وهكذا دَقَّتْ القـارعة بيت الرجل الذى أصـرَّ على الكفر ، وتحـقق قول الله :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الرعد]

نعـم ، فـهم قـد أسـرفـوا فى الـكُفْـر والعِـنـاد ؛ فـجـاءتْهم القارعـة ؛ والقارعة هى الشىء الذى يطرق بعنف على هادىء ساكن ، ومنهـا نأخذ قَرْع الـباب ، وهناك فَرْق بـين « نَقْر البـابِ » و « قَرْع الباب » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الرعد]

يُوضِّحـه أَمْر صُلْح الحديبـية الذى جاء بشـارةً للمسلمين ؛ فـقد صار كفـار قريش يفاوضـون رسول الله ﷺ ، وكـان النبى ﷺ يبعث بالسرايا إلى المناطق المحيطة بمكة ؛ فتـأتى القبائل أفواجاً وهى تعلن إسلامهـا ؛ ويبلغ ذلك قريشاً بأن الإسلام يواصل زَحْـفه ؛ ثم تأتيهم القارعة بأن يدخل الرسول ﷺ مكة ؛ ويتحقق وعد الله بأن يدخلوا هم أيضاً إلى حظيرة الإسلام .

أو : أن يكون المقصود بـ :

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ..(٣١)﴾ [الرعد]

هو مجيء يوم القيامة الذى يحمل وَعْد الله بأن يحُلَّ عليهم ما يستحقونه من عذاب .

وفى هذا القول تطمين لِمَنْ قال لهم الحق سبحانه فى أول هذه الآية :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ..(٣١)﴾ [الرعد]

ذلك أن الله لا يُخلف وعده ، وهو القائل فى تذييل هذه الآية :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾ [الرعد]

ونعلم أن كلمة « وَعْد » عادةً تأتى فى الخير ، أما كلمة « وعيد » فيه فتأتى غالباً فى الشر .

والشاعر يقول :

وَإِنِّى إذَا أَوْعدْتُه أَوْ وَعَدتُه لَمُنجِزٌ مِيعَادِى ومُخلِفٌ مَوْعِدى

فالإيعاد دائماً يكون بِشَرٍّ ؛ والوَعْد يعنى الخير ، إلا أن بعض العرب يستعمل الاثنين . أو نستطيع أن نقول : إن المسألة بتعبير المؤمنين ؛ أن الله سينصر المؤمنين بالقارعة التى تصيب أهل الكفر ؛ أو تأتى حَوْل ديارهم ، وفى ذلك وَعْد يُصبِّر به سبحانه المؤمنين ؛ وهو فى نفس الوقت وعيدٌ بالنسبة للكافرين .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

هو قضية قرآنية ستتحقق حَتْماً ؛ فى كل عصر وأوان ، إذا ما أخذ المسلمون بأسباب الإيمان ؛ وهى كقضية تختلف عن وَعْد أو وَعِيد البشر ؛ لأن الإنسان قد يَعِد أو يتوعَّد ؛ لكن أغيار الحياة تُصيبه ؛ فتُعطل قدرته على إنفاذ الوَعْد أو الوعيد .

أما حين يَعِدُ الله فالأمر يختلف ؛ لأن وَعْده هو وَعْد مُطْلق ؛ وهذا هو معنى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ(١) لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾

ويقال « هَزَأ بفلان » أى : سخر منه ، أما « استُهزِئ بفلان » أى : طُلِب من الغير أنْ يهزأ بشخص معين ، وهذا عليه إثمه وإثم مَنْ أوعز له بالسخرية من هذا الشخص .

---

(١) أملى له : أطال له ووسَّع له فيما هو فيه من خير أو شر . [القاموس القويم ٢/٢٣٦] وأملى الله له : أمهله وطوَّل له . والإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . [لسان العرب - مادة : ملا] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد]

أى : لستَ بِدعاً يا محمد فى أن يقف بعض الكافرين منك هذا الموقف . والمثَلُ هو الحَكَم بن أبى العاص أبو مروان[1] الذى كان يُقلِّد مشية النبى ﷺ ؛ وكان رسول الله يمشى كأنما يتحدَّر من صبب[2] ؛ وكان بصره دائماً فى الأرض .

ولم يكن الناس مُعْتادين على تلك المِشْية الخاشعة ؛ فقد كانوا يسيرون بغرور مستعرضين مناكبهم .

وحين قلَّد الحكَمُ رسول الله رآه ﷺ بنور البصيرة ، فقال له ﷺ : « كُنْ على هذا »[3] ، فصارت مِشْيته عاهة ، بينما كانت مِشْية رسول الله تطامناً إلى ربه ، وتواضعاً منه ﷺ .

ونفَى رسول الله ﷺ الحَكَم إلى الطائف ؛ وراح يَرْعى الغنم

---

(١) أسلم يوم فتح مكة ، وسكن المدينة، ثم نفاه النبى ﷺ إلى الطائف ، ثم أعيد إلى المدينة فى خلافة عثمان ومات بها عام ٣٢ هـ . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٨/٢ ، ٢٩] .

(٢) عن على رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط عن صبب لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ » أخرجه أحمد فى مسنده (٩٦/١ ، ١١٦) والترمذى فى سننه (٣٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٢٨/٢ ، ٢٩) فقد أورد العسقلانى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر قال : كان الحكم بن أبى العاص يجلس عند النبى ﷺ ، فإذا تكلم اختلج فبصر به النبى ﷺ فقال : « كن كذلك » فما زال يختلج حتى مات . قال العسقلانى : « فى إسناده نظر » .

هناك ، ولم يَعْفُ النبى ﷺ عنه ؛ وكذلك أبو بكر فى خلافته[(١)] ؛ ولا عمر بن الخطاب ؛ ولكن الذى عفا عنه هو عثمان بن عفان ، وكان قريباً له[(٢)] .

وشهد عثمان بن عفان وقال : « والله لقد استأذنتُ رسول الله فيه فقال لى : إن استطعت أن تعفوَ عنه فَاعْفُ ، وحين وَلِيتُ أمرَ المسلمين عَفَوْتُ عنه » .

وحدث من بعد ذلك أن تولّى عبد الملك بن مروان أمر المسلمين ؛ وكان لابنه الوليد خَيْل تتنافس مع خَيْل أولاد يزيد بن معاوية ؛ واحتال أولاد يزيد بالغش ، ووضعوا ما يُعرقل خَيْل الوليد .

وحدث خلاف بين الفريقين فشتم الوليدُ أبناء يزيد ؛ فذهب أولاد يزيد إلى عبد الملك يشكُون له ولده ؛ وكان الذى يشكو لا يتقن نُطْق العربية دون أخطاء ؛ فقال له عبد الملك : مَا لَكَ لا تقيم لسانك من اللحْن[(٣)] ؟ فردَّ الذى يشكو ساخراً : « والله لقد أعجبتْنى فصاحةُ الوليد » . ويعنى : أن حال لسان ابن عبد الملك لا يختلف عن حال

---

(١) روى الطبرانى من حديث حذيفة قال : لما ولى أبو بكر كُلِّم فى الحكم أن يرده إلى المدينة فقال : ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ . أورده ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٢/٢٨) .

(٢) ذكر ابن حجر فى الإصابة (٢/٢٨) أنه عَمُّ عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٣) اللحن : الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . وقال ابن برى وغيره : للحن ستة معانٍ : الخطأ فى الإعراب واللغة والغناء والفطنة والتعريض والمعنى . [لسان العرب ـ مادة : لحن] .

لسان مَنْ يشكو ؛ فكلاهما لا ينطق بِسَلاسَة ، ويكثر اللحْنَ فى النُّطْق بالعربية .

فقال عبد الملك : أتُعيِّرنى بعبد الله ابنى الذى لا يُتقن العربية دون لَحْن ؟ إن أخاه خالداً لا يلحن . وتبع ذلك بقوله : اسكُتْ يا هذا ، فلستَ فى العِير ولا فى النَّفير .

وهذا مَثَلٌ نقوله حالياً ، وقد جاء إلينا عَبْر قريش ؛ حيث كانت السلطةُ فيها ذات مَصْدرين ؛ مصدر العِير ؛ أى : التجارة التى تأتى من القوافل عَبْر الشام وقائدها أبو سفيان ؛ والنَّفِير ؛ وهم القَوْم الذين نَفَرُوا لِنجْدة أبى سفيان فى موقعة بدر ؛ وكان يقودهم عتبة . فقال ابن يزيد : ومَنْ أوْلَى بالعِير والنَّفِير منِّى ؟ ويعنى أنه حفيدُ أبى سفيان من ناحية الأب ؛ وحفيدُ عُتْبة من ناحية الأم .

وأضاف : لكن لو قُلْت شُوَيْهات وغُنَيْمات وذكرت الطائف لكنتَ على حق ؛ ورَحِم الله عثمان الذى عفَا عن جَدِّك ، وأرجعه من المَنْفى .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر]

وكان أىّ إنسان يسخر من رسول الله ﷺ يَلْقَى عقاباً إلهياً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد]

فـأنت يا رسـول الله لستَ بِدْعـاً فـى الرسـالة ، ولك أسـوة فى الرسالة ، والحق سبحانه يَعِدُكَ هنا فى مُحْكَم كتابه :

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ..(٣٢) ﴾ [الرعد]

أى : أمهلتُ الذين كفروا ، والإمـلاء بمعنـى الإمهال ليس معناه تَرْك العقوبة على الذَّنْب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والمَثَل هو أن تترك مخطئاً ارتكبَ هَفْـوة ؛ إلى أنْ يرتكب هَفْوة ثانية ؛ ثم ثالثة ، ثم تُنْزِل به العقاب من حيثُ لا يتوقع .

وإذا كان هذا مـا يحدث فى عـالم البشـر ؛ فما بَالُنا بـقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل :

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) ﴾ [الأعراف]

ويقول تعالى :

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

تماماً مِثْلما نجد مَنْ يصنع فَخّاً لعدوه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

وكلمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

توضح أنه كـان عقاباً صـارماً ؛ ولذلك يقـول الحق سبـحانه فى موقع آخر :

﴿ إنَّ الَّذين أَجْرَمُوا كَانُوا من الَّذين آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وإذا مَرُّوا بهمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقلبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] ﴿٣١﴾ وإذا رأَوْهُمْ قَالُوا إنَّ هَٰؤُلاء لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وما أُرْسِلُوا عليْهِمْ حافظين ﴿٣٣﴾ فَالْيومَ الَّذين آمنوا منَ الْكُفَّار يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

إذن : فلسوْفَ يَلْقَى الذين استهزءوا بالرسل العقاب الشديد .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولقائل أنْ يتساءل : أَلَمْ يكُنْ من الواجب ما دام قد قال :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرعد]

أن يأتى بالمقابل ، ويقول : كَمَنْ ليس قائماً على كل نفس بما كسبت ؟

ولمثل هذا السائل نقول : إنها عظمة القرآن الذى يترك للعقل

---

(١) الفكه : كثير المزاح والاستهزاء بالآخرين . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا انقلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المطففين] . يسخرون من المؤمنين ويتندَّرون بهم . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

ما يمكن أن يستنبطه ؛ فيأتى بأشياء تتطلَّب التفكير والاستنباط ، كى يتنبَّه الإنسان أنه يستقبل كلام رَبٍّ حكيم ؛ وعليه أن يبحث فيه .

ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود : « ثَوِّروا[1] القرآن » أى : أثيروه ، كى تكتشفوا ما فيه من كنوز .

ونحن نعلم أن كلمة « قائم على الأمر » تعنى أنه هو الذى يُديره ويُدبِّره ، ولا تَخْفَى عليه خافية . وجاء الحق سبحانه هنا بصيغة القيام ؛ كى نعلم أن الحق سبحانه لا يدير الأمر من حالة قعود ؛ بل يديره وهو قائم عليه ، فكل أمر هو واضح عنده غير خَفىّ .

وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبتْ إن خيراً فخيْر ؛ وإنْ شراً فشرّ ، ولكنكم أيها الكافرون المشركون لا تملكون لأنفسكم ضراً ولا نَفْعاً ؛ فهل يمكن لعاقل أنْ يساوى بين الذى يقوم على أمر كل نفس ، بغيره ممَّنْ ليس كذلك ؟

ولكن هناك مَنْ قال فيهم الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ .. (٣٣) ﴾ [الرعد]

أى : جعلوا للقائم على أمر كُلِّ نفس شركاء لا يقدر الواحد فيهم على أمر نَفْسه ؛ وبالتالى لا يقدر على أمر غيره ؛ بل قد يُصَابُ الصَّنم من هؤلاء بشَرْخ ؛ فيأتى مَنْ يعبدونه ليقوموا على أمره صارخين بأن إلههم قدْ انشرخَ ؛ ويحتاج إلى مسمارين لتثبيته ،

---

(١) تثوير القرآن : قراءته ومُفَاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : ليُنقِّر عنه ويُفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته . [لسان العرب ـ مادة : ثور] .

فكيف يُسوُّونَ ذلك الصنم بالله الذى لا يحدُّه شىء ولا يحُدُّ قدرته شىء ؟

وقوْل الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ..(٣٣)﴾ [الرعد]

دليل على النص المحذوف : « كمن هو غير قائم على كل نفس » ، فسبحانه ليس كهذه الأصنام العاجزة ؛ لأنه سبحانه قائم على كل نفس ؛ نفسك ونفس غيرك ونفس كل إنسان عاش أو سيعيش .

ولذلك يقول سبحانه بعدها :

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ .. (٣٣)﴾ [الرعد]

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يقول للكافرين بالله : قُولوا أسماء مَنْ تعبدونهم من غير الله ؛ وهى أحجار ، والأحجار لا أسماءَ لها ؛ وهم قد سَمَّوْا الأصنام بأسماء كاللاّت والعُزَّى وهُبَل ؛ وهى أسماء لم تُضفْ لتلك الأصنام شيئاً ، فهى لا تقدر على شىء ؛ ولو سَمَّوْهَا لَنُسِبت لعمرو بن لُحَىّ ، الذى أوجدهم[1] ؛ وهُمْ سَمَّوْها ساعة أنْ نحتُوها .

---

(١) قال ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٧٧) : « حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فرأى العماليق يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه » .

والإله الحق لا يسميه أحد ، بل يُسمِّى هو نفسه ، ولكن بما أن المسألة كَذِب فى كَذِب ، لذلك يسألهم رسول الله ﷺ عن أسماء تلك الآلهة . ويقول لهم : هل تنبئون أنتم الله خالق كل الكون بما لا يعلم فى كونه الذى أوجده من عدم ؟

سبحانه يعلم كل ما خلق ؛ وأنتم لا تعبدون إلا أصناماً ينطبق عليها أنها من ظاهر القول ؛ أى : قول لا معنى له ؛ لأنهم أطلقوا أسماء على أشياء لا باطنَ لها ولا قدرة تستطيعها ، وهم اكتفَوْا بالظاهر والمُسمَّى غير موجود .

ويقول الحق سبحانه :

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ..(٣٣)﴾ [الرعد]

أى : أنهم ظنوا أنهم يمكرون على الله ، ويقولون إن تلك الأصنام آلهة ، وهى ليست كذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾ [الرعد]

أى : أن العذاب الذى يلْقوْنَه فى الحياة الدنيا هو لصيانة حركة المجتمع من الفساد ، ولا بد أنْ يقعَ لهم عذابٌ فى الحياة الدنيا ؛ ولأن مَنْ يؤجِّل عذابه للآخرة ؛ لا بد أن يرى فى نفسه آية العذاب قبل أن يلْقى عذابه فى الآخرة .

إذن : فعذاب الدنيا هو لحماية حركة الحياة ؛ ولذلك نجد القوانين وهى تُسَنُّ لِتُطبق على المنحرف ؛ ومَنْ يرتكب الجُرْم يخاف أن تقع

عليه العين ؛ وإنْ رآه أحد فهو يبلغ عنه ليلقى عقابه ؛ وبذلك تستقيم حركة الحياة .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى سورة الكهف :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ [١] سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ [٢] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) ﴾ [الكهف]

أى : أنه قد أخذ تفويضاً بأن يقيم الأمر فى هؤلاء الناس ، فأقامه على أساس من الثواب والعقاب ؛ فمَنْ أحسنَ فلَهُ الجزاء الحسن ؛ ومَنْ أساءَ يَلْقى العقاب ، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بَطْش مَنْ لا يؤمنون بالله .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ﴾

ولهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة عذابٌ فى الدنيا بالقتل والأسْر والمصائب والكوارث التى لا يقدرون عليها ، وفوْق

---

(١) السبب : الوسيلة وكل ما يُتوصَّل به إلى شىء . [القاموس القويم ١/ ٢٩٩] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٠٢) : « أى : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه » .

ذلك لهم عذاب فى الآخرة أكثر شدةً من عذابِ الدنيا ؛ فليس لهم مَنْ يحميهم ، أو يُقيم بينهم وبين عذاب الله وقاية أو عصْمة .

وفى المقابل يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

والمصدر الأساسى الذى وعدَ المتقين بالجنة هنا هو الله ، وقد بلَّغ عنه الرسل ـ عليهم السلام ـ هذا الوعد ، وتَلاهُمُ العلماء المُبلِّغون عن الرسل .

وأنت حين تنظر إلى فعل يشيع بين عدد من المصادر ، تستطيع أن تبحث عن المصدر الأساسى ، والمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى[1] الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..﴿٤٢﴾﴾ [الزمر]

ويقول فى موقع آخر من القرآن :

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴿١١﴾﴾ [السجدة]

وهكذا تكون التَّوْفية قد آلتْ إلى الله ؛ وآلتْ إلى ملَكِ الموت ، وقد أخذ ملَكَ الموْت مسئولية التَّوفية من إسناد الحق له تلك المهمة ؛ ويكون نسبتها لملَكِ الموت هو نوع من إيضاح الطرف الذى يُوكِّل له الحق سبحانه تنفيذ المهمة .

---

(١) توفى الله فلاناً ، أو توفى الملك فلاناً : أماته وقبض روحه . [القاموس القويم ٢/٣٤٧] .

ومرة يأتى الحق سبحانه بالمصدر الأصلى الذى يُصدِر الأمر لملَك الموْت بمباشرة مهمته .

وهنا فى الآية الكريمة نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

وهى مَبْنية لمَا لم يُسَمّ فاعله ؛ فالوعد منه سبحانه . ونعلم أن الرسول ﷺ يَعد أيضاً ، فها نحن قد جاء إلينا خبر بيعة العقبة ؛ حين أخذ البيعة من الأنصار ، وقالوا له : خُذْ لنفسك ، فأخذ لنفسه ما أراد ، ثم قالوا له : وماذا نأخذ نحن إنْ أدَّيْنَا هذا ؟ فقال لهم : « لكم الجنة »[1] .

وقد قال ﷺ ذلك ؛ لأن العمل الذى فعلوه ؛ لا يكفيه أجراً إلا الجنة ، ومن المعقول أن أىَّ واحد من الذين حضروا العقبة قد يتعرض للموت من بعد معاهدة رسول الله ﷺ ، فلو أنه وعدهم بِمَا فى الدنيا من متاع قد يأخذه البعض فيما بعد ؛ فالذى يموت قبل هذا لا بُدَّ أن يدرك شيئاً ممّا وعد الرسول مَنْ عاهدوه ؛ ولذلك أعطاهم ما لا ينفد ، وهو الوَعْد بالجنة .

والحق سبحانه هنا ـ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ يقول :

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١١٩ ، ١٢٠) من حديث أبى مسعود البدرى الأنصارى . وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/٤٨) . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٣٣) .

أى : أنه يضرب لنا المَثَل فقط ؛ لأن الألفاظ التى نتخاطَبُ بها نحن قد وُضعتْ لمَعان نعرفها ؛ وإذا كانت فى الجنة أشياء لم تَرَهَا عَيْنٌ ، ولم تسمعها أُذنٌ ، ولم تخطر على بال بشر ؛ فمنَ المُمْكن أن نقول : إنه لا توجد ألفاظ عندنا تؤدى معنى ما هناك ، فيضرب الله الأمثال لنا بما نراه من الملذَّات ؛ ولكن يأخذ منها المُكدِّرات والمُعكِّرات[1].

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين « مثل الجنة » وبين « الجنة » ، فالمَثَل يعطينى صورة أسمعها عن واقع لا أعلمه ؛ لأن معنى التمثيل أن تُلحِق مجهولاً بمعلوم لِتأخذَ منه الحكم .

مثلما تقول لصديق : أتعرف فلاناً ؛ فيقول لك : « لا » . فتقول له : « إنه يشبه فلاناً الذى تعرفه » .

وأنت تفعل ذلك كى تشبه مجهولاً بمعلوم ؛ لتأتى الصورة فى ذهْن سامعك .

ويقول الرسول ﷺ شرحاً لما أجْمله القرآن :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ .. (٧١) ﴾ [الزخرف]

ويضيف ﷺ : « فيها ما لاَ عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خَطر على قَلْب بشر »[2].

---

(١) قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد] وقال فى آية أخرى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾ [الصافات] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٣٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه .

وحيـن تُدقِّق فى هذا القول النبـوىّ الكريم تجد الـترقِّى كـاملاً ؛ فـقوله : « مـا لا أُذن سـمـعتْ » جاء لأنه يـعلم أن مُدْركَـات العـيْنِ مـحـدودة بالنسـبة لمَـا تعلمُ الأذن ؛ لأن الأذن تـسمع مـا لا تدركـه العين ؛ فهى تسمع مَا يراه غيرُك بالإضافة إلى ما تراه أنت.

فالأذن تسمع القريب وتسمع البعيد وتنقل صوته وتستحضره ثم تميـزه ، بخلاف العين فـهى محدودة المسـافة حسب قـوة الإبصار ، ومع كل فنعيم الجنة فوق كل هذا الفوق .

ثم يأتى الترقِّى الأكبـر فى قوله : « ولا خطر على قلب بشر » . والخواطر أوسَعُ من قدرة الأذن وقُدْرة العين ؛ فالخواطر تتخيَّل أشياء قد تكون غيرَ موجودة .

وهكذا نرى عَـجْزَ اللغة عن أنْ تُوجـد بها ألفـاظ تعبر عـن معنى ما هو مـوجود بالجنة ، ولا أحدَ فينـا يعلم ما هى الأشياء المـوجودة بالجنة ، وما دام أحـد منا لم يرَ الجنة ؛ وما دام الرسـول ﷺ قال : « فيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ».

فلا بُدَّ أن نعلم قَدْر عَـجْز اللغة عن التعبير عَـمَّا فى الجنة ، فإذا أراد الله أنْ يُعبِّـر عمَّا فيـها ؛ فهو يُوضِّـح لنا بالمثَل ؛ لا بالوصـف ، لأنه يعلم أن لغتنا تضع الألفاظ لمَا هو موجود فى حياتنا ؛ ولا توجد ألفاظ فى لغتنا تُؤدِّى معانى ما فى الجنة .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَـغَـيَّـرْ طَعْـمُـهُ وَأَنـهَارٌ مِّنْ خَـمْـرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـارِبِينَ وَأَنْهَـارٌ مِّنْ عَـسَلٍ مُّصَفًّى ..(١٥) ﴾ [محمد]

ومع أن الحق سبحانه يضرب مثلاً ، إلا أنه خلَّص المَثَل من شوائبه التى نعرفها فى الدنيا ، فالمياه عندما تجرى ؛ تكون حُلْوة ورائقة وصَافية ؛ وإنْ ركدتْ فهى تأسَنُ[1] وتكون عَطِنة .

ولذلك يُوضِّح لنا الحق سبحانه أن المياه فى الجنة غير آسنة ؛ وأنها تكون أنهاراً منزوعاً من مياهها ما يُكدِّرها .

وكذلك المثل بأنهار من لبن لم يتغير طَعْمه . واللبن كما نعرف هو غذاء البدو ؛ فَهُمْ يحلبون الماشية ، ويحتفظون بألبانها فى قِرَبٍ لمُدد طويلة ؛ فيتغير طَعْم اللبن ؛ ولذلك يضرب لهم المثَل بوجود أنهارٍ من لبن لم يتغير طَعْمه .

وأيضاً يضرب المثل بوجود أنهار من عَسَل مُصفَّى ، والعسل ـ كما نعرف ـ كان فى الأصل يأتى من النحْل الذى كان يسكن الجبال قبل استئناسه ؛ ووَضْعه فى مناحل فى الحدائق .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو القائل :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾ [النحل]

وحين بحث علماء الحشرات عن تاريخ النحل ، وجدوا أن أقدمَ عسلٍ فى العالم هو الذى كان موجوداً فى الكهوف الجبليّة ؛ ثم يليه فى العمر العسل الذى جاء من خلايا النحل ؛ تلك الخلايا التى أقامها

(١) أسن الماء : تغيَّرت رائحته . والماء الآسن : هو الذى لا يشربه أحد من نَتْنِه . [لسان العرب ـ مادة : أسن] .

النحل بعد استئناسه ؛ ومن بعد ذلك يأتى العسل الذى أقمْنَا نحن له المنَاحل .

وقد ميَّزوا العسل القديم عن المتوسط عن الجديد ، بأن أحرقوا بعضاً من كل نوع من أنواع العسل ، فنتج من الاحتراق عنصر الكربون ؛ ومن هذا العنصر اكتشفوا عمر كل نوع من الثلاثة .

ويوضح الحق سبحانه أن بالجنة أنهاراً من عَسَل مُصفًّى ، وبذلك يُقدِّم لنا خَيْر ما كنا نُحبه من عسل الدنيا ، ولكن بدون ما يُكدِّره .

ويوضِّح سبحانه أيضاً أن فى الجنة أنهاراً من خمر ، ولكنها خَمْر تختلف عن خمر الدنيا ؛ فهى لا تؤثر على التكوين العُضْوى للعقل ، كما أن خمر الدنيا ليس فيها لذةٌ للشاربين ؛ لأنها من كحول يكْوى الفم ويلْسعه ؛ ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكْبها فى فمه لتمُرَّ بسرعة فلا يشعر بلسعها فى فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة فتلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو البرتقال أو القصب ؛ حيث تستطيب النفس مذاقَ تلك الفواكه ؛ فنجد مَنْ يشربها يتمهَّل ليستبقى أثرها فى فمه .

ويقول الحق سبحانه عن خمر أنهار الجنة :

﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ[1] .. (٤٧) ﴾ [الصافات]

(١) الغَوْل : الصداع . وقيل : السُّكْر . والغَوْل : أن تغتال عقولهم . [لسان العرب - مادة : غول] .

أى : أنه سبحانه ينفى عن خَمْر أنهار الجنة كُلَّ المُكدِّرات التى توجد فى خمر الدنيا .

إذن : فساعةَ تسمع مثلاً عن الجنة ؛ فاعلم أنه مَثَلٌ تقريبىٌ ؛ لأنه لا يمكن أن تأتى الحقيقة ، حيث لا يوجد لفظ يُعبِّر عنها ؛ وهى لم توجد عندنا ؛ وسبحانه لا يخاطبنا إلا بما نعلم من اللغة ؛ لذلك يأتى لنا بالمثَلِ المضروب لنأخذ منه صورة تقريبية .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ..(٣٥)﴾ [الرعد]

ونعلم أن عَصَب حياة العرب أيام نزول القرآن كان هو الماء ؛ ألم يطلبوا من الرسول أن يُفجِّر لهم الأنهار تفجيراً[1] ؟

نجد الحق سبحانه قد جاء بالتعبير القرآنى عن أنهار الجنة بصورتين مختلفتين :

أولهما : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ..(٣٥)﴾ [الرعد]

مثلما قال فى الآية التى نحن بصَدَدِ خواطرنا عنها .

ومرَّة يقول سبحانه :

﴿تجرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ..(١٠٠)﴾ [التوبة]

والفارق بين العبارتين هو استيعاب الكمالية فى النص ، بمعنى أن :

---

(١) قال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)﴾ [الإسراء] .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

تُوضِّح أن منابع تلك الأنهار تأتى من تحت تلك الجنة مباشرة ؛ فلا يَقِلّ الماء فى تلك الأنهار أبداً .

ويُقال : إن الفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطىء تحتضنها ؛ أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطىء تحجزها[1] .

وتجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ، ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكُلٌّ ذلك من صَنْعة رَبٍّ حكيم قادر .

أما قوله :

﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ..(١٠٠) ﴾ [التوبة]

أى : أن منابعها ليست من تحتها مباشرة ؛ ولكنها تأتى دون نَقْصٍ من جهة أنت لا تعلمها ؛ وهو سبحانه قادر على كل شىء .

ويتابع سبحانه ، فيقول عن تلك الجنة :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

والأُكل هو ما يُؤكَل ، وسبحانه القائل :

﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ..(٢٥) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) أورد السيوطى فى هذا آثاراً فى كتابه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » (١/٩٥) منها :

- أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والضياء المقدسى كلاهما فى صفة الجنة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود فى الأرض ، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض ، حافتاها خيام اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر . قلت : يا رسول الله ما الأذفر ؟ قال : الذى لا خلط معه » .

وقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

أى : لا ينقطع ، ونعلم أن الإنسان حين يأكل ؛ فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جُوعه ؛ وبعد أن يُشبِع جُوعَه ؛ قد يطلب أن يُرفعَ الطعام من أمامه ، إلى أنْ يجوع ، فيطلب الطعام من جديد .

ومنْ يحبون الطعام فى حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول : « أشعر ببعض الضيق لأنِّى شبعتُ » ، فهو فى عراك بين نفس تشتهى وبين بطن لا تشبع ، وكأنه كان يريد أنْ يستمر فى تناول الطعام طوال الوقت .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

شغل هذا القول الرومان الذين كانوا أصحاب امبراطورية عُظْمى زَلْزلها الإسلام بحضارته الوليدة ، وأرسل امبراطورهم مَنْ يطلب من أحد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

فأرسل لهم أحدَ العلماء ؛ وسألوه : يقول قرآنكم إن أُكُل الجنة دائم ؛ ونحن وأنتم تعلمون أن كل شىء يُؤخذ منه لا بُدَّ له أن ينقص ؛ فكيف يكون أُكُل الجنةِ دائماً ؟

قال العالم لهم : هاتوا مصباحاً . فأحضروا له المصباح ، وأشعله أمامهم . وقال لكل منهم : فليأْتِ كل منكم بمصباحه . فأحضر كل منهم مصباحه . وقال لهم : فلْيُشعِل كل منكم مِصْباحه .

وهنا سألهم : ما الذى أنقصه إشعال مصابيحكم من هذا المصباح ؟ قالوا : لا شىء . فقال لهم : هكذا ضرب الله لنا المثَل بأُكُل الجنة .

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد فى اشتعاله على الزيت المخزون فيه ، ويأتيه منه المَدَد ، أما الجنة فمدَدُهَا من الله .

وهناك مَنْ قال : هل نتغوَّط فى الجنة ؟ فَردَّ عليه واحد من العارفين : لا . فتساءل : وأين تذهب بقايا ما نأكل من طعام الجنة ؟

فقال العارف بالله : مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل فى بطن أمه ؛ حيث يحترق هذا الفائض فى مَشيمة[1] الطفل ؛ والطفل فى بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر ، مُعتمِداً على غذاء يأتيه من أمه عَبْر الحَبْل السُّرىّ .

وكل تلك الأمور تقريبية تجعلنا نعبر الفجوة بين ما نشهده فى حياتنا اليومية ، وبين ما أعدَّه الله للمتقين ، وهو القيُّوم على كُلِّ أمْرٍ .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا..(٣٥)﴾ [الرعد]

يعنى : أن الطعام موجود ولا ينتهى وكذلك الظل . والظل حَجْب المضىء عن مكان ؛ أو حَجْب مكان عن المضىء ، ولا أحد يعلم أنه ستوجد هناك شمس أم لا ؛ والعقل البشرى قاصر عن تخيُّل ذلك ؛

---

(١) المشيمة للمرأة هى التى يكون فيها الولد . قال ابن الأعرابى : يُقال لما يكون فيه الولد المشيمة والكيس والحَوْران والقميص . [لسان العرب ـ مادة : شيم] .

فهو من فعل الله ، وهو سبحانه قادر على كل شىء .

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧) ﴾

[النساء]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾ [الواقعة]

ويتابع سبحانه :

﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ [الرعد]

أى : يا متقى الله ؛ ووضعتَ بينك وبين صفات جلاله وقاية ، ولم تقربْ محارمه واتبعتَ منهجه ؛ ستجد أنه سبحانه يُجازيك بصفات كَماله وجَماله ؛ فيُنزلك الجنة التى وعدكَ بها .

لذلك إنْ وجدتَ مشقَّة فى التكليف فعليك أن تعلمَ أن جزاء تلك المشقَّة هو الجزاء الجميل ؛ لأنك صدَّقْتَ رسولك ﷺ حين قال : « حُفَّتْ الجنة بالمكاره ؛ وحُفَّتْ النار بالشهوات »[1] .

والعاقل ساعةَ يرى تكليفاً يحُدُّ من حريته ؛ فهو يستحضر الجزاء على تلك المشقَّة ، وهو أيضاً حين يرى أمراً يبدو فى ظاهره شهوة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الترمذى : « حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح » .

عاجلة ؛ فهو يستحضر العقاب على تلك الشهوة العاجلة فيستبعدها .

وأى من الجزاء الطيب أو العقاب قد يأتى فجأة ؛ لأن الموتَ لا ميعادَ له ؛ ونحن نُصدِّق قول رسولنا ﷺ :

« الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته »[1] .

وهكذا يُضخِّم الحق سبحانه من جزاء المؤمن المُتقِّى فيعشق العمل ، ويتحمل مشاقّ التكليف ليكون مَوْصُولاً بالجزاء الطيب ، فهذا الجزاء هو عُقْبى العمل الحسن فى الدنيا ، فالغاية الحقيقية من كل مراحل الوجود هى ألاَّ يوجد بَعْد للغاية ؛ لأنها غاية الخلود لا تعرف البعدية .

وما دامت الجنة تضمن الخلود أبداً ، فهى تستحق أن تكون غايةَ المؤمن وعاقبةَ عمله ، والتزامه بالتكاليف الإيمانية .

تماماً كما تكون النار هى عاقبة الكافرين المُكذِّبين ؛ حيث يرونْ الخير مصير المؤمنين ؛ ويرونَ الشرَّ مصيرهم ؛ فيُجمع عليهم التنغيصُ ؛ مرة بوجود الخير عند أهل الإيمان ؛ ومرة بأن يَرَوْا ما أُعدَّ لهم من شَرٍّ .

لذلك قال سبحانه :

﴿ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ [الرعد]

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم » الحديث .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ[1] مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ ﴾

ونعلم أن الإسلام قد سُبق بدينين ؛ دين النصارى قَوْم عيسى عليه السلام ؛ ومن قبله دين اليهود قوم موسى عليه السلام ؛ وكلاَ الدينين له كتاب ؛ الإنجيل كتاب المسيحية ؛ والتوراة كتاب اليهودية ؛ والقرآن هو كتاب الله المهيمن[2] الخاتم ؛ كتاب الإسلام ، وهناك كتب سماوية أخرى مثل : صحف إبراهيم ؛ وزبور[3] داود ، وغير ذلك .

وكان على مَنْ نزل عليهم التوراة والإنجيل أن يواصلوا الإيمان بمَدَد السماء ، والخير القادم منها إلى الأرض ، وقد سبق أن أخذ الله من أنبيائهم الميثاق على ذلك ، قال تعالى :

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٦٦٢) : « يعني مشركي مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزِّبون على النبي ﷺ » . وأطلقت « الأحزاب » في القرآن على كل قوم تحزَّبوا ضد رسولهم . وقد وردت في القرآن ١١ مرة .

(٢) هيمن عليه هيمنة : كان رقيباً عليه ، حافظاً له ، مسيطراً عليه . [القاموس القويم ٢/٣٠٨] قال ابن كثير في تفسيره (٢/٦٥) جمعاً بين عبارات المفسرين : « هذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله » .

(٣) الزبور : الكتاب المكتوب قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء] . أي : كتاباً . وجمعه زُبُر . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الشعراء] . أي : كتبهم . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾[آل عمران]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد شاء أن يستقبل كُلُّ دين سابق الدينَ الذى يَليه بالإيمان به ؛ وفى كل دين سابق لآخر كانت النصوص تؤكد ضرورة الإيمان بالرسول القادم ، كى لا يحدث اقتراع بين الأديان الناسخة والأديان المنسوخة .

فمنْ صميم مواد أىِّ دين سابق أن ينتظر الدين الذى يليه ، وإذا ما جاء الدين الجديد فهو يستقبله فَرْعاً وتكملة ، ولا يستقبله كدين يُضَادُّ الدين السابق .

وإذا كان الإسلام هو الدين الذى تُختم به مواكب الرُّسُل ؛ فلا بُدَّ أن الأديان السابقة عليه قد بَشَّرَتْ به ، وكل مؤمن بالأديان السابقة مُوصى بضرورة الإيمان به .

يقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

---

(١) الإصر : العهد الثقيل ، وما كان عن يمين وعهد فهو إصر . [لسان العرب ـ مادة : أصر] .

أى : أن أهل التوراة والإنجيل يفرحون بما جاءك يا محمد من القرآن ، والإنسان لا يفرح بشىء إلا إذا حقَّق له غايةً تُسْعِده ، ولا بُدَّ أن تكون هذه الغاية منشورة ومعروفة .

وهم قد فرحوا بما نزل إلى رسول الله ﷺ ؛ لأنه حقق لهم ما جاء فى كتبهم من نبوءة به .

ومعنى ذلك أن كتبهم قد صدقتْ ، ومَنْ جاء بالرسالة الخاتم صادق ، وكان عليهم أن يكونوا أول المُبَادرين إلى الإيمان به .

ذلك أن الفرحة هى العملية التعبيرية أو النُّزوعية من مواجيد الحب ، والإنسان إنما يفرح بتحقيق أمر طيِّب كان ينتظره .

ولذلك كان يجب أن يُهرولوا للإيمان بالدين الجديد ، وأنْ يعلنوا الإيمان به مثلما فعل كعب الأحبار[1] ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى الذى جاب أغلب البلاد باحثاً عن الدين الحق .

وهؤلاء هم مجرد أمثلة لِمَنْ أرادوا أنْ يُعبِّروا بالفرحة واستقبال مَدَد السماء عَبْر مجىء النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ ، وأعلنوا البيعة للرسول الجديد كما بشَّرَتْ به الكتب السماوية السابقة على بعثته ، ثم وقفوا موقف العداء من الذين لم يفرحوا بِمقْدمِ الرسول ، ثم غيَّروا ما جاء فى كتبهم السماوية طمعاً فى السلطة الزمنية .

---

(١) هو : كعب بن ماتع الحميرى أبو إسحاق ، تابعى ، كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن ، أسلم فى زمن أبى بكر ، وقدم المدينة فى دولة عمر ، أخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الماضية ، سكن حمص وتوفى بها عام ٣٢ هـ عن ١٠٤ عاماً . (الأعلام للزركلى ٥/٢٢٨) .

وعرف مَنْ آمنوا برسالة رسول الله ﷺ أن الذين أنكروا نبوة محمد بن عبد الله قد دَلَّسوا[1] على أنفسهم وعلى غيرهم ، وأتوْا بأشياء لم تكن موجودة فى كتبهم المُنزَّلة على رسلهم كادعائهم أن لله أبناء ، وسبحانه مُنزَّه عن ذلك .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) ﴾ [الرعد]

تلك عدالة من القرآن ؛ لأن القرآن لم ينكر الكتب السماوية السابقة بأصولها ، ولكنه أنكر التحريف فى العقائد ، وأنكر مواقف مَنْ حرَّفوا وادَّعوْا كذباً أن هناك بنوة لله .

هذا التحريف لم يَنَلْ من القرآن إنكاراً لكل ما جاء بالكتب السابقة على القرآن ؛ ولكنه أنكر التَّحريف فقط .

وقد أثبتَ القرآن ما لله وما للرسول ، وأنكر التحريف الذى أرادوا به السلطة الزمنية ؛ وادعاء القداسة ، والتجارة بصكوك الغفران ، وبيع الجنة ، وتلقِّى الاعترافات ، وغير ذلك مما لم يَنْزل به كتاب سماوى .

وحين جاء الإسلام ليُحرِّم ذلك دافعوا عن سلطتهم التى يتاجرون بها فى أمور الدين ، وهى ليست من الدين .

---

(١) المدالسة : المخادعة . وقد دالس ودلَّس فى البيع وفى كل شىء إذا لم يبين عيبه . والتدليس فى البيع : كتمان عيب السلعة عن المشترى . [لسان العرب ـ مادة : دلس] .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

وهذا القول دليلٌ على أن هؤلاء المُغيّرين فى الكتب السماوية أو الذين أنكروا وحدانية الله ؛ هؤلاء جاء لهم بالقول الفَصْل :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

أى : أنه يُقرّ بأن هناك ديناً قد أُختير له من قبَل مُرَبٍّ ؛ ولم يَخْتَرْ محمد شيئاً أعجبه ليعبده ، ولكنه كرسول من الله يَشْرُف بالانتماء لما جاءه الأمر به من السماء ، وهو لا يشرك به أحداً .

ونجد الرسول ﷺ يتعصَّب لمَا يتعلق بربه ؛ وقد يتهاون بما يتعلق بشخصه .

ولذلك وجدنا بعضَ الملاحدة وقد قالوا له : نحن نؤمن بالله وبالسماء والوحى وبكل شىء ، لكنّا لا نؤمن بك أنت ، ولم يغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولو كان يُدخِل ذاته أو أنانيته فى الأمر لَغضِب ، ولكنه لم يغضب .

والدليل على هذا هو أن مواجيده ﷺ كانت مع الروم المؤمنين بكتاب سماوى ضد المشركين الذين لا يؤمنون بدين سماوى وهم الفُرْس ؛ وحزن ﷺ حين غُلبت الروم ، فنزل إليه القول الحق بنبأ النصر القادم فى بِضْع سنين ؛ تسليةً له ﷺ :

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الروم]

وهؤلاء فى قلب رسول الله كانوا أقربَ من غيرهم ؛ لأنهم يتبعون ديناً سماوياً ؛ وساعة يرى رائحة صاحب خير يرجحه على صاحب الشر ؛ فهو يطلب لهم النصر ويُبشِّره الله بخبر نصرهم فى بِضْع سنين ، وهم يحملون رائحة الخير ، رغم أنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ .

ومعنى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

أى : أننى سأعبد الله وحده ، ولن أعطف على عبادته شيئاً ؛ ويدعو لعبادته وحده ؛ لأنه يعلم أنه سيؤوب إليه ، كما سيؤوب إليه كُلُّ إنسان ؛ فلا أحدَ ينفلتُ من ربه وخالقه ، ولا بُدَّ لكل إنسان أن يُعِد عُدَّته لهذا المآب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ[1] وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾

والمقصود بـ « كذلك » إشارة إلى إرسال الرسل المُتقدِّمين بمعجزات شاءها الحق سبحانه ، ولم يقترحها أحد .

وقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

ساعةَ نسمعه نرى أن هناك مكانة علِيّة يُنزل منها شيئاً لمكانة

(١) الولى : النصير والناصر . والموالاة : ضد المعاداة . والولىّ : ضد العدو . [لسان العرب ـ مادة : ولى] .

أدْنَى ، ومثل ذلك أمر معروف فى الحِسِّيات ، وهو معروف أيضاً فى المعنويات .

بل وقد يكون هذا الشىء لم يَصل إلى السماء ؛ ولكنه فى الأرض ، ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[1] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وهو إنزالٌ ، لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإنْ كان فى الأرض :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

والحكم هو المَعْنى ، والمقصود بالإنزال هنا هو القرآن ، وهو كتاب ؛ والكتاب مَبْنى ومَعْنى ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يأتى بوصف المبالغة ليأتى الوصف وكأنه الذات ، أى : أنه أنزل القرآن حُكْماً ؛ وهذا يعنى أن القرآن فى حَدِّ ذاته حُكْم .

وأنت حين تصف قاضياً يحكم تمام العدل ؛ لا تقول « قَاض عادلٌ » بل تقول «قَاض عَدْل » أى : كأن العدل قد تجسَّم فى القاضى ؛ وكأن كُلَّ تكوينه عَدْل .

والحق سبحانه هنا يوضح أن القرآن هو الحُكْم العدل ، ويصِفه بأنه :

﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

لأن اللسان الذى يخاطب به الرسول القوم الذين يستقبلون بآذانهم ما يقوله لهم لابُدَّ أن يكون عربياً .

---

(١) البأس : الشدة والقوة والصلابة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

ولذلك يقول فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ[١] لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]

أى : أنه شرفٌ كبير لك ولقومك ، أن نزل القرآن بلغة العرب .

وقد حفظ القرآن لنا اللغة العربية سليمة صافيةً ؛ بينما نجد كل لغات العالم قد تشعَّبتْ إلى لهجات أولاً ، ثم استقلتْ كل لهجة فصارتْ لغة ، مثل اللغة اللاتينية التى خرجتْ منها أغلب لغات أوربا المعاصرة من : إنجليزية وفرنسية وإيطالية ، ووجدنا تلك اللغات تتفرَّق إلى لغات استقلالية ، وصار لكل منها قواعد مختلفة .

بل إن اللغة الإنجليزية على سبيل المثال صارت « إنجليزية - إنجليزية » يتكلم بها أهل بريطانيا ؛ و « إنجليزية - أمريكية » يتكلم بها أهل الولايات المتحدة .

ولو تركنا - نحن - لغة التخاطب بيننا كمسلمين وعرب إلى لغة التخاطب الدارجة فى مختلف بلادنا ؛ فلن يفهم بعضنا البعض ، ومرجع تفاهمنا مع بعضنا البعض - حين نتكلم - هو اللغة الفصحى.

ودليلنا ما رأينا فى مغربنا العربى ، فنجد إنساناً تربَّى على اللغة الفرنسية ، أو تكون لغة جَمْعاً بين لهجات متعددة من البربرية والفرنسية وبقايا لغة عربية ، فإذا حدثته باللغة العامية لا يفهم منك شيئاً ، وإن تحدثت معه باللغة العربية استجاب وأجاب ؛ لأن فطرته تستقبل الفصحى فهماً وإدراكاً .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٨) : « معناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه . وقيل معناه : أى التذكير لك ولقومك وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم » .

وهكذا رأينا كيف صان القرآن الكريم اللغة العربية واللسان العربى .

ومن ضمن معانى قول الحق سبحانه :

﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧)﴾ [الرعد]

أى : أن الذى يصُون ويعصِم هذا اللسان العربى هو القرآن الكريم.

ويتابع سبحانه بقوله :

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم[1] بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)﴾ [الرعد]

وهذا خطاب مُوجَّه منه سبحانه لرسوله ﷺ يكشف فيه الحق سبحانه أمام رسوله ﷺ مَضارّ وخطورة اتباع الهوى ؛ وهو خطاب يدل على أن الدين الذى نزل على موسى ثم عيسى ، وهما السابقان لرسول الله ؛ لم يَعُدْ كما كان على عهد الرسولين السابقين ؛ بل تدخَّل فيه الهوى ؛ ولم يَعُدْ الدين متماسكاً كما نزل من السماء .

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ.. (٧١)﴾

[المؤمنون]

ذلك أنه سبحانه لو اتبع أهواءهم لَضَاع نظام الكون ؛ ألم يقولوا لرسول الله ﷺ :

---

(١) الهوى : محبة الإنسان الشىء وغلبته على قلبه . جمعه أهواء . [لسان العرب ـ مادة : هوا] .

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] .. ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء]

ولو استجاب الحق مثلاً لهذه الدعوة ، ألم تكن السماء لتفسد ؟

إذن : فبعد أن نزل القرآن من السماء حكماً وعلماً ومنهجاً يسهل عليهم فهمه ، لأنه بلُغتهم ، وهو يحمل كامل المنهج إلى أن تقوم الساعة ، وفيه دليل السعادة فى الدنيا والآخرة .

لذلك فليس لأحد أنْ يتبع هواه ؛ فالهوى ـ كما نعلم ـ يختلف من إنسان لآخر ، والخطاب المُوجَّه لرسول الله ﷺ يتضمن فى طيّاته الخطاب لأمته ﷺ .

ومَنْ يفعل ذلك فليس له من دون الله ولىّ يؤازره أو ينصره ، أو يقيه عذاب الحق : شقاءً فى الدنيا ، وإلقاءً فى الجحيم فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

وأنت يا محمد لست بدْعاً من الرسل فى مسألة الزواج والإنجاب[2] . وهى تحمل الرد على مَنْ قالوا :

---

(١) كسَفًا : قطعاً . وهو جمع كسفة . وقال الجوهرى : الكسفة القطعة من الشىء . [تفسير القرطبى ٥/٤٠٥٩] .

(٢) ذكر النيسابورى فى « أسباب النزول » (ص ١٥٨) أن الكلبى قال : «عيرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت : ما نرى لهذا الرجل ـ يقصدون محمدًا ﷺ ـ همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية » .

﴿مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ[(١)] .. ﴾ (٧) [الفرقان]

ومنهم مَنْ قال : ما لهذا الرسول يتزوج النساء ؟ ألم يكن من اللائق أن يتفرغ لدعوته ؟

وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يستقرئوا الموكب الرسالى ، لأنهم لو فعلوا لوجدوا أن أغلب الرسل قد تزوَّجوا وأنجبوا .

وحين تكون حياة الرسول قريبةً ـ كمثال واضح ـ من حياة الناس الذين أُرسل إليهم ؛ ليكون أُسْوة لهم ؛ فالأُسْوَة تتأتَّى بالجنس القابل للمقارنة ؛ وحين تكون حياة الرسول كحياة غيره من البشر فى إطارها العام ؛ كأبٍ وزوجٍ ، فالأسوة تكون واضحة للناس .

ونعلم أن هناك مَنْ جاء إلى رسول الله ؛ ليطلب الإذن بالتفرُّغ التامّ للعبادة من : صوم وصلاة وزُهْد عن النساء ، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال فى حديث شريف :

« إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتى فليس منِّى »[(٢)] .

---

(١) وقد ردَّ عليهم رب العزة فقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ.. ﴾ (٢٠) [الفرقان] ويقول فى آية أخرى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨)﴾ [الأنبياء] .

(٢) عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً . وقال الآخر : إنى أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله... » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٤/١٥١ ـ فتح البارى) .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ ﴾

[الرعد]

أى : ما كان لأحد أن يقترح على الله الآية التى تأتى مع أىّ رسول من الرسل ، ولم يكُنْ لأىٍّ رسول حق فى اختيار الآية المصاحبة له .

وبهذا القول حسم الحق سبحانه قضية طلب المشركين لآيات من الرسول ﷺ ؛ لأن كل رسول جاء لزمنه ولقومه ؛ وكل معجزة كانت من اختيار الله ، وكل رسول يؤدى ما يُكلِّفه به الله ؛ وليس للرسول أن يقترح على الله آيةً ما ؛ لأن الخالق الأعلى هو الأعلم بما يصلح فى هذه البيئة على لسان هذا الرسول .

ونأخذ من قوله الحق :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ ﴾ [الرعد]

أن لكل رسالة رسولها ، ولكل رسالة مكانها ، ولكل رسالة معجزتها ، فإذا كان الأمر كذلك فدعوا محمداً ﷺ وما اختاره الله له ؛ فى المكان الذى شاءه سبحانه ، وفى الزمان ؛ وفى المعجزة المصاحبة له ﷺ .

ولكن ، أهناك تغيير بعد أن يقول الحق سبحانه :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ ﴾ [الرعد]

نعم هناك تغيير ، وانظروا إلى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾

والمَحْو كما نعلم هو الإزالة ، والتثبيت أى : أن يُبقِى الحق ما يراه ثابتاً .

وقد يفهم بعض الناس - خطأ - أن كل حُكْم فى القرآن قد جاء ليثْبُتَ وسيظلّ هكذا أبدَ الدهر ؛ ولكن عند التطبيق ظهر أن بعض الأحكام يقتضى تغييرها يغيرها الله لحكمة فيها خير البشرية .

ونقول : لا ، لم يحدث ذلك ، ولكن كانت هناك أحكام مَرْحلية ؛ ولها مُدَّة مُحدَّدة ؛ ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾ [الرعد]

أى : عنده اللوح المحفوظ الذى تحدَّدتْ فيه الأحكام التى لها مُدَّة مُحدّدة ؛ وما أن تنتهى إلا وينزل حُكْم آخر مكانها ، وعلى هذا المعنى يمكن أن نقول : إنه لم يوجد نَسْخٌ للأحكام ، لأن معنى النَّسْخ أن يُزحزِحَ حُكْماً عن زمانه ، وهنا لم نجد حُكْماً يتزحزحُ عن زمانه ؛ لأن كلَ حُكْم موقوتٌ بوقت محدود ؛ وما أن ينتهى الوقت حتى يبدأ حُكْم جديد .

أقول ذلك كى أنبِّه العلماء إلى ضرورة أنْ يجلسوا معاً لدراسة ذلك ، حتى لا يختلف العلماء : أهناك نَسْخ أم لا ، وأقول : فَلْنُحدد النَّسْخ أولاً ، لأن البعض يظن أن هناك حكماً كان يجب أن ينسحب على كل الأزمنة ، ثم جاء حُكْم آخر ليحل محله لحكمة تقتضيها مصلحة البشرية والمراد لله منها .

ولا يوجد حُكْم أنهى حُكْماً وطرأ عليه ساعة الإنهاء ؛ بل كل

الأحكام كانت مُقدَّرة أزلاً ؛ وعلى ذلك فلا يوجد نَسْخ لأىِّ حُكْم ، ولكن هناك أحكام ينتهى وقتها الذى قدّره الله لها ؛ ويأتى حُكْم سبق تقديره أزلاً ليواصل الناسُ الأخذ به ؛ وما دام الأمر كذلك فلا يوجد نسخ .

ولنَنْظُر إلى قول الحق سبحانه :

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا[1] نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا.. ﴿١٠٦﴾﴾[البقرة]

ويتضح من منطوق الآية ومفهومها أن عند نسخ حكم يأتى الله بمثله أو خير منه . إذن : ليس هناك نسخ وإنما هناك أحكام تؤدى مهمتها فى زمن ثم يأتى زمن يحتاج إلى حكم خير منه أو مثله فى الحكم ، ولكنه يوافق المصالح المرسلة مع مراد الله .

ولقائل أنْ يقول : ما دام سيأتى بخير من الآية المنسوخة أو المُنْسَأة فذلك أفضل ، ولكن لماذا يأتى بالمِثْل ؟

وأقول : لأنك إنْ جاءك ما هو خَيْر منها قد تَسْتسيغه ، ولكن حين ننتقل إلى مِثْل ما جاءتْ به الآية ؛ فهذا مَحَكُّ الإيمانَ .

والمثَل هو التوجُّه فى الصلاة إلى بيت المقدس فى أول الدعوة ؛ ثم مَجِىء الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة ؛ فلا مشقَّة فى ذلك .

ولكن هنا يتم اختبار الالتزام الإيمانى بالتكليف ، وهنا الانصياعُ للحكم الذى يُنزِله الله ، وهو حُكْم مُقدَّر أزَلاً ؛ وفى هذا اختبار لليقين

---

(١) نسأ الشىء ينسؤه : أخَّره عن موعده . قال الجصاص فى « أحكام القرآن » (١/ ٧١) : « أما : (أو ننسها) قيل : إنه من النسيان . وننسأها من التأخير ، يقال : نسأتُ الشىء أخَّرته بأن يؤخرها فلا ينزلها وينزل بدلاً منها ما يقوم مقامها فى المصلحة أو يكون أصلح للعباد منها » .

الإيمانىّ فى إدارة توجيه المُدبِّر لهذا السير .

وكذلك فى الحج يأتى الرسول ﷺ ليُقبِّل الحجر الأسود ؛ ثم يرجم الحجر الذى يرمز لإبليس ، ونحن نفعل ذلك أُسْوة برسول الله ﷺ ، وكلاهما حجر ، ولكنَّنا نمتثل لأمره ﷺ . فتقبيل الحجر الأسود ورجم الحجر الذى يشير إلى رمزية إبليس ، كل هذا استجابة لأمر لآمر .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرعد]

فهو يعنى أنه سبحانه يُنهِى زمن الحكم السابق الذى ينتهى زمنه فى أُمِّ الكتاب أى اللوح المحفوظ ؛ ثم يأتى الحكم الجديد .

والمثال : هو حكم الخمر ؛ وقد عالجها الحق سبحانه أولاً بما يتفق مع قدرة المجتمع ؛ وكان المطلب الأول هو تثبيت العقيدة ؛ ثم تجىء الأحكام من بعد ذلك .

وهناك فرق بين العقيدة ـ وهى الأصل ـ وبين الأحكام ، وهى تحمل أسلوب الالتزام العقدىّ ، وكان الحكم فى أمر العقيدة مُلزِماً ومستمراً .

أما الأحكام مثل حكم الخمر فقد تدرج فى تحريمها بما يتناسب مع إلْف الناس ؛ واعتيادهم ؛ فقلَّل الحق سبحانه زمن صُحْبة الخمر ؛ ثم جاء التحريم والأمر بالاجتناب ، وعدم القُرْب منها .

والمثل فى حياتنا ؛ حيث نجد مَنْ يريد أن يمتنع عن التدخين

وهو يُوسِّع من الفجوة الزمنية بين سيجارة وأخرى ، إلى أن يقلع عنها بلطف ، وينفيها من حياته تماماً .

ونجد القرآن يقول فى الخمر :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا[1] وَرِزْقًا حَسَنًا .. (٦٧) ﴾ [النحل]

وهنا يمتنُّ الله عليهم بما رزقهم به ؛ ولكن أهل الذَّوْق يلتفتون إلى أنه لم يَصف الخمر بأنها من الرزق الحسن ؛ ووصف البلح والعنب بأنه رزق حسن ؛ لأن الإنسان يتناوله دون أن يفسده .

وهكذا يلتفت أهل الذوق إلى أن الخمر قد يأتى لها حكم من بعد ذلك ، ثم يُنزل الحق سبحانه عظة تقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه ميْل الخمر والميسر إلى الإثم أكثر من مَيْلهما إلى النفع ، ثم جاء من بعد ذلك قوله بحكم مبدئى :

﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء]

ومعنى ذلك أن تتباعد الفترات بين تناول الخمر ، فلا يحتسى أحدٌ الخمر طوال النهار وجزء من الليل ، وفى ذلك تدريب على الابتعاد عن الخمر .

---

(١) السَّكَر : بالفتح ، كل ما يسكر أى الخمر ، أو نقيع التمر وعصير العنب الذى لم تمسه النار ، وهو غير مسكر . والسكر هنا يحتمل أنه الخمر المسكر ، ويحتمل أنه عصير حلو غير مسكر ، أو الخل ، وإذا فُسِّر بأنه ما يُسكر يكون نزول الآية للامتنان بهذه النعمة قبل تحريم الخمر [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] .

ثم يأتى التحريم الكامل للخمر فى قوله تعالى :

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة]

وهكذا أخذ الحكم بتحريم الخمر تدرّجه المناسب لعادات الناس ، وتمَّ تحريم الخمر بهوادة وعلى مراحل .

وهكذا نفهم النَّسْخ على أنه انتهاء الحكم السابق زمناً وبداية الحكم الجديد ، وهذا يعنى أن الحكم الأول لم يكن مُنْسحباً على كل الزمن ثم أزلناه وجئنا بحكم آخر ؛ ولكن توقيت الحكم الأول - أزلاً - قد انتهى ؛ وبدأ الحكم الجديد .

وهكذا لا يوجد مجال للاختلاف على معنى النسخ ، ذلك أن الحق سبحانه أرجع المَحْو والإثبات إلى أم الكتاب ؛ ففيها يتحدد ميعاد كل حكم وتوقيته ؛ وميعاد مجىء الحكم التالى له .

وما دام كل أمر مرسوم أزلاً ؛ فعلى مَنْ يقولون أن البَدَاء محرم على الله أن ينتبهوا إلى أن هذا المحو والإثبات ليس بَداءً ؛ لأن البداء يعنى أن تفعل شيئاً ، ثم يبدو لك فساده فتُغيِّره .

والحق سبحانه لم يظهر له فساد ما أنزل من أحكام أو آيات ؛ بل هو قدَّر كل شىء أزلاً فى أم الكتاب ، وجعل لكل حكم ميقاتاً وميلاداً ونهاية .

ويصح أن يتسع معنى قول الحق سبحانه :

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾ [الرعد]

ليشمل نسخ رسالة برسالة أخرى ؛ فيكون قد محا شيئاً وأثبت

شيئاً آخر ، وكل شىء فيه تغيير إلى الخير يصحّ فيه المَحْو والإثبات ، وهو من عند الرقيب العتيد :

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق]

أى : أنه القادر على أن يأمر الرقيب والعتيد بأن يُثبتا الواجبات والمحرمات ، وأنْ يتركا الأمور المباحة ، وهو القادر على أنْ يمحوَ ما يشاء من الذنوب ، ويُثبت ما يشاء من التوبة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (١) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)﴾

هذه الآية تُحدِّد مهمة الرسول ﷺ فى أن يُبلِّغ منهج الله ، فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر ، إلا أن قول الحق سبحانه فى رسوله ﷺ :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

جعله هذا القول متعلقاً بهداية قومه جميعاً ، وكان يرجو أن يكون الكل مهتدياً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله فى موقع آخر :

---

(١) أى : نريهم بعض الذى نعدهم من العذاب ، مثل قوله تعالى : ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..(٣٤)﴾ [الرعد] . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ .. (٣١)﴾ [الرعد] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[١] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا[٢] ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

أى : أنك لستَ مسئولاً عن إيمانهم ، وعليك ألاَّ تحزن إنْ لم ينضمُّوا إلى الموكب الإيمانى ، وكُلُّ ما عليك أن تدعوهم وتُبلِّغهم ضرورة الإيمان ؛ والحق سبحانه هو الذى سوف يحاسبهم إما فى الدنيا بالمحو والإذهاب ، أو فى الآخرة بأن يَلْقَوْا عذاب النار .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد]

فنحن نعلم أن كل دعوة من دعوات الخير تكبُر يوماً بعد يوم ؛ ودعوات الشر تبهت يوماً بعد يوم . ومَنْ يدعو إلى الخير يُحب ويتشوق أنْ يرى ثمار دعوته وقد أينعت[٣] ، ولكن الأمر فى بعض دعوات الخير قد يحتاج وَقْتاً يفوق عمر الداعى .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد]

أى : اغرس الدعوة ، ودَعْ مَنْ يقطف الثمرة إلى ما بعد ذلك ، وأنت حين تتفرَّغ للغَرْس فقط ؛ ستجد الخير والثمار تأتى حين يشاء الله ؛ سواء شاء ذلك إبَّان حياتك أو من بعد موتك .

وأنت إذا نظرتَ إلى الدعوات التى تستقبلها الحياة ستجد أن لكل

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/ ٥٦] .

(٢) الأسف : هوَ الحزن مع الغضب . والأسيف والأسوف : السريع الحزن الرقيق . والأسِف : الغضبان المتلهف على الشيء . [لسان العرب ـ مادة : أسف] .

(٣) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/ ٣٧٣] .

دعوة أنصاراً أو مؤيدين ، وأن القائمين على تلك الدعوات قد تعجَّلوا الثمرة ؛ مع أنهم لو تمهَّلوا ليقطفها مَنْ يأتى بعدهم لنَجحتْ تلك الدعوات .

ونحن فى الريف نرى الفلاح يغرس ؛ ومن خلال غَرْسه نعرف مراداته ، هل يعمل لنفسه ، أو يعمل من أجل من يأتى بعده ؟

فَمنْ يغرس قمحاً يحصد بسرعة تفوق سرعة مَنْ يغرس نخلة أو شجرة من المانجو ، حيث لا تثمر النخلة أو شجرة المانجو إلا بعد سنين طويلة ، تبلغ سبع سنوات في بعض الأحيان ، وهذا يزرع ليؤدى لِمَنْ يجيء ما أداه له مَنْ ذهبَ .

ونحن نأكل منْ تَمْر زَرَعه لنا غيرنا ممَّنْ ذهبوا ، ولكنهم فكّروا فيمَنْ سيأتى من بعدهم ، ومَنْ يفعل ذلك لابُدَّ وأن يكون عنده سعَة فى الأرض التى يزرعها ؛ لأن مَنْ لا يملك سعَة من الأرض فهو يفكر فقط فيمَنْ يعول وفى نفسه فقط ؛ لذلك يزرع على قَدْر ما يمكن أن تعطيه الأرض الآن .

أما مَنْ يملك سعَة من الأرض وسعَة فى النفس ؛ فهو مَنْ وضع فى قلبه مسئولية الاهتمام بمَنْ سيأتون بعده . وأنْ يردّ الجميل الذى أسداه له مَنْ سبقوه ، بأن يزرع لغيره ممَّنْ سيأتون من بعده .

ودعوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ شهدتْ له بأنه لم يبحثْ لنفسه عن ثمرة عاجلة ؛ بل نجد الدعوة وهىَ تُقابل الصِّعاب تلْو الصعاب ، ويلْقى ﷺ ما تلقَّى من العنت والإرهاق والجهد ؛ بعد أَنْ جهر بالدعوة فى عشيرته الأقربين .

ثم ظلَّتْ الدعوة تتسع فى بعض العشائر والبطون إلى أن دالت[1]

(١) الإدالة : الغلبة . وأدالنا الله من عدونا : من الدولة . ويقال : أُديل لنا على أعدائنا أى نُصِرْنا عليهم . [لسان العرب ـ مادة : دول] .

عاصمة الكفر ؛ وصارت مكة بيت الله الحرام كما شاء الله ، وأسلمتْ الجزيرة كلها لمنهج الله . وأرسل ﷺ الكتب إلى الملوك والقياصرة ، وكلها تتضمن قوله ﷺ « أسلم تسلم » .

ودلَّتْ هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هى دعوة مُمتدَّة لكل الناس ؛ تطبيقاً لمَا قاله الحق لرسوله ﷺ أنه : « رسول للناس كَافَّة » .

قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨) ﴾ [سبأ]

وفَهِم الناس الفَارق بين رسالته ﷺ وبين كَافَّة الرسالات السابقة ، فإلى قوم عاد أرسل هوداً عليه السلام .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً .. (٦٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن أهل مَدْين :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن بَعْثة موسى :

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وهكذا حدَّد الحق سبحانه زمان ومكان القوم فى أىِّ رسالة سبقتْ رسالة محمد بن عبد الله ﷺ .

لكن الأمر يختلف حين أرسل سبحانه محمداً ﷺ رسولاً وجعله للناس كافَّة ، فقد علم سبحانه أزلاً أن هذا هو الدين الخاتم ؛ لذلك أرسل رسول الله إلى حُكَّام العالم ـ المعاصرين له ـ دعوةً لدخول الدين الخاتم .

وقد ترك الرسول ﷺ تلك المهمة لمَنْ يخلفونه ، ودعا ﷺ الجزيرة العربية تحت لواء « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » بعد أن كانت قبائل متعددة .

كل قبيلة كانت لا تُلزم نفسها بعبادة إله القبيلة الأخرى ؛ وكل قبيلة لا تلزم نفسها بتقنينَ القبيلة الأخرى ، ولم يجمعهم أبداً شَمْل ، ولا استيطانَ لهم إلا فى بعض القُرَى ، ذلك أن أغلبهم من البَدْو الرُّحَّل ؛ كل واحد منهم يحمل بيته - الخيمة - على ظهر بعيره ، ويمشى بحثاً عن الكلأ والماء لأغنامه وماشيته .

فلم يكن عندهم انتماء وطنى ؛ فضلاً عن القبائل التى كانت تتقاتل فيما بينها فى تارات عنيفة ، وامتدت الحرب فيما بين بعض القبائل إلى أربعين عاماً فى بعض الأحيان .

استطاع ﷺ أن يُوظِّف ما كانوا عليه من تدريب وعَتَاد وعُدَّة لنُصْرة دين الله ؛ فحين إعداده للغزوات أو اختياره السرايا[1] كان يجد المقاتلين فى كامل لياقتهم .

وحين استدعاهم إلى الحرب لم يُجْر لهم تدريبات ؛ فقد كان الكل مُدرَّباً على القتال .

وهكذا صارتْ القبائل أمة واحدة بعد أن جمعهم محمد رسول الله ﷺ فى وحدة التكامل العقدى تحت راية الإسلام ، وهذه الأمة الأمية ، قال فيها الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّين[2] رَسُولاً مِّنْهُمْ.. (٢)﴾ [الجمعة]

---

(١) السرايا : جمع سرية ، وهى القطعة من الجيش ، ما بين خمسة أنفس إلى ثلثمائة . سُميت سرية لأنها تسْرى ليلاً فى خفية . [لسان العرب - مادة : سرا] .

(٢) الأميون : هم العرب . قال ابن منظور فى اللسان (مادة : أمم) : « قيل للعرب الأميون ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة ، فهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى » .

وكانت هذه الأمـية شـرفاً لهم كَـيْلا يُقَال : إنهم أصـحاب قَـفْزة حضارية من أمة مُتمدينة . وكانت هذه الأمية مُلْفتة ، لأن ما جاء فى تلك الأمـة من تشريعـات وقفـتْ أمامـه الأُمم الأخرى إلى زمـاننا هذا باندهاش وتقدير .

وشـاء الحق سبـحانه لهـذه الأمة أن تـحملَ رسـالة السمـاء لكل الأرض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه :

﴿ الْيَـوْمَ أَكْـمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَـمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَـتِي وَرَضِـيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]

فَهِم بعض الناس أن الرسول ﷺ ينعى نفسه لأمته[1] .

ومن بعـد رحيله ﷺ إلى الرفـيق الأعلى انساح صـحابتـه بالدين الخاتم فى الدنيا كلها ، وخـلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحـان ؛ جناح فى الشـرق ، وجناح فى الغـرب . وهزم أكـبـر امبـراطوريتين متـعاصرتين لـه ؛ هما امبـراطورية فارس بحضـارتها وامبراطورية الروم .

وكانت البلاد تتـخطَّف الإسلامَ كمنهج حيـاة ، حدث ذلك بعد أن حـارب الإسـلامُ الامبـراطوريتـين فى آن واحـد ، وأقـبل الناس على الإسلام ليـتحـقَّقوا من مـعجـزته التى لَمَسُـوها فى خُلُق مَنْ سمـعوا القرآن وحَـملوا رسـالتـه ؛ ثم فى اكـتشافـهم لعدالة الـقرآن فى إدارة حركة الحياة .

---

(١) أخرج ابن جرير عن الـسدى فى قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة] . قال : « هذا نزل يوم عرفـة ، فلم ينزل بعدها حـرام ولا حلال ، ورجع رسول الله ﷺ فـمات » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/١٩) .

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية ؛ وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذى لم يأتِ لهم بمعجزة حسِّية ، وإذا كان القرآن معجزة فى اللغة للقوم الذينَ نزل فيهم رسولَ الله ﷺ ؛ فالقرآن لِمَنْ لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة فى العدالة والقيم النابعة منه .

وكان الناس يندفعون إلى الإسلام بقوة دَفْع من المؤمنين به ، وبقوة جَذْب من غير المؤمنين ؛ حين يروْنَ ألاَّ فَرْق بين الأمير وأصغر فَرْد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر .

ولم يكن الإسلام معجزة لقومه فقط ؛ بل لكل الدنيا ، ويتحقق دائماً قول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ (٥٣) ﴾ [فصلت]

ونجد مُفكّراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن ؛ بل نظر فقط فى المبادىء التى قَنَّنها الإسلام ، وكيف تحمل حلولاً لِمَا عجزتْ عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين فى كل بلاد الأرض .

ويعرف أن تلك القوانين قد جاءتْ لرسول ينتمى لأمة لم تبرعْ إلا فى البلاغة والأدب ، وتضع تلك القوانين حلولاً لمشاكل تعانى منها الدنيا كلها .

ورأينا كيف بحثَ رجل عن أعظم مائة فى تاريخ البشرية ، وكيف جعل محمداً ﷺ أوَّلهم ، وهذا الباحث لم يقرأ القرآن ؛ ولكنه درسَ

---

(١) الآفاق : جمع أفق ، وهو الناحية ، وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . [القاموس القويم ١/٢٢] .

آثار تطبيق القرآن ، وبعد أنْ يُعجبَ بالمنهج القرآنى نجده يُعجب بالنص القرآنى .

والمثل : هو دراسة الألمان لعملية إدراكات الحسِّ ؛ وكيف يشعر الإنسان بالألم ؟ وكيف يلمس الإنسان ببَشْرته بمَلْمسٍ ناعم فيُسَرّ منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات ؛ كى يعرفوا مناطَ الإحساس وموقعه فى الإنسان ، هل هو فى المُخِّ أم أين ؛ إلى أن انتهوْا إلى أن مناطَ الإحساس فى كُلِّ إنسان هو فى الجِلْد ، وأنها خلايا مُنبسطة تحت الجِلْد مباشرة ؛ بدليل أن الإبرة حين نَغرزها فى جسم الإنسان ؛ فهو يتألم فقط فى منطقة دخولها ؛ وليس أكثر .

ولفتَ ذلك نظر أحد العلماء ؛ فقال : لقد تحدث القرآن عن ذلك حين قال :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ[1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

ولو أن تلك الجلود قد احترقتْ ؛ فالعذاب سينتهى ؛ لذلك يُبدِّل الله جلودهم ليستمر العذاب ، وهذا مَثَلٌ واحد من أمثلة ما كشف عنه القرآن .

ومن الأمثلة المعاصرة فى العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليُعد رسالة الدكتوراه فى القانون ، ووجدهم

---

(١) قال ابن عمر فى تفسير الآية : « إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلوداً بيضاء أمثال القراطيس » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٥٦٨) .

يقفون عند قضية التعسُّف[١] فى استعمال الحق ، ويعتبرونها من أهم الإنجازات القانونية فى القرن العشرين .

فأوضح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهم فى تقدير هذه المسألة ووضع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرناً من الزمان .

وروى لهم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً : إن لفلان عندى فى ساحة بيتى نخلة ، وهو يدخل بيتى كل ساعة بحجة رعاية تلك النخلة ؛ مرة بدعوى تأبيرها[٢] ؛ وأخرى بدعوى جَنْى ثمارها ، وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل .

وشكا الرجل للرسول ﷺ أنه يتأذى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة الخاصة له ، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له : « أنت بالخيار بين ثلاثة مواقف : إما أن تهبه النخلة - وتلك منتهى الأريحية - ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها »[٣] .

وهكذا وضع ﷺ قواعد للتعامل فيما يسمى « التعسُّف فى استعمال الحق » .

وفى انجلترا وجدوا أن القانون التجارى ملىء بالثغرات ، ومثال هذا أن التعامل فى السوق قد يتطلب بعضاً من المرونة بين التجار ؛ فهذا يرسل لذاك طالباً من الآخر ألفاً من الجنيهات ؛ وفلان يردُّ ما أخذه أو يقايضه .

---

(١) التعسف : إساءة استعمال الحق مع ظلم وعدم رويّة أو دراية .

(٢) أبر النخلة والزرع : أصلحه . وتابير النخل : تلقيحه . [لسان العرب - مادة : أبر] .

(٣) عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لفلان نخلة فى حائطى فمره فليبعنيها أو ليهبها لى قال : فأبى الرجل فقال رسول الله ﷺ « افعل ولك بها نخلة فى الجنة فأبى فقال النبى ﷺ : « هذا أبخل الناس » .

واصطدم الواقع بأن بعض التجار لا يعترفون ببعض الديون التجارية التى عليهم ، وقديماً كان إذا أراد تاجر أن يقترض من زميل له ؛ فهو يكتب الدَّيْن فى كمبيالة أو إيصال أمانة ؛ وذلك لتوثيق الدَّيْن .

ولكن الأمر اليومى فى السوق قد يختلف ؛ فهذا يحتاج نقوداً لأمر عاجل ، وزميله يثق فى قدرته على الردِّ والتسديد ؛ لأنه قد يحتاج هو الآخر لنقود عاجلة ، ويثق أن مَنْ يقرضه الآن ، سيقرضه فيما بعد ؛ ولذلك أنشأوا ما يُسمَّى بالدَّيْن التجارى ، فيفتحون « دفتراً » يُسجِّلون فيه الديون التجارية ؛ لتحكم الدفاتر فيما يعجز عن تذكّره الأشخاص .

وذهب شاب مسلم لبعثة دراسية هناك ؛ وأوضح لهم أن قضية الدّين أخذت اهتمام الإسلام ؛ لدرجة أن أطول آية فى القرآن هى الآية التى تحدد التعامل مع الديون ؛ وأخذ يترجم لهم قول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ[1] مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا[2] أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن

---

(١) البخس : النقص . يقول تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف] أى : ناقص دون ثمنه . [لسان العرب ـ مادة : بخس] .

(٢) السفيه : الناقص العقل السيء التصرف . [القاموس القويم : ١/٣١٧] . وقال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٣٥) : « أى محجوراً عليه بتبذير ونحوه » .

تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ[١] إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا[٢] أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ[٣] أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

وظاهر الأمر أنه يحمى الدائن ، ولكن الحقيقة أنه يحمى المدين أيضاً ؛ لأن المدين إنْ علم أنَّ الدَّيْن مُوثَّق ؛ فهو سيسعى جاهداً أن يؤديه فى موعده ، وأيضاً كى لا يأخذ النصَّابون فرصة للهرب من السداد ، وبذلك حمى القرآنُ الدائن والمدين معاً كى لا تقف حركة التعامل بين الناس .

ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أن تسلك طريقها فى عالم الود والإخاء المؤمن ؛ فإنْ كان لك قريب أو إنسان لك به صِلَة ، وأنت تأمنه على ما اقترض منك ؛ يقول لك الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. (٢٨٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) الضلال : النسيان . [لسان العرب ـ مادة : ضلل] .

(٢) سئم الشيء : ملَّه وضجر منه وأحسَّ بفتور نحوه . قال تعالى : ﴿ وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] .

(٣) الجناح : الإثم والذنب . قال تعالى : ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا .. (١٥٨) ﴾ [البقرة] أى : لا إثم ولا حرج عليه بل له الثواب والأجر العظيم . [القاموس القويم ١/١٣١] .

وبهذا القول يشعر مَنْ يحمل أمانة من الغير بالخجل ؛ فيعمل على ردِّها . ثم يضيف الحق سبحانه :

﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

وهكذا جاء الإسلام بقوانين لا يمكن أن تخرج من أمة أُميِّة ؛ لأنها قوانين تسبق العصور ، وهى قوانين تنبع من دين سماوى خاتم . ولذلك عندما سألونى عن موقف الإسلام من التقدمية والرجعية ، قلت لهم :

إن القياس خاطىء ؛ لأنك لن تستطيع أن تقيس فكْر بشر بما أنزله ربٌّ كل البشر ، وإذا كان العالم بشَرْقه وغَرْبه يهتدى إلى أىِّ خير تنتظم به حياته ؛ ويجد جذوراً لذلك الخير فى الإسلام ؛ فهذا دليل على أن العالم يتجه إلى الوسطية .

وكان المثل فى الشيوعية التى قامت ثورتها الدموية فى عام ١٩١٧ ؛ وقالوا : إنها مُقدِّمة للشيوعية ؛ وسقطتْ الشيوعية من بعد أن أصيب المجتمع الروسى بالتيبُّس والجمود ، والخوف من أسلوب حُكْم الحزب الشيوعى .

ونجد الرأسمالية الشرسة ، وهى تُهذِّب من شراستها ؛ وتعطى العامل حقَّه وتُؤمِّن عليه ، وهكذا يتجه العالم إلى الوسطية التى دعا لها الإسلام .

وقد نزل الإسلام من قِبَل عالمٍ عليمٍ بكل الأهواء وبكل المراحل .

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يُطمئنُ رسوله ﷺ إنْ آذاه أحدٌ فى المنهج الذى جاء به ؛ لأنه ﷺ لم يكن ليأبه بمَنْ يحاول أن يُؤذيَه فى شخصه ، وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ؛ ولكن إنْ تعرَّض أحد للمنهج فغضبه ﷺ يظهر جلياً .

ومَنْ وقفوا ضد الدين قابلهم الرسول ﷺ بالدعوة ؛ فمَنْ آمن منهم نال حلاوة الإيمان ؛ ومَنْ لم يؤمن فقد توالتْ عليه المصائب من كل جانب ، منهم مَنْ رأى النبى ﷺ مصارعه .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ﴾ [الزخرف]

أى : أنه جَلَّ وعلاَ إما أن يُلحق رسوله بالرفيق الأعلى ، وينتقم من الذين وقفوا ضده ؛ أو يُريه عذابهم رأْى العين(١) .

وكأن هذا القول هو الذى يشرح قوله سبحانه هنا :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]

وعذاب الدنيا ـ كما نؤمن ـ مَهْما بلغ فلن يصلَ إلى مرتبة عذاب الآخرة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٨) : « لم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكّمه فى نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم (حصونهم) . هذا معنى قول السدى واختاره ابن جرير » .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

و « يَرَوْا » هنا بمعنى « يعلموا » ، ولم يَقُلْ ذلك ؛ لأن العلم قد يكون عِلْماً بغيب ، ولكن « يروا » تعنى أنهم قد علموا ما جاء بالآية عِلْم مشهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أَيْن .

وإذا جاء قول الحق سبحانه ليخبرنا بأمر حدث فى الماضى أو سيحدث فى المستقبل ؛ ووجدنا فيه فعل الرؤية ؛ فهذا يعنى أننا يجب أن نؤمن به إيمان مَشْهدٍ ، لأن قوله سبحانه أوثق من الرؤية ، وعلمه أوثق من عينيك .

وسبق[1] أنْ قال الحق سبحانه لرسوله :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]

ونعلم أن النبى ﷺ قد وُلد فى عام الفيل ، ولا يمكن أن يكون قد رأى ما حدث لأصحاب الفيل ، ولكنه صدَّق ما جاء به القول الحق وكأنه رؤيا مَشْهدية .

وقال الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا .. ﴿٤٥﴾﴾

[الفرقان]

---

(١) قول فضيلة الشيخ هنا « سبق » هو باعتبار زمان ومكان نزول سورتى الفيل والرعد ، وليس باعتبار ترتيبهما فى المصحف ، فسورة الفيل مكية ، أما سورة الرعد فهى مدنية . (ع) .

وحين يُعبِّر القرآن عن أمر غيبى يأتى بفعل « يرى » مثل قوله الحق :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا[1] رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢) ﴾ [السجدة]

وحين يتكلم القرآن عن أمر معاصر يقول :

﴿ أَفَلا يَرَوْنَ .. (٤٤) ﴾ [الأنبياء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وهذا قول للحاضر المعاصر لهم .

وتعريف الأرض هنا يجعلها مجهولة ، لأننا حين نرغب فى أن نُعرِّف الأرض ؛ قد يتجه الفكر إلى الأرض التى نقف عليها ؛ وبالمعنى الأوسع يتجه الفكر إلى الكرة الأرضية التى يعيش عليها كل البشر .

وقد تُنسَبُ الأرض إلى بقعة خاصة وقع فيها حَدَثٌ ما ؛ مثل قول الحق سبحانه عن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

ويقول الحق سبحانه عن الأرض كلها :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [النور]

---

(١) نكَّس رأسه : طأطأه ذلاً وانكساراً . [القاموس القويم : ٢/٢٨٦] .

وبطبيعة الحال هم لن يأخذوا كل الأرض ، ولكن ستكون لهم السيطرة عليها .

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نفهم أن كلمة « الأرض » تطلق على بُقعة لها حَدث خاص ، أما إذا أُطلقتْ ؛ فهى تعنى كل الأرض ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ[1] (١٠) ﴾ [الرحمن]

ومثل قوله تعالى لبنى إسرائيل :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ[2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

مع أنه قد قال لهم فى آية أخرى :

﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ .. (٢١) ﴾ [المائدة]

فبعد أنْ حَدَّد لهم الأرض بموقع معين عاد فأطلق الكلمة ، ليدل على أنه قد شاء ألاَّ يكون لهم وَطَن ، وأنْ يظلُّوا مُبعْثَرين ، ذلك أنهم رفضوا دخول الموقع الذى سبق وأنْ حَدَّده لهم وقالوا :

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا .. (٢٤) ﴾ [المائدة]

---

(١) الأنام : ما ظهر على وجه الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب ـ مادة : أنم] .

(٢) أى : من بعد إغراق فرعون . المقصود بالأرض هنا أرض الشام ومصر . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٦٧) .

ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ[1] فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

أى : جعلنا كل قطعة بما تحويه من تماسك متفرقة عن القطعة الأخرى ، وهذا هو حال اليهود فى العالم ؛ حيث يُوجَدُونَ فى أحياء خاصة بكل بلد من بلاد العالم ؛ فلم يذوبوا فى مجتمع ما .

وقوله الحق هنا :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا[2] مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

مُوجَّه إلى قريش ، فقد كانت لهم السيادة ومركزها مكة ، ثم من بعد ذلك وجدوا أن الموقف يتغيَّر فى كُلِّ يوم عن اليوم الآخَرِ ؛ ففى كل يوم تذهب قبيلة إلى رسول الله ﷺ فى المدينة لِتعلنَ إسلامها وتبايعه .

وهكذا تنقص أمام عيونهم دائرة الكفر ، إلى أن أعلنوا هم أنفسهم دخولهم فى الإسلام .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن نقصتْ أرضُ الكفر ، وازدادتْ أرض الإيمان ، ورأَوْا ذلك بأنفسهم ولم يأخذوا عِبْرةً بما رأَوْه أمام أعينهم

---

(١) قطعناهم : فرقناهم فى الأرض أمماً أى طوائف وفرقاً . [لسان العرب ـ مادة : قطع] .

(٢) اختُلفَ فى النقصان هنا على أقوال :
– قال ابن عباس : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض .
– وقال مجاهد وعكرمة : خرابها ونقصان الأنفس والثمرات .
– وقال ابن عباس ومجاهد فى رواية : موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها .
قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٢٠) ثم قال : « والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . وهذا اختيار ابن جرير » .

من أن الدعوة مُمْتدة ، ولن تتراجع أبداً ، حيث لا تزداد أرض إلا بمكين فيها .

والمكين حين ينقص بموقعه من معسكر الكفر فهو يُزيد رُقْعة الإيمان ؛ إلى أنْ جاء ما قال فيه الحق سبحانه :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③﴾ [النصر]

وهناك أناس مُخْلِصون لدين الله ، ويحاولون إثبات أن دين الله فيه أشياء تدلُّ على المعانى التى لم تُكتشَفْ بعد ، فقالوا على سبيل المثال فَوْر صعود الإنسان إلى القمر : لقد أوضح الحق ذلك حين قال :

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ .. ㉝﴾ [الرحمن]

وقالوا : إنه سلطان العلم .

ولكن ماذا يقولون فى قوله بعدها :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ㉟﴾ [الرحمن]

فهل يعنى ذلك أنه أباح الصعود بسلطان العلم كما تقولون ؟

ولهؤلاء نقول : نحن نشكر لكم محاولة رَبْطكم للظواهر العلمية بما جاء بالقرآن ، ولكن أين القمر بالنسبة لأقطار السماوات

---

(١) الشواظ ـ بضم الشين وكسرها ـ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم: ٣٦١/١] .

والأرض ؟ إنه يبدو كمكان صغير للغاية بالنسبة لهذا الكون المُتَّسِع ، فأين هو من النجم المسمَّى بالشِّعْرى[1] ، أو بسلسلة الأجرام المُسَمَّاة بالمرأة المُسلْسلَة ؟ بل أين هو من المَجَرَّات التى تملأ الفضاء ؟

وحين تنظر أنت إلى النجوم التى تعلوك تجد أن بينك وبينها مائة سنة ضوئية ، ولو كنت تقصد أن تربط بين سلطان العلم وبين القرآن ، فعليك أنْ تأخذ الاحتياط ، لأنك لو كنت تنفذُ بسلطان العلم لما قال الحق سبحانه بعدها :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ .. (٣٥)﴾ [الرحمن]

وإنْ سألتَ : وما فائدة الآية التى تحكى عن هذا السلطان ؛ فهى قد جاءتْ لأن الرسول قد أخبر القوم أنه صعدَ إلى السماء وعُرِج به ، أى : أنه صُعِد وعُرِج به بسلطان الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

وكلمة « أطراف » تدلنا على أن لكل شىء طُولاً وعَرْضاً تتحدد به مساحته ؛ وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه . ونحن نعرف أن أىَّ طول له طرفان ، وإنْ كان الشىء على شكل مساحى تكون أطرافه بعدد الأضلاع .

وما دام الحق سبحانه يقول هنا :

---

(١) الشعرى : نجم ثابت فى السماء عُبد قديماً عند بعض قبائل العرب ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩)﴾ [النجم] . [القاموس القويم : ١/٣٥٠] . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له « مرزم الجوزاء » [تفسير ابن كثير ٤/٢٥٩] .

﴿مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]

أى : من كل نقطة فى دائرة المحيط تعتبر طرفاً . ومعنى ذلك أنه سبحانه قد شاء أنْ تضيق أرض الكفار ، وأنْ يُوسِّع أرض المؤمنين من كل جهة تحيط بمعسكر الكفر ، وهذا القول يدل على أنه عملية مُحْدَثة.، ولم تكن كذلك من قبل .

ويتابع سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]

أى : أن الموضوع قد بُتَّ فيه وانتهى أمره .. ونحن فى حياتنا اليومية نقول : « هذا الموضوع قد انتهى ؛ لأن الرئيس الكبير قد عقَّب على الحكم فيه » .

ونحن فى القضاء نجد الحكم يصدر من محكمة الدرجة الابتدائية ، ثم يأتى الاستئناف ليؤيد الحكم أو يرفضه ، ولا يقال : إن الاستئناف قد عقَّب على الحكم الابتدائى ؛ بل يُقال : إنه حكم بكذا إما تأييداً أو رَفْضاً ؛ فما بالنا بحكم مَنْ لا يغفل ولا تخفى عنه خافية ، ولا يمكن أن يُعقِّب أحد عليه ؟

والمَثلُ فى ذلك ما يقوله الحق سبحانه عن سليمان وداود عليهما السلام :

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ[1] إِذْ نَفَشَتْ[2] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ

(١) الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرماً (عنباً) فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته . [تفسير ابن كثير : ١٨٦/٣] .

(٢) نفشت الغنم : إذا تفرقت فرعَتْ بالليل من غير علم راعيها ، ولا يكون النفش إلا بالليل . [لسان العرب ـ مادة : نفش] .

﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وأصلُ الحكاية أن خلافاً قد حدث بسبب أغنام يملكها إنسان ؛ واقتحمتْ الأغنامُ زراعةَ إنسانٍ آخر ؛ فتحاكموا إلى داود عليه السلام ؛ فقال داود : إن على صاحب الأغنام أن يتنازل عنها لصاحب الأرض .

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - جالساً يسمع أطراف الحديث فقال : لا ، بل على صاحب الأغنام أن يتنازل عن أغنامه لصاحب الأرض لفترة من الزمن يأخذ من لبنها ويستثمرها ، وينتفع بها إلى أن يزرع له صاحب الغنم مثلَ ما أكلتْ الأغنام من أرضه[1] .

وقال الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وهذا هو الاستئناف ، ولا يعنى الاستئناف طَعْنَ قاضٍ فى القاضى الأول ؛ لكنه بَحْثٌ عن جوهر العدل ؛ ولعل القضية إنْ أُعِيدَتْ لنفس القاضى الأول لَحكَم نفس الحكم الذى حكم به الاستئناف بعد أن يستكشف كل الظروف التى أحاطتْ بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ .. (٤١) ﴾ [الرعد]

---

(١) انظر فى هذا تفسير ابن كثير (٣/١٨٦) ، والدر المنثور للسيوطى (٥/٦٤٥) .

ولحظة أن يُصدِر الله حُكْماً ؛ فلن يأتى له استئناف ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد]

وكأن هذا القول الحكيم يحمل التنبؤ بما أشار به القضاء بإنشاء الاستئناف ؛ ولا أحد يُعقِّب على حُكْم الله ؛ لأن المُعقِّب يفترض فيه أن يكون أيقظَ من المُعقَّب عليه ؛ وعنده قدرةُ التفات إلى ما لم يلتفت إليه القاضى الأول ، ولا يوجد قَيُّوم إلا الله ، ولا أَحَدَ بقادر على أن يعلم كل شيء إلا هو سبحانه .

وآفة كل حُكْم هو تنفيذه ؛ ففى واقعنا اليومى نجد مَن استصدر حُكْماً يُعانى من المتاعب كى يُنفِّذه ؛ لأن الذى يُصدِر الحكم يختلف عَمَّنْ ينفذه ، فهذا يتبع جهة ، وذاك يتبع جهة أخرى .

ولكن الحُكْم الصادر من الله ؛ إنما يُنفَّذ بقوته سبحانه ، ولا يوجد قوىٌّ على الإطلاق سِوَاه ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد]

فكأن الله يُنبِّهنا بهذا القول إلى أن الحكم بالعدل يحتاج إلى سرعة تنفيذ .

ونحن نرى فى حياتنا اليومية : كيف يُرْهق مَنْ له حكم بحقٍّ عادل ؛ ولو أننا نُسرِع بتنفيذ الأحكام لَسادَتْ الطمأنينةُ قلوبَ أفراد المجتمع .

ونحن نجد استشراء العصبيات فى الأخذ بالثأر إنما يحدث بسبب

الإبطاء فى نظر القضايا ؛ حيث يستغرق نظر القضية والحكم فيها سنوات ؛ ممَّا يجعل الحقدَ يزداد . لكن لو تَمَّ تنفيذ الحكم فَوْرَ معرفة القاتل ، وفى ظل الانفعال بشراسة الجريمة ؛ لَمَا ازدادتْ عمليات الثأر ولَهدأَت النفوس .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ[1] ﴿٤٢﴾﴾

وهنا يخبر الحق سبحانه رسوله ، وأىُّ سامع لهذا البلاغ يستقرىء موكب الرسالات السابقة ؛ وسيجد أن كُلَّ أمة أُرسِل لها رسول مكرتْ به وكادتْ له كى تبطل دعواه ، ولم ينفع أى أمة أىّ مكر مكرتْه أو أىّ كَيْدٍ كَادَتْهُ ، فكُلُّ الرسالات قد انتصرتْ .

فسبحانه القائل :

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى .. ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]

وهو القائل :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

---

(١) عقبى الدار : أى عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٦٧٢] .

والحق سبحانه حين يُورد حُكْماً فبالقرآن ؛ وهو الذى حفظ هذا القرآن ؛ فلن تأتى أىُّ قضية كَونية لتنسخ الحكم القرآنى .

وأنت إذا استقرأتَ مواكب الرسل كلها تجد هذه القضية واضحة تماماً ؛ كما أثبتها الحق سبحانه فى القرآن المحفوظ ؛ وما حفظه سبحانه إلا لوثوقه بأن الكونيات لا يمكن أن تتجاوزه .

وبالفعل فقد مكرتْ كُلُّ أمة برسولها ؛ ولكن الحق سبحانه له المكر جميعاً ؛ ومكْر الله خَيْرٌ للبشرية من مكْر كل تلك الأمم ؛ ومكْره سبحانه هو الغالب ، وإذا كان ذلك قد حدث مع الرسل السابقين عليك يا رسول الله ؛ فالأمر معك لابُدَّ أنْ يختلفَ لأنك مُرْسَلٌ إلى الناس جميعاً ، ولا تعقيبَ يأتى من بعدك .

وكُلُّ تلك الأمور كانت تطمئنه ﷺ ؛ فلا بُدَّ من انتصاره وانتصار دعوته ؛ فسبحانه محيط بأىِّ مَكْر يمكره أىُّ كائن ؛ وهو جَلَّ وعلاَ قادر على أنْ يُحبِط كل ذلك .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)﴾

[الرعد]

والحق سبحانه يعلم ما يخفى عن الأعين فى أعماق الكائنات ؛ خَيْر هو أو شَرٌّ ، ويحمى مَنْ شاءَ من عباده من مكْر الماكرين ، ويُنزِل العقاب على أصحاب المكْر السيء بالرسل والمؤمنين .

ولَسوفَ يعلم الكافرون أن مصيرهم جهنم ، وبئس الدار التى يدخلونها فى اليوم الآخر ؛ فَضْلاً عن نُصْرة رسوله ﷺ فى الدنيا وخِزْيهم فيها .

وهكذا يكونون قد أخذوا الخزْى كجزاء لهم فى الدنيا ؛ ويزدادون عِلْماً بواقع العذاب الذى سَيلقَوْنَهُ فى الدار الآخرة .

ويُنهى الحق سبحانه سورة الرعد بهذه الآية :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾

ونفهم من كلمة :

﴿ لَسْتَ مُرْسَلاً .. (٤٣) ﴾ [الرعد]

أن الكافرين يتوقفون عند رَفْض الرسول ﷺ ؛ وكأن كُلَّ أمانيهم أن يَنْفُوا عنه أنه رسولٌ اصطفاه الحق سبحانه بالرسالة الخاتمة ؛ بدليل أنهم قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

ومن بعد ذلك قالوا :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

أى : أن فكرة الإرسال لرسول مقبولة عندهم ، وغير المقبول عندهم هو شخص الرسول ﷺ .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾

[الرعد]

والشهيد كما نعلم هو الذى يرجح حُكْم الحق ، فإذا ما ظهر أمر من الأمور فى حياتنا الدنيا التى نحتاج إلى حُكْم فيها ؛ فنحن نرفع الأمر الذى فيه خلاف إلى القاضى ، فيقول : « هاتوا الشهود » .

ويستجوب القاضى الشهود ليحكمَ على ضَوْء الشهادة ؛ فَما بالُنَا والشاهد هنا هو الحقُّ سبحانه ؟

ولكن ، هل الله سيشهد ، ولِمَنْ سيقول شهادته ؛ وهم غَيْرُ مُصدِّقين لكلام الله الذى نزل على رسوله ﷺ ؟

ونقول : لقد أرسله الحق سبحانه بالمعجزة الدَّالة على صِدْق رسالته فى البلاغ عن الله ، والمعجزة خَرْقٌ لنواميس الكون .

وقد جعلها الحق سبحانه رسالةً بين يدى رسوله وعلى لسانه ؛ فهذا يعنى أنه سبحانه قد شهد له بأنه صادق .

والمعجزة أَمْر خارق للعادة يُظهِرها الله علـى مَنْ بلغ أنه مُرْسَل منه سبحانه ، وتقوم مقام القول « صدق عبدى فيما بلغ عنِّى » .

وإرادة المعجزة ليست فى المعنى الجزئى ؛ بل فى المعنى الكُلىِّ لها . والمثل فى المعجزات البارزة واضح ؛ فها هى النار التى أَلْقَوْا فيها إبراهيم عليه السلام ، ولو كان القَصْد هو نجاته من النار ؛ لكانت هناك ألفُ طريقة ووسيلة لذلك ؛ كأنْ تُمطِر الدنيا ؛ أو لا يستطيعون إلقاء القبض عليه .

ولكن الحق سبحانه يوضح لهم من بعد أن أمسكوا به ، ومن بعد أن كبَّلوه بالقيود ، ومن بعد أن ألقوْه فى النار ؛ ويأتى أمره بأن تكون النار برداً وسلاماً عليه فلا تحرقه :

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

وهكذا غيّر الحق سبحانه الناموس وخَرَقه ؛ وذلك كى يتضح لهم صِدْق إبراهيم فيما يبلغ عن الله ؛ فقد خرقَ له الحق سبحانه النواميس دليلَ صحة بلاغه.

وإذا كان الحق سبحانه قد قال هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا[1] بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.. (٤٣)﴾ [الرعد]

وشهادة الحق سبحانه لرسوله بصدق البلاغ عنه ؛ تتمثل فى أنه ﷺ قد نشأ بينهم ، وأمضى أربعين عاماً قبل أن ينطق حرفاً يحمل بلاغة أو خطبة أو قصيدة ، ولا يمكن أن تتأخرَ عبقرياتُ النبوغ إلى الأربعين .

وشاء الحق سبحانه أن يجرى القرآن على لسان رسوله فى هذا العمر ليبلغ محمد ﷺ الناسَ جميعاً به ، وهذا فى حَدِّ ذاته شهادة من الله .

---

(١) أى : حسبى الله ، هو الشاهد علىّ وعليكم ، شاهد علىّ فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . قاله ابن كثير فى تفسيره (٥٢١/٢) .

ويضيف سبحانه هنا :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

والمقصود بالكتاب هنا القرآن ؛ ومَنْ يقرأ القرآن بإمعان يستطيع أن يرى الإ جاز فيه ؛ ومَنْ يتدبر ما فيه من مَعَانٍ ويتفحَّص أسلوبه ؛ يجده شهادة لرسول الله ﷺ

أو يكون المقصود بقوله الحق :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

أى : هؤلاء الذين يعلمون خبر مَقْدِم رسول الله ﷺ من التوراة والإنجيل ؛ لأن نعت رسول الله ﷺ وصفته مذكورة فى تلك الكتب السابقة على القرآن ؛ لدرجة أن عبد الله بن سلام[١] ، وقد كان من أحبار اليهود قال : « لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمُحمد أشد »[٢] .

ولذلك ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إن نفسى مالتْ إلى الإسلام ، ولكن اليهود قوم بُهْتٌ[٣] ، فإذا أعلنتُ إسلامى ؛ سيسبُّوننى ؛ ويلعنوننى ، ويلصقون بى أوصافاً ليست فىّ . وأريد أنْ

---

(١) هو : عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف : صحابى أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه «الحصين » فسماه رسول الله ﷺ عبدالله . وشهد مع عمر فتح بيت المقدس . أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠).

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة] .

(٣) البُهْت : الكذب . وباهته : استقبله بأمر يقذفه به ، وهو منه برىء لا يعلمه . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

تسـألهم عنِّى أولاً . فأرسل لهـم رسول الله يدعـو صناديدهم وكبـار القوم فيهم ؛ وتوهموا أن محمداً قد يلين ويعدل عن دعوته ؛ فجاءوا ، وقال لهم ﷺ : « ما تقـولون فى ابن سلام ؟ »[1] فأخذوا يكيلون له المديح ؛ وقالوا فيه أحسن الكلام .

وهنا قـال ابن سلام : « الآن أقول أمـامكم ، أشهـد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ، فأخـذوا يسبُّون ابن سلام ؛ فقال ابن سلام لرسول الله ﷺ : ألم أَقُلْ إن يهود قوم بهت ؟

ونعلم أن الذين كـانوا يفـرحون من أهل الكتـاب بمـا ينزله الحق سبحانه على رسول الله ﷺ من وحى هم أربعون شخصاً من نصارى نجران ؛ واثنان وثلاثون من الحبشة ؛ وثمانية من اليمن .

ونعلم أن الذين أنكروا دعوة رسول الله ﷺ كانوا ينهوْنَ بعضـهم البعض عن سماع القرآن ؛ وينقل القرآن عنهم ذلك حين قالوا :

﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا[2] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]

وهذا يعنى أنهم كـانوا متـأكدين من أن سـماع القـرآن يُؤثِّر فى النفس بيقظة الفطرة التى تهفو إلى الإيمان به .

أمـا مَنْ عندهم علْم بـالكتب السـابقـة على رسـول الله ﷺ فـهم يعلمون خبر بعثته وأوصافه من كتبهم .

---

(١) أخرجـه البخارى فى صحـيحه (٣٩٣٨) ، وأحمـد فى مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١، ٢٧٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الغوا فـيه : أى شوِّشوا على قـارئه باللغو من القول ، أو اطعنوا فـيه واختلقوا له العـيوب لتصرفوا الناس عنه . [القاموس القويم : ٢/١٩٦] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾

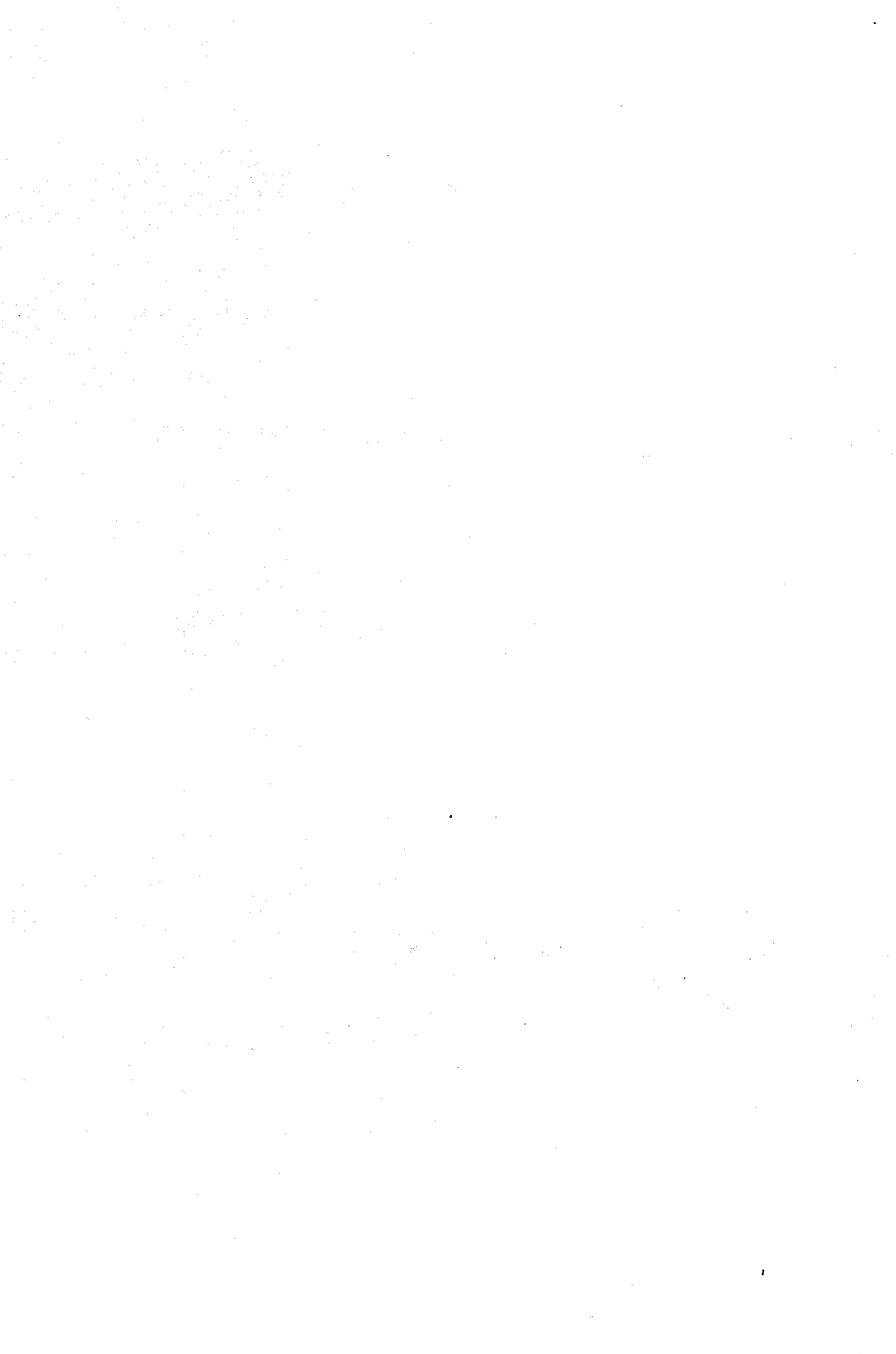
[البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾

[البقرة]

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾

هكذا يستهل الحق سبحانه هذه السورة بالحروف المقطعة « ألف » « لام » « راء » ، وسبق أن قلنا : إنها حروف توقيفية بلَّغها رسول الله لنا كما سمعها من جبريل عليه السلام .

إلا أن المُلاحَظ أن هذه الحروف التوقيفية المُقطَّعة لم تَأْتِ وحدها في هذه السورة كآية منفصلة ؛ مثل قوله في أول سورة ق :

﴿ قٓ ① ﴾ [ق]

وهي آية بمفردها ، وكما جاء في غير ذلك من السور بحروف مقطعة وأثبتها كآيات . وهنا تأتي الحروف التوقيفية المقطعة كجزء من الآية .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف ، عدد آياتها ٥٢ آية ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين . وقيل : ثلاث نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله ، وهي قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ㉘ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ㉙ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ㉚﴾ [إبراهيم] . [تفسير القرطبي ٥/٣٦٧٥].

﴿ آلر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ① ﴾ [إبراهيم]

كلمة « كتاب » إذا أطلقت انصرف معناها إلى القرآن ؛ فهو يُسمَّى ـ كتاباً ؛ ويُسمَّى قرآناً ، ويُسمَّى تنزيلاً ، وله أسماء كثيرة .

وكلمة «كـتاب » تدل على أنه مكتوب ، وكلمـة «قرآن » تدل على أنه مقروء ، وهذان الاسمان هما العُمْدة فى أسماء القرآن ؛ لأنه كتاب مكتوب ومقروء .

فكان الصحابى[1] الذى يجمع القرآن لا يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة ، ووجدها مَقْروءة عن اثنين من الصحابة ؛ فالقرآن كتاب يملك الدليل على كتابته من عهد رسول الله ﷺ ؛ وهو مَقْروء كما تدلُّ كلمة « قرآن » .

وقوله الحق :

﴿ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ① ﴾ [إبراهيم]

يدلُّ على أنه جاء من عُلُوٍّ .

ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر عن القرآن :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

ويقول فى موقع آخر :

---

(١) هو : زيد بن ثابت الأنصارى ، صحابى ، كان كاتب الوحى ، ولد فى المدينة ١١ ق هـ ، ونشأ بمكة . كان أحد الذين جمعوا القرآن فى عهد النبى ﷺ من الأنصار ، وعرضه عليه ، وهو الذى كتبه فى المصحف لأبى بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار . (الأعلام للزركلى ٣/٥٧) .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

ومرة يسند النزول إلى مَنْ جاء به ؛ ومرة ينسب النزول إلى الكائن الذى أرسله الحق بالقرآن إلى محمد ﷺ ، وهو جبريل عليه السلام .

فقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ.. (١) ﴾ [إبراهيم] للتعدى من منطقة اللوح المحفوظ ليباشر مهمته فى الوجود ، وعلِّيّة إنزال القرآن إليك يا محمد هى :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١) ﴾ [إبراهيم]

ونلحظ هنا أن القرآن نزل للناس كافَّة ، ولم يَقُل الحقُّ سبحانه ما قاله للرسُل السابقين على رسول الله ؛ حيث كانت رسالة أىٍّ منهم مُحدَّدة بقوم مُعيَّنين ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥) ﴾ [الأعراف]

وقوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وكذلك قوله سبحانه لموسى :

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وهكذا كان كُلُّ رسول إنما يبعثه الله إلى بُقْعة خاصة ، وإلى أُناس بعينهم ، وفى زمن خاصٍّ ، إلا محمداً ﷺ ؛ فقد بعثه الله إلى الناس كَافَّة .

والمثل أمامنا حين حكم ﷺ بالحق بين مسلم ويهودى ؛ وأنصف اليهودى ؛ لأن الحق كان معه[١] ؛ والحق عند رسول الله ﷺ أعزُّ عليه مِمَّنْ ينتسب إلى الإسلام .

وهكذا نرى أن قوله الحق :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ①﴾ [إبراهيم]

دليل على عمومية الرسالة ، ويُعزِّزها قوله :

﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. ١٥٨﴾ [الأعراف]

وبذلك تبطل حُجَّة مَنْ قالوا إنه مُرْسَلٌ للعرب فقط .

ونجد هنا اصطفاءين لرسول الله ﷺ .

الاصْطفاء الأول : أن الحق سبحانه قد اختاره رسولاً ؛ فمجرد الاختيار لتلك المهمة ؛ فهذه منزلة عالية .

والاصْطفاء الثانى : أنه رسولٌ للناس كَافَّة ؛ وهذه منزلة عالية

(١) أخرج ابن عساكر (٧/ ٣٥٤ تهذيب تاريخ دمشق) عن عبدالله بن أبى حدرد الأسلمى أنه كان ليهودى عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه . فقال : يا محمد إن على هذا أربعة دراهم وقد غلبنى عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذى بعثك بالحق ما أقدر عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذى نفسى بيده ما أقدر عليها ، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فارجو أن تغنمنا شيئاً فارجع فاقضيه . قال : أعطه حقه ، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجع ، فخرج ابن أبى حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة ، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال : اشتر منى هذه البردة . فباعها منه بأربعة دراهم . فمرَّت عجوز فقالت : ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ ؟ فأخبرها . فقالت : هادونك هذا البُرْد ـ لبرد عليها طرحته عليه . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٢٣) وأورده الكاندهلوى فى حياة الصحابة (٢/ ٨١) .

أخرى ؛ لأنها تستوعب المكان والزمان ، والألسنة والأقوام .

ثم يأتى الإعجاز فى قوله :

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ①﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ من الظلمات إلى الأنوار ، وشاء أنْ يأتى بالظلمات كجمْع ؛ وأنْ يأتى بالنور كمفرد ، لأن النور واحد لا يتعدد ؛ أما الظلمات فمتعددة بتعدُّد الأهواء ؛ ظُلْمة هنا وظُلْمة هناك .

وحين يُخرجنا الحقُّ سبحانه من الظلمات المتعددة حَسْب أهواء البشر ؛ فهذا فَضْلٌ منه ونعمة ؛ لأننا نخرج إلى النور الواحد .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يُجلى المعانى بالمُحسَّات التى يدركها الجميع ، فلا شك أن الظُّلْمة تستر الأشياء التى قد يصطدم بها الإنسان فيمتنع عن السير مطمئناً ؛ لأنه إنِ اصطدم بشىء فقد يُحطِّم الشىء أو يُحطِّمه هذا الشىء ؛ وهكذا تمنع الظُّلْمة الإنسان من أن يهتدى إلى ما يريد .

أما النور فهو يوضح الأشياء ، ويستطيع الإنسان أن يُميِّز بين الطرق ويتجنب الضار ويتجه إلى النافع ؛ ويكون على بصيرة من الهداية ؛ ذلك هو الأمر الحِسيّ ؛ وكُلٌّ من النور والظلمة أمرٌ حِسى .

وهكذا يُجلِّى الله لنا المعانى ، والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يُجلى المظاهر المادية بالنور ؛ بل تحتاج أيضاً إلى نور يُجلى المظاهر المعنوية ؛ من حقد وحسد ، وخوف وأمن ، واطمئنان ، وأمانة ووفاء ؛ وغير ذلك .

فالحياة كلها فيها الشيء وما يقابله ؛ لذلك لا بُدَّ أن تُجْلَى المعانى أيضاً . والنور الذى جاء به رسول الله ﷺ يُجلى الحسّ والمعنى فى آنٍ واحد ؛ لنتجنب الأشياء التى تطمسها الظُّلْمة ؛ ولنسير على بينة من المعانى ، فلا نصطدم بالعقبات .

ولذلك يُفسِّر لنا الحق سبحانه الأمر المعنوى ، فيقول :

﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ [إبراهيم]

وهذا هو الصراط المستقيم الذى يُخرجنا إليه محمد ﷺ من الظلمات إلى نوره .

ويريد الحق سبحانه أنْ يُجلى لنا الطريق إلى هذا الصراط ، لأنه قد يكون مُتعباً للبعض ؛ فيريد سبحانه أن يجمع لنا بين أمرين ؛ طريق متضح واضح يَصِل فيه الإنسان إلى الغاية بِيُسْر ؛ وطريق آخر غير واضح لا تتجلى فيه الأشياء .

وجاء بالظلمات والنور ليوضح لنا هذا المعنى ؛ حيث يكون الطريق المستقيم هو أقصر وسيلة للغاية المَرْجُوّة من الحياة الدنيا والآخرة ؛ ويكون طريق الظلمات هو الطريق غير الآمن .

وينسب الحق سبحانه الطريق الذى يُخرِجنا إليه الرسول ﷺ :

﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ [إبراهيم]

والعزيز هو الذى يَغْلب ولا يُغْلَب . والحميد هو مَنْ ثبتت له صفة الحمد من الغير ، وإنْ لم يصدر حَمْدٌ من الغير ؛ فهو حميد فى ذاته ، ويجب أن يُحمد رغم أنك إن حمدتَه أو لم تحمده فهو حميد .

ولله المَثَلُ الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّه عن كل مثيل أو شبيه ؛ نجد فى حياتنا الدنيا مَنْ يُقال عنه إنه حميد الخصال ؛ وإنْ لم يوجد مَنْ يمدحه ؛ لكنه فى كُلِّ ما يصدر عنه يراعى أن يكون محموداً .

ولكن البشر يكون المحمود منهم حَدثاً ؛ أما المحمود من الحق فهو مُطْلق ، ولا تكون الذاتُ محمودة أو حميدة إلا إذا كان لها من الصفات ما يجعلها أهلاً للإنعام الذى يجب على الإنسان أن يحمده .

والفطرة السليمة فى الإنسان تستقبل هذا الكون المُعَدّ من قَبْل أنْ يوجد لاستقباله ، وتحب أن تحمد مَنْ صنع هذا الكون ، رغم أن حَمْد الإنسان أو عدم حَمْده لا يضيف شيئاً لِمَنْ أعدَّ هذا الكون وخلقه ؛ فهو محمود فى ذاته .

وإن حمدته فهذا لمصلحتك ؛ وفى هذا هداية إلى صراط العزيز الذى لا يُغْلب ، والحميد الذى يستحق الحمد ؛ وإنْ لم يوجد حامد له ؛ لأن صفاته سبحانه أزلية .

فالله خالق قبل أن يخلق الخلق ؛ وهو الرازق قبل أن يُخْلق المرزوق ، وهو مُعز قبل أن يوجد مَنْ يُعزه ؛ محمود قبل أنْ يوجد مَنْ يحمده ؛ توَّاب قَبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

فهو سبحانه بالصفة يفعل ؛ أما الإنسان فلا يفعل إلا إذا فعل الصفة ، فأنت لا تعرف أن فلاناً كريم ؛ إلا لأنك تراه يعطى عن جُود وسَخاء ، أما الله فهو الكريم من قبل أن يوجد مَنْ يُكرمه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ[(١)] لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾

وأنت إنْ قرأتَ هذه الآية موصولةً بما قبلها ؛ فستقرؤها :

﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴿٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وإن كنتَ ستقرؤها مَفْصُولة عمَّا قبلها ؛ فستقول :

﴿ اللَّهُ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وستنطق كلمة « الله » غير مُرقَّقة عكسَ إنْ قرأتَها موصولة ، حيث يجب أن تنطقها مُرقَّقة .

وتقتضى الأصول فى الكتاب أن يوجد الاسم العلَم على الذات أولاً ، ثم تأتى الصفة من بعده ، فتقول : « لقيت فلاناً الشاعر أو الكاتب أو العالم » ، لكن الأمر هنا جاء على غير هذا النَّسَق :

﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : قدَّم « العزيز الحميد » ثم جاء بلفظ الجلالة ، وهو العلَم على واجب الوجود « الله » ، وقد حدث ذلك لأن العلَم يدل على مُسمَّاه بصرف النظر عن الصفات ؛ ثم توجد الصفات له .

وهناك من العلماء مَنْ قال : إنه مُشْتق بمعنى أن « الله » تعنى

---

(١) الويل : كلمة عذاب ودعاء بالشر وإنذار به . [القاموس القويم : ٢/٣٦٢] والويل : الهلاك يُدعَى به لمن وقع فى عذاب أو هلكة يستحقها . [لسان العرب ـ مادة : ويل] .

المعبود بحقٍّ ؛ وصفة العزيز الحميد حيثية لأنْ يُعبدَ سبحانه بحقٍّ.

ومن العلماء من قال : إن كلمة « الله » هى علَم ، وليست اسماً مُشْتقاً ؛ فلَهُ الملكية المطلقة :

﴿الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ..﴿٢﴾﴾ [إبراهيم]

لا يقع فى هذا المُلْك إلا ما شاء هو ، فَمنْ آمن به أنصف نفسه وحياته وآخرته ، أما مَنْ لم يؤمن به فلَه المقابل ، وهو قوله الحق :

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ [إبراهيم]

وهذا الوَيْل ليس فى الآخرة فقط ، بل فى الدنيا أيضاً ؛ لأن الإنسان حين تعترضه الصِّعَاب والعقبات والمصائب التى ليس له أسباب يدفعها بها ؛ هنا يستطيع المؤمن أن يذكر أن له رباً فوق الأسباب ؛ ويرتاح إلى معونة الحق سبحانه له ، وهكذا يشعر أن له رصيداً فى الدنيا يعتمد عليه فى مواجهة الأحداث الجِسَام .

أما غير المؤمن فليس أمامه سوى اليأس ؛ ولذلك نجد انتشار الانتحار بين غير المؤمنين ؛ لأن هناك أحداثاً فوق أسبابهم ، ولا يستطيعون دفعها ، وليس لهم إيمان بربٍّ يرجعون إليه .

ولذلك حين أقرأ للمفسرين مَنْ يشرح كلمة « الويل » بأنها عذابُ الآخرة ؛ فأجد نفسى قائلاً : بل والوَيْل يكون فى الدنيا أيضاً ؛ لأن الكثير من أحداث الحياة يكون فوق أسباب الإنسان ؛ فلو لم يؤمن الإنسان بالله لَفزِع من فَرْط اليأس .

ولذلك نجد بعضهم حين لا يجدون مَفَرّاً إلا أنْ يقولوا يارب ، وهم بذلك يعلنون صرخة الفطرة الأولى التى قاوموها بالإلحاد وعدم الإيمان ؛ وهذا الويل له امتداد بلون أشد فى الآخرة.

ويصف الحق سبحانه هؤلاء الذين لا يؤمنون ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا[1] أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

وهنا نجد مادة الحاء والباء ؛ حب ؛ ومن عجائبها أن الفعل يكون رباعياً ؛ فنقول « أحبَّ فلان » ونقول لِمَنْ يحبه « محبوب » وهذا يعنى أن هناك تلاقياً بين الاثنين ؛ أما فى حالة عدم التلاقى فيقال « حَبَّ يُحِب فهو حَابٌّ ومُحِبٌّ » .

والفرق بين أحبَّ واستحبَّ ؛ ملحوظٌ فى مَجىء السين والتاء ، وهما علامة على الطلب . وعلى هذا فاستحبَّ تعنى أنَ مَنْ يحب لم يكتَفِ بالأمر الطبيعى ، بل تكلَّف الحب وأوغلَ فيه .

والمثل على ذلك نجده فى الحياة اليومية ؛ فنرى مَنْ ينجرف إلى شىء من الانحراف ؛ ولكنه لا يُحِب أن يكون مُحِباً لهذا الانحراف فى نفس الوقت ؛ ويفعل الانحراف وهو كَارِهٌ له ، وقد يضرب نفسه ويلومها لأنها تنجرف إلى هذا الانحراف .

ونجد آخر ينحرف ؛ لأنه يحب هذا الانحراف وينغمس فيه ؛ وهو مُحِبٌّ لهذا الانغماس ويتحدث بهذا الانحراف ؛ ويُحب فى نفسه أنه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٧٧) : « أى : يطلبون لها زيغاً وميلاً لموافقة أهوائهم ، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم » .

أحب تلك المعصية ؛ لأنها تُحقِّق له شهوة عاجلة ؛ هذا هو مَنِ « استحبَّ » لأنه أزاد الحب عن حَدِّه الطبيعى .

وحين تُدقِّق فى الآية الكريمة تجد أنها لا تمنعك من حُبِّ الدنيا ؛ لكنها تتحدث أنْ تستحبَّها على الآخرة ، فهذا هو الأمر المذموم ؛ أما إذا أحببتَ الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلْتَها مزرعة للآخرة ؛ فهذا أمر مطلوب ؛ لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد فى آخرتك ؛ فهذا طَلَب للدنيا من أجل الآخرة .

ولذلك تجد قوله الحق فى سورة « المؤمنون » :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ ﴾ [المؤمنون]

فهو لا يؤدى الزكاة فقط ؛ بل يعمل ليأتىَ لنفسه ولعياله بالقُوت ؛ ويبذل الجهد ليكون لديه فائضٌ يؤدى منه الزكاة ؛ ولذلك فهو لا يعمل قَدْر حاجته فقط بل على قَدْر طاقته ليحقق ما يمكن أنْ يُعطيه لِمَنْ لا يقدر على العمل .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه :

« والذين هم للزكاة مؤدون » بل قال :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ ﴾ [المؤمنون]

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحِبّون الحياة من أجل أنْ يجعلوها مزرعة للآخرة ؛ بل هم يستحِبّون الحياة :

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ۝٣ ﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم لم يكتفوا بحُبِّ الدنيا على الآخرة فقط ، ولم يكتفُوا بالسَّيْر فى طريق الشهوات والملذَّات وتخريب ذواتهم ، بل تمادَوْا فى الغى[1] وصَدُّوا غيرهم عن سبيل الله .

ونجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا .. ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران]

كأنهم ضلُّوا فى ذواتهم ؛ ولم يكتفوا بذلك ، بل يحاولون إضلال غيرهم ويصدونهم عن الهداية .

ثم تأتى مرحلة جديدة :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم]

أى : يبغون شريعة الله مُعْوجة لتحقق لهم نزواتهم . وهكذا نجد ثلاث مراتب للضلال ، استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ؛ والصدّ عن سبيل الله ؛ وتشويه المنهج كى يُكرِّهوا الناس فيه .

ويصف الحق سبحانه هؤلاء :

﴿أُولَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم]

أى : أن أصحاب المرتبة الأولى فى الضلال هم مَن استحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين توغَّلوا فى الضلال أكثر فهم الذين يصدون عن سبيل الله ؛ أما الذين توغَّلوا أكثر فأكثر فَهُم الذين يُشوِّهون فى منهج الله لتنفير الناس منه ، أو ليحقق لهم نزواتهم ، وهكذا ساروا إلى أبعد منطقة فى الضلال.

---

(١) الغى : الضلال والخيبة والفساد . [لسان العرب ـ مادة : غوى] . وغوى : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . [القاموس القويم ٢/ ٦٤] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④ ﴾

ونعلم أن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله منهجه ؛ ومُؤيَّد بمعجزة تثبت صدقه فيما بلغ لمَنْ أُرسل إليهم. وقد حدَّث الحق سبحانه من قبل عمَّا حدث للأمم السابقةَ على أمة محمد ﷺ ؛ فقد كان كل رسول يتكلم بلغة قومه .

وهناك فرق بين قوم الدعوة وهم أمة رسول الله ﷺ ؛ وقوم الاستقبال ؛ وهم الأمم السابقة على أمة محمد ﷺ .

فالأمم السابقة لم تكن مُطَالبةٌ بأن تُبلِّغ دعوة الرُّسل الذين نزلوا فيهم ، أما أمة محمد ﷺ فمُطَالبة بذلك ، لأن الحق سبحانه أرسل رسوله ﷺ ، وأبلغنا في القرآن أن من آياته سبحانه أن جعل الناس على ألسنة مختلفة[1] .

ولم يُكنْ من المعقول أن يرسل رسولاً يتكلم كل اللغات ، فنزل ﷺ في أمة العرب ؛ وحين استقبلوه وأُشْرِبَت[2] قلوبهم حُبَّ الإيمان ؛ صار عليهم أن ينساحوا بالدعوة ؛ لينقلوا معنى القرآن حجة بعد أن استقبلوه معجزة .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ.. ㉒ ﴾ [الروم] .

(٢) أشرب قلبه محبة هذا ، أي : حَلَّ محلَّ الشراب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ .. ㊈㉝ ﴾ [البقرة] . أي : حب العجل . وقد أشرب في قلبه حبه أي : خالطه . [لسان العرب ـ مادة : شرب] .

والقرآن حُجَّة لأنه يسوسُ حركة الحياة ؛ وحركاتُ الحياة لا تختلف فى الناس أجمعين ، كما أن كُلَّ حضارة تأخذ من الأخرى مُنجزاتِها العلمية ، وتُترجمها إلى لسانها الذى تنطق به .

وترجمة المعانى من لسان إلى آخر مسألة معروفة فى كُلِّ حضارات العالم ؛ لأن المسألة فى جوهرها مسألة معانٍ ؛ والمعانى لا تختلف من أمة إلى أخرى .

والقرآن معانٍ ومنهج يصلح لكل البشر ؛ ونزل بالعربية ؛ لأن موهبة الأمة العربية هى النبوغ فى اللغة والكلام ؛ وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمنهج الله كمعجزة بلاغية ؛ وإرساله إلى بقية المجتمعات .

ولذلك تستطيع أن تَعقد مقارنة بين البلاد التى فُتحت بالسيف والقتال ؛ والبلاد التى فُتحت بالسِّلْم ورؤية القدوة المسلمة الصالحة ؛ ستجد أن الذين نشروا الإسلام فى كثير من أصقاع الأرض قد اعتمدوا على القدوة الصالحة .

ستجد أنهم نقلُوا الدين بالخِصَال الحميدة ، وبتطبيق منهج الدين فى تعاملهم مع غيرهم ، ولذلك أقبل الناس على دين الله .

وهكذا نجد أن منهج الإسلام قد حمل معجزة من المعانى ، بجانب كونه معجزةً فى اللغة التى نزل بها ، وهى لغة العرب .

ونحن نجد أقواماً لا تستطيع أن تقرأ حرفاً عربياً إلا فى المصحف ، ذلك أنهم تعلَّموا القراءة فى المصحف ، واعتمدوا على

فَهْم المعانى الموجودة فيه عَبْر الترجمات التى قام بها مُسلمون أحبُّوا القرآن ، ونقلُوه إلى اللغات الأخرى .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد يسَّر أُمَّ القرآن بلسان العرب أولاً ، ثم يسَّره بأن جعل من تلك الأمة التى نزل عليها القرآن أمة نَشْر البلاغ عنه سبحانه ، ذلك أن الرسالات تُريد تبليغاً ؛ والتبليغ وسيلتُه الأولى هى الكلام ؛ ووسيلته الثانية الاستقبالية هى الأذن ، فلابُدَّ من الكلام أولاً ، ثم لابُدَّ من أُذن تعرف مدلولاتِ الألفاظ لتسمعَ هذا الكلام ، ولِتُطبِّقه سلوكاً .

كما أننا نعلم أن مَنْ يسمع المتكلم لا بُدَّ وأن يكون واعياً وعارفاً بمعانى الألفاظ ؛ فما تسمعه الأُذن يحكيه اللسان .

وعرفْنَا أن اللغة بِنْت السماع ، وكُلُّ فرد إنما يتكلم باللغة التى سمعها فى بيئته ؛ وإذا تتبعتَ سلسلة تعلُّم كل الكلام ستجد نفسك أمام الجِذْر الأصلى الذى تعلَّم منه البشر الكلام ؛ وهو آدم عليه السلام .

وقد قال سبحانه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا[1] .. ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة] . هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس . إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١/ ١٢١] .

ونعلم أن اللغة بدأت توقيفية حين علَّمها الله لآدم ، ثم تكلَّمها آدم فسمعتْها بيئته ؛ فصارتْ وضعية من بعد ذلك ، واختلفت اللغة من مجتمع إلى آخر .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ .. (٤)﴾ [إبراهيم]

وجاء بعد ذلك مباشرة بالتعليل :

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤)﴾ [إبراهيم]

وهكذا أوضح جَلَّ وعلاَ السبب فى إرسال كل رسول بلسان قومه ، وهناك آية يقول فيها سبحانه :

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾ [الشعراء]

وقال أيضاً :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤)﴾ [فصلت]

فهناك مَنْ يستقبل القرآن كدليل هداية ويُنقِّى نفسه من الكَدَر ، وهناك مَنْ يستقبل القرآن فيكون عليه عمى وعلى سمعه غِشَاوة وخوف وعدم ارتياح ، ذلك أنه كافر .

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم : ٢/ ٣٥] .

والسبب - كما نعلم - أن حدوث الحادث مِن آمرٍ به يحتاج إلى فاعل وإلى قابل للفعل .

وسبق أن ضربتُ مثلاً بمَنْ يشرب الشاى ؛ فينفخ فيه ليُبرده قليلاً ؛ ونفس هذا الإنسان حين يخرج فى صباح شتوى فهو ينفخ فى يديه ليُدفئهما ، وهكذا ينفخ مرة ليبرد شيئاً ؛ وينفخ أخرى مُستدعياً الدفء .

والمسألة ليستْ فى أمر النفخ ؛ ولكن فى استقبال الشاى للهواء الخارج من فَمك ، الشاى أكثر حرارة من حرارة الجسم فيبرد بالنفخ ، بينما اليد فى الشتاء تكون أكثر برودة من الجسم ؛ فتستقبل النفخ لها برفع درجة حرارتها لتتساوى مع حرارة الجسم .

وهكذا تجد أن القرآن واحدٌ ؛ لكن المؤمن يسمعه فيفرح به ، والكافر يسمعه فيتعب ويرهق منه .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد]

وهكذا نجد مَنْ يستقبل القرآن ، ولا ينصاع إلى معانيه ؛ ونجد مَن يستمع إلى القرآن فيخشع قلبه وينفعل بالاستجابة لِمَا يُوصِى به الحق سبحانه .

إذن : عرفنا الآن أن اللغةَ بدأتْ توقيفية وانتهتْ اصطلاحية ؛ فقد أخذنا من الله ما علَّمه لآدم من أسماء ؛ وتغيَّرت الألسن من جماعة

إلى أخـرى ، وهكذا اخـتلفتْ ألسـنة الرُّسُل حَـسْبَ القـوم المـرسلين إليهم .

وكل رسول يُبيِّن للقوم منهجَ الله ؛ فإذا بيَّن هذا المنهج ، استقبله البعض بالإيمان بما جاء به والهداية ، واسـتقبله البعضُ الآخر بالكُفْر والضَّلال .

فالذى هداه الله استشـرف قلبُه إلى هذا المنهج ؛ وأخرج من قلبه أىّ عقيـدة أخرى ، وبحثَ فيـما جاء به الرسول ، ومـلأ قلبه بالمنهج الذى ارتاح له فهماً وطمأنينة .

وهو عكس مَنْ تسكن قلبه قضية مـخالفة ، ويُصرُّ عليها ، لا عن قناعة ، ولكن عن عدم قدرة على التمـحيص والدراسة والاستشراف . وكان عليـه أنْ يُخرِج القضيـة المُضلة من قلبه ، وأن يبـحث ويقارن ويستشف ويُحسـن التدبر ؛ ثم يُدخلَ إلى قلبه القضية الأكـثر قبولاً ، ولكنه لا يفعل ، عكس مَنْ هداه الله .

ولا يقولن أحـد « ما دام قد أضلنا الله فلم يعـذبنا ؟» ولكن ليعلم كل إنسان أن المشـيئة لقابلية الإيـمان موجودة ، ولكنه لم يَسْتـدعها إلى قلبه .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

ويقول :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

أى : أن الفسق قد صدر منهم ، لأنهم ملأوا أفئدتهم بقضايا باطلة ؛ فجاءت قضايا الحق فلم تجد مدخلاً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

[إبراهيم]

فمَنْ يُقبل على الضلال يزيده الله ضلالاً ؛ فلن يزيد إيمانُه مُلْكَ الله شيئاً ، ومَنْ يؤمن فهو يضمن لنفسه سلامة الحياة وما بعد الموت ؛ وهو فى الحياة عنصر خَيْر ؛ وهو من بعد الموت يجد الحياة مع نِعَم المُنعِم سبحانه العزيز الذى لا يُغلَب ؛ والحكيم الذى قَدَّر لكلِّ أمر ما يشاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

والآيات التى أرسلها الله مع ـ موسى عليه السلام ـ والمعجزات التى حدثت معه وبيَّنها وأظهرها لقومه كثيرة ، ورسولنا ﷺ نزل ومعه معجزة واحدة وهى القرآن ، أما بقية المعجزات الحسية التى حدثتْ مع رسول الله ؛ فهى قد جاءت لتثبيت فؤاد المؤمنين برسالته ،

ولم يَبْقَ لها أثر من بعد ذلك إلا الذكرى النافعة التى يأتنس بها الصالحون من عباد الله .

وكثرة المعجزات التى جاءت مع موسى - عليه السلام - تبين أن القوم الذين أُرسل لهم قوم لَجج[1] وجدل ، وحين عَدَّد العلماء المعجزات التى جاءت مع موسى وجدها بعضٌ من العلماء تسع آيات ؛ ووجدها غيرهم ثلاث عشرة معجزة ؛ ووجدها بعضٌ ثالث أربع عشرة .

وفى التحقيق لمعرفة تلك الآيات علينا أن نُفرِّق بين الآيات التى صدرتْ بالنسبة لفرعون ؛ والآيات التى جاءتْ لبنى إسرائيل . فالعصا التى انقلبت حيَّة تسعى ، واليد التى تُضىء هى لفرعون ، وعدَّد القرآن الآيات التى جاءت مع موسى لفرعون بتسع آيات ، يقول الحق سبحانه :

﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ[2] .. (١٢)﴾ [النمل]

ولم يكن موسى يطلب من فرعون أن يؤمن ؛ فهو لم يُرْسَل لهدايته ؛ ولكنه جاء ليُفحمه وليأخذ بنى إسرائيل المُرْسَلُ إليهم ، والآيات هى : العصا ووَضْع اليد فى الجيب لتخرج بيضاء ، ونَقْص الأنفس والثمرات ؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، هذه هى الآيات التسع الخاصة بفرعون .

أما بقية الآيات التى جاء بها موسى - عليه السلام - لبنى إسرائيل فهى كثيرة مثل :

---

(١) اللَّجة واللجلجة : اختلاط الأصوات . واللجة : الجلبة . وألجّ القوم إذا صاحوا . [لسان العرب - مادة : لجج] .

(٢) المقصود بالقوم هنا هم قوم فرعون .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[١] الْجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾ [الأعراف]

وأيضاً :

﴿ وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. (٥٧) ﴾ [البقرة]

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ[٢] وَالسَّلْوَىٰ[٣] .. (٥٧) ﴾ [البقرة]

ولذلك أجمل الحق سبحانه الآيات التى جاءت مع موسى لقومه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ[٤] اللَّهِ .. (٥) ﴾ [إبراهيم]

أى : أعِدْ إلى بُؤْرة شعورهم ما كان فى الحاشية ؛ وأنْ يستدعوا من الذاكرة أيام الله ، والمراد ما حدث فى تلك الأيام ، مثلما نقول نحن « يوم بدر » أو « يوم ذى قار » أو « السادس من أكتوبر » أو « العاشر من رمضان » .

---

(١) نتقه : رفعه من مكانه وحرَّكه وجذبه . [القاموس القويم : ٢/٢٥٢] .

(٢) المن : ندى يشبه العسل كان الله ينزله على الأشجار غذاء طيباً لبنى إسرائيل فجحدوا فضل الله عليهم فى ذلك . [القاموس القويم ٢/٢٤٠] .

(٣) السلوى : السمانى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة كمصر والسودان ويعود ما سلم منه فى أوائل الصيف إلى مواطنه فى أوروبا . [القاموس القويم ١/٣٢٦] .

(٤) أيام الله : نعم الله . وأيام الله : وقائع الله فى الأمم السابقة . وقال الطبرى : وعظهم بما سلف فى الأيام الماضية لهم ، أى : بما كان فى أيام الله من النعمة والمحنة ، وقد كانوا عبيداً مستذلين ، واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٧٨] .

وهنا فى القول الكريم إمـا أن يكون التذكير بتلك الأيـام الخاصة بالوقائع التى حدثتْ للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ذلك أن الحق سـبحانه قـد أعلمهم بـقصص الأقوام الـسابقة علـيهم ؛ وما حدث من كل قوم تجاه الرسول المُرْسل إليه من الله .

أو أن يكون التذكير بالأيام التى أنعم الله فـيها على بنى إسرائيل بنعمه ، أو ابتلاهم فيها بما يُؤلمهم ؛ ذلك أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

[إبراهيم]

والصبَّـار هو مَنْ يُكثر الصـبر على الأحداث ؛ وهى كـلمة تُوحِى بأن هناك أحداثاً مؤلمة وقعتْ ، وتحتاج إلى الصبر عليها ، كما تُوحِى كلمة « شكور » بحوادث منعمة تستحق الشكر .

وهكذا نجد أن المـؤمن يحتاج إلـى أمرين : صَبْـر على ما يُؤلِم ، وشُكْر على مـا يُرضى ، وحين تجـتمع هاتان الصـفتان فـى مؤمن ؛ يكون مُكتمِلَ الإيمان[١] .

وقد قـال الحق سبحـانه : إن تلك الآيات هى أدلة تُوضِّح الطريق أمـام المـؤمن ، وتُعطى له الـعبْـرة ، لأنـه حيـن يعلم تاريخ الأقـوام السـابقـة ؛ ويـجـد أن مَنْ آمنَ منهم قـد عـانـى من بعض الأحـداث المؤلمة ؛ لكنه نال رضا الله ونعمه ؛ ومَـنْ كفر منهم قد تمتع قليلاً ، ثم تلقَّى نقمة الله وغضبه .

---

(١) عن صهـيب الرومى قال قال رسـول الله ﷺ : « عجباً لامـر المؤمن ، إن أمره كله خـير ، وليس ذاك لاحـد إلا للمؤمن ، إن أصـابته سراء شـكر فكان خيـراً له ، وإن أصابتـه ضراء صبر فكان خيراً له » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩) .

هنا يُقبل المؤمن على تحمُّل مَشَاقِّ الإيمان ؛ لأنه يثق فى أن الحق سبحانه لا يُضيع أجْر مؤمنٍ ؛ ولا بُدَّ لموكب الإيمان أنْ ينتصر ؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن ، ويشكر على النِّعَم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ (١) سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ (٢) نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

وهكذا نجد الحق سبحانه وقد جاء بنموذج من أيام معاناتهم من جبروت فرعون ، وكيف خلَّصهم سبحانه من هذا الجبروت ، وكان فرعون يُسلِّط عليهم أقسى ألوان العذاب ، ف «سام » الشيء أى : طلبه ؛ و « سام سوء العذاب » أى : طلب العذاب السيء .

وقد ذَبَّح فرعون أبناءهم الذكور ، ولم يُذبِّح الإناث لتصبح النساء بلا عائل ويستبيحهُنَّ ، وفى هذا نِكَاية شديدة .

---

(١) سامه الأمر يسومه سوماً : كلَّفه إياه على غير إرادته . قال الزجاج : أكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

(٢) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله . قال تعالى : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة] . أى : أنهم يقتلون الذكور فقط، ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

ووقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ، وقالوا : لقد تعرض القرآن من قبل لهذه الآية فى سورة البقرة ؛ حين قال :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) ﴾ [البقرة]

فهل هذه الآية فى سورة إبراهيم هى البليغة ، أم الآية التى فى سورة البقرة ؛ خصوصاً وأن الفرق بينهما هو مجىء « الواو » كحرف عطف على ذبح الأبناء باستباحة النساء ؟

وأضاف هذا المستشرق : ولسوف أتنازل عن النظر إلى ما جاء فى سورة الأعراف حين قال القرآن :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾ [الأعراف]

وبطبيعة الحال ، فهذا المستشرق لم يأخذ فَهْم القرآن عن ملَكة عربية ، ذلك أنه لو كان قد امتلك هذه القدرة على الفَهْم ؛ لَعرفَ أنّ الكلام لم يصدر فى الآيات عن مصدر واحد ، بل صدر عن مصدرين .

ففى آية سورة البقرة كان المصدر المتكلم هو الله سبحانه ، ولذلك قال :

﴿ نَجَّيْنَاكُم.. (٤٩) ﴾ [البقرة]

ولكن المصدر المتكلم فى سورة إبراهيم هو موسى عليه السلام ؛ لم يَقُلْ أنه هو الذى أنجاهم بل يُعدِّد النعم التى مَنَّ الله بها

عليهم ؛ ويمتنّ بها عليهم . وعلّة ذلك أن العظيم حين يمتنُّ على غيره لا يمتنُّ إلا بالعظائم ، أما دون العظيم فقد يمتنُّ بما دون ذلك[1] .

وأسوق هذا المَثل لمزيد من الإيضاح لا للتشبيه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن التشبيه ، وأقول : هَبْ أن إنساناً غنياً له أخ رقيق الحال ، وقد يُمد الغنيُّ أخاه الفقير بأشياء كثيرة ، وقد يعتنى بأولاده ؛ ويقوم برعايته ورعاية أولاده رعاية كاملة . ويأتى ابن الفقير ليقول لابن الغنى : لماذا لا تسألون عنا ؟ فيقول ابن الغنى : ألم يَأْتِ أبى لك بهذا القلم وتلك البذلة ، بالإضافة إلى الشقة التى تسكنون فيها ؟

ولكن العَمَّ الغنىّ يكتفى بأنْ يقول : أنا أسأل عنكم ، بدليل أنِّى أحضرت لكم الشقة التى تسكنون فيها . إذن : فالكبير حقاً هو الذى يذكر الأمور الكبيرة ، أما الأقل فهو من يُعدِّد الأشياء .

وهنا يَصِفُ الحق سبحانه سوْم العذاب وذَبْح الأبناء بالبلاء العظيم فى قوله تعالى :

﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى مظهرية الخير التى مَنَّ الله بها عليهم ، وهى الإنجاء من ذبح الأبناء واستباحة النساء ؛ وكان ذلك نوعاً من مظهرية الشر . وهذا ابتلاء صعب .

---

(١) قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٧ : « فإن قلت : ما الحكمة فى ترك العاطف هنا ، وذكره فى سورة إبراهيم ؟ قلت: لأن ما هنا من كلام الله تعالى ، فوقع تفسيراً لما قبله ، وما هناك من كلام موسى وكان مأموراً بتعداد المحن فى قوله : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [إبراهيم] . فعدَّد المحن عليهم ، فناسب ذكر العاطف » .

وسبق أنْ أوضحنا أنَّ البلاء يكون بالخير أو بالشر ، فقد قال سبحانه :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء]

فلا الخيرَ دليلُ تكريم ، ولا الشرَّ دليلُ إهانة ؛ فهو القائل :

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فالابتلاء فى الأصل هو الامتحان ؛ إما أنْ تنجحَ فيه أو ترسبَ ؛ ولذلك فهو غَيْر مذموم إلا بالنتيجة التى يَؤُول إليها .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ[1] إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ⑦ ﴾

ونلحظ أن الآية تبدأ بكلمة « تأذَّن » وكل المادة الألف والذال والنون مأخوذة من الأذن . والأذن آلة السماع ، والأذان إعلام ، وآذنهم أى أعلمهم .

وتأذن أى : اعلم بتوكيد . وهكذا يكون معنى الآية : أنى أُعلمكم بتوكيد من ربكم أنكم إنْ شكرتم ليزيدنكم من نعمه وعطائه ؛ لأن

(١) الكفر هنا بمعنى جحود النعمة ، وهو ضد الشكر ورجل كافر : جاحد لأنعم الله . وتقول : كفر نعمة الله وبنعمة الله كفراً وكفراناً وكفوراً . [لسان العرب ـ مادة : كفر] .

الشكر دليلُ ارتباط بالواهب ؛ وأنكم سلختم أنفسكم من الاعتزاز بما أوتيتم ، وعلمتم أنه هو وحده الوهاب .

والحق سبحانه هو مَنْ قال :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

ولو كان الإنسان مربوطاً بالحق سبحانه ؛ لما فصل الحقَّ عن نعمه ؛ ولظل ذاكراً للحق الذى وهبه النِّعمَ .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تشغلك النعمة عن المُنعِم ؛ لأن النعمة موهوبة لك ؛ وليستْ ذاتية فيك .

وتأتى المقابلة من بعد ذلك مباشرة ؛ فيقول :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهنا يثور سؤال : هل الذى لا يشكر نعم الله يكون كافراً ؟

وهنا علينا أن نعلم أن هناك فارقاً بين الكفر والكفران ، ولكن لفظ الكفر جاء هنا ليغلظ من معنى عدم الشكر ، ولم يأت بكلمة كُفْران وجاء بقوله :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

والمثل فى ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ [آل عمران]

ومَنْ لم يحج فهو عَاصٍ ؛ وكأن الله يريد أن يُصعِّب عدم القيام

بالحج . أو : أن الآية تريد حُكْمين : الحكم الأول : الإيمان بفرضية الحج ؛ والثانى : القيام بالحج فعلاً .

ذلك أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

فَمنْ يؤمن بأن هذا حُكْم صحيح واجب ويؤمن به ولكنه لا يُنفِّذه ؛ قد يدخل فى المعصية ؛ لأنه يستطيع أن يحُجَّ ولم يفعل . أما مَنْ يكفر بالحج نفسه وينكر القضية كلها ؛ فهو كافر والعياذ بالله.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا جاء الكفر مقابل الشكر ، ولابُدَّ من عذاب للكفر ؛ وعذابُ الله لابُدَّ أن يكون شديداً ؛ لأن العذاب يتناسب بقدرة المعذب ، ولا أقدرَ من الله ، ونعوذ به سبحانه من عذابه ، فهو أمر لا يُطاَق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

وقد قال موسى ذلك كى لا يظنّ ظَانٌ من قومه أن الله فى حاجة إلى شكرهم ؛ وأنه سيعاقبهم بالعذاب إنْ كفروا بشكره ؛ فأراد أنْ ينسخَ هذا الظنَّ من أذهان مَنْ يسمعونه .

وأوضح لهم أن الحق سبحانه لن يزيده إيمانكم شيئاً ؛ ولن يضيف هذا الإيمانُ منهم ومعهم أهل الأرض كلهم لمُلْكه شيئاً ؛ لأن مُلْك الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشىء عن كمال موجود.

ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة أعطتْنا تفسيراً لقوله سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا(١) فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر]

ونعلم أن الحق سبحانه قد أوحى لموسى ـ عليه السلام ـ أن

---

(١) خلا : مضى وسبق . والقرون الخالية : هم المواضى . [لسان العرب ـ مادة : خلا] .

يُبلغ قومه بقصص بعض من الأنبياء السابقين عليه . وهذا واضح فى قوله الحق :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ..(٩) ﴾ [إبراهيم]

ويقول سبحانه عن القوم الذين جاءوا من بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن الرسل قد حملوا منهج الله ، وكذلك المعجزات الدالة على صدقهم لِمَنْ جاءوا من بعد ذلك . والبينات إما أن تكون المعجزات الدالة على صدقهم ؛ أو : هى الآيات المُشْتملة على الأحكام الواضحة التى تُنظِّم حركة حياتهم لِتُسْعدهم .

ولكن هل قَبِلَتْ تلك الأقوامُ تلك البينات ؟

لا ، لأن الحق سبحانه يقول عنهم :

﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى أن الكافرين هم مَنْ وضعوا أيديهم على أفواههم ، وإما أنهم عَضُّوا على الأيدى بالنواجذ لأنهم لم يُطِيقوا تطبيق منهج الله ؛ ولم يستطيعوا التحكُّم فى أنفسهم .

أو : أنهم رَدُّوا أيديهم إلى أفواههم بمعنى أن قالوا للرسل : « هس » ، أصمتوا ولا تتكلموا بما جِئْتم به من بلاغ . أو : أن بعضهم قال للرسل « لا فائدة من كلامكم فى هؤلاء » .

والثراء فى القرآن يتحمّل كل هذه المعانى ؛ والآية تتسق فيها كل تلك المعانى ؛ فالعبارة الواحدة فى القرآن تكون شاملة لخيرات تناسب كمالات الله ، وستظل كمالات القرآن موجودة يظهر بعضها لنا ؛ وقد لا ندرك البعض الآخر إلى أن يُعلمنا بها الله يوم القيامة .

ويأتى قولهم :

﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. (٩)﴾ [إبراهيم]

ليكشف لنا غباءهم ، فَهُمْ يعترفون بأن هؤلاء رسل من السماء ، وفى نفس الوقت يُنكِرون المنهج ، ويُعلنون هذا الإنكار ، يكشف لنا ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم أعلنوا رأيهم فى المنهج ، وقالوا : إنهم مُحيَّرون ويشكُّون فى هذا المنهج .

ويأتى القرآن بردِّ الرسل فى قول الحق سبحانه :

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ[(1)] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)﴾

(١) أصل الفَطْر : الشق . وفطر الله الخلق يفطرهم : خلقهم وبدأهم . قال ابن عباس : ما كنت أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أى أنا ابتدأت حفرها . [لسان العرب ـ مادة : فطر] .

وقـوله : ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ.. ①⓪﴾ [إبراهيم] هو لوْن من الخطاب الذى لا يتـرك لمَنْ توجـه إليه الـكلام أنْ يُجيب إلا كـمـا تريد أنت . وأنت لا تفـعل ذلك إلا إذا كُنْـتَ واثقـاً من أن مَنْ تُوجِّـه إليـه الكلام سيجيب ـ إنِ استحضرَ الحق فى ذهنه ـ كما تريد أنت .

ولذلك لم يَأْتِ الخطاب هنا بقوله « لا شك فى الله » وبذلك يكون الكلام خـبرياً ، وقـد يقـول واحد : إن هذا كـلام كـاذب ، ولكن على الرغم من أن المستـمعين من الكفار ، إلاّ أنه يأتى بالقـضية فى شكل تسـاؤل يسـتأمـنهم على أنهم سـوف يُديرون الكلام فى رؤوسـهم ، وسيعثـرون على الإجابة التى لا يمكن أنْ ينكرونها ؛ وهى « ليس فى الله شك » .

وهكذا نجد أن القائل قد سكتَ عن إعلانهم الكفرَ أولاً ؛ وجاء لهم بالتـساؤل الذى سيـجيـبون عليـه « ليس فى الله شك » ، ويأتى لهم بالدليل الذى لا يحتمل أىَّ شكٍّ ، وهو قوله الحق :

﴿فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. ①⓪﴾ [إبراهيم]

والفاطر هو الذى خـلق خَلْقاً على غيـر مثال سـابق ، مثلهـا مثل قوله الحق :

﴿بَدِيعُ[1] السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..①①⑦﴾ [البقرة]

فـلا أحـدَ قـادرٌ على أن يخلقَ مـثل السـمـاوات والأرض ؛ وهى مـخلوقة على غـيـر مثـال سابق . وسـبـحانه هو مَنْ شـاء أن يكون

---

(١) بدعه يبـدعه : أنشـاه على غير مـثال سابق . وبديع السماوات والأرض . أى : مـبدعهـما ومنشئهما على غير مثال سابق . [القاموس القويم ١/ ٥٧].

الإنسان سيداً لكل الكائنات المخلوقة ، وأن تكون تلك الكائنات مُسخَّرة لخدمته .

وقد يتخيّل الإنسان أن خَلْقه أكبر من خَلْق السماوات والأرض ؛ لذلك يُنبِّهه الحق سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

ولو نظرتَ إلى الشمس وسألتَ نفسك : كم من الأجيال قد استمتعوا بدفئها واستفادوا منها ؟ فمن المؤكَّد أنك لن تعرف عدد الأجيال ؛ لأن الشمس مخلوقة من قَبْل خَلْق البشر ، وكل إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عددَ سنوات حياته ، ثم يذهب إلى الموت .

ونجد المفسر الجليل الفخر الرازى[1] يضرب المَثل الذى لا يمكن أنْ يُنكره أحد ، ويدلُّ على الفطرة فى الإيمان ، ويُوضِّح أن الحق سبحانه لم يُمهل الإنسان إلى أنْ ينضجَ عقله ليشعر بضرورة الإيمان ، ويضرب المثل بطفل صغير تسلَّل ، وضرب شقيقه ؛ هنا لابُدَّ أن يلتفتَ الشقيق ليكتشف مَن الذى ضربه ؛ لأن الإنسان من البداية يعلم أنْ لا شيءَ يحدث إلا وله فاعل .

وهَبْ أن طفلاً جاء ليجد شقيقه جالساً على كرسى ، وهو يريد

---

(١) هو : محمد بن عمر بن الحسن أبو عبدالله ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان . يقال له « ابن خطيب الرى » رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان . وتوفى فى هراة عام ٦٠٦ هـ . (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

أن يجلس على نفس الكرسى ؛ هنا سيقوم الطفل بشدٍّ وجَذْب أخيه من على الكرسى ليجلس هو ، وكأنه اكتشف بالفطرة أن اثنين لا يمكن أن يستوعبهما حَيِّز واحد .

وهكذا يتوصل الإنسان بالفطرة إلى معرفة أن هناك خالقاً أوحد . وهكذا نجد قوله الحق :

﴿ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. ۝١٠ ﴾ [إبراهيم]

هو الآية الكونية الواسعة .

ويأتى من بعد ذلك بالقول :

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ.. ۝١٠ ﴾ [إبراهيم]

وهذا القول يدل على الرحمة والحكمة والقدرة والحنان ؛ وهو هنا يقول :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ۝١٠ ﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ : يغفر لكم ذنوبكم ؛ ذلك أنه يخاطب الكفار ؛ بينما يقول سبحانه حين يخاطب المؤمنين :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.. ۝١٢ ﴾ [الصف]

وهكذا لا يساوى الحقُّ سبحانه فى خطابه بين المؤمنين والكافرين .

أو : أن المقصود من قوله :

﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ.. (١٠)﴾ [إبراهيم]

هو غفران الكبائر ؛ ذلك أن صغائر الذنوب إنما يغفرها أداء الفرائض والعبادات ؛ فنحن نعلم أن الرسول ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »[(١)] .

ويتابع سبحانه :

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى.. (١٠)﴾ [إبراهيم]

وكلنا نعرف أن الأجلَ هو الزمن المضروب والمُقرر للحدثِ . وإن شاء الحق سبحانه الإبادة فنجد ما يدل عليه قوله الحق :

﴿فَخَسَفْنَا[(٢)] بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١)﴾ [القصص]

كما فعل مع قارون .

أو : أن قوله : ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى.. (١٠)﴾ [إبراهيم] مقصود به يوم القيامة .

ولكن الكفار أهل لَدَد[(٣)] وعناد ، لذلك نجد قولهم :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٣) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٨٤) وابن ماجة فى سننه (١٠٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتَغُور . [القاموس القويم : ١/ ١٩٤] .

(٣) اللدد : الخصومة الشديدة . الألد : الشديد الخصومة الجدِل. [لسان العرب ـ مادة : لدد].

﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يعلن أهل الكفر لرسلهم أنهم يُفضِّلون أن يكونوا أهل تقليد للآباء ، ولو أنهم فكَّروا لَعلموا أن التقليد لو شاع فى المجتمعات لَما ارتقى أحدٌ عن آبائه وأجداده ، فالعالم يتطور من تمرُّد جيل على جيل سابق ، فلماذا يُصِرّ هؤلاء الكافرون على أن يحتفظوا بتقليد الآباء والأجداد ؟

وإذا كان الأبناء يتطورون فى كل شىء ، فلماذا يحتفظ هؤلاء الكفار بتقليد الآباء فى العقائد ؟

ولا يكتفى أهل الكُفْر بذلك ، بل يطلبون أن يأتىَ لهم الرسل بسلطان مبين ، والسلطان يُطلق مرَّة على القهر على الفعل ، ويكون الفاعل المقهور كارهاً للفعل .

ومرّة يُطلق على الحجة التى تُقنع بالفعل ، ويكون الفاعل مُحباً لما يَقْدُم عليه ، والدين لا يمكن أن ينتشر قهراً ؛ بل لابُدَّ أن يُقبل الإنسان على الدين بقلبه ، وذلك لا يأتى قهراً .

لذلك نجد القول الحق :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]

وما دام الرُّشْد قد ظهر فالإكراه لا مجالَ له ؛ لأن الذى يُكْره على شىء لا يمكن له أن يعتنق ما يُكره عليه .

وإذا ما دخل الإنسان الدين فعليه أن يلتزمَ بما يُكلِّف به الدين ؛

ولذلك فالإنسان لا يمكن أن يدخل إلى الدين مُكْرهاً ، بل ، لا بُدَّ أن يدخله على بصيرة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بما قاله الرسل رداً على قَوْل أهل الكفر :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ(١) عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهكذا أوضح الرسل لأقوامهم : نحن بشر مثلكم ، والسلطان الذى نملكه هو المعجزة التى اختصَّ بها الحق سبحانه كُلَّ رسول ، والحق سبحانه هو الذى يتفضَّل على عباده ؛ فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم ؛ ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة ؛ ويقوم الرسول بتبليغ كل ما يأمر به الله .

وكل رسول إنما يفعل ذلك ويُقبل عليه بكل الثقة فى أن الحق سبحانه لن يخذله وسينصره ؛ فسبحانه هو القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

ويخبرنا سبحانه بطمأنة الرسول ومَنْ معه لحظةَ أن تزلزلهم

---

(١) يمن : ينعم ويحسن . وفى أسماء الله تعالى : الحنان المنان ، أى : الذى ينعم غير فاخر بالإنعام . وقال ابن الأثير : هو المنعم المعطى من المنِّ فى كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه . [لسان العرب - مادة : منن] .

جِسَام الأحداث ؛ وتبلغ قلوبهم الحناجر ، ويتساءلون :

﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

فتأتى أخبار نَصْر الحق سبحانه لرسله السابقين لطمأنة المؤمنين ، ونجد الحق سبحانه هنا يقول :

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾ [إبراهيم]

هكذا أعلن كل رسول لِمَنْ آمن به من قومه ، فعلَى الله وحده يتوكَّل المؤمنون ، ويُفوِّضون كل أمورهم إليه وحده ؛ صَبْراً على معاندة الكافرين ، وثقةً فى أنه سبحانه ينصر مَنْ أبلغوا رسالته ومنهجه ، وينصر معهم مَنْ آمنوا بالمنهج والرسالة .

وينقل لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الرسل لأقوامهم :

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه قد وصف المُتوكِّلين فى نهاية الآية السابقة بأنهم المؤمنون ؛ وهنا يَصِفُهم فى نهاية هذه الآية بأنهم المتوكِّلون ؛ لأن صفة الإيمان تدخل فى صفة التوكل ضِمْناً .

ونعلم أن هناك فارقاً بين التوكل والتواكل ؛ فالتوكل يعنى أن تستنفد أسباب الله المَمْدودة ؛ لأن التوكل عمل القلوب ؛ بعد أن تُؤدِّى الجوارحُ ما عليها من عمل وأَخْذ بالأسباب ؛ فالجوارح تعمل والقلوب هى التى تتوكل .

ويأتى لنا الحق سبحانه ببقية الحوار بين الذين كفروا من أهل الأقوام السابقة وبين رسلهم ، فيقول :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا(١) فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وهكذا نرى أن فاشية الخير حين فَشَتْ فى الناس ؛ يغضب منها المستفيدون من الفساد والذين يعيشون عليه ؛ ويتجه تفكير المفسدين إلى ضرورة إخراج خمائر الخير من الأرض التى يعيش المفسدون على الاستفادة من أهلها .

وإنْ عَزَّتْ الأرض على خمائر الخير ، فعليهم أن يعلنوا عودتهم إلى ديانة الكافرين . ولا يقال : عُدْت إلى الشىء إلا إذا كنتُ فى الشىء ثم خرجتُ عنه وعُدْتُ إليه .

وهل كان الرسل الذين يُهدِّدهم أهل الكفر بالإخراج من البلاد ؛ يقبلون العودة إلى ديانة الكفر ؟

طبعاً لا ؛ ولذلك نفهم من قوله تعالى :

﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

بمعنى « أو لتصيرن فى ملتنا » .

ولم يقبل الرسل تلك المُساومة ؛ ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يُنزِل جنود التثبيت والطمأنينة والسكينة على قلوب رُسُله والمؤمنين ؛

---

(١) الملة : الشريعة والدين . والملة : الدين حقاً كان أو باطلاً . [القاموس القويم : ٢/٢٣٦].

فلا يتأثر الرسل ومَنْ معهم بمثل هذا الكلام .

وهذا ما يُعبِّر عنه قَوْل الحق سبحانه فى آخر الآية :

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يأتى القانون السماوى بالعدل وهو إهلاك الظالمين ، وتلك قضية إيمانية باقية ودائمة أبداً .

ويكمل الحق سبحانه وعده لرسله ومَنْ معهم من المؤمنين :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) ﴾

وهنا يؤكد الحق سبحانه أن مَنْ يثبت على الإيمان ، ويخاف مَقَام الحق سبحانه ، ويخشى يوم العَرْض على الحق ويوم الحساب ؛ ولم ينكص[1] عن منهج دعوة الحق ؛ سيُورثه الحق سبحانه أرض مَنْ كفر بالله ؛ فتلك سنة الله ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. (٢٧) ﴾

[الأحزاب]

ونعلم أن مَنْ يخاف الله ويخشاه ويؤمن أنه قائم على كُلِّ نفس ؛ فسبحانه يجزى مَنْ يعيش حياته فى ضَوْء الإيمان بأن يُورثه أرضَ مَنْ كفر ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله :

---

(١) النكوص : الإحجام . ونكص على عقبيه : رجع عما كان عليه من الخير . والنكوص : الرجوع إلى وراء . [لسان العرب ـ مادة : نكص] .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. (١٣٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا(١) وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(٢) (١٥) ﴾

و« استفتح » تعنى طلب الفتح ، وهناك فتح ، واستفتح . وكلمة « فتح » تدل على أن شيئاً مُغْلقاً ينفتح ، ومرّة يكون المقصود بالكلمة أمراً حسياً ؛ وأحياناً يكون الأمر معنوياً ، ومرة ثالثة يكون الفتح بمعنى الفَصْل والحُكْم .

والمثل على الأمر الحسىّ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

ومرّة يكون الفَتْح معنوياً ؛ وبمعنى سابقة الخير والعلم ، كقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة]

---

(١) استفتحوا : استنصروا . أى : أذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم ، والدعاء بهلاكهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٨٦] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٨٧) : «الجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفاً ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر » .

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر]

أما المَثل على الفَتْح بمعنى الفَصْل فى الأمر ، فالمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف]

وهكذا نجد للفتْح معانى متعددة ، وكلها تدور حول المغاليق وهى تُفَضّ ، ويُطلَق الفتح آخر الأمر على النصر ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهم طلبوا الفتح بمعنى طلبوا النصر ، وكانت تلك خيبةً من الكفار ؛ فَهُمْ طلبوا الفتح أى النصر ؛ وهم قد فعلوا ذلك مظنّة أن عندهم ما ينصرهم .

وكيف ينصرهم الله وهم كافرون ؟

لذلك يُخيِّب الله ظنهم ويحكم عليهم بمصير كل مَنْ عاش جباراً فى الأرض ، متكبراً عن عبادة ربه .

ويقول سبحانه :

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم]

والجبار هو مَنْ يـقهر الناس على ما يريده ؛ والمـقصود هنا هم المُتكبِّـرون عن عبادة الحق سـبحانـه وتعالى ، ويعاندون فى مـسألة الإيمان به سبحانه .

وماذا ينتظرهم من بعد ذلك ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) ﴾

أى : من خلف الجـبار الـمُتـعنِّت بالكفـر جهنمُ ، ومـا فـيهـا من عـذاب . وفى العـاميـة نسـمع مَنْ يتـوعد آخـر ويقـول له « وراك .. وراك » ويعنى بذلك أنه سيُوقع به أذىً لم يأْتِ أوانه بَعْدُ .

وكلمة « وراء » فى اللغـة لها استخـدامات متعددة ؛ فـمرَّة تأتى بمـعنى « بَعْـد » والمـثل فى قـوله تـعالـى عن امـرأة إبراهيم عليـه السلام :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ[1] فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود]

---

(١) أى : تعجبت من الضيوف الذين جاءوا بالبشرى . وقيل : كانت لا تحيض فحاضت . وفى اللغة : ضحكت المرأة أى حاضت . والراغب فى المفردات أنكر هذا التفسير وأرجع أن قوله تعالى : « ضحكت » معناه سُرَّتْ كثيراً . [القاموس القويم : ١/ ٣٩٠] .

أى : جاء يعقوب من بعد إسحق .

ومرّة تُطلق « وراء » بمعنى « غير » مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ.. ۝ ﴾ [إبراهيم]

ونعلم أن جهنم ستأتى مستقبلاً ، أى : أنها أمامه، ولكنها تنتظره ؛ وتلاحقه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ ﴾ [إبراهيم]

والصديد هو الماء الرقيق الذى يخرج من الجُرْح ، وهو القَيْح الذى يسيل من أجساد أهل النار حين تُشْوى جلودهم .

ولنا أن نتصورَ حجم الألم حين يحتاج أحدهم أن يشرب ؛ فيُقدَّم له الصديد الناتج من حَرْق جلده وجُلُود أمثاله . والصديد أمر يُتأفَّفُ من رؤيته ؛ فما بَالُنَا وهو يشربه ، والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه متابعاً لِمَا ينتظر الواحد من هؤلاء حين يشرب الصديد :

﴿ يَتَجَرَّعُهُ[1] وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ[2] وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

ويتجرعه أى : يأخذه جَرْعة جَرْعة ، ومن فرط مرارته لا تكون له سيولة تُستساغ ؛ فيكاد يقف فى الحلْق ؛ والإنسان لا يأخذ الشىء جَرْعة جَرْعة إلا إذا كان لا يقدر على استمرار الجرعة ؛ ولكن هذا المشروب من الصديد لا يكاد يستسيغه مَنْ يتجرعه . ويقال : استساغ الشىء . أى : ابتلعه بسهولة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ.. ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : لا يكاد يبلعه بسهولة فطعْمُه وشكله غير مقبولين .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ.. ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : ينظر حوله فيجد الموت يحيط به من كل اتجاه ، لكنه لا يموت ، ويُفَاجأ بأن العذاب يحيط به من كل اتجاه مُصدِّقاً لقول الحق سبحانه :

---

(١) تجرعه : بلعه فى تكلف وتكرُّه [القاموس القويم : ١/١٢٠] . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٨٩) : « أى : يتحساه جُرعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته » .

(٢) ساغ الشراب فى الحلق إذا كان سلساً سهلاً . [لسان العرب ـ مادة : سوغ] .

﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾ [إبراهيم]

هكذا يتعذب الجبار المتعنت فى أمر الإيمان . وإذا قسْنَا العذاب الغليظ بأهونِ عذاب يلقَاهُ إنسان من النار لوجدنا أنه عَذابٌ فوق الاحتمال ؛ فها هو ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرجلٌ يُوضَع فى أَخْمَص[1] قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه »[2] .

فمَا بالُنَا بالعذاب الغليظ ، وقانا الله وإياكم شرَّه ؟

ويقول سبحانه من بعد ذلك قضية كونية :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) ﴾

وقد يأتى فى أذهان البعض ما يُشوِّه عقائد الإيمان ، فيقول : كيف يدخل فلانُ النار وهو مَنْ أهدى البشريةَ تلك المخترعات الهائلة التى غيَّرت مسارات الحضارة ، وأسعدتْ الناس ؟ كيف يُعذِّب الله هؤلاء الذين بذلوا الجهد ليطوروا من العلوم والفنون ، أيعذبهم لمجرد أنهم كفار ؟

(١) الأخمص : باطن القدم وما رقَّ من أسفلها وتجافى عن الأرض . [لسان العرب ـ مادة : خمص] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٦١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

وأقول : نعم ، يعذبهم الله على الرغم من أنه سبحانه لا يضيع عنده أَجْرُ مَنْ أحسنَ عملاً ؛ وهو قادر على أنْ يَجزيهم فى الدنيا بما ينالونه من مجد وشهرة وثروة ؛ وهم قد عملوا من أجل ذلك . وانطبق عليه قوله : « عملتَ ليُقال وقد قيل »[1] وأخذوا أجورهم مما عَملوا لهم ؛ ذلك أنهم عملوا ولَم يكُنْ فى بالهم الله .

وهكذا يصور القرآن مسألة الجزاء ، فالواحد من هؤلاء الكفار إذا كان يَلْقى العذاب الغليظ على الكفر ؛ فالحق لا يغمطه[2] أجر ما فعل من خير ؛ فينال ذلك فى الدنيا ويستمتع بإطلاق اسمه على اختراعه أو اكتشافه .

ونعلم جميعاً قوله ﷺ : « مَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[3] أما فى الآخرة فالعذاب جزاؤه ؛ لأنه عاش كافراً بالله .

وهذه الأعمال التى صنعوها فى الدنيا ، وظنُّوا أنها أعمالٌ إنسانية وأعمالُ برٍّ تأتى يوم القيامة وهى رماد تهبُّ عليه الريح الشديدة فى يوم عاصف لتذره بعيداً :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/٢٣ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى فى كتاب « الأحاديث القدسية » (١/١٣٥ ـ ١٥١) بتحقيقى .

(٢) غمط الحق : جحده . والغمط : كفران النعمة وسترها . [لسان العرب ـ مادة : غمط] .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

ولن تكون لديهم عندئذ فرصة لاستئناف الحياة ليستفيدوا من التجربة ؛ بل أمامهم وحولهم العذاب ؛ لسان حال كل منهم يقول :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

لكنه لو رُدَّ إلى الحياة لَعَاد إلى ما نُهِى عنه ، مصْداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

وهذا الكفر هو الضلال البعيد الذى جعل كل أعمالهم التى ظنُّوا أنها صالحة ؛ مجردَ أعمال مُحْبطة ؛ فضلُّوا بالكفر عن الطريق المُوصِّل إلى خير الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) ﴾

وسبحانه يُعلمنا هنا أنه خلق السماوات والأرض بميزان الحقِّ ؛ فلا تأتى السماء وتنطبق على الأرض ، فسبحانه القائل :

﴿ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج]

وأنت كلما سِرْتَ وجدتَ الشمس من فوقك ، وهى مرفوعة بنظام هندسىّ دقيق .

وهكذا أراد الحق سبحانه أن يُؤكِّد قضية كونية مُحسَّة مشهودة ؛ وبدأ بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

رغم أنه لا يوجد مع العَيْن أَيْن ؛ ذلك أن الشمس واضحةٌ أمام كُلِّ البشر ، وهكذا نجد أن معنى « ألم تَرَ » هنا تكون بمعنى « ألم تعلم » .

وجاء سبحانه بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا ليدلّنا على أن ما يُعلمنا الله به من حَقٍّ أصدق مما تُعلمنا به العين ؛ فإذا قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فهي تعنى : ألم تعلم علْماً مُؤكَّداً ؛ لأن عينيك ربما تَخُونك في الرؤيا ، أو تخدعك بالإبصار ، ولكن إذا قال لك الله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فاعلم أنه علم موثوق به .

وحين يلفتنا الحق سبحانه هنا إلى رؤية السماوات والأرض ؛ فكان لابُدَّ لنا أن نعلم أنها لم تَكُنْ لتُوجَد إلا بخَلْق الله لها ؛ وهو الذي أخبرنا أنها من خَلْقه ؛ ولم يدّعها أحدٌ لنفسه ؛ وبذلك تثبت له قضية خَلْقها إلى أنْ يقولَ آخر أنه خلقها ؛ ولم يَقُلْ لنا أحدٌ ذلك أبداً .

وسبق أن قال سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

والبشر كما نعلم لا يعيش فرد منهم مثْلما تعيش السماء ؛ فالفرد يموت ويُولَد غيره ؛ وكُلُّ البشر يأتون ويذهبون ، والشمس باقية ، وكذلك الأرض .

ومن عجيب الخَلْق الرحماني أن الله خلق كُلّ ذلك تسخيراً لأمر الإنسان ؛ فلا يشذّ كائن من تلك المُسخرات عن أمر الإنسان . وما طُلب منك أيُّها الإنسان تكليفاً أنت مُخيَّر فيه إنْ شئتَ آمنتَ ، وإنْ شئْتَ كَفرتَ ؛ وإنْ شئتَ أطعتَ ، وإن شئتَ عصيتَ .

ولكن المخلوق المُسخَّر لخدمتك ليست له هذه المشيئة . وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ(١) مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾

[الأحزاب]

وقد أعلمنا هذا القولُ الكريم بأن الرحمانية سبقتْ لنا نحن البشر من قبل خَلْقنا ، وأقدمتنا رحمانية الله على وجود مُهيَّأ لنا .

ومن العجيب أن الكونَ المخلوق لنا استبقاءً لحياتنا واستبقاءً لنوعنا يتركز فى أشياء لا دَخْل لنا فيها ، ولا تتغير أبداً ؛ وهى الأشياء العليا كالشمس والقمر والأرض .

وهناك أشياء أخرى يكون التغيير فيها على نوعين : قسم يتغير ويأتى بدلاً منه شيء جديد ، كالنبات الذى يذهب ويصير حصيداً ، وكذلك الحيوانات التى نأكلها أو التى تموت .

وهناك خَلْق يتغير مع إبقاء عناصره ، وإنْ تغيّرتْ مادته ، كالجمادات التى نراها ـ الجبال والأرض وعناصرها ـ ونكتشف منها كُلَّ يوم جديداً .

---

(١) أشفقن منها : ضقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [القاموس القويم ٣٥١/١] .

إذن : فالمخلوقات التى استقبلتْ الوجود الإنسانى نوعان : نوع لا دَخْل للأغيار فيها ؛ ونوع آخر فيه دَخْل للأغيار مع بقاء مادتها وهى الجمادات ؛ ونوع تتغير أنواعه وأجناسه .

كُلُّ هذه الأشياء تدلُّنا على أن الحقَّ سبحانه وتعالى له صِفَتان :

صفة القدرة والقهر ؛ وهو سبحانه يقهر ما يشاء على ما يشاء ؛ ولا يتغير .

وصفة الاختيار التى أوجدها فى الإنسان .

وأثبتت صفة القدرة التى سخَّر بها سبحانه لأشياء لخدمة الإنسان مُطْلق سلطانه سبحانه على كُلِّ ما خلق ؛ فلا شىءَ يخرج عن مراده أبداً .

وأراد سبحانه بصفة الاختيار التى وهبها للإنسان أنْ يأتيه عبده الإنسان محباً متبعاً لتكاليفه الإيمانية ، فالذى يطيع الله وهو قادر على أنْ يعصيه إنما يدلُّ بذلك على أنه مُحِبٌّ لله ؛ ويُثبِت له صفة المحبوبية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

ولنا أن نلحظ أن كلمة « بالحق » وردتْ فى مواقع كثيرة من القرآن الكريم .

وعلى سبيل المثال ، نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر]

وقوله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ[1] ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان]

وهذا يدلُّ على أن السماوات والأرض مخلوقة على هيئة ثابتة ، وقد جعل ذلك مدارسَ الفلسفة تستقبل تلك القضية استقبالين ؛ استقبالَ مَنْ يريد أنْ يؤمن ؛ واستقبال مَنْ يريد أنْ يكفرَ . وانقسم مَنْ أرادوا الكفر إلى فريقين .

الفريق الأول : أخذ من ثبات قوانين الشمس والقمر والأرض دليلاً على أنه لا يوجد خالق لهذا الكون ، وقالوا : لو أن هناك خالقاً له لغيّر من هيئة السماوات والأرض ، ولكن كُل من تلك الكواكب تدير نفسها بآلية ذاتية مُحْكمة .

والفريق الثانى ممَّنْ أرادوا الكفر قال : إن الشذوذ فى الكون ووجود خَلَلٍ وعيوب خَلقية فى بعض من المخلوقات والأنواع ؛ دليلٌ على أنه لا يوجد إله . فكيف يخلق إلهٌ مخلوقاً أعمى ؛ وآخر أعرجَ ؛ وثالثاً بعين واحدة ؟

وهكذا أخذ هذا الفريق من أهل الكفر وجود الشذوذ فى الكون كدليل على عدم وجود إله .

ومن العجيب أن الفريق الذى أراد التغيير فى هيئة السماوات والأرض ؛ أراد ذلك كدليل على وجود خالق ، والفريق الذى رأى أن هناك شذوذاً فى بعض المخلوقات أخذ ثبات الخَلْق على هيئة واحدة كدليل على وجود إله .

---

(١) لعب : عمل عملاً لا يُجدى عليه نفعاً . لاعبون : عابثون غير جادين . [القاموس القويم : ٢/١٩٤] .

كل ذلك يدلُّنا على أن الفريقين قد أخذا من قضيتين متعارضتين دليلاً على الكفر ، ولم يتفق الفريقان على قضية واحدة ، وهذا يوضح التناقض بينهما .

ولو أمعن كل من الفريقين النظر لَعلم كلٌّ منهما أن الإيمان ضرورة أساسية لفهْم هذا الكون على ثبات ما فيه ؛ وعلى وجود بعضٍ من الشذوذ فيه .

فأنت يا مَنْ تنتظر ثباتاً فى الأكوان خُذْ ثبات آلية الحركة فى السماوات والأرض والشمس والقمر دليلاً على الإيمان بوجود خالق إله قادر .

وأنت يا مَنْ تأخذ التغيُّر فى الخلق دليلاً على وجود خالق ؛ فها أنت ترى اختلاف بعض المخلوقات ما يجعلك تعثر على عدم التماثل فى المخلوقات دليلاً على وجود إله خالق له طلاقة القدرة .

وأوضح الحق سبحانه لنا أنه لم يخلق السماوات والأرض لعبة ؛ بل خلقهما بالحق ، وهناك فارق بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد يتوصل إليها مَنْ يعبث بشيء ؛ فتخرج له صُدْفة يستخدمها هو أو غيره كلُعبة .

يقول الحق :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [النحل]

أما الخلق بالحق ؛ فهذا يعنى أن مَنْ يخلقها إنما يفعل ذلك بموازين دقيقة مُحْكمة ؛ ويصنعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحكمة والحق .

وما دام الكون الأعلى ثابتاً ؛ فإن الحق سبحانه هو الذى خلق

السمـاوات والأرض ، وما دُمْتَ تريد ثبـاتاً فى حركـتك الاختـيارية ؛ فخُذ المنهج الذى أنزله الله بالحق ؛ فتثبت قـضاياك كما ثبتت القضايا العليا ؛ وأنت حين تخرج عن منهج الحق تجد فساداً .

وإذا أردتَ ألاَّ يوجد فـساد فى المـجتمع من أىّ لَـوْنٍ فابحث عن حكم الله الذى ضَيّعه الإنسـان فى مخالفة منهجه تجـد أنّ ضياعه هو السبب فى وجود الفساد ؛ واقرأ قوله الحق فى سورة الرحمن :

﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[1] (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ[2] وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وهكذا أنت ترى الشـمس ـ على سـبـيل المـثـال ـ منضـبطةً فى شروقها وغروبها وكُسُوفها ؛ وكذلك القمر فى سُطوعه أو مَحاقه[3] أو خسوفه .

وكمـا رفع الحق سبـحانه السـماء ووضع المـيزان ؛ فـعليكم أنْ تَزِنوا كُلَّ أمـر بالمـيـزان الصـحيح لـتنصلح أمـوركم ، فإن اعـتـدال الموازين المادية والمعنوية والقيمية هى استقرار لحركة الحياة .

أما إنْ ظللتُم على العِوَج فاعلموا أنه سبحانه قادر على أنْ يُذهبكم وأن يأتى بخَلْق جديد :

---

(١) البيان : النطق المعبّر عما فى النفس من معان وأفكار . [القاموس القويم : ١/٩٢] .

(٢) القـسط : العدل . وأقـسط : عـدل وأزال الظلم والجور . والقـسطاس : المـيزان والعـدل . [القاموس القويم ٢/١١٦] .

(٣) المحاق : آخـر الشهر إذا امّحق الهلال فلم يُرَ . وقـال ابن الأعرابى : سُمِّى المحاق مـحاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته فلم يرهُ أحد . [لسان العرب ـ مادة : محق] .

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ [إبراهيم]

إن منطوق الآن ومفهومها ليس مراده سبحانه ؛ لأن الله خلقَ الخَلْق ، ووهبهم الاختيار لِيُقبِل الخلق على الله ، رغم أنه سبحانه قد ملّكهم ألاَّ يُقبلوا عليه .

وفى موقع آخر يقول سبحانه :

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]

ويقول فى قضية إنكار اليهود لطريقة ميلاد المسيح عيسى بن مريم :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف]

إذن : فطلاقة قدرة الله التى خلقته بلا أب ، يمكن أن تفعل تلك القدرةُ المطلقة ما تشاء ، فلا شىء يتأبَّى على مراداتِ الحق ولا على قدراته .

ويقول فى موقع آخر :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج]

فلا أحد يسبق إرادة الله أو مشيئته .

ويقول الحق سبحانه مؤكداً أن قدرته على المجىء بخلق جديد ليست مسألة مستحيلة :

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

والشيء العزيز هو الشيء المُمْتنِع . والله سبحانه لا يُغْلَب . وقد بيَّن لنا في جزئيات الحياة أنه يذهب بنبات ويأتي بنبات آخر ، ويذهب بحيوان ويأتي بحيوان آخر ؛ وكذلك يذهب بالجماعة من البشر ويأتي بغيرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ[1] أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ[2] ﴿٢١﴾ ﴾

والبروز أن يظهر شيء كان خفياً . ويُقال « رجل بارز » أي : مرموق وقَيْد الأبصار ، ولا تُفتَح الدنيا إلا عليه ، ويُقال « امرأة بارزة » أي : امرأة تختلط بالرجال وغير مُستترة .

---

(١) الجزع : نقيض الصبر ، وهو ضعف النفس عن احتمال المكروه . [القاموس القويم ١٢٢/١] .

(٢) المحيص : المهرب والمفرّ . والمحايصة ، مفاعلة ، من الحيص العدول والهرب من الشيء [لسان العرب ـ مادة : حيص] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ..(٤٧) ﴾ [الكهف]

أى : سيرى كُلٌّ منا كُلّ الأرض فى اليوم الآخر وهى مكتملة ؛ لا جزء منها فقط كما يحدث فى حياتنا الدنيوية ؛ ذلك أن الحق سبحانه قد قال لنا :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ويُقال أيضاً « فرس بارز » وهو ما يطلق على الحصان الذى يفوز عند التسابق مع غيره ؛ ولا يستطيع فرس آخر أنْ يسبقه ؛ لذلك فهو فرس تراه العين أثناء السباق بوضوح .

ونعلم أن الخيْلَ فى لحظات السباق تثير أثناء تسابقها غباراً - أى : تراباً يُضبِّب المرئيات - فلا يرى أحد تفاصيل الموقع الذى تجرى فيه الخيول ؛ أما إذا ظهر فرس يسبق الجميعَ فلا خيول أخرى قريبة منه تثير غباراً يمنع رؤيته بارزاً واضحاً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ..(٢١) ﴾ [إبراهيم]

ولقائل أن يسأل : وهل كانت هناك أشياء خافية عنه سبحانه ثم برزت ؟

ونقول : إنه سبحانه مُنزَّه أن تَخْفى عنه خافية فى الأرض أو السماء أو الكون كله ، ولكن المقصود هنا أنهم يبرزون عند أنفسهم ، ويرون وجودهم واضحاً أمام الحق سبحانه .

وهم مِنْ قَبْل كانوا :

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨)﴾ [النساء]

وكانوا قد ظَنُّوا أنهم قادرون على أن يخفوا عن ربهم ما كانوا يفعلون ؛ ويُبيِّتون ويمكرون ؛ ونجدهم يوم القيامة مفضوحين أمام خالقهم ؛ حُكْمهم فى ذلك حُكْم كل الخَلْق .

أو : برز كل واحد منهم أمام نفسه ، ورأى نفسه أمام الله .

ونعلم أنه سبحانه قد خلق الخَلْق على لونين ؛ لونٍ مقهور فيه الإنسان ، ولا إرادةَ له ؛ ولَوْنٍ مُخيّر فيه الإنسان ، ونسبة ما منح فيه الإنسان الاختيار قليل ، إذا ما قيس بما ليس له فيه اختيار .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأنه علم أزلاً أن الإنسان الذى تعوّد على أنْ يتمرّد على الله ؛ فهو يُوضِّح له : أنت قد ألفْتَ التمرد وقَوْل « لا » ، وقد تُجاهر بالكفر ، وتحارب من أجله ، وتريد أن تخرج عن مرادات الحق ؛ فإنْ كنت صادقاً فى أن هذا الخروج ذاتىّ فيك ؛ فتمرّد على القهريات التى تنتابك .

ويعلم الإنسان بالتجربة أنه غَيْرُ قادر على ذلك ؛ فلا الفقيرَ يستطيع أن يثرَى دون مشيئة الله ؛ والمريض لا يستطيع أن يشفى دون مشيئة الله ؛ والضعيف لا يستطيع أن يقوى ضد إرادة الله .

وكل هذا يدل على أن ملكية الله لك لا تزال بالقهر فيك ؛ وسيأتى يوم يسلب منك الاختيار .

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وأنت تبرز بكُلِّ تكوينك لحظتها أمام نفسك ، وتجد الحق سبحانه أمامك . وأنت إما أن تكون بارزاً بكل تكويناتك أمام نفسك لحظة وقوفك أمام خالقك ، أو يكون المقصود بقوله الحق وقوف كل الخَلْق أمامه بارزين ، سواء أكانوا تابعين أو متبوعين .

ولحظتها سنجد قوله الحق مُطبقاً :

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا..(٢١)﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى أن هناك حواراً بين اثنين من البشر ؛ نوع مستكبر ، وهم القادة السادة الذين يُلْقون أوامرهم ؛ ليُنفِّذها الضِّعاف ، ثم يُفاجأ الضعاف التابعون أن رؤوسهم تساوتْ فى اليوم الآخر مع هؤلاء الأقوياء الجبابرة ؛ ويرونْ ما ينتظرهم جميعاً من عذاب ؛ فيسأل الضعاف أهلَ الجبروت :

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ (٢١)﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء المستكبرون سبق لهم أن استكبروا على هؤلاء الضِّعاف بما لهم من قوة وسيادة ، أو استكبروا على الرسل إيماناً كما أوضح الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن :

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وفى هذا القوْل استكبارٌ على الإيمان ، وكأنهم يُعدِّلون على الله ـ والعياذ بالله ـ مشيئته وواسع علمه الذى يختار به الرسل .

أو : أنهم قد استكبروا على أنفسهم فلم يؤمنوا ؛ أو : أنهم قد استكبروا على الأتباع بما لهم من جاه ونفوذ فلم يقدر الأتباع على مخالفتهم ؛ لذلك يقول لهم الأتباع لحظة تساوى الرؤوس :

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وهذا تقريع وخِزْى وفضيحة للتابع .

ونعلم أن الحق سبحانه قال فى موقع آخر من القرآن على لسان التابعين :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

وقد عرض الحق سبحانه هذه المسألة علينا لنتعلم من البداية كيف يكون ميزان التبعية ؟ وإياك أن تتبع فى أمر إلا إذا اقتنعتَ أنه يأتى لك بخير ، وأنه يدفع عنك الشر ، ولينتبه كل منا جيداً ولا يعطى زمام قيادة حركة الحياة إلا عن بينة .

وليتذكر كل منا قوله الحق :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر]

فحين يأتيك أمر مخالف لمنهج الله ؛ عليك أن تُعْلى منهج الله فوق كل أمر . وقد أوضح لنا الحق سبحانه ذلك كى ننتبه جيداً فلا نُلْقى زمام أمورنا لمن نتبع إلا برويّة وبحكمة ؛ أيدلُّنا على خير أم يدلُّنا على شر ؛ وهل يستطيع أن يدرأ عنا الشر ، وأن يُنجينا من الإصابة بمكروه ؟

فليكُنْ كُلٌّ منَّا على بـينة من أمره ، وقـد قال الحق سـبحـانه فى سورة الرحمن :

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرحمن]

والآلاء هى النعم ؛ ومن أَرْقى النعم هى تلك القيم التى أوضـحها لنا الحق سبحانه لنسيـر على هُدَاها فى الحياة الدنيا كى لا نُقبِل على الحياة بجهالة ؛ بل بتوضيح وتبيان لكل شىء .

وهكذا يجب أن يتصرف التابع مع المتبوع كى لا يقف فى موقف الخزى المشـترك بين الاثنين فى يوم الحساب ؛ حيث يقـول التابعون للمتبوعين :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ..﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذا القَوْل القرآنى يتكلم به ربُّ العالمين ؛ وكُلُّ حرف فيه لهدف ومعنى .

وقوله :

﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ..﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى أنهم لن يقدروا أنْ يُخفِّفـوا ولو جزءً بسيطاً من عذاب الله ، وكأنهم يُسـهِّلونـهـا عليهم ، فيطلبون منهم أن يتحمّـلوا ؛ أو أنْ يُخففوا عنهم ولو جزءً بسيطاً من العذاب .

والمثَلُ على ذلك حين يـطلب إنسـان من آخر جنيهاً ؛ فـيقول له :

ليس معى غيره ، فيردُّ الطالب : إذنْ اعطنى بعضاً منه ، وكأنه يطلب ولو رُبْعه أو عشرة قروش منه .

هكذا قال الذين اتبعوا لمن اتبعوهم ؛ فماذا يكون الرد من هؤلاء الذين تأبَّوْا على الله إيماناً به ؟ ها هم يردُّون على مَنْ سألوهم أنْ يُخفِّفوا ولو جزء قليلاً من العذاب :

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يتكشّف كذبهم ؛ فهم يدَّعُون أن معنى الهداية هو أنْ يهبَهُم اللهُ الإيمان ؛ مُتناسين أن معنى الهداية هو الدلالة المُوصِّلة إلى الغاية .

ولنَا فى قول الحق سبحانه ما يُوضِّح المعنى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ..(١٧) ﴾ [محمد]

فمَنْ يُقبل على الإيمان بصدر مُنشرح يجد كُلّ سُبل الخير أمامه ؛ أما مَنْ كفر فكيف يهديه الله ، وهو قد استحبّ العمى على الهُدى ؟ لن يجد بطبيعة الحال أيَّة هداية .

ويقول الكافرون ذلك لمَن اتبعوهم فى يوم الحشر ؛ ذلك أنهم يروْنَ رأى العين أن الجنة حَقٌّ ؛ والنار حَقٌّ ، والحساب حَقٌّ ؛ لذلك يعترفون أمام مَن اتبعوهم فى الدنيا بأن الحقَّ سبحانه لو أخذ بيدهم فى الحياة الدنيا إلى الإيمان لَقُدناكم إلى هذا الإيمان ؛ وهم فى ذلك أصحاب رأى مغلوط .

وذلك قولهم :

﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ..㉑﴾ [إبراهيم]

ونعلم أن الإنسان إذا ما وقع فى مأزق أقوى من قدراته ؛ ولا فَجْوة فيه للنجاة ؛ فهو يستقبل هذا المأزق بأحد استقبالين ؛ الاستقبال الأول : أن يجزعَ ويتضرعَ ؛ والاستقبال الثانى : أنْ يصمدَ ويصبرَ .

وهنا نجد الكافرين يقولون :

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ㉑﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم سواء جَزعوا وتضرَّعوا ، أو صبروا وصمدوا فلن يُنجيهم الله ممَّا هم فيه ؛ فلا مَهْرب ولا مَنْجى .

و « حاص » فى المكان أى : ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد راحة ؛ ونجد فى تعبيرنا العامىّ ما يُصوِّر ذلك وهو قولنا « فلان حايص » أى : لا يجد مكاناً يرتاح فيه .

ولذلك يقال « نَبَتْ بهم الأرض » ؛ أى : أن كُلَّ مكان فى الأرض يرفضهم ؛ ويشرح الحق سبحانه هذه القضية فيقول :

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ..١١٨﴾ [التوبة]

وهكذا نرى مَن نَبت بهم الأرض ؛ إنما لا تسعهم أنفسهم أيضاً بل تضيق عليهم ؛ ونسمع ممَّنْ يُنكّل بهم الحق فى الحياة الدنيا مَنْ يقول : « أنا لا أطيق نفسى » .

وهذا ما يحدث بالفعل لبعض من الناس فى لحظات الضيق ؛ فتضيق ذات أىٍّ منهم عن حَمْل ذاته ، وكأن الواحدَ منهم له ذاتان ؛ وكأن الواحد منهم له صورتان ؛ الصورة التى تُزيِّن الشهوة ؛ وحين تزيد عن الحَدِّ يعود إلى صورة كَارِه الشهوة ؛ وهو لا يسعَدُ فى الحالتين ؛ عشق الشهوة وكراهيتها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ (١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾

وهنا نجد تصعيداً للحوار ؛ فبعد أنْ كان من المتبوعين والتابعين ؛ نجد هذا الارتقاء فى الحوار ليكون بين الشيطان وبين البشر . ونلحظ أن الحق سبحانه هنا بالحال الذى يدور فيه الحوار وهو انقضاء الأمر(٢) ؛ حيث تقرَّر الوَضْع النهائى لكل شىء ؛

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . والمصرخ : الذى يزيل سبب الصَّريخ وسبب الصُّراخ. [القاموس القويم ١/ ٣٧٣] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٦٩٣) : « معنى ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] أى : حُصِّل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار » .

ولا نقاشَ فى أىِّ أمر ، ولا فرصةَ للتراجع عما حدثَ .

وقضاءُ الأمـر يعنى أن يذهب كل إنسان إلى مصيـره ، فمَنْ كان من أهل الجنة دخلهـا ؛ ومَنْ كان من أهل النار دخلـها ؛ فقـد وصلتْ الأمور إلى حَدِّها النهائى الذى لا تتغير من بعده .

ويفضح الشيطان نفسه فيقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ووَعْـد الله حَقٌّ ، لأنه وَعْد مـمَّنْ يملك ؛ أمـا وَعْد الشـيطان فقـد اخـتلف ؛ لأنه وَعْـد بمـا لا يملك ؛ لذلك هو وَعْـد كـاذب ؛ لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذى لا يتغير .

وحين تَعد أنت ـ الإنسان ـ إنساناً آخـر بخير قادم ؛ فهل تضمن أنْ تُواتيك ظروفك على أن تُحقِّق له هذا الأمر ؟

ولذلك يوصينا الحق سـبحانه أن نقـول « إن شاء الله »(١) وبذلك نردّ الوَعْد لله ؛ فهو وحده الذى يمكنه أنْ يَعِدَ ويُنفِّذ ما يعِد به .

وعلى الواحـد منا أنْ يحـمىَ نفســه من الكذب ، وأن يقـول « إن شاء الله » فـإنْ لم تسـتطع أنْ تحققَ مـا وعدت به تكون قـد حمـيتَ نفسك من أنْ تُلقِى اتهاماً بالكذب .

ونجد الشيطان وهو يقول فى الآخرة :

﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] .

ذلك أن وَعْده باطل ؛ والباطل لَجْلج[1] ، وحين تحكم به الآن تُثبت لك الوقائع عكسه ، وتجعلك لا تصدق ما حكمتَ به .

ولذلك نجد الحق سبحانه يوضح لنا المسافة بين الحق والباطل فيقول :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وهكذا يحاول الشيطان أن يُبرِّىء نفسه رغم علْمه أنه قد وعد ، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به ؛ ولذلك يحاول أن يلصق التهمة بِمَنْ اتبعوه مثله مثل أولئك الذين قالوا :

﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيقول الشيطان من بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والسلطان ـ كما نعلم ـ إما سلطانَ قَهْر أو سلطانَ إقناع . وسلطان القَهْر يعنى أن يملك أحدٌ من القوة ما يقهر به غيره على أنْ يفعلَ ما يكره ، بينما يكون كارهاً للفعل .

(١) اللجلجة : أن يتكلم الرجل بلسان غير بيّن . واللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام . واللجلج : المختلط الذى ليس بمستقيم . والحق أبلج ، أى : مضىء مستقيم . [لسان العرب ـ مادة : لجج] .

(٢) جفأ الوادى غثاءه : رمى بالزَّبَد والقذى . واسم الزبد : الجفاء . والجفاء : الباطل . [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

أما سلطان الحجة فهو أن يملك منطقاً يجعلك تعمل وفق ما يطلبه منك وتحب ما تفعل ، وهكذا يعترف الشيطان للبشر يوم الحشر الأعظم ؛ ويقول : أريد أنْ أناقشكم ؛ هل كان لى سلطان قَهْرىّ أقهركم به ؟ هل كان لى سلطان إقناع أقنعكم به على اتباع طريقى ؟

لم يكن لى فى دنياكم هذه ولا تلك ، فلا تتهمونى ولا تجعلونى « شماعة » تُعلِّقون علىّ أخطاءكم ؛ فقد غويتُ من قبلكم وخالفتُ أمر ربى ؛ ولم يكن لى عليكم سلطان سوى أن دعوتُكم فاستجبتم لى .

وكل ما كان لى عندكم أنِّى حرَّكْتُ فيكم نوازع أنفسكم ، وتحرَّكت نوازع أنفسكم من بعد ذلك لِتُقبلوا على المعصية .

إذن : فالشيطان إما أنْ يُحرِّك نوازع النفس ؛ أو يترك النفس تتحرك بنوازعها إلى المعصية ؛ وهى كافية لذلك .

وسبق أنْ أوضحتُ كيف تُعْرف المعصية ، إن كانت من الشيطان تسويلاً استقلالياً أو تسويلاً تبعياً ؛ فإنْ وقفتْ النفس عند معصية بعينها ؛ وكلما أبعدها الإنسان تُلِح عليه ؛ فهذا هو ما تريده النفس من الإنسان حيث تطلب معصية بعينها .

أما نَزْغ(١) الشيطان فهو أن ينتقل الشيطان من معصية إلى أخرى محاولاً غواية الإنسان ؛ إنْ وجده رافضاً لمعصية ما ؛ انتقل بالغواية إلى غيرها ؛ لأن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أىِّ لَوْن ؛ فالمهم أنْ يعصى فقط ؛ لذلك يحاول أن يدخل إلى الإنسان من نقطة

(١) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ ما بين الرجلين : أفسد ما بينهما . [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

ضعفه ؛ فإنْ وجده قوياً فى ناحية اتجه إلى أخرى .

ويعلن الشيطان أنه ليس الملُوم على ذلك :

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

فالملُوم هنا هو مَنْ أقبل على المعصية ؛ لا مَنْ أغوى بها .

ويستمر الحق سبحانه فى فَضْح ما يقوله الشيطان لمَنْ أغواهم فى اليوم الآخر :

﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

هذا هو قَوْل الشيطان الذى سبق وأنْ تعالى على آدم لحظة أنْ طلب منه الحق سبحانه أن يسجدَ له مع الملائكة ؛ ولكن الموقف هنا هو التساوى بين الذين أغواهم وبينه ؛ فهو يعلن أنه لن ينفعهم وهم لن ينفعونه .

والمُصْرِخ من مادة الصُّراخ من صرخ ، وهو رَفْع الصوت بغرض أن يسمعه غيره ؛ ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئاً آخر غير المعونة فلو أن أحداً عثر على كنز تحت قدميه فلن يصرخ ؛ بل يتلفَّت حوله ليرى : هل هناك مَنْ رآه أم لا ؟

أما إنْ هاجمه أسد فلا بُدَّ أن يصرخ طالباً النجاة ، وهكذا يكون الصراخ له مَأْرب طَلبِ المعونة ؛ وهذا لا يتأتَّى إلا ممَّنْ يخاف من مُفزِع .

و « مُصرِخ » يدل علىٰ الفعل « أصرخ » ، وهو فعل دخلت عليه ما يُسمّى فى اللغة « همزة الإزالة » . والمثل هو كلمة « معجم » أى : الذى يدلُّك على معنى لفظ ليُزيلَ إبهامه ؛ فيقال « أعجم الكتاب » أى : أزال إبهامه ، وهذه الهمزة التى دخلتْ تُوضِّح إزالة العُجْمة عن الكلمة .

والمثل أيضاً على هذه الهمزة ؛ هو كلمة « عتب » أى : لامه ، وحين تدخل عليها الهمزة تصبح « أعتب » أى : أزال ما به عَتَب .

ونجد فى دعائه ﷺ قوله الشريف : « لك العُتْبى حتى ترضى»[1] .

أى : إذا كُنتَ يا ربّ تعتب علىَّ فى أىِّ شىء ؛ فأنا أدعوك أن تُزيل هذا العتب .

وهكذا نجد أن الإزالة تأتى مرة بإضافة الهمزة ؛ ومرة تأتى بالتضعيف ؛ مثل قولنا « مرَّض الطبيب مريضه » أى : أزال عنه ـ بإذن من الله ـ مرضه .

إذن : « مُصْرِخ » هو مَنْ يُزيل صراخ آخر ؛ فكأن هناك مَن استغاث ؛ فجاءه مَنْ يُغيثه . وهكذا يعلن الشيطان فى اليوم الآخر أنه ومَنْ أغواهم فى مأزق ؛ وأنه غَيْر قادر على إزالة سبب هذا المأزق ؛ ولا هُمْ بقادرين على إزالة سبب مأزقه ؛ ولن يُغيث أحدهما الآخر .

---

(١) دعاء دعا به رسول الله ﷺ بعد إيذاء أهل الطائف له ، فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى .. لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٥) ، وابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) .

ويضيف :

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

فأنتم أشركتمونى مع الله فى الطاعة ؛ حين استسلمتُم لغوايتى ؛ ولم تكونوا من عباد الله المُخْلصين الذين أقسمتُ أنا بعزة الله ألاَّ أُغويهم[1] ؛ وكل منكم نفذ ما أغويته به ؛ فناديتكم واستجبتُم ؛ وناداكم الله فعصيتُم أو كفرتم . وصِرْتم مِثْلى ، فقد سبق لى أن أمرنى الله وعصيتُ .

ويقول الحق سبحانه ما يجيء على لسان الشيطان لمَنْ كفر وعصى :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

وهذه قضية عامة ، قضية الكفر فى القمة ، فكمَا أطعتُم الشيطان وجعلتموه شريكاً لله ؛ فها هو الشيطان يُخبركم بتقدير هذا الموقف ؛ بأنه شِرْك بالله ؛ وهو يعلن الكفر بهذا ؛ لأن يوم الحشر قد جاء ؛ وتحقق فيه قول الله له :

﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ[2] (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾ [الحجر]

وكان الشيطان من قبل اليوم المعلوم - وهو اليوم الآخر - يندسُّ

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] .

(٢) أنظره : أخَّره وأمهله وتأنَّى عليه . وقوله تعالى : ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف] أى : أمهلنى وأخر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

ويُوسـوس وينزغ ؛ أمـا فى ذلك اليوم فـقـد برز كل شىء من إنس وجن وكل الكائنات أمام الواحـد القهار ، ولم يَعُدْ هناك مـا يَخْفى عن العين .

وهذا ما خدعـوا به أنفسـهم ، وظنُّوا أنهم قادرون عـلى أن يُخفوا ما فعلوه عن أَعْيُن الله ؛ ولذلك نجد الحديث القدسى يقول :

« يا بنى آدم ، إنْ كنـتم تعـتـقـدون أنِّى لا أراكم ، فـالخَلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقـدون أنِّى أراكم فلِم جَعَلْتمونى أهونَ الناظرين إليكم » .

وأنت فى حياتك اليومية لا تجد مَنْ يسرق من آخر وجهاً لوجه ؛ ولا أحد يـحرق بيت أحـدٍ أمام عينـيه ؛ فإنْ كـنتم يا معـشر البـشر لا تفعلون ذلك مع بعضكم البـعض ؛ فكيف تفعلون ذلك مع خالقكم ؛ فتعصونه .

وإنْ شككتُم أنه لا يراكم فالخلل فى إيمانكم ؛ وإنْ كنتم تعتقدون أنه يراكم فلا تجعلـوه أهونَ الناظرين إليكم ، لأنه لو نظر إليك إنسان فأنت لا تجرؤ على أن تصنع له ما يكرهه .

ولذلك يقول الشيطان معترفاً ومُقراً بأن الظالمين لهم عذاب أليم ، والظلم فى القمة هو الشرك بالله :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

وحين نـقرأ ذلك إما أنْ نأخـذه على أنه إقرار من الشـيطان ؛ أو نفهمه على أن الشيطان قد قال :

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ..﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه بعدها تلك القضية العامة :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

فبعد أن تكلم سبحانه عن بروز الخَلْق والكائنات ؛ ثم الحوار بين الضعفاء والسادة ؛ ثم الحوار بين الشيطان وبين أهل الكفر والمعصية ؛ يأتى بالقضية النهائية فى الحكم :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

والمناسبات توحى بمقابلاتها ؛ لتكون النفس مُتشوِّقة ومُتقبِّلة لهذا المقابل ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار]

ويأتى بعدها بالمقابل لها :

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار]

فكما جاء بمقابل الأشقياء ؛ لا بُدّ أن يفتح القلوب لتنعم بسعادة مصير وجزاء الذين سُعِدوا بالإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾

وهنا جاء الفعل ، ويمكن نسبته إلى ثلاث جهات . ولكل جهة مَلْحظ ؛ فمرّة يُسنَد الفعل لله سبحانه ، ومرّة يُنسب الفعل للملائكة الذين يتلقوْن الأمر من الله بإدخال المؤمنين الجنة ؛ ومرّة للمؤمنين الذين يدخلون الجنة بإذن الله .

فالله أدخلهم إذْناً ؛ والملائكة المُوكَّلون فتحوا أبواب الجنة لهم ؛ والمؤمنون دخلوا بالفعل .

وهكذا يكون لكُلٍّ مَلْحظ .

وهناك قراءة أخرى للآية توضح ذلك :

« وأُدْخِلُ[1] الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة » والمتكلم هنا هو الله . ونلحظ أن الله قال هنا :

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .. (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

لكى تضم كلمة « أدخل » أنه سبحانه أذن بدخولهم ؛ لأنه قال فى نفس الآية :

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

وأن الملائكة المُكلّفين بذلك فتحوا لهم أبوابها . والمؤمنون دخلوها كل ذلك بإذن الله .

ونلحظ أن كُلَّ الكلام هنا عن الجنات ؛ فما هى الجنات ؟

---

(١) هذه قراءة الحسن « وأُدخِلُ » على الاستقبال والاستئناف . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٩٦) .

ونقول : إن الجنة فى أصل اللغة هى السَّتْر ، ومنها الجنون أى : سَتْر العقل ، والمادة هى : الجيم والنون ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر ؛ لأن أشجارها تستره .

أو : أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ؛ لأن كل خير فيها لا يُلجئه أن يخرج منها .

وتُطلق الجنات على ما فى الدنيا أيضاً ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة]

ولنا أن نعرف أن الجنةَ غَيْر المساكن التى فى الجنة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٧٢) ﴾ [التوبة]

والجنة - ولله المثَل الأعلى - هى الحديقة الواسعة ؛ وهذا الاتساع مُوزّع على كل مَرْأى عَيْن . والإنسان - بعجائب تكوينه - يُحب أن يتخصص فى مكان مرة ؛ ويحب أن ينتشر فى مكان مرة أخرى ؛ فيستأجر شقة أو يبنى لنفسه بيتاً مستقلاً « فيللا » . وفى البيت أو الفيللا يحب الإنسان أن تكون له حجرة خاصة لا يدخلها غيره .

والإنسان يُقيِّم الأشياء على هذا الأساس ؛ فينظر مَنْ يرغب فى شراء قطعة أرض ليبنى عليها بيتاً : أهى تُطِلّ على حارة أم على شارع ؟ وهل سيستطيع أنْ يعلوَ بالبناء إلى عدة أدوار أم لا ؟ وهل

سيخصص قطعة من الأرض كحديقة أم لا ؟

فإنْ كانت الأرض تُطل على الفضاء ، فحساب المتر ليس بالثمن المدفوع فيه ؛ ولكن بقيمة ما يتيحه من اتساع أُفق وفضاء من مزارع أو على البحر مثلاً ، حيث لن يتطفلَ عليك أحدٌ فى هذا المكان .

والجنات بهذا الشكل التقريبى ؛ هى أماكن مُتسعة ، وكل مَنْ يدخلها له فيها مساكن طيبة ، تلك الجنات تجرى من تحتها الأنهار . ومَنْ يدخلونها :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ .. (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

ذلك أن الإنسان يحب التنعُّم ؛ ولكن كل تنعُّم فى الدنيا هناك ما يُنغِّصه ، وهل يدوم أم لا يدوم ؟ وكل منّا رأى أُناساً عاشت فى نعيم ؛ ثم نُزِع منها بحكم الأغيار ؛ أو تركوه بحكم الموت .

أما جنة الله ونعيمها فالأمر مختلف ؛ ذلك أن النعيم هناك لا يفوتُك ولا تفوته ؛ لأنه على قَدْر إمكانات ربِّك .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح أن الخلودَ فى الجنة دائمٌ بإذن من الله .

ويتابع سبحانه :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

والتحية هو ما يواجه به الإنسان أخاه إثباتاً لسروره بلقائه ؛

ولذلك تأتى التحية على مقدار السرور ؛ فمرّة تكون التحية بمجرد رَفْع اليد دون مُصَافحة ؛ وقد لا تكتفى بذلك فى حالة ازدياد المعزَّة التى لصاحبك عندك ؛ فتصافحه ؛ وقد تأخذه فى أحضانك ، وهكذا ترتقى فى التحية ، وهى إعلانُ السرورِ باللقاء .

وتحيةُ الجنة هى السلام ؛ لأن السلام أمنُ كل إنسان ؛ سلامٌ مع نفسك ؛ فلا تُكدِّرها بحديث النفس الذى يندم على ما فات ؛ أو الحُلْم بعمل قادم ، فالسلام فى الجنة لن تجد فيه مُنغِّصات من الماضى أو الحاضر أو المستقبل ؛ وتنسجم مع كل ما حَولك فى الكون ؛ الجماد ؛ النبات ؛ البشر ؛ الملائكة .

ولذلك قال الحق سبحانه تذييلاً لهذه الآية :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

وهذه أفضلُ نعمة ، وهى الحياة فى سلامٍ وأَمْن ، وبعد ذلك تدخُل الملائكة عليهم مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم[1] مِّن كُلِّ بَابٍ[2] (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

ثم يُلقَّون السلام الأعلى من الله ؛ وهو القائل :

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

---

(١) قال سعيد بن جبير : يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله ما ليس لهم فى جنات عدن . [الدر المنثور ٤/٦٣٩] .

(٢) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٤) .

وبعد أن شرح الحق سبحانه أحوال أهل القُرْب والسعادة ، وأهل البُعْد والشقاء ، أراد عز وجل أن يضرب لنا مثلاً يوضح فيه الفارق بين منهج السعداء الذين عاشوا بمنهج الله ، ومنهج الأشقياء الذين اتبعوا مناهج شتى غير منهج الله ، فقال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا[1] ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا[2] كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

والمَثَل هو الشيء الذي يوضح بالجلي الخفي . وأنت تقول لصديق لك : هل رأيتَ فلاناً ؟ فيقول لك : لا لم أَرَه ؛ فتقول له : إنه يُشبه صديقنا علان . وهكذا توضح أنت مَنْ خَفِي عن مُخَيلة صديقك بمَنْ هو واضح الصورة في مُخَيلته . .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّة ، كي ينقل المعاني إلى أذهاننا ؛ لأن الإنسان له إِلْفٌ بالمُحسِّ ؛ وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسية أولاً ، ثم تحقق له المعاني بعد ذلك .

---

(١) أصل الشيء : أساسه وقاعدته التي يقوم عليها ويكون في أسفله . [القاموس القويم ٢١/١] .

(٢) الأكل : ثمر النخل والشجر ، وكل ما يؤكل فهو أُكل . [لسان العرب ـ مادة : أكل] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وقد قال الكافرون : أيضرب الحق مثلاً ببعوضة ؟ ذلك أنهم لم يعرفوا أن البعوضة لها حياة ، وفيها حركة كأىِّ كائن ؛ وتركيبها التشريحى يتشابه مع التركيب التشريحى لكل الأحياء فى التفاصيل ؛ ويؤدى كل الوظائف الحيوية المطلوبة منه .

ولا أحدَ غير الدارسين لعلم الحشرات يمكن أن يعرف كيف تتنفس ، أو كيف تهضم طعامها ؛ ولا كيفية وجود جهاز دمویّ فيها ؛ أو مكان الغُدد الخاصة بها ؛ وهى حشرة دقيقة الصنع .

وهو سبحانه ضرب الأمثال الكثيرة ليُوضِّح الأمر الخفىّ بأمر جلىّ . ومن بعد ذلك ينتشر المثَل بين الناس . ونقول : إن كلمة « ضرب » مثلها مثل « ضرب العملة » ، وكان الناس قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُشكِّلونها بقدْر وشكْل مُحدّد لتدُل على قيمة ما ، وتصير بذلك عُملْة متداولة ، ويُقَال - أيضاً - « ضُرِب فى مصر » أى : اعتمد وصار أمراً واقعاً . وكذلك المثَل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

والمثل الذى يضربه الحق سبحانه هنا هو الكلمة الطيبة ؛ ولها أربع خصائص :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

أى : تعطيك طيباً تستريح له نفسُك ؛ إما منظراً أو رائحة أو ثماراً ؛ أو كُل ذلك مجتمعاً ؛ فقوله :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يُوحى بأن كُلّ الحواس تجد فيها ما يُريحها ؛ وكلمة « طيبة » مأخوذة من الطِّيب فى جميع وسائل الإحساس .

فالخاصية الأولى ، أنها شجرة طيبة ، أما الخاصية الثانية فهى أن أصلها ثابت ، كإيمان المؤمن المحب ، والثالثة أن فروعها فى السماء ، وهذا دليل أيضاً على ثبات الأصل وطيب منبتها .

أما الخاصية الرابعة فهى أن تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أى : فيها عطاء المدد الذى لا يعرف الحد ولا العدد ، وهى تدل على صفات المؤمنين المحبين .

وبما أنها شجرة طيبة ؛ فهى كائن نباتىّ لا بُدّ لها من أن تتغذّى لتحفظ مُقوِّمات حياتها . ومُقوِّمات حياة النبات توجد فى الأرض ، فإنْ كانت الشجرة مُخَلْخَلة وغير ثابتة فهى لن تستطيع أن تأخذ غذاءها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن تلك الشجرة :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

وكلنا نظن أن الشجرة تأخذ غذاءها من الجذور فقط ؛ ولكن الحقيقة العلمية تؤكد أن الشجرة تأخذ خمسة بالمائة من غذائها عبْر

الجذور ؛ والباقى تأخذه من الهواء ، وكلما كان الهواء نظيفاً فالشجرة تنمو بأقصى ما فيها من طاقة حتى تكاد أن تبلغ فروعها السماء .

أما إنْ كانت البيئة غيرَ نظيفة وملُوّثة ؛ فالهواء يكون غيرَ نظيف بما لا يسمح للشجرة أن تنمو النمو المناسب ؛ فتمُرُّ الأغيار غير المناسبة على الشجرة ، فلا تستخلص منها الغذاء المناسب ، ولا تنمو النمو المناسب .

اللهم إلا إذا نزل عليها المطر فيغسل أوراقها .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : أنها تأخذ من الأرض .

وقوله :

﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يُبيِّن أنها تأخذ من أعلى .

ويتابع سبحانه :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ..(٢٥) ﴾ [إبراهيم]

والأُكُل هو ما يُؤْكل ويُتمتَّع به ، ولكنّا لا نأخذ المعنى هنا على ما يُؤْكَل بالفم فقط ؛ ذلك أن هناك أشجاراً ونباتات طيبة ؛ لأن مزاجَ الكون العام يتطلبها ؛ فالظل مثلاً يُستفاد منه ؛ وكذلك هناك أشجار يتفاعل وجودها مع الأثير ؛ ويأخذ منها رائحة طيبة .

والمثل فى ذلك : الطفل البدوىّ الذى شاهد نخيل جيرانه مثمراً بالبلح ، ولكن النخلة التى يملكونها غير مثمرة ، وتساءل : لماذا ؟ وذهب ليقطعها ، فلحقه والده ومنعه من ذلك ، وقال له : إن نخلتنا هى الذكر الذى يُنتج اللقاح اللازم لبقية النخيل كى تثمر .

ولذلك فأنا لا أوافق المفسرين الذين ذهبوا إلى تفسير قوله الحق :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

بأنها مثل شجرة التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة ؛ ذلك أن كل شجرة حتى ولو كانت شجرة حَنْظل فهى طيبة بفائدتها التى أودعها الحق إياها ؛ فشجرة الحنظل نأخذ منها دواءً - قد يكون مرير الطَّعْم - لكنه يشفى بعضاً من الأمراض بإذن الله .

ذلك أن كل ما هو موصوف بشجرة له مهمة طيِّبة فى هذا الكون . وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

يدلُّنا على أن هناك قدراً مشتركاً بين الشجر كله ؛ مثمراً بما نراه من فاكهة أو غير ذلك .

وقد نبّهنا العلْم الحديث إلى أن كل خُضْرة إنما تُنَقِّى الجو بما تأخذ منه من ثانى أوكسيد الكربون ، وبما تضيف لنا من أوكسجين ؛ وتستمر الخضرة فى ذلك نهاراً ؛ وتقلب مهمتها بإرسال ثانى أوكسيد الكربون ليلاً وامتصاص الأوكسجين ، وكأنها مُبَرْمجة على فَهْم أن النهار يقتضى الحركة .

ويحتاج الكائن الحى فيه إلى المزيد من وقود الحركة وهو الأوكسجين ؛ والإنسان أثناء الحركة يستهلك كمية كبيرة من

الأوكسجين ؛ ونجد مَنْ يصعد سلّماً ينهج لأن رئتيه تحاولان امتصاص أكبر قَدْر من الأوكسجين ليؤكسد الدم ، وينتج الطاقة اللازمة للصعود . وهكذا نجد كل خُضْرة إنما تقوم بوظائف محددة لها سلفاً من قبل الخالق الأعلى .

ولذلك اختلف العلماء عند تفسير :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

فمنهم مَنْ قال : إن « الحين » يُطْلق على اللحظة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ(١) (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة]

وقال مُفسِّر(٢) آخر : إن « الحين » يُقصد به الصباح والمساء ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ .. (١٧) ﴾ [الروم]

وأقول : فلننتبه إلى أن « الحين » هو الوقت الذي يحين فيه المقدور ؛ فإذا كان الحين هو لحظة بلوغ الرُّوح إلى الحُلْقوم ؛ فهذه اللحظة هي المراد بـ « الحين » هنا ، وإذا كان المقصود بها زمناً

---

(١) الحلقوم : الحلق . وهو علمياً الآن : هو تجويف خلف تجويف الفم وفيه ست فتحات : فتحة الفم ، وفتحتا المنخرين ، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المرىء ، أما النفَس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة . [القاموس القويم ١/١٦٧] .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٥/٣٦٩٨) أقوالاً : « قال الربيع : « كل حين » غدوة وعشية . وقاله ابن عباس . وقال الضحاك : كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفاً يؤكل في جميع الأوقات » . ثم قال : « وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره » .

أطول من ذلك ؛ صباحاً أو مساء ؛ فهذا الزمن ينسحب عليه معنى الحين .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة]

والبأس يعنى الحرب ؛ ومُدة الحرب قد تطول . وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) ﴾ [الأعراف]

وهكذا يكون معنى « الحين » هنا هو الأجل غير المُسمّى الذى يمتد إلى أن تتبدّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماء غير السماء . إذن : فلا يوجد توقيت مُحدد المدة يمكن أن نُحدد به معنى « حين » .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وضَرْب المثل معناه إيقاع شىء صغير ليدل على شىء كبير ؛ أو بشىء جلىّ ليدل على شىء خفىّ ؛ ليُقرِّب المعنويات إلى وسائل الإدراكات الأولى ، وهى مُدْركات الحِسِّ من سمع وبصر وبقية وسائل الإدراك .

وحين تأتى المعانى التى تناسب الطموح العقلى ؛ فالإنسان يتجاوز مرحلة الحِسِّ إلى المعلومات المعنوية ؛ فيقربها الحق سبحانه بأن يضرب لنا الأمثال التى توصل لنا المعنى المطلوب إيصاله .

والحق سبحانه لا يستحى - كما قال - أنْ يضربَ مثلاً بالبعوضة وما فوقها[1] . والبعض من المستشرقين يقول : ولماذا لم يَقُلْ « وما تحتها » ؟ .

ونقول لِمَنْ يقول ذلك : أنت لم تفهم اللغة العربية ؛ لذلك لم تستقبل القرآن بالملَكة العربية ؛ ذلك أن المَثل يُضرَب بالشيء الدقيق ؛ وما فوق الدقيق هو الأدقُّ .

والحق سبحانه يضرب لنا المَثل للحياة الدنيا ، وهى الحياة التى من لَدُن خَلْق الله للإنسان ؛ ذلك أنه كانت هناك أجناسٌ أخرى قبل الإنسان ، وهو سبحانه هنا يُوضِّح لنا بالمثَل ما يخص الحياة من لحظة خَلْق آدم إلى أنْ تقومَ الساعة ، وهو يطويها - تلك الحياة الطويلة العريضة التى تستغرق أعمار أجيالٍ - ويعطيها لنا فى صورة مَثَلٍ موجز ، فيقول لنا :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[2] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٦٤) : « معنى الآية أنه تعالى لا يستنكف أن يضرب مثلاً ما أى مثل كان بأى شىء كان صغيراً أو كبيراً ، وما ههنا للتقليل . وقال الربيع بن أنس : هذا مثل ضربه الله للدنيا ، أن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن إذا امتلأوا من الدنيا رياً أخذهم الله عند ذلك ».

(٢) الهشيم : النبت اليابس المتكسر . وهو ما يبس من الورق وتكسر وتحطم ، فبلغ الغاية فى اليبس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب - مادة : هشم] .

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة كلها فى هذا المثل من ماء ينزل ونبات ينمو لينضج ثم تذروه[1] الرياح .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ[2] أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ[3] فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٢٠) ﴾ [الحديد]

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة الدنيا بطُولها وعَرْضها فى هذا المَثل البسيط لنرى ما يُوضِّح لنا المعانى الخفية فى صورة مُحسَّة بحيث يستطيع العقل الفطرى أن يُدرِك ما يريده الله منها .

ونعلم أن المُحسَّات تدرك أولاً بعض الأشياء ؛ ثم ترتقى إلى مرتبة التخيُّل ؛ ثم يأتى التوهُّم ؛ فمراحل الإدراك للأشياء الخفية هى الحِس أولاً ؛ ثم التخيل ثانياً ؛ ثم التوهم ثالثاً .

والتخيُّل هو أن تجمع صورة كلية ليس لها وجود فى الخارج ؛ وإنْ كانت مُكوَّنة من مادة وأشياء موجودة فى هذا الخارج . والمَثل على ذلك هو قول الشاعر الذى أراد أنْ يصف الوَشْم على يد حبيبته ، فقال :

---

(١) ذرا الهواء الشىء يذروه ذرواً : أطاره وبدده . [القاموس القويم ١/٢٤٣] .

(٢) الغيث : المطر . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] يحتمل أنه كمثل مطر أعجب الكفار ما خرج بسببه من نبات ، ويحتمل أنه كزرع أعجب الكفار نموه ونباته . [القاموس القويم ٢/٦٥] .

(٣) أهاجت الريح النبت : أيبسته . أى جعلته جافاً قد ذهبت رطوبته . [لسان العرب - مادة : هيج] .

خـــوض كـأنَّ بَنـانَهـــا فى نَقْشـه الوَشْم المُـزرد[١]
سَـمكٌ مـن البِلَّـور فى شَـبَكٍ تكوَّن من زَبرجَـد[٢]

وحـين تبحث فى الصـورة الكليـة لتلك الأبيـات من الشعـر ؛ لن تجـدها مـوجـودة فى الواقع ؛ ولكـن الشـاعـر أوجـدها من مُكوِّنات ومُفْـردات موجودة فى الواقع ؛ فالسـمك موجوْد ومـعروف ؛ والبلَّور موجود ومعروف ؛ وكذلك الشَّبك والزبرجد ، وقام الشاعر بنسج تلك الصورة غير المـوجودة من أشياء موجودة بالفـعل ، وهذا هو الخيال الذى يُقرِّب المعنى .

والتوهُّم يختلف عـن الخيال ؛ فإذا كان التـخيُّل هو تكوين صورة غير موجودة فى الواقع من مفردات موجودة فى هذا الواقع ؛ فالتوهُّم هو صـورة غـيـر موجـودة فى الواقع ، ومُـكوَّن من مـفردات غـيـر موجودة فى الواقع .

والحق سبحانه يقول لنا عن الجنة :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ .. (٧١) ﴾ [الزخرف]

ويشرح الرسول ﷺ ذلك بمذكرة تفسيرية ، فيقول : « فيها مَا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خَطَرَ على قَلْب بشر »[٣] .

---

(١) الخوضـة : اللؤلؤة . والبنان : أطراف الأصابـع . والزَّرْد : هو تداخل حلق الدرع بعضـها فى بعض كالشبكة .

(٢) الزبرجد : الزمرد . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) أخرج مـسلم فى صـحـيحه (٢٨٢٤) من حـديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قـال الله عز وجل : وأعددت لعـبادى الصالحـين ما لا عين رأت ، ولا أذن سـمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] » .

والعَيْن وسيلة إدراك وحسٍّ ؛ وكذلك الأذن ، أما ما لا يخطر على القلب فهو ليشرحه الخيال أو الوَهْم .

وهكذا نعلم لماذا يضرب الله لنا الأمثال ؛ ليُوجِز لنا ما يشرح ويُوضِّح بأشياء قريبة من الفهم البشرى .

وأنت حين تريد أن تكتب لصديق ؛ فقد تُمسك الورقة والقلم وتُدبِّج رسالة طويلة ؛ ولكن إنْ كنتَ تملك وقتك فستحاول أنْ تُركِّز كل المعانى فى كلمات قليلة .

وكلنا يذكر ما كتبه سعد زغلول[1] زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية لواحد من أصدقائه بعد أن سطَّر له رسالة فى خمس صفحات ؛ وأنهاها : « إنى أعتذر عن الإطالة فى الخطاب ، فلم يكُنْ عندى وقت للإيجاز » وذلك لأن مَنْ يُوجِز إنما يضع معانى كثيرة فى كلمات قليلة .

وحين طلب أحد القادة المسلمين النُّصْرة من خالد بن الوليد ؛ وكان القائد الذى يطلب المساعدة مُحَاصَراً ؛ وأرسل لخالد بن الوليد كلمتين اثنتين « إياك أريد » ، وهكذا اختصر القائد المحاصر ما يرغب إيصاله إلى مَنْ ينجده ، بإيجاز شديد .

والشاعر يقول :

إِذَا أرادَ الله نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلاَ اشتعالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ[2] العُودِ

---

(١) هو : سعد إبراهيم زغلول ، ولد فى « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م تعلم فى كتّاب القرية ، ودخل الأزهر ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، تولى وزارة المعارف ووزارة الحقانية (العدل) ، أصبح رمزاً للثورة بعد نفيه إلى مالطة . توفى بالقاهرة عام (١٩٢٧م) . [الأعلام للزركلى ٣/٨٣] عن ٧٠ عاماً .

(٢) العرف : الريح : طيبة كانت أو خبيثة . وقال ابن سيده : العرف ، الرائحة الطيبة والمنتنة . [لسان العرب ـ مادة : عرف] .

أى : أنه إذا كانت هناك فضيلة مكتومة نسيها الناس ؛ فالحقُّ سبحانه يتيح لها لسانَ حاسدٍ حاقد ليثرثر وينبش ويُنقِّب ؛ لتظهر وتتجلى ؛ مثلما يُوضَعُ خشب العود ـ وهو من أرْقَى ألوان البخور ـ فى النار ، فينتشر عِطْره بين الناس .

وهكذا ضرب الشاعر المَثَل لِيُوضِّح أمراً ما للقارىء أو السامع .

ويقول الشاعر ضارباً المَثَل أيضاً :

وإذَا امْرؤٌ مدحَ امْرءًا لِنَوالِه[1] وأطَالَ فِيهِ فَقدْ أطَالَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقدِّر فيه بُعْد المُسْتقَى عند الوُرودِ لَمَا أطَالَ رِشَاءَهُ[2]

والمقاييس العادية تقول : إن المرء حين يمدح أحداً لفترة طويلة ، فهذا يعنى الرِّفْعة والمجد للممدوح . ولكن حين يقرأ أحدٌ قول هذا الشاعر قد يتعجَّب ويندهش ، ولكنه يتوقف عند قول الشاعر أن الماء لو كان قريباً فى البئر ؛ لأخرجه العطشان بدلو مربوط بحبل قصير ؛ ولكن إنْ كان الماء على بُعْد مسافة فى البئر فهذا يقتضى حبلاً طويلاً لينزل الدلو إلى الماء .

وهذا يعنى أن طول المدح إنما يُعبِّر عن فظاظة الممدوح الذى لا يستجيب إلا بالثناء الطويل ؛ ولو كان الممدوح كريماً حقاً لاكتفى بكلمة أو كلمتين فى مدحه .

---

(١) النوال : العطاء . وأناله معروفه ونوَّله : أعطاه معروفه . [لسان العرب ـ مادة : نول] .

(٢) الورود : الحضور والوصول للماء لتشرب . والرشاء : الحبل . يُوصل به إلى الماء فى البئر كما يوصل بالرشوة إلى ما يطلب من الأشياء . [لسان العرب ـ مادة : رشو] .

وهكذا يكون ضَرْبُ المثل توضيحاً وتقريباً للذهن .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

والتذكر معناه أن شيئاً كان معلوماً بالفطرة ؛ ولكن الغفلة طرأتْ ؛ فيأتى المَثَلُ ليُذكِّر بالأمر الفطرىّ .

وبعد أن ضرب الحق سبحانه المثل بالكلمة الطيبة بياناً لحال أهل القُرْب من الله والود معه واتباع منهجه ، أراد أنْ يذكُرَ لنا المقابل ، وهو حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الله ، وعن منهجه ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ[1] مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾

وحين نقارن الكلمة الخبيثة بالكلمة الطيبة سنكتشف الفارق الشاسع ؛ فالكلمة الخبيثة مُجْتثَّة من فوق الأرض ؛ والجُثَّة كما نعلم هى الجسد الذى خرجتْ منه الروح ، ومن بعد أن يصبح جُثّة يصير رِمَّة ؛ ثم يتحلَّل إلى عناصره الأولى .

إذن : فالاجتثاث هو استئصالُ الشىء من أصله وقلْعه من جذوره ، أما المقابل فى الشجرة الطيبة فأصلها ثابت لا تُخلخله ظروف أو أحداث ، والكلمة الخبيثة بلا جذور لأنها مُجْتثَّة ؛ وليس لها قَرار تستقر فيه .

---

(١) جثَّ الشىء : قطعه أو قلعه من جذوره . واجتثه : استأصله أو اقتلعه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وحين تكلَّم المُفسِّرون عن الشجرة الطيبة منهم مَنْ قال إنها النخلة لأن كُلَّ ما فيها خير ؛ فورقها لا يسقط ، ويبقى دائماً كَظِلٍّ وكل ما فيها يُنتفَع به .

فنحن - على سبيل المثال - نأخذ جذع النخلة ونصنع منه أعمدة فى بيوت الرِّيف ، وجريد النخل نصنع منه الكراسى ؛ والليف الموجود بين الأفرع نأخذه لنصنع منه الحبال ؛ والخوص نصنع منه القُفف .

والذين حاولوا أن يُفسِّروا « الشجرة الخبيثة » بأنها شجرة الحَنْظل ، أو شجرة التين ، أو شجرة الكُرَّات ؛ لكل هؤلاء أقول : لقد خلقها الحق سبحانه لتكون شجرة طيبة فى ظروف احتياجنا لها ؛ لأنك حين تنظر إلى الكون ستجد أن مِزَاجه مُتنوِّع ؛ ومُقوِّمات الحياة ليستْ هى الأكل والشرب فقط ؛ بل هناك توازن بيئىّ قد صمّمه الحق تعالى ، وهو الأعلم مِنّا جميعاً بما خلق ؛ ولم يخلق إلا طَيِّباً .

وكل شىء فى الكون له عطاء مستمر يُشِع فى الجو ، والمَثَل هو تساقط أوراق الشجر التى تُعيد الخصْب مرة أخرى إلى الأرض . وكلها أمور يُبديها الحق سبحانه ولا يبتديها ، أى : يُظهرها بعد أنْ كانت موجودة أَزلاً ومَخْفية عَنَّا .

وهو جَلَّ وعلاَ يرفع قوماً ويَخفض قوماً ؛ وهو القائل عن ذاته :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن]

وكلُّنا نعلم أن اليوم عند منطقة ما يبدأ فى توقيت مُعيّن ، وينتهى فى توقيت مُعين ؛ وتختلف المناطق الجغرافية وتختلف معها

بدايات أىِّ يوم من منطقة إلى أخرى ؛ فبعد لحظة من بداية يومك يبدأ يوم آخر فى منطقة أخرى ؛ وهكذا تتعدد الأيام وبدايات النهار والليل عند مختلف البشر والمجتمعات .

ولذلك فحين نسمع قول الرسول ﷺ : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

فمعنى ذلك أن يَد الله مبسوطة دائماً ، ذلك أن الليلَ يبدأ فى كل لحظة عند قَوْم ، ويبدأ النهار عند قوم فى نفس اللحظة ؛ ويتتابع ميلاد الليل والنهار حَسْب دوران الشمس حول الأرض .

وهكذا لا يجب أن نظلم شجرة الثوم ، أو شجرة الحَنْظل ، أو أى شجرة من مخلوقات الله ونَصِفَها بأنها شجرة خبيثة . فلا شىءَ خبيثٌ من مخلوقات الله .

ونحن حين نجد شاباً يقوم بثَنْى قطعة من الحديد قد يحسبه الجاهل أنه يُسىء استخدام الحديد ، ولكن العاقل يعلم أنه يقوم بِثَنْيها ليصنع منها مَا يفيده ؛ كخُطَّاف يشدُّ به شيئاً يلزمه .

وعمدة الكلمة الطيبة هى شهادة « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ومن هذه الشهادة يتفرَّع كل الخير . ومن هنا نعلم أن عُمْدة الكلمة الخبيثة هى الكفر بتلك الشهادة ، وما يتبع الكفر من عناد لرسول الله ﷺ وصدٍّ عن سبيل الله ؛ ومن تكذيبٍ لمعْجزات الرسل ؛ وإنكارٍ لمنهج الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

ولقائل أنْ يقول : مـا دام الحق سبحانه قد قـال إن هناك شجرةً خـبيـثة ؛ فـلابُدَّ أن تُوجَـد تلك الشجـرة ، وأقـول : إن كُلَّ ما يضـرُّ الإنسان فى وقت ما هـو خبيث ؛ فالسكر مثـلاً يكون خبيثـاً بالنسبة لمريض بالسكر ؛ وكل كائن فيه حسناتٌ مفيدة ؛ وله جانب ضَارّ فى حالات معينة ؛ وعلى الإنسان المختار أن يُميِّز ما يضرُّه وما ينفعه .

ونلحظ هنا فى وَصْف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة ؛ أن الحق سبحانه لم يَقُـلْ إن تلك الشجرة الخبيثة لهـا فَرْع فى السماء ؛ ذلك أنهـا مُجْـتثـة من الأرض ؛ مُـخْلْخلة الجـذور ؛ فلا سَند لهـا من الأرض ؛ ولا مددَ لها من السماء .

ولذلك يَصِفها الحق سبحانه :

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾ [إبراهيم]

أى : ما لهـا من ثبات أو قـيام ، وكـذلك الكُفْر بالله ؛ ومَنْ يـكفر لا يصعد له عمل طيّب ، فلا أساسَ يصعد به العمل أو القول الطيب . ولهذا وصـفت الشجرة الخبـيثة بصـفات ثلاث ، أولها : أنها شـجرة خبيـثة وثانيها : أنها عديمـة الأصل بغير ثبات ، وثالثهـا : ما لها من قرار لعدم ثبات الأصل .

ثم يبين الله جل علاه متحدثاً عن حصاد الحالتين ، فالأولى : أمن وأمـان فى الدنيـا والآخرة . والحـالة الثـانيـة : ظلم بضـلال ، وقلق بضنك ، وفى الآخرة لهم عذاب أليم .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ(١) فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

وتأتى هنا كلمة « التثبيت » طبيعية بعد قوله :

﴿ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

لأن الذى يُجتثُّ لا ثبوتَ له ولا استقرارَ ؛ فجاء بالمقابل بقوله :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

وتُوحِى كلمة التثبيت أيضاً بأن الإنسان ابنٌ للأغيار ، وتطرأ عليه الأحداث التى هى نتيجة لاختيار المُكلَّفين فى نفاذ حُكْم أو إبطاله ، فالمُكلَّف حين يأمره الله بحكم ؛ قد يُنفِّذه ، وقد لا ينفذه .

وكذلك قد يتعرض المكلّف لمخالف لمنهج الله ، فلا يُنفِّذ هذا المخالفُ تعاليمَ المنهج ؛ ويؤذى مَنْ يتبع التعاليم ، وهنا يثق المؤمن أن له إلهاً لن يخذله فى مواجهة تلك الظروف ، وسينصره إنْ قريبٌ أو بعيد على ذلك .

وهكذا لا تنال الأحداث من المؤمن ، ويصدق قوله الحق :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

فهم قد آمنوا بوجوده وبقدرته ، وبأن له طلاقة مشيئة يُثَبِّتهم بها

---

(١) قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله . وروى النسائى عن البراء بن عازب أنه قال : نزلت فى عذاب القبر [تفسير القرطبى ٣٧٠١/٥] .

مهما كانت جسـامة الأحداث ؛ ذلك أن المؤمن يعلم عن يقين أن الحق سبحانه قد قال وصدق :

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]

ومـا دام المؤمن قـد ثبت قلبـه بالإيمان وبالـقول الثـابت ؛ فهـو لا يتعرّض لزيغ(١) القلب ؛ ولا يتزعزع عن الحق .

والتـثبـيت يختلف فى أعـراف الناس باختـلاف المُثـبّت ؛ فحـين يُخلْخَل عمود فـى جدار البيت ؛ فصاحب البـيت يأتى بالمهندس الذى يقوم بعمل دعائمَ لتثبيت هذا العمود ؛ ويتبادل الناسُ الإعجابَ بقدرات هذا المهـندس ، ويتحاكى الـناس بقدرات هذا المـهندس على التثـبيت للأعمدة التى كادتْ أنْ تنهار ، وهذا ما يحـدث فى عُرْف البشر ؛ فما بَالُنا بما يمكن أنْ يفعله خالق البشر ؟

وقوله الحق :

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]

يردُّك إلى المُثـبِّت الذى لَنْ يطرأ على تثبـيته أدنـى خَلَل . وكلمة « التثـبيت » دلَّتْنَا على أن الإنسان ابنُ أغـيار ؛ وقد تحدثُ له أشـياء غَيْر مطابقة لما يريده فى الحياة ؛ لذلك فالمؤمن يجب ألاّ يَخُور ؛ لأن له رباً لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وسبحانه يُثبِّت الذين آمنوا :

﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]

---

(١) الزيغ : الميل . زيغ القلب : الميل عن الهدى والقصد . [لسان العرب ـ مادة : زيغ] .

والقول ثابت ؛ لأنه من الحَقِّ الذى لا يتغيَّر ؛ وهذا القَوْل مُوجَّه للمؤمنين الذين يواجههم قَوْم أشرار اختاروا أنْ يكونوا علىَ غير منهج الله .

وهذا القول يوضح للمؤمنين ضرورة أن يهدأوا ؛ وأنْ يجعلوا أنفسهم فى معيّة الله دائماً ، وأنْ يعلموا أنّ الظالمَ لو علم ما أعدَّه الله للمظلوم من ثواب وحُسْن جزاء لَضَنَّ الظالم بظُلْمه على المظلوم ولَقَال : ولماذا أجعل الله فى جانبه ؟

والذين اضْطهدوا فى دينهم ؛ وقام الكفار بتعذيبهم ؛ لم يُفْتَنوا فى الدين ؛ فكلما قَسَا عليهم الكفار ضَرْباً وتعذيباً كلما تذكروا حنانَ الحقِّ فتحمّلوا ما يذيقهم الكافرون من عذاب .

وحُسْن الجزاء قد يكون فى الدنيا التى يُثبِّت فيها المؤمن بمشيئة الله ؛ وهى بنت الأغيار وبنت الأسباب ، فأنت فى الدنيا تحوز على أىِّ شىء بأن تتعبَ من أجل أنْ تحصلَ عليه ، وتكدّ لتتعلم ؛ وتعثر على وظيفة أو مهنة ؛ ثم تتزوج لتُكوِّن أُسْرة ؛ وتَخدُم غيرك ؛ ويخدُمك غيرك ، وتزاول كل أسبابك بغيرك ؛ فأنت تأكل مما تطبخ زوجتك ، أو أمك أو مَنْ تستخدمه ليؤدى لك هذا العمل .

باختصار كلما ارتقيتَ ؛ فأنت ترتقى بأثر مجهود ما . وكُلّ متعة تحصل عليها إنما هى نتيجة لمجهود جَادٍّ منك ؛ وأنت تحاول دائماً أن تُقلِّل المجهود والأسباب لتزيد من متعتك .

فَما بالُكَ بالآخرة التى لا تكليفَ ولا أسبابَ فيها ؛ وكل ما فيها قد جهَّزه الحق تعالى مقدّماً للإنسان ؛ ثواباً إنْ آمنَ ، وعذاباً إنْ كفر وعصى ، وإنْ كنتَ مؤمناً فالحق سبحانه يُجازيك بجنة عَرْضها السماوات والأرض ؛ فيها كُلُّ ما تشتهى الأنفس .

وإذا كان الحق سبحانه يُثبِّت الذين آمنوا فى الدنيا بالقول الثابت الحق فتثبيتُه لهم فى الآخرة هو حياةٌ بدون أسباب .

ونجده سبحانه لم يَقُلْ هنا : الحياة الآخرة ، بل قال :

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ..(٢٧)﴾ [إبراهيم]

ذلك أن الارتقاءات الطُّموحية فى الحياة تكون مناسبة للمجهود المبذول فيها ، ولكن الأمرَ فى الآخرة يختلف تماماً ؛ لأن الحق سبحانه هو الذى يُجازى على قَدْر طلاقة مشيئته ، وهو يُثبِّتهم بدايةً من سؤال القبر ونهايةً إلى أنْ يلْقوا الثواب على حُسْن ما فعلوا من خير فى سبيل الله .

وما دام الحق سبحانه قد ذكر هنا التثبيتَ فى الحياة الدنيا والآخرة ؛ فلا بُدَّ أن يأتىَ بالمقابل ، ويقول :

﴿وَيُضِلُّ[1] اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ [إبراهيم]

وسبحانه يُضلّ الظالم لأنه اختار أنْ يظلم ؛ وهو سبحانه قد جعل للإنسان حَقَّ الاختيار ، فَمنَ اختار أن يظلمَ ؛ لا بُدّ له من عقاب . وإذا كان سبحانه قد خلق الخَلْقَ وجعل الكون مُسخراً لهم ؛ وأعطى المؤمنَ والكافر من عطاء الربوبية ؛ فإن اختار الكافرُ كفره ؛ فهو لن يُنفِّذ تكاليف الألوهية التى أنزلها الله منهجاً لهداية الناس .

---

(١) أى : يضلهم عن حجتهم فى قبورهم . كما ضلُّوا فى الدنيا بكفرهم فلا يلقنهم كلمة الحق ، فإذا سئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى . فيقول : لا دريت ولا تليت . وعند ذلك يُضرب بالمقامع على ما ثبت فى الأخبار . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٠٢] .

والكافر إنما يظلم نفسه ؛ ذلك أنه ما دام قد أَنِسَ إلى الكفر فالحق سبحانه يختم على قلبه ؛ فلا يخرج من القلب الكفر ، ولا يدخل إليه الإيمان ؛ وهو رَبٌّ العالمين يفعل ما يشاء .

وإذا كان الحق سبحانه يعطى كل إنسان ما يريد ؛ وما دام الكافر يطلب أن يكون كافراً ؛ فسبحانه يـمدُّ له فى أسباب الكفر ليأخذه من بعد ذلك بها ، كما يمدُّ الله للمؤمنين كُلَّ أسباب الإيمان مِصْداقاً لقوله الحق :

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً[1] (٢٠) ﴾ [الإسراء]

وهكذا تكون طلاقة قدرة الحق سبحانه وهو يفعل ما يشاء ، ذلك أنه لا يوجد إله غيره .

والحق سبحانه قد أكرمنا بالعبودية له وحده ، ذلك أننا رأينا جميعاً وشاهدنا أثر عبودية الإنسان للإنسان ؛ حين يأخذ السيد خَيْر العبد ؛ وقد ذاقتْ البشرية الكثيرَ من وَيْلاتها ، ولكن العبودية لله تختلف تماماً حيث يأخذ العبد خَيْر السيد ؛ ويُغدق السيد إحسانه على عباده.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[2] (٢٨) ﴾

---

(١) الحظر : المنع . والمحظور : الممنوع . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) ﴾ [الإسراء] أى : لا يمنع عطاء الله أحد . [القاموس القويم ١/١٦١] .

(٢) البوار : الهلاك . ودار البوار : دار الهلاك [لسان العرب - مادة : بور] . والمقصود بها جهنم . قاله ابن زيد . [ذكره القرطبى فى تفسيره : ٥/٣٧٠٣] . ويدل عليه قوله تعالى بعده : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم] .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى .. (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

فهذا يعنى أن المُخبِر وهو الحق إذا ما أخبرنا بشىء فهو أصدق مِنْ أنْ تراه أعيننا .

وتشير الآية إلى عملية مُبَادلة بين اعتراف بالنعمة ؛ ثم إنكارها . كأن هناك شيئاً قد استبعدناه ، وأتيْنا ببديل له . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

والحق سبحانه وتعالى قد أعطاك النعمة ولم يطلب منك أن تقومَ بأىِّ تكليف إيمانىٍّ قبل البلوغ . وهكذا نجد أن النعمة هى الأصل ، والتكليف إنما يأتى من بعد ذلك ، وكان من الواجب ألاَّ يعصى العبد مَنْ أنعم عليه بكل النعم ، وأن يتجه إلى التكليف بمحبة ؛ كى لا يقلب نعمة الله كفراً .

أو : أن المقصود هم قوم قريش الذين أفاء[1] الله عليهم الخير ، وجعل لهم الحرم آمناً :

﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ[2] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

---

(١) أفاء الله عليه فيئاً : منحه غنيمة فى الحرب بالنصر أو بغير الحرب . [القاموس القويم ٩٢/٢] .

(٢) جبى الخراج والماء : جمعه . وقوله تعالى : ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧) ﴾ [القصص] تجمع إلى الحرم المكى وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم ١١٧/١] .

وكذلك أنعم عليهم بأن يكون نبى الإسلام - الدين الخاتم - منهم ، وهو النبى الذى ستدين له الدنيا والعالم فى كل زمان ومكان ؛ فلماذا يُبدِّلون تلك النعمة كفراً ؟

أمَا كانت تلك النعمة وحدها كافية لمقابلتها بعميق الشكر وحُسْن العبادة ؟ فهذا النبى الذى قال الحق سبحانه عن رسالته :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ [الزخرف]

وهو سبحانه القائل عن نعمه عليهم :

﴿ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فكيف يُبدِّلون نعمة الله كفراً ؟ وكيف يُسيئون معاملة الرسول ﷺ وصَحْبه حتى قال ﷺ : « اللهم اجعل سنينهم كسنين يوسف »[(١)] .

وخرج لقتالهم فى بدر ؛ وهم الذين صنعوا بأنفسهم ذلك نتيجة تبديلهم لنعمة الله كفراً ، ولماذا قَبِلوا عطاء الحق من خير ونعم ورفضوا منهجه ؟

ولو كانوا قوم صدْق مع النفس ، وصدق مع ما يعتقدونه لَطلبوا من الأصنام أن تعطيهم ؛ أو لَرفضوا أن يأخذوا خَيْر المنعم ما داموا قد رفضوا منهجه ، وهو سبحانه قد أنعم عليهم بمُقوِّمات المادة ؛ وأضاف لذلك منهجه مُقوم الروح .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف .. » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

وحين نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

نفهم أن الإحلال هو إيجاد حالٍّ فى مَحَلٍّ . ونعلم أن الظَّرف ينقسم إلى قسمين : ظرف مكان ، وظرف زمان ؛ فإذا أحللْتَ حدثاً محلَّ حَدث ؛ فهذا يخصُّ ظرف الزمان ، وحين تحل شيئاً مكان شىء آخر ، فهذا أمر يخصُّ ظرف المكان .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذا يعنى ظرف مكان . ولقائل أن يقول : وكيف يأخذون أهلهم وقومهم ليحلوهم إلى دار بَوَار ؟

ونقول : لقد حدث ذلك نتيجة أنهم قد غَشّوهم وخدعوهم ، ولم يستعمل هؤلاء الأهل عقولهم ؛ ولم يلتفتوا إلى أنّ قادتهم وأُولى الأمر منهم يسلكون السلوك السىء وعليهم ألاَّ يقلدوهم ؛ فَجرُّوا عليهم الفتن واحدة تِلْو أخرى ، وترين[1] الفتن على القلوب .

ولهذا أراد الحق سبحانه لأمة محمد ﷺ أن تكون بها مناعات من الفتن ؛ فتحثّ النفس اللوامة المؤمن ؛ فيكثر الحسنات ليبطل السيئات ، وإذا ما تحولت النفس اللوّامة إلى نفس أمَّارة بالسوء وجدتْ فى المجتمع المسلم مَنْ يزجرها .

---

(١) الرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب . وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطاه كله . [القاموس القويم ١/٢٨٢] .

وبهذا تصبح أمة محمد ﷺ محصَّنة ضد الفتن التى تُذهِب الإيمان .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران]

ويُذكِّرنا الحق سبحانه بأن الرسولَ سيكون شهيداً علينا ، ونحن سنكون شهداء على الناس ، وهكذا ضمن الحق سبحانه أن يعلم كُلُّ واحد من أمة محمد جزئية من العلم ليكون امتداداً لرسالة رسول الله ﷺ .

ومثْلما شهد الرسول أنه قد بلَّغ الرسالة ؛ سيكون على كل واحد من أمة محمد ﷺ أنْ يشهدَ بأنه قد بلَّغ ما علم من رسالة محمد ﷺ .

وكُلٌّ منا يعلم كيف حدثتْ الغفلة الأولى ؛ حيث حدثتْ الغفلة من الأُسْوة ؛ فزاحمتهم الشهواتُ وارتكبوا السيئات ، فحين غفلتْ النفس ارتكبتْ المعصية ؛ وحين رأى الناسُ مَنْ يرتكب المعصية قلَّدوه .

وهكذا حمل مَنْ وقع فى الغفلة وِزْره ووِزْر مَن اتبعه بالأُسْوة السيئة ؛ فصار ضَالاً فى ذاته ؛ ثم تحمَّل وِزْرَ مَنْ أضله أيضاً .

وهكذا صار مَنْ فعل ذلك هو مَنْ أحلَّ قومه دار البوار .

والبوار يعنى الهلاك ؛ ذلك أن الكبار من هؤلاء القوم حين تصرَّفوا وسلكُوا بما يخالف المنهج أورثوا مَنِ اتبعوهم الهلاك .

ونحن فى الريف نَصِفُ الأرض التى لا تصلح للزراعة بأنها الأرض البُور[1] ؛ وكذلك يُقال « قُمْنا بتبوير الأرض » أى : أهلكنا ما فيها من زرع .

وحين نقرأ قول الحق :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

نجد فى كلمة « قومهم » ما يُوحى بالخِسَّة لِمَنْ يرتكبون هذا الفعل الشائن ؛ فمَنْ يُهلك قومه لابُد أن يكون خسيساً ؛ ولابُد أن يكون محترف غِشٍّ وخديعة ؛ فالقوم هم مَنْ يقومون معهم ؛ وكان من اللائق أن تضرب على يد مَنْ يصيبهم بشرٍّ أو يغشّهم أو يخدعهم .

ويشرح الحق سبحانه دار البوار هذه ، فيقول :

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا[2] وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾

وإذا قِسْنا جهنم بالمقرات ؛ فلن نجد مَنْ يرغب فى أن تكون جهنم هى مَقرَّه ؛ لأن الإنسان يحب أن يستقر فى المكان الذى يجد فيه راحة ، ولو لم يجد فى هذا المكان راحة ؛ فهو يتركه .

وجهنم التى يَصْلَوْنها لن تكون المقرَّ الذى يجدون فيه أدنى

---

(١) بور الأرض : ما بار منها ولم يُعمر بالزرع . وقال الزجاج : البائر فى اللغة الفاسد الذى لا خير فيه . قال : وكذلك أرض بائرة متروكة من أن يزرع فيها . [لسان العرب ـ مادة : بور] .

(٢) أصلاه النار : أدخله إياها وأثواه فيها . وصليت النار أى : قاسيت حرّها . وصلَّى اللحم : شواه . والصِّلاء : الشواء ، لأنه يُصلى بالنار . [لسان العرب ـ مادة : صلى] .

راحة ؛ لأن العذاب مُقيم بها ؛ ولذلك يصفها الحق سبحانه بأنها :

﴿ بِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم]

فكأنهم ممسوكون بكلاليب[1] فلا يستطيعون منها فكاكاً . وهى تقول :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وكأنهم قد عَشقوا النار فعشقتهم النار ، ولو كانت لديهم قدرة على أنْ يفرُّوا منها لَفعلوا ، لكنهم مربوطون بها وهى مربوطة بهم ؛ وهى بئس القرار ؛ لأن أحداً لن يخرج منها إلا أنْ يشاء الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾

والنّد هو : المِثْل والمُشَابه . وهم قد اتخذوا لله شركاء ؛ وأىّ شريك اتخذوه لم يَقُلْ لهم عن النعم التى أسبغها عليهم ولم يُنزل لهم منهجاً . وهؤلاء الشركاء كانوا أصناماً ، أو أشجاراً ، أو الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، ولم يَقُلْ كائن من هؤلاء : ماذا أعطى من نعم ليعبدوه ؟

ونعلم أن العبادة تقتضى أمراً وتقتضى نهياً ، ولم يُنزل أىٌّ من هؤلاء الشركاء منهجاً كى يتبعه مَنْ يعبدونهم ؛ ولا ثوابَ على العبادة ؛ ولا عقاب على عدم العبادة .

---

(١) الكلاليب : جمع كُلاَّب ، حديدة معوجة الرأس ، كالخطاف . [لسان العرب ـ مادة : كلب] .

ولذلك نجد أن مثل هؤلاء إنما اتجهوا إلى عبادة هؤلاء الشركاء ؛ لأنهم لم يأتوا بمنهج يلتزمون به .

ولذلك نجد الدجالين الذين يدَّعُون أنهم رأوا النبى ﷺ ؛ ويتصرفون مع مَنْ يُصدِّقونهم من الأتباع ، وكأنهم كائنات أرقى من النبى ﷺ - والعياذ بالله منهم - .

ومن العجيب أننا نجد بعضاً من المثقفين وهم يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد يبتعد عنه بسطاء الناس ؛ ذلك أن النفس الفطرية تحب أن تعيش على فطرة الإيمان ؛ أما مَنْ يأتى ليُخفِّف من أحكام الدين ؛ فيهواه بعض ممَّنْ يتلمسون الفكَاك من المنهج .

وبذلك يجعل هؤلاء الأتباع مَنْ يخفف عنهم المنهج نِداً لله - والعياذ بالله - ويضلون بذلك عن الإيمان .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ .. (٣٠)﴾ [إبراهيم]

أى : ليُضلوا غيرهم عن سبيل الله .

وهناك قراءة أخرى[(١)] لنفس الآية « ليَضلوا عن سبيل الله » ، وأنت ساعةَ تسمع حدثاً يوجد ليجىء حدث كنتيجة له ، فأنت تأتى بـ « لام التعليل » كقولك « ذاكر الطالب لينجح » هنا أنت لم تأتِ بفعل ونقيضه . وهل كانوا يضلون أنفسهم ؟

---

(١)هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٣) ثم قال : « أما من فتح (أى الياء) فعلى معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله على اللزوم . أى : عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ، فهذه لام العاقبة » .

لا ، بل كانوا يتصوَّرون أنهم على هُدىً واستقامة ، وهذه تُسمَّى « لام العاقبة » وهى تعنى أنه قد يحدث بعد الفعل فِعْل آخر كان وارداً . وهذه تُسمَّى « لام تعليلية » .

ولكن قد يأتى فِعْل بعد الفعل ولم يكن صاحبُ الفعل يريده ؛ كما فعل فرعون حين التقط موسى عليه السلام من الماء ليكون ابناً له ؛ ولكن شاء الحق سبحانه أن يجعله عدواً .

وساعة التقاط فرعون لموسى لم يكن فرعون يريد أن يكبر موسى ليصبح عدواً له ؛ ولكنها مشيئة الله التى أرادتْ ذلك لتخطئة مَنْ ظنَّ نفسه قادراً على التحكُّم فى الأحداث ، بداية من ادعاء الألوهية ، ومروراً بذبح الأطفال الذكور ، ثم يأتى التقاطه لموسى ليكون قُرَّة عينٍ له ؛ فينشأ موسى ويكبر ليكون عدواً له !!

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذا أمر من الله لمحمد أن يقول لهم : تمتعوا . وهذا أمر من الله . والعبادة أمر من الله ، فهل إن تمتعوا يكونون قد أطاعوا الله ؟

وهنا نقول : إن هذا أمر تهكمىّ ، ذلك أن الحق سبحانه قال من بعد ذلك :

﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

وعلى هذا نجد أن الأمر إما أنْ يُراد به إنفاذ طلب ، وإما أنْ يُراد به الصَّد عن الطلب بأسلوب تهكمىّ .

ونجد فى قول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ قولاً يشرح لنا هذا : « لا شرَّ فى شر بعده الجنة ، ولا خير فى خير بعده النار » .

فَمنْ يقول : إن التكاليف صعبة ؛ عليه أن يتذكَّر أن بعدها الجنة ، ومَنْ يرى المعاصى والكفر أمراً هيناً ، عليه أن يعرف أن بعد ذلك مصيره إلى النار ؛ فلا تعزل المقدمات عن الأسباب ، ولا تعزل السبب عن المُسبِّب أو المقدمة عن النتائج .

فالأب الذى يجد ابنه يُلاحِق المذاكرة فى الليل والنهار ليبنى مستقبله قد يشفق عليه ، ويسحب الكتاب من يده ، ويأمره أن يستريح كى لا يقع فى المرض ؛ فيصبح كالمُنْبَتّ(١) ؛ لا أرضاً قطع ، ولا ظهْراً(٢) أبقى ، ولكن الولد يرغب فى مواصلة الجهد ليصلَ إلى مكانة مُشرِّفة .

وهنا نجد أن كلاً من الأب والابن قد نظرا إلى الخير من زوايا مختلفة ؛ ولذلك قد يكون اختلاف النظر إلى الأحداث وسيلةً لالتقاءات الخير فى الأحداث .

وهم حين يسمعون قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

قد يستبطئون الأحداث ؛ ويقول الواحد منهم إلى أن يأتى هذا المصير : قد نجد حلاً له .

ونقول : فليتذكر كُلّ إنسان أن الأمر المُعلَّق على غير ميعاد

---

(١) الانبتات : الانقطاع . ورجل مُنْبت أى مُنْقطع به . [لسان العرب ـ مادة : بتت] .
(٢) الظهر : الإبل التى يُحمل عليها ويُركب . [لسان العرب ـ مادة : ظهر] .

مُحدّد ؛ قد يأتى فجأة ؛ فَمَنْ يعيش فى معصية إلى عمر التسعين ؛ هل يظن أنه سيفرّ من النار ؟

إنه وَاهِمٌ يخدع نفسه ، ذلك أن إبهام الله لميعاد الموت هو أعنفُ بيانٍ عنه . وما دام المصير إلى النار فلا مُتْعة فى تلك الحياة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ[1] ﴿٣١﴾ ﴾

و « قُلْ » من الله لرسول الله ﷺ . وهل معنى هذا أن العباد الذين سيسمعون هذا الأمر سيقومون إلى الصلاة ؟ لقد سمعه بعضهم ولم يَقُم إلى الصلاة .

إذن : مَنْ يُطِع الأمر هو مَنْ حقَّق شَرْط الإيمان ، وعلينا أن ننظر إلى مُكْتنفات كلمة « عبادى » فعباد الله هم الذين آمنوا ، وحين يؤمنون فهم سيُعبِّرون عن هذا الإيمان بالطاعة . وهكذا نفهم معنى الألفاظ لتستقيمَ معانيها فى أساليبها .

وكل خَلْق الله عبيد له ؛ ذلك أن هناك أموراً قد أرادها الله فى طريقة خَلْقهم ، لا قدرةَ لهم على مخالفتها ؛ فهو سبحانه قد قهرهم فى أشياء ؛ وخيَّرهم فى أشياء .

---

(١) خلال : إما جمع خُلّة أو مصدر خالّه . والمعنى : إن يوم القيامة لا ينجى من عذابه شىء ، فلا يباع فيه شىء بمال يفتدى الكافر نفسه به ، ولا صداقة تفيده ، فلا صديق يُغني عن صديق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

ولذلك أقول دائماً للمُـتمرِّدين على الإيمان بالله ؛ لقد ألِفْـتم التمرّد على الله ؛ ولم يَأْبَ طَبْع واحـد منكم على رفـض التمـرّد ، فـإنْ كنتم صـادقيـن مع أنفسكـم عليكم أنْ تتـمردوا علـى التنفس ؛ فـهو أمـر لا إرادى ، أو تمردوا ـ إن استطـعتُم ـ على المرض وميـعاد الموت ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً .

ولكنهم ألِفُوا التمرّد على ما يمكنهم الاخـتيار فيه . ونسُوا أن الله يريد منهم أن يلتزموا بمنهجه ؛ فـإن اختار المؤمن أن يتبع منهجَ الله صار من « عبـاد الله » ، وإنْ لم يخضـع للمنهج فيـما له فيه اخـتيار فهو من العبيد المقهورين على اتباع أوامر الله القهرية فقط .

وأنت حين تسـتقرىء كلمـة « عباد» وكلمـة « عبيـد » فى القرآن ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ[2] قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

وتتعدد هنا صفات العباد الذين اختاروا اتباع منهج الله ، وستجد كلمة العـبيد وهـى مُلْتصقـة بمَنْ يتمردون على مـنهج الله ؛ ولن تجد وَصْفاً لهم بأنهم « عباد » إلا فى آية واحدة ؛ حين يخاطب الحَقُّ جَلَّ وعلا الذين أضلوا الناس ؛ فيقول لهم :

---

(١) الهوْن : الرفق واللين والتـثبت . والهوْن : السكينة والـوقار والسهولة . [لسـان العرب ـ مادة : هون] .

(٢) جهل فلان على غيره : تعدَّى عليه وتسافه وقسا . والجهل : الطيش والسفه والتعدى بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . [القاموس القويم ١/ ١٣٤] .

﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ١٧﴾ [الفرقان]

ونلحظ أن زمن هذا الخطاب هو فى اليوم الآخر ؛ حيث لا يوجد لأحد مُرْتاد مع الله ؛ وحيث يسلب الحق سبحانه كل حق الاختيار من كل الكائنات المختارة .

وهكذا لا يمكن لأحد أن يطعنَ فى أن كلمة « عباد » إنما تستخدم فى وَصْف الذين اختاروا عبادة الله والالتزام بمنهجه فى الحياة الدنيا ؛ ذلك أنهم قد سَلَّموا زِمَام اختيارهم لله ، وأطاعوه فى أوامره ونواهيه .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. ٣١﴾ [إبراهيم]

هو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين فى انتظار هذا الأمر لِيُنفِّذوه فوراً ، ذلك أن المؤمن يحب أن يُنفِّذ كل أمر يأتيه من الله .

وما دُمْتَ قد أبلغتهم يا محمد هذا الأمر فسيُنفِّذونه على الفور ؛ وقد جاء قوله (يقيموا) محذوفاً منه لام الأمر ، تأكيداً على أنهم سيصدعون[1] لتنفيذ الأمر فوْر سماعه .

وعادة نجد أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى جَمْهرة آيات القرآن[2] تأتيان متتابعتين مع بعضهما ؛ لأن إقامةَ الصلاة تتطلب

(١) صدعت إلى الشىء : ملْتُ إليه . [لسان العرب ـ مادة : صدع] .

(٢) جاء هذا فى أكثر من ٢٧ آية من القرآن . [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن] .

حركة ، تتطلب طاقة وتأخذ وقوداً ؛ والوقود يتطلب حركة ويأخذ زمناً ، والزكاة تعنى أن تُخرِج بعضاً من ثمرة الزمن ، وبعضاً من أثر الحركة فى الوقت .

ونجد الكسالى عن الصلاة يقولون : « إن العمل يأخذ كل الوقت والواحد منّا يحاول أن يجمع الصلوات إلى آخر النهار ، ويُؤدّيها جميعها قضاءً » . وهم لا يلتفتون إلى أن كُلَّ فرض حين يُؤدَّى فى ميعاده لن يأخذ الوقت الذى يتصورون أنه وقت كبير .

وظاهر الأمر أن الصلاة تُقلّل من ثمرة العمل ، لكن الحقيقة أنها تُعطى شحنة وطاقة تحفز النفس على المزيد من إتقان العمل ؛ وكيف يُقبِل المصلى على العملَ بنفس راضية ؛ ذلك أنه بالصلاة قد وقف فى حضرة مَنْ خلقه ، ومَنْ رزقه ، ومَنْ كفله .

ولذلك يخرج منها هادئاً مُطمئناً مُنتبهاً راضياً ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] .

والصلاة فى كل فرض ؛ لن تأخذ أكثر من ربع الساعة بالوضوء ، وإذا نسبت وقت الصلوات كلها إلى وقت العمل ستجد أنها تأخذ نسبة بسيطة وتعطى بأكثر ممّا أخذت .

وكذلك الزكاة قد تأخذ منك بعضاً من ثمرة الوقت لتعطيه إلى غير القادر ، ولكنها تمنحك أماناً اجتماعياً فوق ما تتخيّل .

ولذلك تجد الصلاة مُرتبطة بالزكاة فى آيات القرآن ببعضهما ، وإقامة الصلاة هى جِمَاع القيم كلها ؛ وإيتاء الزكاة جِمَاع قيام الحركات العضلية كلها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

وتعالج الصلاة شيئاً ، وتعالج الزكاة شيئاً آخر ؛ وكلاهما تُصلِح مكونات ماهية الإنسان ؛ الروح ومقوماتها ، والجسد ومقوماته .

ولذلك قال ﷺ : « وجُعِلَتْ قُرة عينى فى الصلاة »(١) .

وحين تنظر إلى الصلاة والزكاة تجد مصالح الحياة مجتمعة وتتفرع منهما ؛ ذلك أن مصالح الحياة قد جمعها ﷺ فى الأركان الخمس للدين ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحِجّ البيت لِمَنِ استطاع إليه سبيلاً(٢) .

وعرفنا من قَبْل كيف أخذت الصلاة كُل هذه الأركان مجتمعة ؛ ففيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيها تضحية وتزكية ببعض الوقت ؛ وفيها صَوْم عن كل ما تلتزم به وأنت صائم ؛ وأنت تتوجه خلالها إلى قبلة بيت الله الحرام .

وهكذا نرى كيف ترتبط حركة الحياة والقيم المُصْلِحة لها بالصلاة والزكاة .

ويأمرنا الحق سبحانه فى هذه الآية الكريمة بأن ننفق سراً وعلانية ، وهكذا يشيع الحق الإنفاق فى أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) ، والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمامه : « حبِّب إلىّ من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

سِراً كى لا يقع الإنســان فريســةَ المُبَاهاة ؛ والإنفــاق علَناً كى يعطى غيره من القادرين أُسْوة حـسنة ، ولكى تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء الله عليك من خير .

ولذلك أقول : اجـعل الصدقة التطوعـية سراً ، واجـعلها كمـا قال النبى ﷺ : « لا تعلم شمالك ما أعطتْ يمينك »(١) .

واجـعل الزكاة عـلانية حـتى يعلمَ الناس أنك تُؤدى مـا عليك من حقوق الله وتكون بالنسـبة لهم أُسْوة فعلية ، وعظَة عـملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عظَة سلُوكية ، فنحن نرى بعضاً من القرى والمدن لا يحجّ منها أحد ، لأن القادرين فيها قد أدَّوْا فريضة الحج .

ونجد أن القــادر الذى يبنى مسـجداً ؛ يعطى القـادر غيـره أُسْوة ليـبنى مسـجداً آخـر ، وما أنْ يأتىَ رمـضان حـتى يصومَ القـادرون عليه ؛ ويعطوا أُسْوة لصغارهم ، وتمنع الاستخذاء أمام الغير ، وهكذا نعلن كل تكاليف الإسلام بوضوح أمام المجتمعات كلها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١) ﴾ [إبراهيم]

ومن هنا نعلم أن هناك أعمالاً يمـكن أن تؤجلها ، إلا الغايات التى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجـتمعا عليه وتفـرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

لا توجد فيها أعواض ؛ فعليك أن تنتهز الفرصة وتُنفّذها على الفور ؛ ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بَيْع أو شراء ، ولن يستطيع أحد فيه أن يُزكّى أو يُصلّى ؛ فليست هناك صداقة أو شفاعة تُغنيك عمّا كان يجب أن تقوم به فى الحياة الدنيا .

والشفاعة فقط هى ما أذن له الرحمن بها[1] ، ولذلك يأتى الأمر هنا بسرعة القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق سِراً وعلانية من قبل أن يأتىَ اليوم الذى لا بَيْع فيه ولا خِلاَل .

والبيع ـ كما نعلم ـ هو مُعَاوضة متقابلة ؛ فهناك مَنْ يدفع الثمن ؛ وهناك مَنْ يأخذ السلعة . والخِلاَل هو المُخَالّة ؛ أى : الصديق الوفىّ الذى تلزمه ويلزمك .

والشعر يُبيّن معنى كلمة « خليل » حين يقول :

لَمّا التقيْنَا قرَّب الشَّوْقُ جَهْده خليلين ذَابَا لَوْعةً وعِتَابَا
كأنّ خليلاً فى خِلاَل خَلِيلِه تَسرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وغَابَا

وهذا يوضح أن المُخالة تعنى أن يتخلل كُلٌّ منهما الآخر .

وفى الآخرة لن تستطيع أن تشترى جنة أو تفتدى نفسك من النار ؛ ولا مُخالَّة هناك بحيث يفيض عليك صديق من حسناته . والحق سبحانه هو القائل :

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه] ويقول أيضاً : ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .. (٢٣)﴾ [سبأ] . فالشفاعة ثابتة بنص القرآن بشرط إذن الله للشافع أن يشفع ، وللمشفوع فيه بعلم الله فيه ، أما الكافرون والمشركون والمنافقون فالشفاعة منفية عنهم .

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وبعض السطحيين يريدون أنْ يأخذوا علي القرآن أنه أثبت الخُلَّة ونفاها ؛ فهو القائل :

﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهو القائل :

﴿ وَلا خُلَّةٌ .. ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة]

ثم أثبت الخُلَّة للمتقين ؛ الذينِ لا يُزيِّن أحدهما للآخر معصية .

وهؤلاء السطحيون لا يُحسنون تدبُّر القرآن ؛ ذلك أن الخُلَّة المَنْفية - أو الخِلاَل المنفية - في الآيات هي الخِلال التي تحضُّ على المعاصي ؛ وهذه هي الخِلاَل السيئة .

ونعلم أن البيع في الحياة الدنيا يكون مقابلةَ سلعة بثمن ؛ أما المُخالّة ففيها تكرُّم ممَّنْ يقدمها ؛ وهو أمرٌ ظاهريّ ؛ لأن في باطنه مُقايضة ؛ فإذا قدّم لك أحدٌ جميلاً فهذا يقتضي أنْ تردّ له الجميل ؛ أما التكرُّم المجرّد فهو الذي يكون بغير سابق أو لاحق .

وبعد أن بيَّن لنا الحق سبحانه السعداء وبيَّنَ الأشقياء ، وضرب المَثل بالكلمة الطيبة ، وضرب المثل بالكلمة الخبيثة ، يأتي من بعد ذلك بما يهيج في المؤمن فرحةً في نفسه ؛ لأنه آمن بالله الذي صنع كل تلك النعم ، ويذكر نعماً لا يشترك فيها مع الله أحد أبداً ، فيقول :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ[1] لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾

والسماء والأرض ـ كما نعلم ـ هما ظَرْفَا الحياة لنا كلنا ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإذا كان الله هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ فهذا لَفْتٌ لنا على الإجمال ؛ لأنه لم يَقُلْ لنا ما قاله فى مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنها من غير عَمَدَ[2] ؛ وليس فيها فُطور ، ولم يذكر هنا أنه خلق فى الأرض رواسى كى لا تميد[3] بنا الأرض ، ولم يذكر كيف قَدَّر فى الأرض أقواتها[4] ، واكتفى هنا بلمحة عن خلق السماوات والأرض .

---

(١) الفُلْك : السفينة ، للمذكر والمؤنث والواحد والجمع . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) عَمَد : جمع عمود . وقال الفراء : فيه قولان :

– أحدهما : أنه خلقها مرفوعة بلا عمد ، ولا يحتاجون مع الرؤية إلى خبر .

– والقول الثانى : أنه خلقها بعمد لا ترون تلك العمد . [لسان العرب ـ مادة : عمد] .

(٣) ماد يميد : تحرك واهتزّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] . لئلا تميل وتضطرب ، فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

(٤) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته . وجمعه أقوات . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ٢/١٣٦] .

وحين يتكلم سبحانه هنا عن خَلْق السماوات والأرض يأتى بشىء لم يدَّعه أحد على كثرة المُدَّعين من الملاحدة ؛ وذلك لتكون ألزم فى الحجة للخَصْم ، وبذلك كشف لهم حقيقة عدم إيمانهم ؛ وجعلهم يرونَ أنهم كفروا نتيجة لَددٍ[1] غير خاضع لمنطق ؛ وهو كفر بلا أسباب .

وحين يحكم الله حُكْماً لا يوجد له معارض ولا منازع ؛ فهذا يعنى أن الحكم قد سَلِم له سبحانه . ولم يجترىء أحد من الكافرين على ما قاله الله ؛ وكأن الكافر منهم قد أدار الأمر فى رأسه ، وعلم أن أحداً لم يَدَّعِ لنفسه خَلْق السماوات والأرض ؛ ولا يجد مفراً من التسليم بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح لنا أن كلمة « الله » هنا ؛ لأنها مناطُ الصعوبة فى التكليف ؛ فالتكليف يقف أمام الشهوات ؛ وقد تغضبون من التكليف ؛ ولكنه يحميكم من بعضكم البعض ، ويكفل لكم الأمان والحياة الطيبة.

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بكلمة « رب » هنا لأنها مناطُ العطاء الذى شاءه للبشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وكلمة « الله » تعنى المعبود الذى يُنزل الأوامر والنواهى ؛ وتعنى أن هناك مشقات ؛ ولذلك ذكر لهم أنه خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء .

---

(١) اللدد : الخصومة الشديدة . وألده يلده : خصمه . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ونحن حين نسمع كلمة « السماء » نفهم أنها السماء المقابلة للأرض ؛ ولكن التحقيق يؤكد أن السماء هى كُلُّ ما علاك فأظلَّك .

والمطر كما نعلم إنما ينزل من الغَيْم والسحاب . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[2] فَتَرَى الْوَدْقَ[3] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

وقد عرفنا بالعلم التجريبى أن الطائرة - على سبيل المثال - تطير من فوق السحاب ، وعلى ذلك فالمطر لا ينزل من السماء ؛ بل ينزل ممَّا يعلونا من غَيْم وسحاب .

أو : أنك حين تنسب النزول من السماء ؛ فهذا يوضح لنا أن كل أمورنا تأتى من أعلى ؛ ولذلك نجد الحديد الذى تحتضنه الجبال وينضج فى داخلها ؛ يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[4] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

---

(١) زجه يزجه : دفعه بسرعة . وزجا الشيء يزجوه : ساقه برفق . [القاموس القويم ١/٢٨٤] .

(٢) قوله : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣) ﴾ [النور] أى : متجمعاً فيه مطر كثير غزير . [القاموس القويم ١/٢٧٦] .

(٣) الودق : المطر كله شديده وهيِّنه . [لسان العرب - مادة : ودق] .

(٤) قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] يعنى : السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ، و : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] أى : فى معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والأزميل والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة .. وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك . [تفسير ابن كثير ٤/٣١٥] .

وهكذا نجد أنه إما أن يكون قد نزل كعناصر مع المطر ؛ أو لأن الأمر بتكوينه قد نزل من السماء .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يتحدث الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ؛ وكيف أنزل الماء من السماء :

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

والثمرات هى نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها ؛ وقد لا تأكل البعض الآخر ؛ فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكنا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ؛ ولكنا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

والتسخير معناه قَهْر الشىء ليكون فى خدمة شىء آخر . وتسخير الفُلْك قد يثير فى الذهن سؤالاً : كيف يُسخِّر الله الفلك ، والإنسان هو الذى يصنعها ؟

ولكن لماذا لا يسأل صاحب السؤال نفسه : ومن أين نأتى بالأخشاب التى نصنع منها الألواح التى نصنع منها الفُلْك ؟ ثم مَن الذى جعل الماء سائلاً ؛ لتطفو فوقه السفينة ؟ ومَن الذى سيَّر الرياح لتدفع السفينة ؟

كل ذلك من بديع صُنْع الله سبحانه .

وكلمة « الفلك » تأتى مرة ويُرَاد بهـا الشـىء الواحد ؛ وتأتى مرة ويُراد بها أشياء ؛ فهى تصلح أن تكون مفرداً أو جمعاً .

والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

وكذلك قال فى قصة نوح عليه السلام :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

وبعض العلماء يقولون : إذا عاد ضمير التأنيث عليه ؛ تكون جَمْعاً ؛ وإذا عاد عليها بالتذكير تكون مفرداً .

ولكنِّى أقول : إن هذا القول غَيْر غالب ؛ فسبحانه قد قال عن سفينة نوح وهى مفرد :

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا .. (١٤) ﴾ [القمر]

ولم يَقُل : « يجرى بأعيننا » ، وهكذا لا يكون التأنيث دليلاً على الجمع .

ويتابع سبحانه :

﴿ وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ..(٣٢) ﴾ [إبراهيم]

ونفهم بطبيعة الحال أن النهر عَذْب الماء ؛ والبحر ماؤه مالح . وسبحانه قد سخَّر لنا كل شىء بأمره ، فهو الذى خلقَ النهر عَذْب الماء ، وجعل له عُمْقاً يسمح فى بعض الأحيان بمسير الفلك ؛ وأحياناً أخرى لا يسمح العمق بذلك .

وجعل البحر عميقَ القاع لِتمرُق فيه السفن ، وكل ذلك مُسخَّر بأمره ، وهو القائل سبحانه :

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى]

أى : أنه سبحانه قد يشاء أن تقف الرياحُ ساكنة ؛ فتركد السفن فى البحار والأنهار .

ومن عجائب إنباءات القرآن أن الحق سبحانه حينما تكلم عن الريح التى تُسيِّر الفلك والسفن ؛ قال الشكليون والسطحيون « لم نعد نُسيِّر السفن بالرياح بل نُسيِّرها بالطاقة » .

ونقول : فلنقرأ قوله الحق :

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال]

و « ريحكم » تعنى : قوتكم وطاقتكم ؛ فالمراد بالريح القوة المطلقة ؛ سواء جاءت من هواء ، أو من بخار ، أو من ماء .

وهذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - نزلت بعد أن أعلمنا الحق سبحانه بقصة السعداء من المؤمنين ؛ والأشقياء الكافرين ؛ فكانت تلك الآية بمثابة التكريم للمؤمنين الذين قدروا نعمة الله هذه ، فلمَّا علموا بها آمنوا به سبحانه .

وكرمتهم هذه الآية لصفاء فطرتهم التى لم تُضبَّب ، وتكريم للعقل الذى فكّر فى الكون ، ونظر فيه نظرةَ اعتبار وتدبُّر ليستنتج من ظواهر الكون أن هناك إلهاً خالقاً حكيماً .

وفى الآية تقريع للكافر الذى استقبل هذه النعم ، ولم يسمع من

أحد أنه خلقها له ؛ ولم يخلقها لنفسه ، ومع ذلك يكابر ويعاند ويكفر بربٍّ هذه النعم .

وأول تلك النعم خَلْق السماوات والأرض ؛ ثم إذا نظرتَ لبقية النعم فستجدها قد جاءتْ بعد خَلْق السماوات والأرض ؛ وشيء من تلك النعم مُتَّصل بالسماء ؛ مثل السحاب ، وشيء متصل بالأرض مثل الثمرات التي تخرجها .

إذن : فالاستقامة الأسلوبية موجودة بين النعمة الأولى وبين النعمة الثانية .

ثم قال بعد ذلك :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢)﴾ [إبراهيم]

فما هي المناسبة التي جعلتْ هذا الأمر يأتي بعد هذين الأمرين ؟ لأن الفُلْك طريقها هو البحار ومسارها في الماء .

وقد قال الحق سبحانه أنه خلق السماوات والأرض . ومدلول الأرض ينصرف على اليابسة كما ينصرف على المائية ، ومن العجيب أن المائية على سطح الكرة الأرضية تساوي ثلاثة أمثال اليابسة ؛ ورُقْعة الماء بذلك تكون أوسعَ من رقعة التراب في الأرض .

وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أخرج من الأرض ثمراً هي رِزْق لنا ، فلا بُدَّ من وجود علاقة ما بين ذلك وتلك ، فإذا كانت البحار تأخذ ثلاثة أرباع المساحة من الأرض ؛ فلا بُدَّ أن يكون فيها للإنسان شيء .

وقد شرح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى ؛ وأوضح أنه سخَّر البحر لنأكل منه لحماً طرياً[١] ؛ وتلك مُقوِّمات حياة ، ونستخرج منه حلية نلبسها ؛ وذلك من تَرَفِ الحياة .

ونرى الفلك مواخر[٢] فيه لنبتغى من فضله سبحانه .

وبذلك تكون هناك خيرات أخرى غير السمك والحلى ؛ ولكنها جاءت بالإجمال لا بالتفصيل ؛ فربما لم يكُنِ الناس قادرين فى عصر نزول القرآن على أنْ يفهموا ويعرفوا كل ما فى البحار من خيرات ؛ ولا تزال الأبحاثُ العلمية تكشف لنا المزيدَ من خيرات البحار .

وحين نتأمل الآن خيرات البحار نتعجب من جمال المخلوقات التى فيه .

إذن : فقوله :

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء]

هو قَوْل إجمالى يُلخِّص وجود أشياء أخرى غير الأسماك وغير الزينة من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ، ونحن حين نرى مخلوقات أعماق البحار نتعجَّب من ذلك الخلْق أكثر مما نتعجَّب من الخَلْق الذى على اليابسة ، ومن خَلْق ما فى السماء .

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾ [فاطر] .

(٢) مَخرت السفينة مَخْراً ومُخوراً : شقت الماء بصدرها وسُمع لها صوت . [القاموس القويم ٢١٨/٢] .

وهكذا يكون قوله الحق :

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء]

من آيات الإجمال التى تُفصِّلها آيات الكون ؛ فبعضٌ من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية ، ذلك أن الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لَمَا صدَّق الناس ـ على عهد نزول القرآن ـ ذلك .

وعلى سبيل المثال حين تكلَّم سبحانه عن وسائل المواصلات ؛ قال :

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

[النحل]

وقوله تعالى :

﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]

أدخل كُلّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات ؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك .

وحينما يتكلم سبحانه عن البحار ؛ إنما يُوضِّح لنا ما يُكمل الكلام عن الأرض :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم]

ولو فَطِن الناس لقالوا عن السفن « جمال البحار » ؛ ما داموا قد قالوا عن الجمل إنه « سفينة الصحراء » ؛ ولكنهم أخذوا بالمجهول لهم بالمعلوم لديهم .

وإياك أن تقول : أنا الذى صنعتُ الشراع ؛ وأنا الذى صنعتُ المركب من الألواح ، ذلك أنك صنعتَ كل ذلك بقواك المخلوقة لك من الله ، وبالفكر الموهوب لك من الله ؛ ومن المادة الموهوبة لك من الله ، فكلُّها أشياء جاءتْ بأمر من الله .

وهنا يقول سبحانه :

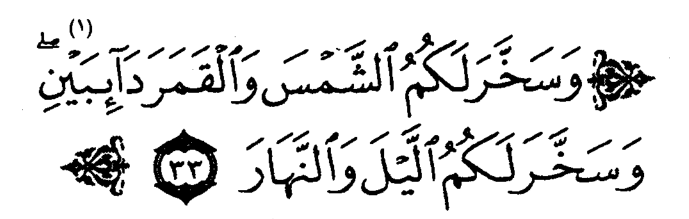
﴿وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم]

والنهر ماؤه عادة يكون عَذْباً ليروى الأشجار التى تُنتِج الثمار . والأشجار عادة تحتاج ماء عَذْباً .

وهكذا شاء الله أن يكون ماء البحار والمحيطات مخزناً ضخماً للمياه ؛ يحتل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية ، وهى مساحة شاسعة تتيح فُرْصة لعمليات البَخْر ؛ التى تُحوِّل الماء بواسطة الحرارة إلى بخار يصعد إلى أعلى ويصير سحاباً ؛ فيُسقط السحابُ الماءَ بعد أن تخلص أثناء البَخْر من الأملاح وصار ماء عَذْباً ؛ تروى منه الأشجار التى تحتاجه ، وتنتِج لنا الثمار التى نحتاجها ، وكأن الأملاح التى توجد فى مياه البحار تكون لِحفْظها وصيانتها من العطب .

ونعلم أن معظم مياه الأنهار تكون من الأمطار ، وهكذا تكون دورة الماء فى الكون ؛ مياه فى البحر تسطع عليها الشمس لتُبخِّرها ؛ لتصير سحاباً ؛ ومن بعد ذلك تسقط مطراً يُغذى الأنهار ؛ ويصب الزائد مرة أخرى فى البحار .

ويتابع سبحانه :



والشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والماء الذى نشربه له علاقة بالشمس والتى تُبخِّره من مياه البحار ؛ ونروى به أيضاً الأرض التى تنتج لنا الثمار ؛ أما البحار فحساب كُلِّ ما يجرى فيها يتم حسب التقويم القمرى .

وهل كان رسول الله ﷺ يعلم كل ذلك وهو النبى الأمى ؟

طبعاً لم يكن ليعلم ، بل أنزل الحق سبحانه عليه القرآن ؛ يضمُّ حقائق الكون كلها .

وقول الحق سبحانه عن الشمس والقمر « دائبين » من الدَّأب ، والدُّؤوب هو مرور الشىء فى عمل رتيب ، ونقول « فلان دءُوب على المذاكرة » أى : أنه يبذل جَهْداً مُنظّماً رتيباً لتحصيل مواده الدراسية ، ولا يُبدد وقته .

وكذلك الشمس والقمر اللذان أقام الحق سبحانه لهما نظاماً دقيقاً .

(١) دأب على الأمر : اعتاده . ودائبين : أى مستمرين فى الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإنسان المجدّ . وقال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. ﴿٤٧﴾﴾ [يوسف] . أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب . [القاموس القويم ١/٢١٩] .

وعلى سبيل المثال نحن نحسب اليوم بأوله من الليل ثم النهار ؛ ونقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً :

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. ⑯⑨﴾ [الأنعام]

أى : أنك أيها الإنسان ستجعل من ظهور واختفاء أىٍّ منهما حساباً .

وقد جعلهما الحق سبحانه على دقة فى الحركة تُيسِّر علينا أن نحسبَ بهما الزمن ، فلا اصطدامَ بينهما ، ولكلٍّ منهما فَلَك[1] خاص وحركة محسوبة بدقة فلا يصطدمان . ولا يُشْبِهان بطبيعة الحال الساعاتِ التى نستخدمها وتحتاج إلى ضبط .

وكلما ارتقينا فى صناعة نجد اختراعاتنا فيها تُقرِّبنا من عُمْق الإيمان بالخالق الأعلى .

وفى نفس الآية يقول الحق سبحانه :

﴿وَسَخَّرَ[2] لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ③③﴾ [إبراهيم]

---

(١) الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوى . قال تعالى : ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ③③﴾ [الأنبياء] أى : فى مدار تدور فيه . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . ومنه قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. ⑤④﴾ [الأعراف] أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦].

وبما أن الشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والنهار يسبق الليل فى الوجود بالنسبة لنا . كان مُقْتضى الكلام أن يقول : سخر لكم النهار والليل .

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُعلمنا أن القمر وهو الآية الليلية ؛ ويسطع فى الليل ؛ والليل مخلوق للسكون ؛ لكن هذا السكون ليس سبباً لوجود الإنسان على الأرض ؛ بل السبب هو أن يتحرك الإنسان ويستعمر الأرض ويكِدّ ويكدح فيها .

لذلك جعل استهلال الشمس أولاً والقمر يستمد ضَوْءَه منها ؛ ثم جاء بخبر الليل وخبر النهار ، فكأن الله قد اكتنفَ هذه الآية بنورين .

النور الأول : من الشمس . والنور الثانى : من القمر ، كى يعلَم الإنسانُ أن حياته مُغلفة تغليفاً يتيح له الحركة على الأرض ، فلا تظننّ أيها الإنسانُ أن الأصل هو النوم ! ذلك أنه سبحانه قد خلق النوم لترتاح ؛ ثم تصحو لتكدح .

ونلحظ أن كلمة « التسخير » تأتى للأشياء الجوهرية ، وتأتى للمُسخَّرات أيضاً ، فالحيوان مُسخَّر لنا ، وكذلك النبات والسماء مُسخَّرة بما فيها لنا ، أما الليل والنهار فهما نتيجتان لجواهر ؛ هما الشمس والقمر ؛ والليل والنهار مُسبَّبان عن شيئين مُباشرين هما : الشمس والقمر .

والتسخير - كما نعلم - هو منع الاختيار . وإذا ما سَخَّر الحق سبحانه شيئاً فلنعلم أنه مُنضبط ولا يتأتّى فيه اختلال ، ولكن الكائن غير المُسخّر هو الذى يتأتى فيه الاختلال ؛ ذلك أنه قد يسير على جَادَّة الصواب ، أو قد يُخطىء .

وفى مسألة التسخير والاختيار تَعب الفلاسفة فى دراستها ؛ وذهبت المذاهب الفلسفية - وخصوصاً فى ألمانيا - إلى مذهبين اثنين ظاهرهما التعارض ؛ ولكنهما يسيرانِ إلى غايةٍ واحدة وهى تبريرُ الإلحاد .

وكان من المقبول أن يكونَ مذهبٌ منهما يُبرر الإلحاد ، وأنْ يبررَ الآخرُ الإيمانَ ، ولكن شاء فلاسفة المذهبين أنْ يُبرروا الإلحاد .

وقال فلاسفة أحد المذهبين : أنتم تقولون إن الكون تُديره قوة قادرة حكيمة ؛ وأن كُلّ ما فيه منضبط بتّصرفات محسوبة ودقيقة .

ولكن الواقع يقول : إن هناك بعضاً من المخالفات التى نراها فى الكائنات ، والمثل هو تلك الشذوذات التى فى الإنسان - على سبيل المثال - فهناك القصير أكثر من اللازم ؛ وهناك الطويل أكثر من اللازم ؛ وهناك مَنْ يولد بعين واحدة ؛ وهناك مَنْ يولد بذراع عاجز ؛ ولو أن القوة التى تدير الكون حكيمة لَمَا ظهرتْ أمثال تلك الشذوذات .

ونرد على صاحب تلك النظرية قائلين : وإذا لم يكُنْ هناك إله ، أتستطيع أن تقول لنا الحكمة من وراء وجود تلك الشذوذات ؟ فأنت تدفع الحكمة عن الخالق الذى نؤمن به ؛ فهل تستطيع أنت إثباتَ الحكمة لغيره ؟ طبعاً لن يستطيع أنْ يردَّ عليك ؛ لأن كلامه مردود .

ثم نأتى للمدرسة المقابلة التى تقول : إن النظام الموجود بالكون يدل على أنه لا يوجد له خالق ؛ فهو نظام ثابت آلىّ ؛ ولا يوجد إله قادر على أن يقلب آلية هذا الكون .

وهكذا كانت هاتان المدرستان مختلفتين ؛ ومتعارضتين ؛ ولكنهما يؤديان إلى الإلحاد .

ونرد على المدرستين قائلين : يا من تأخذ ثبات النظام دليلاً على وجود إله ؛ فهذا الثبات موجود فى الكون الأعلى . ويا من تأخذ الشذوذ دليلاً على وجود خالق ؛ فهو موجود فى الكائنات الأدنى ؛ ولو حدث الشذوذ فى الكائنات الأعلى لَفسدتِ السماوات والأرض .

وقد شاء الحق سبحانه أن يوجد الشذوذ لوجه فى الأفراد ؛ فواحد يكون شاذاً ، والباقى الغالب يكون سليماً .

وهكذا يكون الشذوذ فى الأفراد غيرَ مانع لقضية وجود خالق أعلى ، وإذا أردت ثبات النظام فانظر إلى الكون الأعلى ؛ كى تعلم أنه لا يوجد للإنسان مَدْخل فى هذا الأمر .

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد سخّر لنا الليل والنهار ؛ وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر ؛ وكلاً من الشمس والقمر دائبين ، يمشى كل منهما فى حركته مشياً لا تنقطع فيه رتابة العادة . ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدد - على سبيل المثال - أوائل الفصول ومواسم الزراعة ؛ ومواقيت الصلاة .

وإذا نظرتَ إلى أىِّ اختلال قد ينشأ من بعض الظواهر ؛ فاعلم أن ذلك قد نشأ من تدخُّل الإنسان المُخْتار المُستْخلَف فى الأرض ؛ والمثال هو مشكلة ثُقْب طبقة الأوزون الموجودة فى الغلاف الجوى ، والتى قد نشأت من تجاربنا التى نلهث فيها من أجل تحسين حياتنا على الأرض .

ولكننا ننظر إلى التجـربة بأفْق محدود ، ونفصل النظـرة الجزئية عن النظرة الكلـية المطـلوب منا أنْ ننظرَ بهـا لكُل مـا يحـيط بنا فى الكون ؛ فنتسبب بهذا اللهْث فى التجـارب فى إفساد الكثير من أسرار حيـاتنا على الأرض ؛ حـتى بِتْنَا نـشكو من اضطراب الجـو بَرْداً وصقيعاً ؛ وحراً فوق الاحتمال .

وذلك بتدخّل الإنسان المختار فيما لا يجب أنْ يتدخلَ فيه إلا بعد أن يدرسَ كل جوانبه . واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. (٤١)﴾[الروم]

ولذلك لابُدَّ من دراسة المُقدّمات والنتائج جيداً قبل أن نُضخِّم من تجاربنا التى قد تضر البشر ؛ ولذلك أيضاً أقول : إن علينا أن ندرس الآثار الجانبـية لكل اختـراع علمى كى نحمىَ البـشر من سيـئات تلك الآثار الجانبية .

ولنتذكر قول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء]

ولعل ما نعيش فيه من مُشْكلات تتعلق بالجو والصحة هو نتيجة تدخُّلنا بغيـر علم مكتمل ؛ وهذا يؤكد لنا حكمـة الخالق الأعلى ؛ ذلك

---

(١) قفـاه يقفوه : مشى خلفـه أو تبعه . وقـوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسـراء] . أى : لا تتبـع من العقـائد مـا ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحـداث ما لا تعرف له دليـلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عمّا ليس لك به علم . [القـاموس القويم ١٢٨/٢] .

أننا لمّا خرجنا بالمُخْترعات العلميـة وانبهرنا بفائدتها السطحية ؛ ظننا أن فى ذلك مكسباً كـبيراً ؛ ولكنه كان وبالاً فى بعض الأحيان نـتيجة الآثار الجانبية .

ولذلك لم يَقُلِ الحق سـبحانه : « بمـا اكتسـبت أيدى الناس » بل قال :

﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. (٤١) ﴾ [الروم]

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾

[إبراهيم]

وهكذا نعلم أن تعاقب ظهور الشمس والقمر ؛ يُسبِّب تعاقبَ مجىء الليل والنهار .

ولا يعنى ظهور الشـمس وسطوعها أن القمـر غير موجـود ؛ فهو موجود ، ولكن ضوء الشـمس المُبهِر يمنعك من أنْ تراه ، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً .

أما الليل والنهـار فهمـا يتتابعـان كل منهمـا خَلْفَ الآخر . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

أى : أنهما لا يأتيان معاً أبداً ؛ فالليل فى بلد ما يقابله نهار فى بلد آخر .

وهكذا أثبتَ لنا الدأبَ فى الحركة ؛ فكُلٌّ منهما يأتى عَقِب الآخر ؛ وقد جعل الحق سبحانه ذلك من أول لحظة فى الخَلْق ؛ وكانا لحظة الوجود خِلفْةً ، كل منهما يأتى من بعد الآخر ؛ فكأن الكون حين خلقه الله ؛ وجعل الشمس فى مواجهة الأرض ، صار الجزء المواجه للشمس نهاراً ؛ والجزء غير المواجه لها صار ليلاً .

ثم دارت الأرض ؛ ليأتى الجزء الذى كان غير مُواجِه للشمس ؛ فى مواجهتها ؛ فصار ليلاً ، وذهب الجزء الذى كان فى مواجهتها ، ليكون مكان الجزء الآخر فصار ليلاً ، وهكذا شاء سبحانه أن يكون كل منهما خَلْف الآخر .

وهكذا تكلم الحق سبحانه عن حَصْر بعضٍ من نعمه الكلية علينا نحن العباد ، سماء ، وأرض ، وماء ينزل ، وثمرات تنبت من الأرض ، وكذلك سخَّر لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهذا ما يُسمَّى تعديد لبعض النعم .

ونجد واحداً من الصالحين يقول عن نعم الله « أعد منها ولا أعددها » . فكأن الله ينبهنا إلى أصول النظام الكونى الأعلى ، ثم فتح المجال لِنعَمٍ أخرى لن يستطيع أحد أنْ يُحصِيها .

لذلك يقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

نعم ، أعطانا الحق سبحانه مما نسأل وقبل أن نسأل ، وأعدَّ الكون لنَا من قبل أنْ نوجد . إذن : فسبحانه قد أعطانا من قبل أنْ نسألَ ؛ وسبقت النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكونُ آدم ، وهو مُعَدٌّ لاستقباله .

وإذا نظرتَ للفرد منّا ستجد أن نعَم الله عليه قد سبقتْ من قبل أن نعرف كيف نسأله ، والمثل هو الجنين فى بطن أمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : أنه قد أعطاك ما تسأله وما لم تسأله ، نطقت به أو لم تنطق ، ولو بحديث النفس أو خواطر خافية ، وأنك قد تقترح وتطلب شيئاً فهو يعطيه لك .

وقد يسأل البعض من باب الرغبة فى التحدى - ولله المثل الأعلى - نجد بعض البشر ممَّنْ أفاء الله عليهم بجزيل نعمه ؛ ويقول الواحد منهم : قُلْ لى ماذا تطلب ؟

وقد حدث معى ذلك ونحن فى ضيافة واحد ممَّنْ أكرمهم الله بكريم عطائه ، وكنا فى رحلة صحراوية بالمملكة العربية السعودية ،

وقال لى : أطلب أى شىء وستجده بإذن الله حاضراً . وفكرتُ فى أن أطلب ما لا يمكن أن يوجدَ معه ، وقلت : أريد خيطاً وإبرة ، فما كان ردّه إلا « وهل تريدها فتلة بيضاء أم حمراء ؟ » .

وإذا كان هذا يحدث من البشر ؛ فما بالُنَا بقدرة الله على العطاء ؟

ومن حكمة الله سبحانه أنه قال :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ذلك أن وراء كل عطاء حكمةً ، ووراء كل مَنْعٍ حكمة أيضاً ، فالمنع من الله عين العطاء ، فالحقّ سبحانه مُنزَّه عن أن يكون مُوظّفاً عندك ، كما أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .. (١١) ﴾ [الإسراء]

ولذلك قال :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

أى : بعض ممّا سألتموه ، ذلك أن هناك أسئلةً حمقاء لا يُجيبكم الله عليها ؛ مثل قول أى امرأة يعاندها ابنها « يسقينى نارك » هذه السيدة ؛ لو أذاقها الله نارَ افتقاد ابنها ؛ ماذا سوف تفعل ؟

إذن : فمنْ عظمته سبحانه أنْ أعطانا ما هو مُطابِق للحكمة ؛ ومنَع عنّا غَيْرَ المطابق لحكمته سبحانه ، فالعطاء نعمة ، والمَنْع نعمة أيضاً ، ولو نظر كُلٌّ منا لعطاء السَّلْب ؛ لَوجد فيه نعماً كثيرة .

ويقول سبحانه :

﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك فلا يقولن أحدٌ : « قد دعوتُ ربى ولم يَستجِب لى » وعلى الإنسان أن يتذكَّر قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾

[الإسراء]

فهو سبحانه مَنْ يملك حكمة العطاء وحكمة المنع . ولا أحدَ منّا يستطيع أنْ يعُدّ نعَم الله . والعَدُّ ـ كما نعلم ـ هو حَصْرٌ لمفردات جَمْع أو جزئيات كُلٍّ . ويعلم أهل العلم بالمنطق ـ ونسميهم المَنَاطقة ـ أن هناك « كُلىّ » يقابله « جُزئىّ » ، وهناك «كُل » يقابله « جزء » .

والمَثل على « الكُلىّ » الإنسان ؛ حيث إننا جميعاً مُكوّنين من عناصر متشابهة ؛ ومفرد البشر يختلف باختلاف الأسماء ؛ أما ما يُسمَّى « كل » فالمثَل عليه هو الكُرسى ، وهو مُكوّن من مواد مختلفة كالخشب والمسامير والغرَاء ، ولا يمكن أن نطلق على الخشب فقط كلمة كرسى ؛ وكذلك لا نستطيع أن نُسمِّى « المسامير » بأنها كراسى .

وعلى هذا نكون قد عرفنا أن حقيقة الكُلىّ أن مفرداته متطابقة ، وإن اختلفت أسماؤها ، لكن حقيقة الكُلِّ أن مفرداته غير متشابهة ، وتختلف فى حقيقتها .

وإذا أردتَ أنْ تُحصى الكُلىّ فأنت تنطق أسماء الأفراد كأن تقول : محمد وأحمد وعلى ؛ وهذا ما يُسمّى عداً ، وهكذا نفهم أن العَدَّ هو إحصاءُ جزئيات الكلى ، أو إحصاء أجزاء الكُلِّ .

ونعلم أنهم قد سَمَّوْا العَدَّ إحصاءً ؛ لأنهم كانوا يعدُّون الأشياء قديماً بالحصَى ؛ وأُطلقت كلمة الإحصاء على مُطْلق العَدِّ حساباً للأصل ، وعرف عدد أجزاء الكلى أو الكل .

وكان الإنسان فى العصور القديمة يَعُد - على سبيل المثال - إلى رقم « مائة » ، ثم يحسب كل مائة بحصاة واحدة ؛ فإذا تجمّع لديه عَشْر حصوات عرف أن العدد قد صار ألفاً ، ومن هنا جاءت كلمة الإحصاء ، وفى كثير من أمور عصرنا المتقدم ؛ ما زلْنا نُسمّى بعض الأشياء بمُسمّيات قديمة ؛ فنحسب قوة السيارة بقوة الحصان .

وأنت إذا نظرتَ إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ستجد الكثير من المعانى ، ولكن مَنْ يحاولون التصيُّد للقرآن يقولون : إن هذا أمر غَيْر دقيق ؛ فما دام قد حدث العَدّ ؛ فكيف لا يتم الإحصاء ؟ وهؤلاء ينسوْنَ أن المقصود هنا ليس العدّ فى ذاته ؛ ولكن المقصود هو إرادة العدِّ .

ولو وُجدت الإرادة فليس هناك قدرة على استيعاب نعم الله ، ومن هنا لا نرى تعارضاً فى آيات الله ، وإنما هو نسق متكامل ، فأنت لا تُقبل على عَدِّ أمر إلا إذا كان غالبُ الظن أنك قادرٌ على العَدِّ ، وذلك إذا كان فى إمكان البشر ، ولكن نعم الله فوق طاقة مقدور البشر .

والمثَل أيضاً على مسألة إرادة الفعل يمكن أن نجده فى قوله الحق :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة]

ونحن لا نغسل وجوهنا لحظة أن نقومَ بالصلاة ؛ ولكننا نغسلها ونستكمل خطوات الوضوء حين يُؤذّن المؤذن ونمتلك إرادة الصلاة ، فكأن القول هنا يعنى : إذا أردتمُ القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا وكذا .

ونعلم أن ذِكْر الشيء بسببه كأنه هو ؛ ولذلك يُقال : إذا كان الآذان قد أذّن فى المسجد ؛ وأنت خارج من منزلك بقصد الصلاة ؛ فلا تجرى لتلحق بالإمام وتُدرك الصلاة[1] ؛ لأنك فى صلاة من لحظة أنْ توضأتَ وخرجتَ من بيتك للصلاة ؛ وإياك أنْ تفعلَ حركة تتناقض مع الصلاة ، وادخل المسجد بسكينة ووقار لتؤدى الصلاة مع الإمام[2] .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ستجد أن العادة فى اللغة هى استعمال « إن » فى حالة الأمر المشكوك فيه ، أما الأمر المُتيقّن فنحن نستخدم « إذا » مثل قوله الحق :

---

(١) ويرشد إلى هذا حديث أبى بكرة رضى الله عنه أنه جاء ورسول الله ﷺ راكع ، فركع دون الصف ثم مشى إلى الصف ، فلما قضى النبى ﷺ صلاته قال : « أيكم الذى ركع دون الصف ثم مشى إلى الصف ؟ فقال أبو بكرة : أنا . فقال النبى ﷺ : زادك الله حرصاً ولا تعد » أخرجه أبو داود فى سننه (٦٧٩ ، ٦٨٠) ، والبخارى فى صحيحه (٢/١١٩ ، ٢٦٧ ـ فتح البارى) وأحمد فى مسنده (٥/٣٩ ، ٤٢) .

(٢) وهذا المعنى مأخوذ من الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٠٣ ـ المساجد) عن أبى قتادة قال : بينما نحن نصلى مع رسول الله ﷺ ، فسمع جلبة فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أتيتم الصلاة ، فعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما سبقكم فأتموا » .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾ [النصر]

وقد جاء الحق سبحانه هنا بأسلوب الشك حين قال :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. ③④﴾ [إبراهيم]

ذلك أن العاقل يعلم مُقدّماً أنه سيعجز عن إحصاء نِعَم الله . وكلنا يعلم أن هناك علماً اسمه « الإحصاء » وله أقسام جامعية متخصصة .

وعلى الرغم من التقدم وصناعة الحاسب الآلى « الكمبيوتر » لم يستطع أحدٌ ولم يُقبل أحدٌ على إحصاء نعَم الله فى الكون ، ذلك أن العدَّ والإحصاء يقتضى كُليّاً له أفراد ، أو كُلاً له أجزاء .

وأنت إنْ نظرتَ إلى أىّ نعمة من نعم الله ؛ قد تظنها نعمة واحدة ؛ ولكنك إنْ فصَّلْتَ فيها ستجدها نِعَماً مُتعدِّدة وشتّى ، وهكذا لا يوجد تناقض فى قوله الحق :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. ③④﴾ [إبراهيم]

وأنت إنْ أخذتَ نعمة المياه ستجدها نِعَماً متعددة ؛ فهى مُكوّنة من عناصر ، كل عنصر فيها نعمة ؛ وإن أخذتَ نعمة الأرض ستجد فيها نِعَماً كثيرة مطمورة ، وهكذا تكون كل نعمة من الله مطمور فيها نِعَم متعددة ، ولا تُحْصَى .

وحين تنظر فى قول الحق سبحانه :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. ③④﴾ [إبراهيم]

تجد ثلاثة عناصر ؛ هى المُنعِم ؛ والنعمة التى حكَم الحق سبحانه أنك لن تحصيها ، وأن خلْقه لم يضعوا أنوفهم فى أنْ يعدّوا تلك النعمة ؛ فهى لا تحصى لأنها ليست مظنّة الإحصاء ؛ ولا يقبل عاقلٌ أن يحصيها .

والعنصر الثالث هو المُنْعَم عليه ، وهو الإنسان الذى قد يعجز عن إحصاء نعم رئيسه من البشر عليه ـ فما بالك بنعم الله التى لا تحصى ، وكمالاته التى لا تُحدّ ، وعطائه الذى لا ينفد ؟ ولله المثل الأعلى ، فهو المنزّه عن المثل .

ثم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وهنا فى سورة إبراهيم نجد قوله الحق مبيناً ظلم الإنسان لنفسه وكفره بالنعمة ، وفى كفره للنعمة كفر بالمنعم يقول سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا[1] وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء هم مَن ارتكبوا مظالم بالنسبة لعقيدة الوحدانية والإيمان بالله ، والإنسان هو المُنْعَم عليه ؛ وما كان يصحّ أن يرى كل تلك النعم ثم يكفر بها ، وكان من العدل أن يعطى الحق لصاحبه ، ولكن بعضاً من البشر بدَّلوا نعمة الله كفراً ؛ وهكذا صاروا ممَّنْ يُطلَق على كل منهم أنه ظلوم فى الحكم ؛ وأنه كفّار ؛ لجحوده بالنعمة ونكرانه عطاء الخالق للمخلوق .

---

(١) صلى اللحم وغيره يصليه صَلْياً : شواه ، والصلاء : الشواء والإحراق . وصلى بالنار : قاسى حرَّها واحترق . [لسان العرب ـ مادة : صلا] .

والظلم كما نعرف هو أن تنقل الحق من صاحبه إلى غير صاحبه ؛ وإنْ لم تؤمن بالله تكون قد أخذتَ حق الإله فى الوجود ، وإنْ كنتَ تؤمن بشركاء ؛ فأنت تنقل بذلك حقاً من الله إلى غيره ، وهذا ظلم القمة .

وانظر إلى قول الحق سبحانه فى سورة النحل :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ[1] لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ[2] فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[3] بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

فهل هناك إرادة أو قدرة تستطيع أن تحصى عطاءات الله التى فوق العَدِّ والحدِّ ؟ ففى الآيات السابقة وغيرها إعجاز وعجز ، وما دام هناك عجز فالكمال عنده لا يتناهى .

---

(١) ذرأ الله الخلق : خلقهم وبثَّهم وكثَّرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

(٢) مخرت السفينة تمخر : جرت تشق الماء مع صوت ، تدفع الماء بصدرها . [لسان العرب - مادة : مخر] .

(٣) مادت الأرض : اضطربت وزلزلت . ماد : تحرك واهتز . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

إن بعضاً ممَّنْ يستدركون على القرآن يقولون : كيف يقول القرآن مرة :

﴿إِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

ثم يقول فى آية أخرى :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل]

ونردُّ على هؤلاء : أنتم لم تنظروا إلى السياق الذى جاء فى كل آية ، وعَمِيَتْ بصيرتكم عن معرفة أن سياقَ الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - قد جاء فيها ذكْر النِّعم وذكر الجحود والكفران بالنعم ؛ وهذا ناشىء عن ظُلْم الإنسان لنفسه بالظُّلْم العظيم .

وفى آية سورة النحل جاء بِذكْر النعم ، ورغم ظُلْمنا إلا أن رحمته سبحانه وَسِعَتْنا ، ولم يمنع عنَّا ما أسبغه[1] علينا من نِعَم ، وكأنه سبحانه يُوضِّح لنا : إياكم أنْ تستحُوا أنْ تسألونى شيئاً ؛ وإنْ كنتم قد ظلمتُم وكفرتُم فى أشياء ، فظُلْمكم يقابله غفران منِّى ، وكافريتكم يقابلها منى رحمة ، وهكذا لا يوجد تعارضٌ بين الآيتين ؛ بل كُل تذييل لكل آية مناسبٌ لها ، ففى الآية الأولى يعاملنا الله بعدله ، وفى الآية الثانية يعاملنا الله بفضله .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

---

(١) أسبغ الله النعمة : أكملها وأتمها ووسَّعها . وسبغت النعمة : اتسعت . والشىء السابغ : الكامل الوافى . [لسان العرب - مادة : سبغ] .

ونعلم أن هناك أناساً قد آمنوا بالله وبنعمه ، ويشكرون الله عليها ، فكيف يَصِف الحق سبحانه الإنسان بأنه ظَلوم كفَّار ؟

ونقول : إن كلمة « إنسان » إذا أُطلقتْ من غير استثناء فهى تنصرف إلى الخُسْران والحياة بلا منهج ؛ ودون التفات للتفكير فى الكون .

والحق سبحانه حين أراد أن يُوضِّح لنا ذلك قال :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

ولذلك جاء سبحانه بالاستثناء بعدها ، فقال :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ[(١)] ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ ﴾

وحين يقول سبحانه (إذ) أى « اذكر » ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم (رَبّ) ولم يَقُلْ « يا الله » ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه للخالق المربِّى ، لذلك قال « ربّى » ولم يَقُل « يا الله » لأن عطاءَ الله تكليفٌ ، وأمام التكليف هناك تخيير فى أن تفعل ولا تفعل ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٤٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) المقصود بالبلد هنا : مكة . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٠٦] .

أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصلِّين وغير المُصلِّين .

ولم تَأْتِ مسألة إبراهيم هنا قَفْزاً ؛ ولكنّا نعلم أن القرآن قد نزل ، وأول مَنْ سيسمعه هُم السادة من قريش ؛ الذين تمتَّعوا بالمهابَة والسيادة على الجزيرة العربية ؛ ولا يجرؤ أحد على التعرُّض لقوافلها فى رِحْلَتَىْ الشتاء والصيف ؛ لليمن والشام ؛ وهم قد أخذوا المهابة من البيت الحرام .

ولذلك تكلَّم الحق سبحانه عن النعمة العامة لكل كائن موجود تنتظر أُذنه نداء الإسلام ؛ وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن النعم التى تخصُّهم ؛ لذلك قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

وقد وردتْ هذه الجملة فى سورة البقرة بأسلوب آخر ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

والفرق بين « البلد » و « بلداً » يحتاج منّا أن نشرحه ، فـ « بلداً » تعنى أن المكان كان قَفْراً[1] ؛ ودعا إبراهيم أن يصبحَ هذا المكانُ بلداً آمناً أى : أن يجد مَن يقيمون فيه ، يُجدّدون حاجاتهم ومُتطلباتهم ؛ وتكون وسائل الرزق فيه مُيسَّرة ، ودعاؤه أيضاً شمل طلب الأمن ، أى : ألاّ يوجد به ما يُهدّد طمأنينة الناس على يومهم العادىّ ووسائل رزقهم .

---

(١) القفر والقفرة : الخلاء من الأرض . وقد أقفرت الأرض : خلت من الكلأ والناس . [لسان العرب ـ مادة : قفر] .

وأجاب الحق سبحانه دعاء إبراهيم فصار المكان بلداً ؛ وجعله سبحانه آمناً أماناً عاماً ؛ لأن الإنسان فى أىّ بُقْعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجلس فيه ويقيم ويتوطّن إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مُقوّمات حياة ومن عدم تفزيعه تفزيعاً قوياً ، وهذا الأمن مطلوب لكل إنسان فى أىّ أرض .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أنْ نزلَ هذا المكان ، وكان وادياً غير ذى زرع ؛ ولا مُقوّمات للحياة فيه ؛ فكان دعاؤه هذا الذى جاء ذِكْره فى سورة البقرة .

أما هنا فقد صار المكان بلداً ؛ وكان الدعاء بالأمن لثانى مرة ؛ هى دعوة لأمن خاص ؛ ففى غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة ؛ أو يصْطاد صَيْد ؛ ولكن فى هذا المكان هناك أَمْنٌ خاصّ جداً ؛ أمنٌ للنبات ولكُلّ شىء يوجد فيه ؛ فحتى الحيوان لا يُصَاد فيه ؛ وحتى فاعل الجريمة لا يُمَسّ[1] .

وهكذا اختلف الدعاء الأول بالأمن عن الدعاء الثانى ؛ فالدعاء الأول : هو دعاء بالأمن العام ؛ والدعاء الثانى : هو دعاء بالأمن الخاص ؛ ذلك أن كل بلد يوجد قد يتحقّق فيه الأمن العام ؛ ولكن بلد البيت الحرام يتمتع بأمنٍ يشمل كل الكائنات .

---

(١) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يُختلى خلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال : « إلا الإذخر » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٥٣) .

ويقول بعض من السطحيين : ما دام الحق قد جعل البيت حَرَماً آمناً ؛ فلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس فى الحرم ؟

ونقول : وهل كان أَمْن الحرم أمراً « كونياً » ، أم تكليفاً شرعياً ؟ إنه تكليف شرعىّ عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرضة أنْ يُعصى .

وقوله سبحانه :

﴿ ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى أن عليكم أيُّها المُتبِّعون لدين الله أنْ تُؤمِّنوا مَنْ يدخل الحرم أنهم فى أمن وأمان ، وهناك فارق بين الأمر التكليفىّ والأمر الكونىّ .

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم :

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

وهو قَوْل يحمل التنبؤ بما حدث فى البيت الحرام على يد عمرو ابن لُحَيٍّ الذى أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة ، وهو قَوْل يحمل تنبؤاً من إبراهيم عليه السلام .

ولقائل أنْ يسألَ : وكيف يدعو إبراهيم بذلك ، وهو النبى المعصوم ؟ كيف يطلب من الحق أن يُجنِّبه عبادة الأصنام ؟

وأقول : وهل العصمة تمنع الإنسان أنْ يدعوَ ربه بدوام ما هو عليه ؟ إننا نتلقى على سبيل المثال الأمر التكليفى منه سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(١٣٦) ﴾ [النساء]

وهو أَمْر بالمداومة .

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب ـ عليه السلام ـ :

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا .. (٨٩)﴾ [الأعراف]

وفى هذا القَوْل ضراعة إلى المُنعم علينا بنعمة الإيمان ؛ وفى هذا القول الكريم أيضاً إيضاحٌ لطلاقة قدرة الحق سبحانه .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥)﴾ [إبراهيم]

والصنم غير الوثن[1] ، فالمُشكَّل بشكل إنسان هو الصنم ؛ أما قطعة الحَجَرِ فقط والتى خَصَّها بعضٌ من أهل الجاهلية بالعبادة فهو الوثن .

وهناك مَنْ أراد أنْ يخرج بِنَا من هذا المأزق ؛ فقال : إن الكفر نوعان . شرك جَلى ؛ وشرك خفىّ . والشرك الجلىّ أن يعبدَ الإنسانُ أىّ كائن غير الله ؛ والشرك الخفىّ أن يُقدّس الإنسانُ الوسائطَ بينه وبين الله ، ويعطيها فوق ما تستحق ، وينسب لها بعضاً من قدرات الله .

---

(١) قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تُعمل وتُنصب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين [لسان العرب ـ مادة : وثن] .

ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يُجنِّبه وبنيه أنْ يعبدوا الأصنامَ يقتضى منّا أن نفهم معنى كلمة أبناء ؛ ذلك أن إبراهيم قصد بالدعاء بنيه الذين يَصِلُون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله ؛ ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنيه قد عبدوا الأصنام والأوثان .

ومعنى كلمة « أبناء » أوضحه سبحانه فى مواطن أخرى . ونبدأ من قوله :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : بعد أن أخبر الله إبراهيم ، وكلّفه بالمهام التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها على وجه التمام ؛ أمّنه الحق على أن يكون إماماً ؛ فقال سبحانه :

﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أن حيثية الإمامة هى أداء إبراهيم عليه السلام لكل مهمة بتمامها وبدقّة وأمانة ، وإذا كان هذا هو دستورَ الله فى الخَلْق ؛ فلابُدَّ لنا من أن نتخلَّقَ بأخلاق الله . وعلينا ألاّ نختار أىَّ إنسان لأية مهمة ليكون إمامها ، إلا إنْ كان كُفْءً لها ويُحسِن القيام بها .

ولنتذكر قوله ﷺ :

« إذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتظِر الساعة » . قال السائل له عن موعد

---

(١) الكلمات : جمع كلمة ، وهى هنا أحكام الدين وتكاليفه . [القاموس القويم ٢/١٧٣] وقال ابن كثير فى تفسيره (١/١٦٥) : « الكلمات : الشرائع والأوامر والنواهى » .

قيـام الساعة : وكيف إضـاعتها ؟ قـال : « إذا وُسِّد[١] الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[٢] .

ذلك أن إسناد أىّ أمر لغير أهله إنما هو إفساد فى الوجود ، لأن الأصل فى إسناد أىّ أمر لأى إنسان أن يكون بهـدف أن يقومَ بالأمر كما يجب ، فإذا كان الاختيار سـيئاً ؛ فسيكون هذا الإنسان أُسْوة فى السوء ؛ وتنتـقل منه عدوى عدم الإتقـان إلى غيره ؛ ويتفـشَّى السوء فى المـجتمع ، أمـا إذا تولى الأمر مَنْ هو أهْلٌ لـه فالموقف يخـتلف تماماً ، فـوضـع الإنسان فى مكانه اللائق ، تعتـدل به موازين العدل ، وفى اعتدال الميزان استقرار للزمان والمكان والإنسان .

والمَـثَلُ على ذلك : أن الأولاد الذين تربَّوْا فى السعـودية ؛ ورأَوْا أن يد السـارق تُقطع ؛ لم نـجـد منهم مَنْ يسـرق ؛ لأنهم تربَّوْا على أن السـارق تُقطع يده ، وفـهـموا أن الحق سـبحـانه لحظة أنْ يضـعَ عـقـوبةً قـاسـيـةً ؛ فليس هذا إذْنٌ بأن تـقـعَ الجـريمـة ؛ بل ألاَّ تقعَ الجريمة .

وحين يتساءل مَنْ يدَّعُون التحضُّر : كيف يقول القرآن :

﴿ لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]

وحـين تجـدون مَنْ يخرج عـن الدين تقـبضـون عليـه ، وينادى البعض بإعدامه ؟

---

(١) وُسِّد : أُسند ، وأصله من الوسادة . قال ابن منظور فى اللسان (مادة : وسد) : « يعنى إذا سُوِّد وشُرِّف غير المستحق للسيادة والشرف » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩ ، ٦٤٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولهؤلاء أقول : وهل هذا الأمر يُحسب على الإسلام أم لصالح الإسلام ؟

إنه لصالح الإسلام ، ذلك أن مثْل هذا الحرص على كرامة الدين يُهيِّب الناس أنْ يدخلوا الدين إلا بعد الإقناع المؤدى لليقين ، واليقين هو الوصول إلى الدين الحقّ مصحوباً بدليل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

بهذا نعلم أن دخول الإسلام سيُكلّفه حياته لو أراد أنْ يخرجَ منه ، لأنه خرج من اليقين الذى دخله بالدليل .

وحين دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

كان قد نجح فى اختبار الله له ، ونجح فى أداء ما أُسند إليه تماماً ؛ وشاء له الحق سبحانه أن يكون إماماً ، واستشرف إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة فى ذريته ؛ فقال :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فجاءه الجواب من الحق سبحانه :

﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن بُنوة الأنبياء ليست بنوة لَحْم

ودمٍ ؛ بل بُنُوة اتباع واقتداء ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال لنوح عن ابنه[1] :

﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٤٦)﴾ [هود]

ونعلم أن رسول الله ﷺ قد قال عن سلمان الذى كان فارسياً : « سلمان منا آل البيت »[2] .

وفى هذا تأكيد على أن بنُوّة الأنبياء هى بنُوّة اتباعٍ واقتداء .

ويستكمل الحق سبحانه دعاء إبراهيم عليه السلام ؛ فنجد وَعْى خليل الرحمن بما تفعله عبادة الأصنام :

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٤٦/٢) : « هذا هو الابن الرابع ، واسمه يام وكان كافراً » قال تعالى : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ [هود] ثم سأل نوح ربه سؤال استعلام وكشف عن حال ولده الذى غرق فقال : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾ [هود].

(٢) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤١٨/٣) والحاكم فى مستدركه (٥٩٨/٣) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

ونعلم أن الأصنام بذاتها لا تُضل أحداً[1] ؛ ذلك أنها لا تتكلم ولا تتحدث إلى أحد ؛ ولكن القائمين عليها بدعْوى أن لتلك الأصنام ألوهية ؛ ولا تكليفَ يصدر منها ، هم الذين يضلون الناس ويتركونهم كما يقول المثل العامى « على حَلِّ شعورهم » .

ويرحب بهذا الضلال كل مَنْ يكره أن يتبع تعاليم الخالق الواحد الأحد .

ويتابع سبحانه ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام من بعد الدعاء :

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

وهذه تعقيباتٌ فى مسألة الغُفران والرحمة بعد العصيان ؛ فمرّة يعقُبها الحق سبحانه :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

ومرّة يعقبها :

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

ذلك أن الجرائم تختلف درجاتها ، فهناك جريمة الخيانة العُظْمى أو جريمة القمّة ؛ مثل مَنْ يدّعى أنه إلهٌ ؛ أو مَنْ يقول عنه أتباعه أنه إله دون أنْ يقولَ لهم هو ذلك .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٦) : « لما كانت ـ الأصنام ـ سبباً للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازاً ، فإن الأصنام جمادات لا تفعل » .

وقد قال عيسى ـ عليه السلام ـ بسؤال الحق له :

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى قَوْل عيسى عليه السلام :

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة]

ويتابع عيسى عليه السلام القَوْل :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

وهكذا تأتى العِزّة والمغفرة بعد ذكْر العذاب ؛ فهناك مواقف تُناسبها العزّة والحكمة ؛ ومواقف تناسبها المغفرة والرحمة ، ولا أحدَ بقادرٍ على أنْ يردّ لله أمْرَ مغفرةٍ أو رحمةٍ ؛ لأنه عزيزٌ وحكيمٌ .

وقوله الحق :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ .. (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

يعكس صفات مناسبة للمُقدِّمات الصدرية فى الآية ، وتؤكد لنا أن القرآن من حكيم خبير ، وأن الله هو الذى أوحى إلى عبده القرآن :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

فما الذى يجعله يقول فى آية :

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

وفى آية أخرى :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

مع أن السياق المعنوىّ قد يُوحى من الظاهر بعكس ذلك ؟

وما الذى يجعله سبحانه يقول فى آية بعد أن يُذكّرنا أن نِعَم الله لا تُعَدّ ولا تُحْصَى :

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

ويقول فى آية أخرى بعد أنْ يُذكِّرنا بنِعَمِ الله بنفس اللفظ :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل]

وكذلك قوله :

﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾ [عبس]

ثم قوله فى آية أخرى :

﴿إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾﴾ [الإنسان]

كل ذلك يعطينا حكمة التنزيل ، فإن كل آية لها حكمة ، وتنزيلها يحمل أسرار المراد .

وكُلُّ ذلك يأتى تصديقاً لقوله الحق :

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى]

لأن الحق سبحانه وتعالى شاء أنْ يُنزل القرآن على رسوله ، ويضمن أنه سيحفظه ؛ ولن ينسى موقع أو مكان آيةٍ من الآيات أبداً ، ذلك أن الذى قال :

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى]

هو الحق الخالق القادر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ(١) رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾

ونفهم من التعبير فى هذه الآية أن المكانَ لا يصلح للزرع ؛ ذلك أنه أرض صَخْرية ؛ وليست أرضاً يمكن استصلاحها ؛ وقَوْل إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : لا أملَ فى زراعتها بمجهود إنسانى ، وليس أمام تواجد الرزق فى هذا المكان إلا العطاء الربانى . ولم يكُنْ اختيار المكان نتيجة بَحْثٍ من إبراهيم عليه السلام ؛ ولكن بتكليف إلهىّ ، فسبحانه هو الذى أمر بإقامة القواعد من البيت المحرم ، وهو مكان من اختيار الله ، وليس من اختيار إبراهيم عليه السلام.

وحين يقول إبراهيم عليه السلام :

﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٩) : « قوله تعالى : ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم] يدل على أن البيت كان قديماً على ما روى قبل الطوفان ، وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرم أى : يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع واستحلال ، وقيل : محرم على الجبابرة ، وأن تُنتهك حرمته ، ويستخفّ بحقه » .

فهذا يعنى حيثية الرِّضا بالتكليف ، ومادام هذا أمراً تكليفياً يجب أنْ يُنفّذ بعشق ؛ فهو يأخذ ثوابين اثنين ؛ ثواب حُبِّ التكليف ؛ وثواب القيام بالتكليف .

ولنا المثل فى حكاية الرجل الذى قابله الأصمعى[1] عند البيت الحرام ، وكان يقول : « اللهم ، إنِّى قد عصيتُك ، ولكنى أحب مَنْ يطيعك ، فاجعلها قُرْبة لى » . فقال الأصمعى ما يعنى أن الله لا بُدَّ أن يغفر لهذا الرجل لِحُسْن مسألته ، ذلك أنه رجل قد فرح بحب التكليف ولو لم يَقُمْ به هو ؛ بل يقوم به غيره وهذا يُسعده .

فالتكليف عندما يقوم به أىُّ إنسان ؛ فذلك أمر فى صالح كل البشر ، وكلنا نقول حين نُصلى ونقرأ الفاتحة :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة]

أى : أن كُلاً منّا يحشر نفسه فى زمرة العابدين ؛ لعل الله يتقبّل من واحد فندخل كلنا فى الصفقة ؛ ولذلك أقول لِمَنْ يرتكب معصية : عليك ألاّ تغضب ، لأن هناك مَنْ يطيع الله ؛ بل افرح به ؛ لأن فرحك بالمطيع لله ؛ دليلٌ على أنك تحبُّ التكليف ، رغم أنك لا تقدر على نفسك ، وفى هذا الحُبِّ كرامة لك .

وقد قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن الوادى الذى أمره الحق سبحانه أن يقيم فيه القواعد للبيت الحرام أنه وادٍ غير ذى زَرْع ، وقد

---

(١) هو : عبدالملك بن قريب الباهلى ، أبو سعيد ، ولد بالبصرة (١٢٢ هـ) ، راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، كان كثير التطواف فى البوادى . توفى بالبصرة (٢١٦ هـ) عن ٩٤ عاماً . [الأعلام للزركلى ١٦٢/٤] .

جاء هو إلى هذا المكان لِيُنفِّذ تكليف الحق سبحانه له ؛ لدرجة أن زوجته هاجر عندما علمت أن الاستقرار فى هذا المكان هو بتكليف من الله قالت : « إذنْ لن يضيعنا »(١) .

ويُقدِّم إبراهيم عليه السلام حيثيات الإقامة فى هذا المكان ، وأسباب إقامته للقواعد كما أراد الله ، فيقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن مجىء الناس إلى هذا المكان لن يكون شهوةَ سياحة ؛ ولكن إقامة عبادة ؛ فما دام المكان قد أُقيم فيه بيت لله باختيار الله ؛ فلابُدَّ أن يُعبدَ فيه سبحانه .

وهكذا تتضح تماماً حيثيات أَخْذ الأمر بالوجود فى مكان ليس فيه من أسباب الحياة ولا مُقوِّماتها شىء ؛ ولكن الحق سبحانه قد أمر بذلك ؛ فلابُدَّ للمقيم للصلاة من إقامة حياة ؛ والمُقوِّم الأول للحياة هو المأْكل والمَشْرب .

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

والأفئدة جمع « فؤاد » ، وتُطلَق على الطائفة ؛ وعلاقة الفؤاد

---

(١) وذلك أن إبراهيم عليه السلام أتى بهاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى مكة . التى لم يكن فيها أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم تركهما وذهب ، فقالت هاجر : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ، قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يُضيِّعنا . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٧) .

بالحجيج علاقةٌ قوية ؛ لأن الهوى فى الحجيج هوى قلوب ؛ لا جيوب . وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظَى بأداء تلك الفريضة[1] .

وكلمة « هوى » مُكوّنة من مادة « الهاء » و « الواو » و « الياء » ولها معَانٍ متعددة ، فلك أنْ تقولَ « هَوَى » أو تقول « هَوِى » ، فإنْ قلت « هَوَى يهوِي » من السقوط من مكان عالٍ ؛ دون إرادة منه فى السقوط ؛ وكأنه مقهورٌ عليه ، وإنْ قُلْت : « هَوِى يهوَى » فهذا يعنى أحبّ ، وهو نتيجة لِميْل القلوب ، لا مَيْل القوالب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فهم فى مكان لا يمكن زراعته . وقد تقبَّل الحق سبحانه دعاءَ إبراهيم عليه السلام ؛ ووجدنا التطبيق العملى فى قوله الحق :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ[2] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا .. (٥٧) ﴾ [القصص]

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد : لو قال : « أفئدة الناس » لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧١١) ، والسيوطى فى « الدر المنثور » (٥/٤٨) .

(٢) جبا يجبى المال والخراج جباية : جمعه . قال تعالى : ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧) ﴾ [القصص] تجمع إلى الحرم المكى وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وذلك قبل أن يوجد بترول أو غير ذلك من الثروات. وكلمة « يُجْبى » تدل على أن الأمرَ فى هذا الرزق القادم من الله كأنه جبَاية ؛ وأمْر مفروض ، فتكون فى الطائف مثلاً وفيها من الرمان والعنب وتحاول أنْ تشتريه ؛ فتجد مَنْ يقول لك : إن هذا يخصُّ مكة المكرمة ؛ إنْ أردتَ منه فاذهب إلى هناك .

وتجد فى كلمة :

﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧)﴾ [القصص]

ما يثير العجب والدهشة ؛ فأنت فى مكة تجد بالفعل ثمرات كل شىء من زراعة أو صناعة ؛ ففيها ثمرات الفصول الأربعة قادمةً من كل البلاد ؛ نتيجة أن كل البيئات تُصدِّر بعضاً من إنتاجها إلى مكة .

وفى عصرنا الحالى نجد ثمرات النموِّ الحضارى والعقول المُفكِّرة وهى معروضة فى سوق مكة أو جدة ؛ بل تجد ثمرات التخطيط والإمكانات وقد تمَّتْ ترجمتُها إلى واقع ملموس فى كل أَوْجُه الحياة هناك .

وقديماً عندما كُنّا نؤدى فريضة الحج ؛ كُنّا نأخذ معنا إبرة الخيط ؛ وملْح الطعام ؛ ومن بعد أن توحَّدتْ غالبية أرض الجزيرة تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول ؛ صِرْنا نذهب إلى هناك ، ونأتى بكماليات الحياة .

ولنلحظ قَوْل الحق سبحانه :

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم]

فكلمة « من » تُوضِّح أن مَنْ تهـوي قلوبهم إلى المكان هم قطعةٌ من أفئـدة الناس ، وقال بعَضٌ من العـارفين بالله[١] : لو أن النصَّ قد جاء « فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم » لوجدنا أبناء الديانات الأخرى قد دخلت أيضاً فى الحجيج ، ومن رحمة الله سبحانه أن جاء النص :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

فاقتصر الحجيج على المسلمين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك مُـسْتكملاً ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

وبعد أن اطمـأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن لهذا البلد أمنـاً عاماً وأمناً خاصاً ، واطـمأن على مُقوِّمات الحـياة ؛ وأن كل شىء من عند الله ، بعد كل ذلك عـاودته المسألة التــى كانت تشغله ، وهى مـسألة تَرْكه لهاجر وإسماعيل فى هذا المكان .

وبعض المُفسِّرين قالوا : إن الضمير بالجمع فى قوله تعالى :

﴿ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) نقل السيـوطى فى الدر المنثور (٥/٤٨) عن السـدى معزواً لابن أبى حـاتم أنه قال فى تفسير هذه الآية : « خذ بقلوب الناس إليهم ، فـإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد ، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه مُعلّق بحب الكعبة » .

مقصود به ما يُكنّه من الحُبِّ لهاجر وإسماعيل ، وما يُعلنه من الجفاء الذى يُظهره لهما أمام سارة ، وكأن المعانى النفسية عاودتْه لحظةَ أنْ بدأ فى سلام الوداع لهاجر وابنه إسماعيل .

ونقول : لقد كانت هاجر هى الأخرى تعيش موقفاً صَعْباً ؛ ذلك أنها قد وُجِدت فى مكان ليس فيه زَرْع ولا ماء ، وكأنها كتمتْ نوازعها البشرية طوال تلك الفترة وصبرتْ .

ولحظة أنْ جاء إبراهيم ليُودّعها ؛ قالت له : أين تتركنا ؟ وهل تتركنا منْ رأيك أم من أمر ربك ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : بل هو من أمر الله . فقالت : إذن لن يضيعنا .

وتأكدت هاجر من أن ما قالتْه قد تحقَّق ؛ ولم يُضيّعهما الله ، وحين يعطش وحيدها تجرى بين الصفا والمروة بَحْثاً عن مياه ؛ ولكنها ترى تفجُّر الماء تحت قَدَمَىْ ابنها فى المكان الذى تركته فيه ؛ ويبدأ بئر زمزم[1] فى عطاء البشر منذ ذلك التاريخ مياهه التى لا تنضب[2] .

وهكذا يتحقق قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى أن الله يعلم ما نُسرّ وما نُعلن ؛ ذلك أن كل مُعْلَن لا يكون إلا بعد أن كان مَخْفياً ، وعلى الرغم من أن الله غَيْبٌ إلا أن صلَتَه لا تقتصر على الغيب ؛ بل تشمل العالم الظاهر والباطن ؛ وكل مظروف فى السماء أو الأرض معلومٌ لله ؛ لأن ما تعتبره أنت غيباً فى ذهنك هو معلوم لله من قبل أن يتحركَ ذهنك إليه .

---

(١) يُقال : ماءٌ زمزمٌ : كثير بين الملح والعَذْب . [لسان العرب ـ مادة : زمزم] .

(٢) نضب الماء : ذهب فى الأرض وبَعُد . ونضب البئر : نزح ماؤه ونشف . [لسان العرب ـ مادة : نضب] .

ولذلك يقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فإذا كان السِّر هو ما أسررْتَ به لغيرك ؛ وخرج منك لأنك استأمنتَ الغير على ألاّ يقوله ، أو كان السر ما أخفيتَه أنت فى نفسك ؛ فالله هو العَالِم به فى الحالتين .

ويقول القرآن :

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا .. (٣) ﴾ [التحريم]

أى : أن السِّرَّ كان عند رسول الله ﷺ وانتقل إلى بعضٍ من أزواجه . والأَخْفى هو ما قبل أنْ تبوحَ بالسرِّ ؛ وكتمته ولم تَبُحْ به .

وسبحانه يعلم هذا السر وما تخفيه . أى : السر الذى لم تَقُلْه لأحد ، بل ويعلمه قبل أنْ يكونَ سِراً .

ويقول سبحانه ما قاله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ضراعةً وحَمْداً له سبحانه :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ[(١)] إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) ﴾

والوَهْب هو عطاء من مُعْطٍ بلا مقابل منك . وكل الذرية هِبَة ،

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ولد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة . [تفسير القرطبى ٣٧١٣/٥] .

لو لم تكُنْ هبـة لكانت رتيـبـة بين الزوجـين ؛ وأينمـا يوجد زوجـان توجد . ولذلك قال الله :

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى]

والدليل على أن الذرية هِبَة هو مـا شاءه سبحانه مـع زكريا عليه السلام ؛ وقد طلب من الله سبحانه أن يرزقه بغلام يرثه ، على الرغم من أنه قد بلغَ من الكِبَر عتياً[1] وزوجه عاقر ؛ وقد تعجَّب زكريا من ذلك ؛ لأنه أنجب بقوة ، وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم]

وهذا يعنى ألاَّ يدخل زكريا فى الأسباب والمُسبِّبات والقوانين .

وقد سـمَّى الحق سبـحانه الذرية هبـةً ؛ لذلك يجب أن نشكرَ الله على هِبَتـه ؛ فلا تُرد هبَـته ، إنْ وهبَ لك إناثاً فعلـى العين والرأس ؛ لأن الذى يقـبل هبة الله فـى إنجاب الإناث برضـاً يرزقـه الله بشبـاب يتزوجون البنات ؛ ويصـبحون أطوعَ له من أبنائه ، رغم أنه لم يَشْقَ فى تربيتهم .

وكل منّا يرى ذلك فى مُـحيطـه ، فمَنْ أنجب الأولاد الذكـور يظل يرقب : هل يتزوج ابنه بمَنْ تخطفه وتجعله أطوعَ لغيره منه .

وإنْ وهب لك الذكور فعلى العين والرأس أيضاً ، وعليك أنْ تطلبَ

---

(١) عتا عتواً وعتياً : أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته . قال تعالى عن زكريا : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم] . [القاموس القويم ٢/٦] .

من الله أن يكون ابنك من الذرية الصالحة ، وإنْ وهبكَ ذُكْراناً وإناثاً فلكَ أن تشكره ، وتطلب من الله أن يُعينك على تربيتهم .

وعلى مَنْ جعله الحق سبحانه عقيماً أن يشكرَ ربه ؛ لأن العُقْم أيضاً هبةٌ منه سبحانه ؛ فقد رأينا الابن الذى يقتل أباه وأمه ، ورأينا البنت التى تجحد أباها وأمها .

وإنْ قَبل العاقر هبةَ الله فى ذلك ؛ وأعلن لنفسه ولمَنْ حوله هذا القبول ؛ فالحق سبحانه وتعالى يجعل نظرة الناس كلهم له نظرة أبناء لأب ، ويجعل كل مَنْ يراه من شباب يقول له : « أتريد شيئاً يا عم فلان ؟ » ويخدمه الجميع بمحبة صافية .

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ قد قال للحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ..(٣٩) ﴾ [إبراهيم]

والشكر على الهبة ـ كما عرفنا ـ يُشكِّل عطاءَ الذرية فى الشباب ، أو فى الشيخوخة .

وأهل التفسير يقولون فى :

﴿ عَلَى الْكِبَرِ ..(٣٩) ﴾ [إبراهيم]

أنه يشكر الحق سبحانه على وَهْبه إسماعيل وإسحق مع أنه كبير . ولماذا يستعمل الحق سبحانه (على) وهى من ثلاثة حروف ؛ بدلاً من « مع » ولم يَقُل : « الحمد لله الذى وهب لى مع الكِبَر إسماعيل وإسحاق » .

وأقول : إن (على) تفيد الاستعلاء ، فالكِبَر ضَعْف ، ولكن إرادة

الله أقوى من الضعف ؛ ولو قال « مع الكبر » فالمعيّة هنا لا تقتضى قوة ، أما قوله :

﴿ وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

فيجعل قدرة الله فى العطاء فوق الشيخوخة .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام ذلك ؛ فهو يشكر الله على استجابته لما قاله من قبل :

﴿ إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : أنه دعا أن تكونَ له ذرية .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقول إبراهيم :

﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠) ﴾

وكأن إبراهيم عليه السلام حين دعا بأمر إقامة الصلاة فهذه قضية تخصُّ منهج الله ، وهو يسأل الله أنْ يقبلَ ، ذلك أن الطلبات الأخرى قد طلبها ببشريته ؛ وقد يكون ما طلبه شراً أو خيراً ؛ ولكن الطلب بأن يجعله مُقيماً للصلاة هو وذريته هو طَلَبٌ بالخير .

ويتتابع الدعاء فى قول الحق سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

ونعلم أن طلب الغُفْـران من المعصوم إيذانٌ بطلاقـة قدرة الله فى الكون ، ذلك أن اختيار الحق سبحانه للرسول - أيّ رسول - لا يُعفى الرسول المـختار من الحـذَر وطلب المغـفرة ، وها هو سيـدنا رسول الله ﷺ يقول : « إنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة »[1] .

وطلب المـغفـرة من الله إن لم يكُنْ لذنب - كـما فى حـال الرُّسل المعصـومين - فهو من الأدب مع الله ؛ لأن الخالق - سبـحانه وتعالى - يستـحق منّا فوق ما كلَّفنا به ، فإذا لـم نقدر على المندوبات وعلى التطوّعات ؛ فَلْندعُ الحق سبحانه أنْ يغفرَ لنا .

ومنّا مَنْ لا يقدر على الـفرائض ؛ فليْدعُ الله أنْ يغـفرَ له ؛ ولذلك يُقال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين»[2] .

---

(١) أخـرجـه الدارمى فى سننه (٢/٣٠٢) ، والحـاكم فى مـسـتدركـه (٢/٤٥٧) وقـال : صحيح الإسناد ولم يخـرجاه ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٩٤) من حـديث حذيفة رضى الله عنه أنه قال : كـان فى لسانى ذرب على أهلى ولم يكن يعـدوهم إلى غيرهم فـسألت النبى ﷺ فقال : « أين أنت من الاستغفار ، إنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

(٢) الأبرار والمـقربـون كلاهمـا من أهل الجنة ، ولكن الأبرار أقـل منزلة من المـقربين ، وقـد تحدث الله عن الصنفين فقال عن المقربين : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة] الآيات . أما الأبرار فـقد قال عنهم : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقـعة] الآيات . فلعظم مـنزلة المقـربين قـيل : إن الحسنات التى يـعملهـا الأبرار والتى استحقوا بها النعيم فى الجنة هى سيئات فى جانب ما يعمله المقربون .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح]

ولذلك أقول دائماً : إن الحق - جَلَّ جلالُ ذاته - يستحق أن يُعبَد بفوق ما كلّف به ؛ فإذا اقتصرنا على أداء ما كَلَّف به سبحانه ؛ فكأننا لم نُؤدِّ كامل الشُّكْر ؛ وما بالنا إذا كان مثل هذا الحال هو سلوك الرُّسل ، خصوصاً وأن الحق سبحانه قد زادهم عن خَلْقه اصطفاءً ؛ أفلا يزيدنه شُكْراً وطلباً للمغفرة ؟

ونلحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ[1] وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم]

والإنسان كما نعلم له وجود أصليّ من آدم عليه السلام ؛ وله وجود مباشر من أبويْه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديْه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو : أن الأُسْوة كانت منهما ؛ لذلك يدعو لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة ؛ لأنهم كانوا صُحْبة له وقُدْوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر ، وكأن إبراهيم - عليه السلام - صاحب الدعاء يدعو للمؤمنين من ذريته ؛ وتلك دعوة وشفاعة منه لمَنْ آمن ؛ ويرجو الحقَّ سبحانه أنْ يتقبلها .

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٥/٣٧١٤) قراءتين أخريين لهذه الكلمة :
- (لِوالِدِي) يعني أباه . وهي قراءة سعيد بن جبير . وذلك قبل أن يثبت عنده أنه عدو لله .
- (لِوَلَدَيَّ) يعني ابنيه . وهي قراءة إبراهيم النخعي ، ويحيى بن يعمر . ولذلك قيل : إنه أراد ولديه : إسماعيل وإسحاق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ(١) فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وأوضح النِّعم العامة على الكون ، والنعم الخاصة التى أنعم بها سبحانه على مَنْ توطَّنوا مكة ، ومن نسلهم مَنْ وقف ضد رسول الله ﷺ موقف العَنَت ، بعد ذلك جاء الحق سبحانه بهذه الآية تعزيةً وتسرية عن رسول الله ﷺ :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وأرضية التصوير التى سبقتْها تشتمل بدايةَ التكوين لهذا المكان الذى وُجدوا به ، وكيفية مَجىء النعم إلى مَنْ توطنوا هذا المكان ؛ حيث تجىء إليهم الثمرات ، ونعمة المَهَابة لهم حيث يعصف سبحانه بمَنْ يُعاديهم كأبرهة ومَنْ معه .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ(٢) مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل]

حيث يقول سبحانه من بعد هذه الآية مباشرة :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلافِهِمْ(٣) رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ

---

(١) شخص بصره : انفتحت عيناه فلا تطرف من الخوف والفزع والحيرة . [القاموس القويم ١/٣٤٣] .

(٢) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأُكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٣) الإيلاف : الاعتياد والأنس بالشىء ومحبته . والإيلاف أيضاً : العهد يؤخذ لتأمين خروج التجارة من أرض إلى أرض . قال ابن الأعرابى : أصحاب الإيلاف أربعة إخوة بنى عبد مناف : هاشم أخذ عهداً من ملك الروم ، ونوفل أخذ عهداً من كسرى ، وعبد شمس أخذ عهداً من النجاشى ، والمطلب أخذ عهداً من ملوك حمْير باليمن . فكان تجار قريش يترددون على هذه الأمصار بعهود هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم أحد .[لسان العرب ـ مادة : ألف] .

﴿هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

ورغم ذلك وقفوا من دعوة رسول الله ﷺ موقف الإنكار والتعنُّت والتصدِّى والجُحُود ، وحاولوا الاستعانة بكل خُصوم الإسلام ؛ ليحاربوا هذا الدين ؛ ولذلك يوضح الحق سبحانه هنا تسريةً عن الرسول الكريم :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. (٤٢)﴾ [إبراهيم]

لماذا ؟ وتأتى الإجابة فى النصف الثانى من الآية :

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)﴾ [إبراهيم]

وقوله الحق :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ.. (٤٢)﴾ [إبراهيم]

أى : لا تظننّ ؛ فَحَسِب هنا ليست من الحساب والعدّ ، ولكنها من « حسب » « يحسب » ؛ وقوله الحق الذى يوضح هذه المسألة :

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ[1] (٢)﴾ [العنكبوت]

أى : أَظَنَّ الناس . فحسِب يحسَب ليستْ - إذن - من العَدِّ ؛ ولكن من الظنِّ . والحُسْبان نسبة كلامية غير مَجْزوم بها ؛ ولكنها راجحة .

---

(١) الفتنة : الاختبار والابتلاء بالشدائد والمصائب ونقص الأموال والأولاد والثمرات ليُعرف مدى صدق المؤمنين . [القاموس القويم ٢/٧١] .

والغفلة التى ينفيها سبحانه عنه ؛ هى السَّهْو عن أمر لعدم اليقظة أو الانتباه ، وطبعاً وبداهةً فهذا أمْرٌ لا يكون منه سبحانه ، فهو القيُّوم الذى لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله والمؤمنين معه تبعاً ؛ فحين يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ فهو يخاطب فى نفس الوقت كلَّ مَنْ آمن به .

ولكن ، أكانَ الرسول يظنُّ الله غافلاً ؟

لا ، ولنلحظْ أن الله حين يُوجِّه بشىء فقد يحمل التوجيه أمراً يُنفِّذه الإنسانُ فعلاً ؛ ويطلب الله منه الاستدامة على هذا الفعل .

والمَثلُ : حين تقول لواحد لا يشرب الخمر « لا تشرب الخمر » وهو لا يشرب الخمر ؛ فأنت تطالبه بقولك هذا أنْ يستمرَّ فى عدم شُرْب الخمر ، أى : استمِرّ على ما أنت عليه ، فعلاً فى الأَمْر ، أو امتناعاً فى النهى .

وهل يمكن أن تأتى الغفلة لله ؟

وأقول : حين ترى صفةً توجد فى البشر ؛ ولا توجد فى الحق سبحانه فعليك أنْ تُفسِّر الأمر بالكمالات التى لله .

والذى يفعل ظلماً سيتلقى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب يتساءل الذين رَأَوْا فعْل الظُّلم فهم يتهامسون : تُرَى هل تَمَّ نسيان الظلم الذى ارتكبه فلاَن ؟ هل هناك غفلة فى الأمر ؟

وهم فى تساؤلاتهم هذه يريدون أن يعلنوا موقفهم من مرتكب الذنب ؛ وضرورة عقابه ، وعلى ذلك نفهم كلمة :

﴿ غَافِلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

فى هذه الآية بمعنى « مُؤجِّل العقوبة » .

ولمن يتساءلون عليهم أنْ يتذكَّروا قول الحق سبحانه :

﴿ وَأُمْلِي[1] لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف]

وعلى ذلك فليست هناك غفلة ؛ ولكن هناك تأجيل للعقوبة لهؤلاء الظالمين ؛ ذلك أن الظلم يعنى أَخْذ حقٍّ من صاحبه وإعطاءه للغير ؛ أو أَخْذه للنفس .

وإذا كان الظلم فى أمر عقدىّ فهو **الشرك** ؛ وهو الجريمة العظمى ، وإنْ ظلمتَ فى أمر كبيرة من الكبائر فهذا هو **الفِسْق** ، وإنْ ظلمتَ فى صغيرة فهو **الظلم** .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يُورِد كل حكم يناسب الثلاثة مواقف ؛ فيقول عن الذى تغاضى عن تجريم الشرك :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة]

ويقول عن تجريم كبيرة من الكبائر :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة]

ويقول عمَّنْ يتغاضى عن تجريم صغيرة بما يناسبها من أحكام الدين :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة]

وإذا وُجِد محكوم عليه ، وهو واحد - بأحكام متعددة فالحكم مُتوقِّف على ما حكم به .

---

(١) الإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . وأملى الله له : أمهله وطوّل له . [لسان العرب - مادة : ملا] .

وحين ننظر في مسألة الظلم هذه نجد أن الظالم يقتضى مظلوماً ، فإنْ كان الظُّلْم ـ والعياذ بالله ـ هو ظُلم القمة وهو الشرك بالله ، فهذا الظلم ينقسم ـ عند العلماء ـ إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو إنكار وجود الله وألوهيته دون أن ينسبها لأحد آخر ؛ وهذا هو الإلحاد ، وهو ظُلْم فى واجب وجوديته سبحانه .

والنوع الثانى : هو الاعتراف بألوهية الله ، وإشراك آخرين معه فى الألوهية ، وهذا الشرك ظُلْم للحق فى ذاتية وواحدية تفرُّده .

والنوع الثالث : هو القول بأن الله مُكوَّن من أجزاء ؛ وهذا ظُلْم لله فى أحدية ذاته .

ويقول بعض العارفين : إن أول حقٍّ فى الوجود هو وجوده سبحانه .

ومنهم الشاعر الذى قال :

وأوَّل حَقٍّ فى الوُجُودِ وُجُوده ... وكُلُّ حُقُوقِ الكوْنِ منه استمدَّت

فَلا هُو جَمْعٌ كمَا قال مُشْرِكٌ ... ولاَ هُوَ فى الأَجْزاءِ يَا حُسْن ملَّتى[1]

والظلم الذى ورد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو ظلم القمة ؛ ظُلْم فى العقيدة الإلهية ، ومعه ظلم آخر هو ظلم الرسول ﷺ . ويُلخِّص الشاعر ظُلْمهم للرسول ﷺ فيقول :

---

(١) أى : يا حُسْن ملة الإسلام التى جاءت من عند الله مثبتة وجوده دون شريك له فى الملك ودون أن يكون مكوناً من أجزاء ، فأثبتت له سبحانه وجوبية وجوده ، وواحدية تفرده ، وأحدية ذاته سبحانه . (ع)

لَقَّبتمُوه أَمِيناً فى صِغَرٍ ... وَمَا الأمينُ علَى قَوْل بِمُتَّهمِ

وهم قد سَمَّوا الرسول من قبل الرسالة بالأمين ؛ وبعد الرسالة نزعوا منه هذا الوصف ، وكانوا يَصفونه قبل الرسالة بالصادق ، ولم يقولوا عنه مرة قبل الرسالة إنه ساحر ، ولم يتهموه من قبل الرسالة بالجنون .

فكيف كانت له أوصاف الصِّدق والنطق بالحق ؛ والتحدث عن رجاحة قدرته فى الحكم ؟

كيف كانت له تلك الصفات قبل الرسالة ؛ وتنزعونها منه من بعد الرسالة ؟

إن هذا هو ظلم سلْب الكمال ، فقد كان للرسول ﷺ كمال قبل أن يُرسلَ ؛ فظلمتموه بعد الرسالة وأنكرتم عليه هذا الكمال ؛ وهو ظُلْم مُزْدَوج .

فقد سبق أن اعترفتم له من قبل الرسالة بالأمانة ؛ ولكن من بعد الرسالة أنكرتُم أمانته ، وكان صادقاً من قبل الرسالة ؛ وقلتم إنه غَيْر صادق بعدها .

ولم تكن له صفة نَقْص قبل الرسالة ؛ فجئتم أنتم له بصفة نقص ؛ كقولكم : ساحر ؛ كاهن ؛ مجنون ، وفى هذا ظُلْم للرسول ﷺ .

وهذا أيضاً ظُلْم للمجتمع الذى تعيشون فيه ، لأن مَنْ يريد استمرار الاستبداد بكلمة الكفر ، ويريد أن يستمرَّ فى السيادة

والاستغـلال والتحكُّم فى الغير ؛ فكُلُّ ذلك ظُلْم للمجـتمع ؛ وفوق ذلك ظُلْم للنفس ؛ لأن مَنْ يفعل ذلك قد يأخذ متعة بسيطة ؛ ويحرِم نفسه من متعـة كبيرة ؛ هى مـتعة الحيـاة فى ظلِّ منهج الله ، وينطبق عليه قول الحق الرحمن :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل]

وفوق ظُلْم النفس وظُلْم المجتمع هناك ظُلْم يمارسه هذا النوع من البشر ضد الكون كُلِّه فيما دون الإنسان ؛ من جماد وحيوان ونبات ؛ ذلك أن الإنسانَ حين لا يكون على منهج خالقـه ؛ والكون كله مُسخَّر لمنهـج الخـالق ؛ فلـن يرعى الإنسـانُ ذلـك فى تعـاملـه مع الكون ، وسبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

حين يُسـبِّح كل ما فى الكون يشذّ عن ذلك إنســانٌ لا يتبع منهج الله ؛ فـالكون كله يكرهه ، وبذلك يظلم الإنـسان نفـسـه ويظلم الكون أيضاً .

وهكذا عـرفـنا ظُلْم القـمــة فى إنكار الألوهيـة ، أو الـشـرك به سبـحانه ، أو توهُّم أنه من أجـزاء ، وظُلْم نزع الكمال عـن الرسول ؛ وهو الواسطة التى جاءت بخبر الإيمان ؛ وظُلْم الكون كله ؛ لأن الكون بكل أجناسه مُسبِّح لله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

نجد فيه كلمة « يعمل » . ونعلم أن هناك فَرْقاً بين « عمل » و « فعل » ، والفعل هو أحداث كل الجوارح ، ما عدا اللسان الذى يقال عن حدثه « القول » .

فكل الجوارح يأخذ الحادث منها اسماً ؛ وحدث اللسان يأخذ اسماً بمفرده ، ذلك أن الذى يكب[1] الناس على مناخرهم فى النار إنما هو حصائد ألسنتهم[2] ، والفعل والقول يجمعهما كلمة « عمل » .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه « يعمل » ، ذلك أن المشركين الذين استقبلوا القرآن كانوا يُرْجفون[3] بالإسلام وبالرسول ﷺ بالكلام ؛ وكل الأفعال التى قاموا بها نشأتْ عن طريق تحريض بالكلام .

وتأتى هذه الآية الكريمة التى يُؤكّد فيها سبحانه أنه يُمكّن لهم الذنوب ليُمكّن لهم العقوبة أيضاً ؛ ويأتى قوله :

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم]

ونعلم أنه قد حدثتْ لهم بعضٌ من الظواهر التى تؤكد قُرْب انتصار رسول الله ﷺ ؛ فَقُتل صناديدهم وبعض من سادتهم فى

---

(١) كب الشىء يكبه : قلبه . وكبّه لوجه فانكب أى : صرعه .[لسان العرب ـ مادة : كبب] .

(٢) عن معاذ بن جبل أنه قال : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٣١ ، ٢٣٦) والترمذى فى سننه (٢٦١٦) وقال : « حسن صحيح » .

(٣) أرجف القوم إذا خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن . قال تعالى : ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب] هم الذين يُولِّدون الأخبار الكاذبة التى يكون معها اضطراب فى الناس . [لسان العرب ـ مادة : رجف] .

بدر ؛ وأُسـر كـبـراؤهم ، وهكذا شـاء سـبـحـانـه أنْ يأتىَ بالوعـد أو الوعيـدَ ؛ جاء بالأمـر الذى يدخل فيه كُلُّ السـامعـين ، وهو عذابُ الآخرة ؛ إنْ ظَلُّوا على الشرك ومقاومة الرسالة .

و : ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : تفـتـح بصـورة لا يتـقلَّب بهـا يَمْـنة أو يَسْـرة من هَوْل مـا يرى ؛ وقد يكون عـدم تقلُّب البـصر مـن فَرْط جـمال مـا يرى ، والذى يُفرِّق بينهمـا سِيَال خاص بخَلْق الله فقط ؛ وهو سـبحانه الذى يخلقه .

فحـين ترى إنسـاناً مذعـوراً من فَرْط الخـوف ؛ فسحْنتـه تتشكَّل بشكل هذا الخـوف ، أما مَنْ نظر إلى شىء جـميل وشـخصتْ عـيناه له ، يصبح لملامـحه انسجامُ ارتواء النظر إلى الجـمال ؛ ولذلك يقول الشاعر :

جَمَالُ الذى أهْواهُ قَيْد نَاظرِىّ فَلْيتَ لِشَىءٍ غـيرِه يتحـوَّلِ

ويمكننا أن نفـرق بين الخـائف وبين المـسـتـمـتـع بملامح الوجـه المنبسطة أو المذعورة .

ونعلم أن البصـر ابن للمرائى ؛ فساعـة تتعدّد المرائى ؛ فـالبصر يتنقّل بينها ؛ ولذلك فالشـخص المُبـصِر مُشتَّت المرائى دائماً ؛ ويتنقل ذهْنه من هنا إلى هناك .

أما مَنْ أنعم الله عليهم بنعـمة حَجْز أبصارهم ـ المكفـوفين ـ فلا تشغله المـرائى ؛ ولذلك نجدهم أحرصَ الناس عـلى العلْم ؛ فأذهانهم غيـر مشـغـولة بأىِّ شىء آخر ، وبُؤْرة شعـور كل منهم تستـقبل عن طريق الأذن ما يثبت فيها .

ولذلك يقال عنهم « صناديق العلم » إنْ أرادوا أنْ يعلموا ؛ فلا أحدَ من الذين يتعلمون منهم يكون فارغاً أبداً ، مثله مِثل الصندوق الذى لا يفرغ .

ولا أحد يتحكم فى العاطفة الناشئة عن الغرائز إلا الله ؛ فأنت لا تقول لنفسك « اغضب » أو « اضحك » ؛ لأنه هو سبحانه الذى يملك ذلك ، وهو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم]

والضحك والبكاء مسائل قَسْرية لا دخلَ لأحد بها .

ونجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر من القرآن :

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ[1] الأَبْصَارُ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب]

فمرّة تشخص الأبصار ، ويستولى الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المُرْعِب ، ومرَّة تزوغ الأبصار لعله يبحث لنفسه عن مَنْفذ أو مَهْربٍ فلا يجد .

ويكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء الذين تزوغ أبصارهم ، فيقول :

﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي[2] رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾

---

(١) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم يَرَ شيئاً . وزيغ الأبصار : اضطرابها لشدة الفزع . [القاموس القويم ١/ ٢٩٤] .

(٢) المقنع : الذى يرفع رأسه ينظر فى ذل . والإقناع : رفع الرأس والنظر فى ذل وخشوع . [لسان العرب ـ مادة : قنع] .

والمُهْطع هو مَنْ يظهر من فَرْط تسرُّعه وكأن رقبته قد طالتْ ، لأن المُهْطع هو مَنْ فيه طُول ، وكأن الجزاء بالعذاب يجذب المَجْزىّ ليقربه ، فَيُدفَع فى شدة وجفوة إلى العذاب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ يُدَعُّونَ[1] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور]

وكأن هناك مَنْ يدفعهم دَفْعاً إلى مصيرهم المُؤْلم . وهم :

﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ .. (٤٣) ﴾ [إبراهيم]

أى : رافعين رءوسهم من فَرْط الدهشة لِهوْل العذاب الذى ينتظرهم .

وفى موقع آخر يُصوِّرهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ[2] فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) ﴾ [يس]

وهكذا تكون صورتهم مُفْزِعة من فَرْط المهانة ؛ فبصَرُ الواحد منهم شَاخص إلى العذاب مُنجذب إليه بسرعة لا يتحكَّم فيها ؛ ورأسه مرفوعة من فَرْط الهَوْل ؛ ومُقْمَح[3] بالأغلال .

---

(١) دعه يدعه : دفعه فى جفوة . والدَّعُّ : الطرد والدفع فى انتهار وزجر . [لسان العرب - مادة : دعع] .

(٢) الذقن : مجتمع اللحيين أسفل الوجه ، ويُطلق على ما ينبت عليه من الشعر مجازاً ، وقد يُطلق على الوجه كله . [القاموس القويم ١/٢٤٣] .

(٣) المقمح : الخاضع الذليل لا يكاد يرفع بصره . قال الأزهرى : أراد عز وجل أن أيديهم لما غُلَّتْ عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعداً كالإبل الرافعة رؤوسها . [لسان العرب ـ مادة : قمح] .

ولا يستطيع الواحد منهم أن تجفل جفونه ، وكأنها مفتوحةٌ رَغْماً عنه ؛ وفؤاده هواء بمعنى : أنْ لا شيءَ قادرٌ على أن يدخله .

ونحن نلحظُ ذلك حين نضع زجاجة فارغة فى قلب الماء ؛ فتخرج فقاقيع الهواء مقابلَ دخولِ الماء من فُوهتها .

ونعلم أن قَلْب المؤمن يكون ممتلئاً بالإيمان ؛ أما الكافر المُلْحد فهو فى مثل تلك اللحظة يستعرض تاريخه مع الله ومع الدين ؛ فلا يجد فيها شيئاً يُطمئِن ، وهكذا يكتشف أن فؤاده خَالٍ فارغ ؛ لا يطمئن به إلى ما يُواجه به لحظة الحساب .

ونجد بعضاً ممَّنْ شاهدوا لحظات احتضار[1] غيرهم يقولون عن احتضار المؤمن « كان مُشرِق الوجه متلألىء الملامح » . أما ما يقولونه عن لحظة احتضار الكافر ؛ فهم يحكُونَ عن بشاعة ملامحه فى تلك اللحظة .

والسبب فى هذا أن الإنسان فى مثل هذه اللحظات يستعرض تاريخه مع الله ، ويرى شريط عمله كله ؛ فمَنْ قضى حياته وهو يُرضِى الله ؛ لابُدَّ أن يشعر بالراحة ، ومَنْ قضى حياته وهو كافر مُلْحد فلابُدّ أن يشعرَ بالمصير المُرْعب الذى ينتظره .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) حُضِر المريض واحتُضِر : إذا نزل به الموت ودنا منه أجله . [لسان العرب ـ مادة : حضر] .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[1] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[2] (٢٥) ﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾

وهذا خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يُنذرهم بضرورة الاستعداد ليوم القيامة ، وأنه قادمٌ لا محالةَ .

وكلمة « يوم » هى ظَرْف زمان ، وظرف الزمان لا بُدَّ له من حَدث يقع فيه ، ويوم القيامة ليس محلَّ إنذار أو تبشير ؛ لأن الإنذار أو البشارة لا بُدّ أنْ يكونا فى وقت التكليف فى الحياة الدنيا .

وهكذا يكون المُنْذر به هو تخويفهم ممّا يحدث لهم فى هذا اليوم ، فما سوف يحدث لهم هو العذاب ؛ وكأنه قنبلة موقوتة ما إنْ يأتى يوم القيامة حتى تنفجر فى وجوههم .

وهنا يقول أهل ظُلْم القمة فى العقيدة ، وظُلْم الرسالة بمقاومتها ؛ وظلم الكون المُسبِّح لله :

﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ .. (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) باسرة : كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/ ٦٦].

(٢) الفاقرة : الداهية تكسر فقار الظهر . [القاموس القويم ٢/ ٨٦] .

وهم يطلبـون تأجيل العـذاب لِمُهْلة بسـيطة ، يُثـبتون فـيهـا أنهم سـيُجـيبـون الدعوة ويـطيعـون الرسول ، وهـم يـطلبون بذلك تأجـيل قيامتهم .

فيكون الجواب من الحق سبحانه :

﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤)﴾ [إبراهيم]

فأنتم قد سبق وأنْ أقسمتُم بأن الله لا يبعث مَنْ يموت ؛ وقد قال الحق سبحانه ما قلتم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨)﴾

[النحل]

وساعة ترى كلمـة « بلى » بعد نَدْب ، فهذا يعنـى تكذيب ما جاء قبلـها ، وهم فى الآية التى نحن بصـدد خواطرنا عنهـا ظَنُّوا أنهم لن يُبعثُوا ، وظنُّوا أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ؛ وهم الذين قالوا :

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾

[المؤمنون]

وهكذا أكَّدوا لأنفسهم أنه لا بَعْث من بَعْد الحياة ، ومن بعد البعث سنسمع من كل فرد فيهم :

﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠)﴾ [النبأ]

أو : أنهم ظَنُّوا أن الذين أنعَمَ الله عليـهم فى الدنيا ؛ لن يحـرمهم فى الآخرة ، كما أورد الحق سبحانه هذا المَثَل ، فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ[(١)] مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

والذى يقول ذلك فَهِم أنه سوف يموت ؛ لكنه توهّم أن جنته تلك ستظل على ما هى عليه ، وأنكر قيام الساعة ، وقال : « حتى لو قامت الساعة ، ورُددتُ إلى الله فسأجد أفضل من جنتى تلك » .

وهو يدعى ذلك وهو لم يُقدّم إيماناً بالله ليجده فى الآخرة ، فهو إذن مِمَّنْ أنكروا الزوال أى البعث من جديد ، ووقع فى دائرة مَنْ لم يُصدّقوا البعث ، وسبق أنْ قال الحق سبحانه ما أورده على ألسنتهم :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا[(٢)] فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٠) ﴾ [السجدة]

والذين أنكروا البعث يُورِد الحق سبحانه لنا حواراً بينه وبينهم ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر]

---

(١) الجنة : حديقة ذات شجر كثير ملتف يستر الأرض . [القاموس القويم ١/١٣٣] .

(٢) ضل فى الأرض : مات وصار تراباً فَضَلَّ فلم يتبين شىء من خلقه . [لسان العرب - مادة : ضلل] .

فيرد الحق سبحانه عليهم :

﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) ﴾ [غافر]

وفى موقع آخر من القرآن نجد حواراً واستجداءً منهم لله ؛ يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. (١٢) ﴾ [السجدة]

ويأتى رَدُّ الحق سبحانه عليهم :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ .. (١٤) ﴾ [السجدة]

وفى موقع ثالث يقول الواحد منهم عند الموت :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾

[المؤمنون]

فيأتى ردّ الحق سبحانه :

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وبعد دخولهم النار يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾ [المؤمنون]

فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا[١] فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون]

---

(١) اخسأوا : انزجروا وابعدوا عنى فى النار ولا تكلمونى . [القاموس القويم ١/١٩٢]
والخاسىء : الصاغر الذليل . [المعجم الوجيز ـ مادة : خسأ] .

وفى موضع آخر يقولون عند اصطراخهم[1] فى النار :

﴿ ربَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذى كُنَّا نَعْمَلُ ..(٣٧) ﴾ [فاطر]

فيأتى الرد من الحق سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر]

ونلحظ أنهم فى كل آيات التوسُّل لله كى يعودوا إلى الحياة الدنيا يقولون (ربنا) ، وتناسَوْا أنهم مأخوذون إلى العذاب بمخالفات الألوهية ؛ ذلك أن الربوبية عطاؤها كان لكم فى الدنيا ، ولم ينقصكم الحق سبحانه شيئاً على الرغم من كفركم .

هكذا يكون حال هؤلاء الذين أقسموا أن الحق سبحانه لن يبعثهم ، وأنكروا يوم القيامة ، وأنه لا زوال لهم . أى : لا بَعْث ولا نشور .

ويتابع الحق سبحانه القول الكريم :

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ[2] وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ (٤٥) ﴾

والسكون هو الاطمئنان إلى الشيء من عدم الإزعاج ، ونعلم أن

---

(١) اصطرخ القوم وتصارخوا : استغاثوا . والاصطراخ : التصارخ . [لسان العرب ـ مادة : صرخ] .

(٢) قال قتادة : سكن الناس فى مساكن قوم نوح وعاد وثمود . وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم . [الدر المنثور ٥/٥٢] .

المـرأة فى الزواج تعـتبـر سكناً ، والبـيت سكن ، وهنـا يتكلم الحق سـبحـانه عن مسـاكن الذين ظلمـوا أنفسـهم ، أى : أنكم لم تتـعظُوا بالسوابق التى ما كان يجب أن تغيبَ عنكم ، فأنتم تمرون فى رحلات الصيف والشتاء على مدائن صـالح ، وترون آثار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشـرك ، وتمرون على الأحـقاف[1] ؛ وترون ماذا حـاقَ بقوم عاد .

وكُلٌّ أولئك نالـوا العـقـاب من الله ، سـواء بالريـح الصـرصـر[2] العاتية ، أو : أنه سبحانه قد أرسل عليهم حاصباً[3] من السماء ، أو : أنزل عليهم الصيـحة ؛ أو : أغرقهم كآل فرعـون ، وأخذ كل قوم من هؤلاء بذنبه .

وصدق الله وَعْـده فى عذاب الدنيا ؛ فلـماذا لم تأخذوا عـبْرة من ذلك ؛ وأنه سبحانه وتعالى صادق حين تحدَّث عن عذاب الآخرة ؟

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

---

(١) الأحقاف : منازل قوم عـاد بظاهر بلاد اليمن . والحقف من الرمل : المتعـرج أو المستطيل أو المستدير من الرمل . [القاموس القويم ١٦٣/١] بزيادة .

(٢) الريح الصـرصـر : الشـديدة البرد . وقـيل : الشـديدة الصوت . [لسـان العرب ـ مـادة : صرر] .

(٣) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم . [القاموس القويم ١٥٦/١] .

أى : أنكم تمرُّون على تلك الأماكن التى أقامها بعضٌ ممَّنْ سبقُوكم وظلمُوا أنفسهم بالكفر ؛ وأنزل الحق سبحانه عليهم العقاب ؛ ولذلك يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

نعم ؛ فحين تمشى فى أرض قوم عاد ، وترى حضارتهم التى قال عنها الحق سبحانه :

﴿ إِرَمَ[1] ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر]

وهى حضارة لم نكتشف آثارها بعد ؛ وما زالت فى المطمورات ، وكل مطمور فى الأرض بفعل من غضب السماء ؛ تضع السماءُ ميعادَ كشفٍ له ليتعظَ أهلُ الأرض ؛ ويحدث هذا الكشف كلما زاد الإلحاد واستشرى .

قد حدث أن اكتشفنا حضارة ثمود ، وكذلك حضارة الفراعنة ؛ وهى الحضارة التى سبقتْ كل الحضارات فى العلوم والتكنولوجيا ، ورغم ذلك لم يعرف أصحاب تلك الحضارة أن يصونوها من الاندثار الذى شاءه الله .

وما زال الناس يتساءلون : لماذا لم يترك المصريون القدماء خبرتهم الحضارية مكتوبة ومُسجّلة فى خطوات يمكن أن تفهمها البشرية من بعد ذلك ؟

---

(١) إرم : اسم قبيلة منها عاد - وقيل هى مدينة كبيرة لهم - وزعم الكندى فى كتابه فضائل مصر : أنها مدينة الإسكندرية . وقوله : (ذات العماد) يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [القاموس القويم ١/١٨] .

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥)﴾ [إبراهيم]

أى : أن الحق سبحانه يوضح هنا أن مشيئته فى إنزال العقاب قد وَضُحَتْ أمام الذين عاصروا رسالة محمد ﷺ فى مساكن الأقوام التى سبقتهم ؛ وكفروا برسالات الرسل ، وسبق أن ضرب لهم الحق سبحانه الأمثال بهؤلاء القوم وبما حدث لهم . والمَثلُ إنما يضربه الله لِيُقرِّب بالشىء الحسى ما يُقرِّب إلى الأذهانِ الشىءَ المعنوى .

ويستمر قوله الحق من بعد ذلك :

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ (٤٦)﴾

والمكْر - كما نعلم - هو تبييت الكَيْد فى خفاء مستور ، ومأخوذ من الشجرة المكمورة ؛ أى : الشجرة التى تُدارِى نفسها . ونحن نرى فى البساتين الكبيرة شجرةً فى حجم الإصْبَع ؛ وهى مجدولةٌ على شجرة أخرى كبيرة . ولا تستطيع أن تتعرف على ورقة منها ، أو أن تنسب تلك الورقة إلى مكان خروجها ، ومن أىّ فرع فى الشجرة المُلْتفة إلا إذا نزعتها من حول الشجرة التى تلتفّ من حولها .

ومَنْ يُبيِّت إنما يشهد على نفسه بالجُبْن والضعف وعدم القدرة على المواجهة ، قد يصلح أن تُبيِّت ضد مُساوٍ لك ؛ أما أنْ تُبيّت على الحى القيوم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؛ فتلك هى الخيبة بعينها .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى مواجهة ذلك :

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وقال عن مكْر هؤلاء :

﴿ وَلا يَحِيقُ[1] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر]

ونعلم أننا حين ننسب صفةً لله فنحن نأخذها فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

وعادة ما ننسب كل فعل من الله للخير ، كقوله سبحانه :

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ [الأنبياء]

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله هنا :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ .. (٤٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : قاموا بالتبييت المناسب لحيلتهم ولتفكيرهم ولقوتهم ؛ فإذا ما قابل الحق سبحانه ذلك ؛ فلسوف يقابله بما يناسب قوته وقدرته المطلقة ، وهو سبحانه قد علم أزلاً بما سوف يمكرونه ، وتركهم فى مكْرهم .

فانتصارات الرسالات مرهونٌ بقوة المُرْسَل وأتباعه ، وهم

---

(١) حاق به الشيء : أصابه وأحاط به . وحاق به الأمر : لزمه ووجب عليه . والحيق : ما يصيب الإنسان من مكروه فعله . [المعجم الوجيز ـ مادة : حيق] .

يقابلون خصوماً هُم حيثية وجود الرسالة ؛ ذلك أنهم قد ملأوا الأرض بالفساد ، ويريدون الحفاظ على الفساد الذى يحفظ لهم السلطة ؛ والدين الجديد سيدُكُّ سيادتهم ويُزلزلها ؛ لذلك لا بُدَّ ألاَّ يدخروا وُسْعاً فى محاولة الكَيْد والإيقاع بالرسول للقضاء على الرسالة .

وقد حاولوا ذلك بالمواجهة وقت أنْ كان الإسلام فى بدايته ؛ فأخذوا الضعاف الذين أسلموا ، وبدءوا فى تعذيبهم ؛ ولم يرجع واحد من هؤلاء عن الدين .

وحاولوا بالحرب ؛ فنصر الله الذين آمنوا ، ولم يَبْق لهم إلا المكْر ، وسبحانه القائل :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[1] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وحاولوا أن يفسدوا خليّة الإيمان الأولى ، وهى محمد بن عبد الله ﷺ ، وظنُّوا أنهم إنْ نجحوا فى ذلك ؛ فسوف تنفضُّ الرسالة . فحاولوا أن يشتروه بالمال ؛ فلم يُفلحوا .

وحاولوا أن يشتروه بالسيادة والمُلْك فلم ينجحوا ، وقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[2] .

---

(١) ليثبتوك . أى : يجرحوك جراحة لا تقوم معها . وأثبت فلان ، أى : اشتدت به علته ، أو أثبتته جراحة فلم يتحرك . [لسان العرب ـ مادة : ثبت] .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق .

ثم قرروا أن يقتلوه وأن يُوزِّعوا دمه بين القبائل ، وأخذوا من كل قبيلة شاباً ليضربوا محمداً ﷺ بالسيوف ضَرْبة رجلٍ واحد ، ولكنه ﷺ يهاجر فى تلك الليلة ، وهكذا لم ينجح تبييتهم :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ .. (٤٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : أنه سبحانه يعلم مكرهم .

ويتابع سبحانه قائلاً :

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : اطمئن يا محمد ، فلو كان مكرهم يُزيل الجبال فلنْ ينالوك ، والجبال كانت أشد الكائنات بالنسبة للعرب ، فلو كان مكرهم شديداً تزول به الجبال ، فلن يُفلِحوا معك يا رسول الله ، ولن يُزَحزِحوك عن هدفك ومهمتك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا[1] مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر]

وإذا كان مكرهم يبلغ من الشدة ما تزول به الجبال ؛ فاعلم أن الله أشدُّ بأْساً .

ويُقدِّم سبحانه من بعد ذلك حَيْثية عدم فاعلية مكْرهم ، فيقول :

---

(١) التصديع : التفريق والتشقُّق . والصَّدْع : الشق فى الشىء الصُّلْب . والتصدع : تكسُّر الصخور بقوة . [لسان العرب ، المعجم الوجيز ـ مادة : صدع] .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ[1] مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ[2] ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) ﴾

ولو كان لمكرهم مفعولٌ أو فائدة لَمَا قال الحق سبحانه أن وعده لرسله لن يُخْلَفَ ، ولكن مكرَهم فاسدٌ من أوله وبلا مفعول ، وسبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : فوَعْد الله لرُسله لا يمكن أن يُخْلَفَ .

والوعود في القرآن كثيرة ؛ فهناك وَعْد الشيطان لأوليائه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ[3] وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً .. (٢٦٨) ﴾ [البقرة]

وهناك وَعْد من الله للمؤمنين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [النور]

---

(١) حسب الشيء حِسْباناً : ظنه . فلا تحسبن : أي : لا تظنن . [المعجم الوجيز ـ مادة : حسب] .

(٢) العزيز : من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى . قال الزجاج : هو الممتنع فلا يغلبه شيء . وقال غيره : هو القوي الغالب كل شيء . [لسان العرب ـ مادة : عزز] .

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (١/٣٢١) : « أي : يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ، وهو مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق » .

فإذا كان الحق سبحانه لا يُخلِف وَعْده لأتباع الرسول ؛ أيُخلِف وَعْده للرسول ؟

طبعاً لا ؛ لأن الوعد على إطلاقه من الله ؛ مُوفىً ؛ فكيف إذا كان للرسل وللمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر]

والنصر يقتضى هزيمة المقابل ، ويحتاج النصر لصفة تناسبه ؛ والصفة المناسبة هى صدوره من عزيز لا يُغلب ؛ والهزيمة لمن كفروا تحتاج إلى صفة ؛ والصفة المناسبة هى تحقُّق الهزيمة بأمر مُنتقِم جبّار .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا(١) لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (٤٨)﴾

ويُخوّفهم الحق سبحانه هنا من يوم القيامة بعد أن صوّر لهم ما سوف يدّعونه ، بأن يُؤخّر الحق حسابهم ، وأنْ يُعيدهم إلى الدنيا لعلّهم يعملون عملاً صالحاً ، ويجيبوا دعوة الرسل .

ويوضح سبحانه هنا أن الكون الذى خلقه الله سبحانه ، وطرأ

---

(١) برزوا لله : خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله . [تفسير ابن كثير ٢/٥٤٤]
والبروز : الظهور والخروج . وقوله تعالى : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً .. (٤٧)﴾ [الكهف] أى : ظاهرة بلا جبل ولا تل ولا رمل . [لسان العرب ـ مادة : برز] .

عليه آدم وخلفتْه من بعده ذريته ؛ قد أعدّه سبحانه وسخَّره فى خدمة آدم وذريته من بعده ؛ وهم يعيشـون فى الكون بأسباب الله الممْدودة فى أنفسـهم ، والمنثـورة فى هذا الكـون لكل مـخلوق لله ، مـؤمنهم وكافرهم ؛ فمَنْ يأخذ بتلك الأسباب هو مَنْ يغلب .

وسبحانه القائل :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ[1] الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى]

وهكذا شاء الله أنْ يهبَ عـباده الارتقاء فى الدنيا بالأسـباب ؛ أما حيـاة الآخرة فنـحن نحيـاها بالمُسـبِّب ؛ وبمجـرد أنْ تخطرَ على بال المؤمن رغبةٌ فى شىء يجده قد تحقق .

وهذا أمر لا يحتاج إلى أرض قَدَّر فيها الحق أقواتها ، وجعل فيها رواسى ؛ وأنزل عليـهـا من السـمـاء مـاء ، إذن : فـهى أرض غـيـر الأرض ؛ وسـماء غـير السـماء ؛ لأن الأرض التى نعـرفهـا هى أرض أسباب ؛ والسماء التى نعرفها هى سماء أسباب .

وفى جنة الآخرة لا أسبـابَ هناك ؛ لذلك لابُدّ أن تتبدَّل الأرض ، وكذلك السماء .

وقوله الحق :

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم]

فهو يعنى ألا يكون هناك أحد معهم سِوى ربهم ؛ لأن البروز هو الخروج والمواجهة .

---

(١) الحرث : الثواب والنصيب . وحرث الدنيا : كسْبها . [لسان العرب ـ مادة : حرث] .

والمؤمن وجد ربه إيماناً بالغيب في دُنْياه ؛ وهو مؤمن به وبكل ما جاء عنه ؛ كقيام الساعة ، ووجود الجنة والنار .

وكلنا يذكر حديث رسول الله ﷺ مع أحد الصحابة[1] حين سأله الرسول ﷺ : كيف أصبحتَ ؟ فقال الصحابي : أصبحتُ مؤمناً بالله حقاً . فقال له الرسول ﷺ : لكل حق حقيقة ؛ فما حقيقة إيمانك ؟ قال الصحابي : عزفتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ومدرها - أي : تساوى الذهب بالتراب - وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون . فقال له الرسول الكريم ﷺ : « عرفت فالزم »[2] .

هذا هو حال المؤمن ، أما الكافر فحاله مختلف . فهو يبرز ليجد الله الذي أنكره ، وهي مواجهة لم يَكُنْ ينتظرها ، ولذلك قال الحق سبحانه في وَصْف ذاته هنا :

﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

وليس هناك إله آخر سيقول له « اتركهم من أجل خاطري » .

وفي آية أخرى يقول عن هؤلاء :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ[3] بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصاري . ذكره ابن حجر العسقلاني في « الإصابة في تمييز الصحابة » (٣٤٣/١) وعزا الحديث لابن المبارك في الزهد .

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبراني في الكبير من حديث الحارث ابن مالك الأنصاري .

(٣) السراب : ما تراه في نصف النهار في الأرض الفضاء كأنه ماء ، وليس بماء . [القاموس القويم ٣٠٨/١] والقيعة جمع قاع ، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب . [تفسير ابن كثير ٢٩٦/٣] .

أى : أنه يُفَاجأ بمثل هذا الموقف الذى لم يستعِد له .

وقوله :

﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم]

أى : القادر على قَهْر المخلوق على غير مُرَاده .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ[1] فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾

والمجـرم هو مَن ارتكب ذنباً ، وهو هنا مَنِ ارتكب ذنب القـمّة ، وهو الكفـر بـالله ، ومن بعـده مَنِ ارتكب الذنوب الـتى دون الكفـر ، وتراهم جميعاً مجموعين بعضـهم مع بعض فى « قَرنٍ » وهو الحبل ، أو القَيْد الذى يُقيَّدون به .

والأصفاد جمع صَـفَد ، وهو القيد الذى يوضـع فى الرِّجْل ؛ وهو مِـثْل الخُلْخال ؛ وهناك مَنْ يُـقيّـدون فى الأصفـاد أى : من أرجلهم ، وهناك مَنْ يقـيـد بالأغـلال . أى : أنْ توضـع أيديهـم فى سـلاسل ، وتُعلَّق تلك السـلاسل فى رقابهم أيضاً .

وكلُّ أصحاب جريمة مُعيّنة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كل جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا ـ فى الغالب ـ مودَّة وتعاطف ، أما هنا فسنجدهم متنافـرين ، وعلى عداء ، ويلعن كل منهم الآخر ؛ وكل

---

(١) مقرنيـن : مشدودين مقيـدين بعضـهم مع بعض . والأصـفاد : القيود . [القامـوس القويم ١/٣٧٨] .

منهم يناكف[1] الآخر ويضايقه ، ويعلن ضيقه منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿الأَخِلاَّءُ[2] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]

وكأن كلاً منهم يُعذِّب الآخر من قبل أنْ يذوقوا جميعاً العذاب الكبير .

ولذلك نجدهم يقولون :

﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت]

ويقولون :

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب]

ويستكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء المُذْنبين ؛ فيقول :

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ[3] وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب ـ مادة : نكف : « في نوادر الأعراب : تناكف الرجلان الكلام إذا تعاوراه » أي : رد هذا على هذا وتبادلا التقاذف بالكلام .

(٢) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

(٣) القطران : مادة سوداء سائلة لزجة ، تستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف ، وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس ، والحديد من الصدأ . [المعجم الوجيز ـ مادة : قطر] .

و « السرابيل » جمع « سرْبال » وهو ما يلى الجسد ، وهو ما نسميه فى عصرنا « قميص » . وإذا كان السِّرْبال من قطران ؛ فهو أسود لاذع نتن الرائحة سريع الاشتعال ؛ وتلك صفات القطران ، وهو شىء يسيل من بعض أشجار البادية وتلك صفاته ، وهم يستخدمونه لعلاج الجمال من الجرب .

وعادة يضرب الحق سبحانه المثل من الصورة القريبة إلى الذِّهن من التى يراها العربى فى بيئته .

ويقول عنهم الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

والإنسان إذا ما تعرّض لأمر يصيبه بالعطب ، فأوَّل ما يحاول الحفاظ عليه هو وجهه ، ذلك أن الوجه هو أشرف شىء فى الإنسان ، فما بالنا حين تغشى وجوه الكفرةِ النارُ ؟ إن مجرد تخيُّل ذلك أمر مؤلم .

وسبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر]

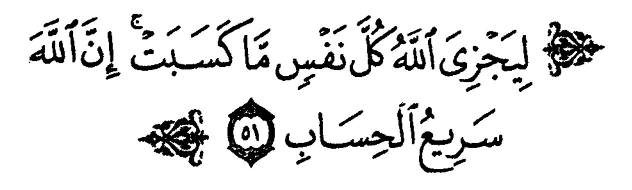
وكأن الواحد منهم من فَرْط شدة العذاب يحاول أن يدفَع هذا العذاب بوجهه ، وهكذا نجد أحاسيسَ شتَّى لهذا العذاب ؛ وهو مُؤلِم أشدّ الألم .

ويقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [القمر]

وهكذا نجد أن الوجه قد جاء فى أكثر من صورة ؛ من صور هذا العذاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :



والجزاء أمر طبيعى فى الوجود ، وحتى الذين لا يؤمنون بإله ، ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها .

وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالق الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً ، ولو لم يَضَعْ الحق سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب ؛ لَنالَ كل مُفسِد بُغْيته من فساده ؛ ولأحسّ أهل القيم أنهم قد خُدِعُوا فى هذه الحياة .

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً ؛ فلا ظُلْم فيه إذن ؛ لأنه صادر عَمَّنْ قال :

﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. (١٧)﴾ [غافر]

ولا يجازى الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة .

وقوله سبحانه :

﴿ لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ .. (٥١) ﴾ [إبراهيم]

يعنى أن المؤمن أو الكافر سَيلْقى جزاء ما فعل ؛ إنْ ثواباً أو عقاباً .

والكسب ـ كما نعلم ـ هو أن تأخذ زائداً عن الأصل ، فأنت حين تحرم نفسك من شىء فى الدنيا ؛ ستأخذ جزاء هو الثواب وما يزيد عن الأصل .

ومَنْ كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها ، ويُقَال « كسب السيئة » ولا يقال « اكتسبها » ذلك أن ارتكابه للسيئة صار دُرْبة سلوكية ؛ ويفرح بارتكابها ، ولابُدَّ إذن من الجزاء ؛ والجزاء يحتاج حساباً ، والحساب يحتاج ميزاناً .

وقد يقول المؤمن : إنِّى أُصدِّق ربى ، ولن يظلم ربِّى أحداً . ونقول : إن المقصود بالميزان هو إقامة الحجة ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) ﴾ [القارعة]

ويقول أيضاً :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ[1] هَاوِيَةٌ (٩) ﴾ [القارعة]

ونجد القسمة العقلية فى الميزان واضحة فهى مرة « ثَقُلَت »

---

(١) أى : أنه ساقط هاو بأم رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقال قتادة : يهوى فى النار على رأسه . [تفسير ابن كثير ٤/٥٤٣] .

ومرة « خَفَّت » . أما مَنْ تساوت كفَّتا ميزانه ؛ فَفَسرت حالته سورة الأعراف التى قال فيها الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ[1] رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ[2] .. (٤٦) ﴾ [الأعراف]

وما دام الحق سبحانه سيحاسب كل نَفْس بما كسبتْ ؛ فقد يظنُّ البعض أن ذلك سيستغرق وقتاً ؛ ولذلك يتابع سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) ﴾ [إبراهيم]

ليبين لنا أنه سبحانه سيُحاسب كل الخَلْق من لَدُن آدم إلى أنْ تقومَ الساعة بسرعة تناسب قدرته المطلقة .

وحين سأل الناسُ الإمام - علياً - كرَّم الله وجهه - : كيف سيحاسب الله الخلق كلهم دفعة واحدة ؟ أجاب الإجابة الدَّالة الشافية ، وقال : « كما يرزقهم جميعاً » .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٢) ﴾

---

(١) أصحاب الأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٢١٦] .

(٢) السُّومة : بالضم العلامة . قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه . [تفسير ابن كثير ٢/٢١٨] .

وهذه الآية هى مِسْك الختام لسورة إبراهيم ، ذلك أنها ركَّزَتْ الدعوة ؛ بلاغاً صدر عن الله ليبلغه لرسوله الذى أُيِّد بالمعجزة ؛ لِيحملَ منهج الحياة للإنسان الخليفة فى الأرض .

وإذا ما صدرتْ قوانينُ حركة الحياة للإنسان الخليفة فى الأرض المخلوق لله ، وجب ألاَّ يتزيَّد عليها أحدٌ بإكمال ولا بإتمام ؛ لأن الذى خلق هو الذى شرَّع ، وهذه مسألة يجب أن تكون على ذِكْر من بَالِ كل إنسان مُكلَّف .

وحين تقرأ هذا القَوْل الحكيم :

﴿ هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

تجد أنه يحمل إشارة إلى القرآن كله ؛ ذلك أن حدود البلاغ هو كل شىء نزل من عند الله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

قد أعطانا ما يعطيه النص القانونى الحديث ، ذلك أن النصَّ القانونى الحديث يوضح أنه لا عقوبةَ إلا بنصٍّ يُجرِّم الفعل ، ولابُدَّ من إعلان النصِّ لكافَّة الناس ؛ ولذلك تُنشَر القوانين فى الجريدة الرسمية للدولة ؛ كى لا يقولَ أحد : أنا أجهل صدور القانون .

وكلنا يعلم أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فمهمة الرسول - إذنْ - هى البلاغ عن الله لمنهج الحياة الذى يصون حركة الحياة .

ويقول سبحانه عن مهمة الرسول :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝٤٠ ﴾ [الرعد]

ويقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. ۝٣٩ ﴾ [الأحزاب]

ويقول الحق سبحانه على لسان الرسول[1] :

﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى .. ۝٩٣ ﴾ [الأعراف]

ويقول أيضاً :

﴿ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .. ۝٥٧ ﴾ [هود]

وهكذا لا توجد حُجّة لقائل : إنى أُخذْتُ بذنب لم أعرف أنه ذنبٌ وقْتَ التكليف . لا حُجّة لقائل مثل هذا القول ؛ لأن الحق سبحانه يقول فى نفس الآية :

﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. ۝٥٢ ﴾ [إبراهيم]

والإنذار : تخويف بشرٍّ سوف يقع من قبل زمنه ، ليوضح لك

---

(١) الرسول هنا هو شعيب عليه السلام ، فقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ۝٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ۝٩٣ ﴾ [الأعراف] .

بشاعة المخالفة ، وكذلك التبشير هو تنبيه لخير قادم لم يَأتِ أوانه كى تستعدّ لاستقباله.

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ هَـٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

يتضمن البشارة أيضاً ؛ ولكنه يركز ويؤكد من بعد ذلك فى قوله :

﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

لأن الخيبة ستقع على مرتكب الذنوب .

وأقول : إن الإنذار هنا هو نعمة ؛ لأنه يُذكِّر الإنسان فلا يُقدِم على ارتكاب الذنب أو المعصية ، فساعةَ تُقدم للإنسان مغبة[1] العملَ السيء ؛ فكأنك تُقدم إليه نعمة ، وتُسدى إليه جميلاً ومعروفاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

وهذه هى القضية العقدية الأولى ، والتى تأتى فى قمّة كلِ القضايا ؛ فهو إله واحد نصدر جميعاً عن أمره ؛ لأن الأمرَ الهام فى هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند ؛ لا أن تتعاند . ولا يرتقى بنيان ، ما إذا كنتَ أنت تبنى يوماً ليأتى غيرك فيهدم ما بنيتَ .

---

(١) الغبّ من كل شيء : عاقبته وآخرته . وكذلك المغبة . [المعجم الوجيز ـ مادة : غبب] .

ومهمة حركة الحياة أن نُؤدِّى مهمتنا كخلفاء لله فى الأرض ؛ بأن تتعاضدَ مواهبنا ، لا أن تتعارضَ ، فيتحرك المجتمع الإنسانى كله فى اتجاه واحد ؛ لأنه من إله واحد وأمر واحد .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهَـٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فهو يحدد لنا قِوَام الدين بعد تلقِّيه من رسول الله ﷺ أنْ يُبلّغه مَنْ سمعه لمن لم يسمعه .

ولذلك قال ﷺ : « نضَّر[1] الله امْرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأداها إلى مَنْ لم يسمعها »[2] .

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة ، وإنْ لم يُبلغ قوم فالوِزْر على مَنْ لم يُبلِّغ ، وبذلك يحرم نفسه من شرف التبعية لرسول الله ﷺ، فَمنْ يعلم حكماً من أحكام الدين ؛ فالمطلوب منه هو تبليغه للغير ؛ مثلما طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلِّغ أحكامه .

والحق سبحانه هو القائل :

---

(١) نضر الله وجهه : نعَّمه . والنضرة : النَّعْمة والحُسْن والرونق . وقال الحسن المؤدّب : ليس هذا من الحسن فى الوجه ، إنما معناه : حسَّن الله وجهه فى خُلُقه . أى : جاهه وقدره . [لسان العرب ـ مادة : نضر] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/ ٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا[1] لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا شهد الرسول ﷺ أنه بلَّغكم وبَقِى على كل مسلم يعلم حُكْماً من أحكام الدين أن يُبلِّغه لِمَنْ لا يعرفه ؛ فقد ينتفع به أكثر منه ؛ وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما مَنْ أبلغه الحكم لا يعمل به .

ولذلك قال ﷺ : « رُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى من سامع »[2] .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تخلط بين المعلومة التى تُقال لك ؛ وبين سلوك مَنْ قالها لك ، ولنسمع الشاعر الذى قال :

خُذْ عِلْمى ولاَ تركَنْ إلى عَملِى   وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للحطَبِ

وهكذا يتحمل المسلم مسئولية الإبلاغِ بما يعرف من أحكام الدين لمن لا عِلْمَ لهم بها ؛ لتظل الرسالة موصولة ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

أى : أنكم يا أمة محمد ، قد أخذتم مهمة الأنبياء .

---

(١) أمة وسطاً : أى : أمة فاضلة خيِّرة ، فالوسط خير الطرفين . [القاموس القويم ٢/٣٣٦] .

(٢) تمام الحديث : « نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأداها إلى من لم يسمعها .. » الحديث ، وقد سبق تخريجه صفحة (٧٦٢٣) .

ولأن البلاغ قد جاء من الله على الرسول ﷺ ، والرسول أمين فى تبليغه ؛ لذلك لا يمكن أنْ يصدرَ عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكن التضارب إنما ينشأ من اختلاف الآمر ؛ أو من عدم حكمة الآمر ، ولْنُدقِّق جيداً فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فكلمة « واحد » جاءت لتمنع مجرد تصوُّر الشراكة ؛ فلا أحدَ مثله ، وهو أحدٌ غير مُركَّب من أجزاء ؛ فليس له أجهزة تشبه أجهزة البشر مثلاً ؛ فلو كان له أجهزة لَكانَ فى ذاته يحتاجُ لأبعاضه ، وهذا لا يصِحُّ ولا يمكن تخيُّله مع الله سبحانه وتعالى .

وتلك هى القضية الأساسية التى يعيها أولو الألباب الذين يستقبلون هذا البلاغ . وأولو الألباب هى جمع ، ومفرد « ألباب » هو « لُبّ » ، ولُبّ الشىء هو حقيقة جوهره ؛ لأن القشرةَ توجد لتحفظَ هذا اللُّب ، والمحفوظ دائماً هو أنفَسُ من الشىء الذى يُغلّفه لِيحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ؛ ويُحرِّكون عقولهم ليتذكروها دائماً ؛ ذلك أن مشاغل الحياة ومُتعتها وشهواتها قد تَصْرِف الإنسان عن المنهج ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

أى : يتذكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد ؛ فلا إلهَ إلا هو ؛ ولذلك شهد سبحانه لنفسه قبل أنْ يشهَد له أىُّ كائن آخر ، وقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

وهذه شهادةُ الذات للذاتِ ، ويُضيف سبحانه :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

وشهادة الملائكة هى شهادة المُواجهة التى عايشوها ، وشهادة أُولى الألبابِ هى شهادة الاستدلال .

وشهد الحق سبحانه أيضاً لرسوله محمد ﷺ أنه رسول ؛ وكذلك شهد الرسول لنفسه ، فهو يقول مثلنا جميعاً : « أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

وهكذا فعلى أُولى الألباب مهمة . أنْ يتذكَّروا ويُذكِّروا بأنه إله واحد أحدٌ .